

محمد علي ونشأته

الجزء الاول

شبيبته

الفصل الاول

البحر

ما ابدع البحر وما اجمل منظره اذا هدأت حركته واستراح في عظمته وكانت مياهه تتموج امام الشاطئ فتمتد فوق الرمال ثم ترتد عنها كأنها تداعبها وتغريها على المجيء اليهـا والجو يعكس على سطح المياه العميقة المظلمة نوراً باهتاً ضئيلاً ..

ما ابدع منظر البحر وما اشد عظمته اذا حمل على صدره الواسع المدوعات الضخمة الكبيرة والبواخر الثقيلة العظيمة ينقلها من جهة الى اخرى كأنها اوراق ورد تتلاعب بها امواجه . ما اجمل منظره اذا ساق النسيم فوقه ما يحمل من القوارب الصغيرة بشراعاتها الحمراء . وكان الصيادون بدون عناء يلقون بشباكهم الى اعماقه لينزعوا منها سكانها الودعاء الصامتين ويقدموها لقوت الانسان وملذاته ما اجلى البحر وما اعظمه اذا ساد فوقه ظلام الليل وسكونه ولمعت في احشائه سهام من النور الضعيف الذي تعكسه النجوم وكان القمر قد بدأ ان يشرف على الكون من وراء الافق فاغتنم القرصان ذلك السكون واستناروا بالقليل من ذلك النور

BIBL...

فخرجوا من ملاجئهم وانسابوا فوق المياه ملتحفين ظل شواهق الصخور ينتظرون وقوع الصيادين في طريقهم ليسلبوا منهم صيدهم او ان تمرّ بهم المراكب التجارية ليتسلقوا جوانبها تسلق النمرة ويدخلوا اليها حيث تنام نوتيتها بالامن والسرور ليذبحوهم ذبح الاغنام ويستولوا على مراكبهم وما فيها بدون نزاع

ما اعظم البحر وقد شهد هـذه الوقائع قروناً فدفن اسرار حدوثها في اعماقه محافظاً على الكتمان وكم من ليالٍ كان فيها مضطرباً يراقب ما يجريه الانسان فيه من الاعمال البربرية حتى اذا انقضى ذلك الليل الدموي المخيف واشرقت الغزالة في كبد السماء فبعثت باشعتها الى سطحه هدأ روعه وانبسطت اسرَّته وعاد الى عظمته وجماله كأنه لم يرَ شيئاً مما كان

ما اجمل البحر اذا سكن وانعكس فيه لون الجلد الازرق فكان سماء بازاء سماء . بل ما اكثر جماله واشد عظمته اذا ازبد بغيظه واندفع بقوته فلم يكن هزيم الرعود امام زئيره الا همس الحبيب للمحبوب ولم تكن العواصف والزلازل امام هديره سوى تنفس المكروب . فيظهر اذ ذاك باهواله كآلهة الغضب ويندفع بامواجه فيلطم بها الصخور ويرتفع الزبد الى عنان الجو فيخبر بنغمات الرعد القاصف عن قوة البحار التي لا تقيد ولا تذلل

يبتدع الانسان الفنون والعلوم براً ويخضع القوى الارضية فيخفض تلالها وينجد وهادها ويستخرج معادنها ولكنه لا يستطيع مع كل تلك القدرة ان يتغلب على البحر او ان يقيد حريته . وقد تمتع بها منذ الازل . واذا ظهرت قوة الانسان بازاء اليابسة في تسلطه على حركاتها ومعرفة اسرارها واعماقها واستعمالها ظهر ايضاً ضعفه بازاء البحر اذا حاول ان يتسلط عليه او يعانده وله مسرة وهواء مطلق فاذا شاء حمل الدوارع والبواخر والمراكب كما تحمل المرضع اطفالها واذا شاء تحرك

قليلاً فلطم مايحمله وحوّل ماعليه من الاطواد الراسيات الى ذرات يدفعها الى الهواء و يذريها في اقطار المعمور وليس للانسان قوة الاعلى ضم ذراعيه طائعاً صامتاً

كان البحر في اليوم الذي بدأت فيه روايتنا في بعض اطوار كدره فارسل امواجه القائمة وقد كلل رؤوسها بتيجان الزبد البيضاء تسبر مناعة صخور بوسيفالوس الممتدة في خليج كونتيسة الواقفة تحت الجلد الازرق كأنها جواد من افضل خيول الجبابرة · وكان في سفح تلك الاكمة الصخرية وعلى جوانبها جمهور من الرجال والفتيان واقفين يحدقون بابصارهم الى البحر كأنهم يتحادثون في موضوع خطير يحول دون سماعه هدير الامواج وارتطامها بالصخور · وكانت جباه الرجال المقطبة واوجه الفتيان الصفراء تدل على الخوف والقلق كأنهم ينتظرون حلول مصيبة او وقوع ويل يأتي به البحر وهو لاينتبه الى ماهم فيه وقد توالت امواجه الواحدة بعد الاخرى حتى بلغت قمم الصخور وبللتهم جميعاً بزبدها المتطاير وهم غير مبالين وقد قرئت انفسهم في اعينهم الشاخصة الى المياه فكأنهم في ذلهم وانكسارهم وضعفهم امام ذلك الجبار العنيد قد عزموا على الانتظار صابرين الى ان تخمد نار غضبه ويخف غيظه · وكأن البحر علم مايخالج ضمائر تلك الجماعة فاوقف حركته مدة يسيرة وساد على العناصر سكون غريب ترك للجماعة مجالاً لتتمة حديثهم وتبادل افكارهم فرفع احدهم يده وقد ارتسمت علامات الحزن على وجهه فهز رأسه يئساً وقال «انه لن يعود» · فقال آخر — نعم واظنه فقد

فتقدم ثالث وقال مخاطباً الفتيان المجتمعين حولهم وقدالتفوا بارديتهم وستروا وجوههم بقلانسهم — انتم الملومون ايها الاشقياء على ماحصل

وقال آخر وقد هجم بهيئة تهديدية — لماذا اغريتموه على المخاطرة بنفسه في هذا العمل · فقال واحد من الفتيان بصوت النادم — ليس الذنب ذنبنا ياسيدي

الشيخ امير فانه هو الذي صمم على اقتحام هذا الخطر فلم نتمكن من تحويله عن عزمه ·

وكأن كلام الفتى شجع البقية فقال واحد منهم — ان محمداً كثير التيه والاعجاب بنفسه و يظن انه اقوى واشد ذكاء منا جميعاً وقد قلنا له اننا نخشى العاصفة الشديدة القارسة واننا سنرجع منازلنا فارغين ولكنه لم يسمع نصيحتنا ولم يقبل كلامنا

فقال الشيخ — هذا ما يدلني ايضاً على انكم عدتم الى مناوأته والهزء به حتي دفعتموه الى هذا الفعل

فاجاب الفتى — قلت لك انه متكبر معجب بنفسه لا يسمع لنا كلاماً ولا يطيع لنا امراً و يعتقد انه الحاكم فينا مع انه ليس في شيء من ذلك ولا بد ان تأول به حالته هذه الى الفقر المدقع اذا · · · · ·

ولم يستطع الفتى اتمام حديثه لان البحر بعد أن سكن هنيهةً عاد الى هياجه باشد من ذي قبل وترادفت امواجه الى علو لم تبلغه في الاول وهي تنفث بزبدها الى مسافة بعيدة من ذلك الشاطيء فوق تلك الصخور العالية كأنها صممت على اظهار مقدرتها وعظمتها لدى سكان تلك البلدة الصغيرة (قواله) التي كانت مساكنها الصغيرة وازقتها الضيقة وجامعها الجميل مبنية عند حضيض تلك الاكمة المسماة صخور بوسيفالوس

وكان على قمة الصخر المذكور امرأة جاثية وقد رفعت ذراعيها تسترحم السماء فسقط عن رأسها النقاب الابيض وبان وجهها وقد ارتسمت عليه علامات المرارة والحزن الشديد الذي انساها وجوب التحفظ وعدم نزع اللثام الا في الخباء ولكنه لا يهمها نزع اللثام لانها ارملة لا تخاف سيطرة رجلها ولم يبق الدهر لها ذلك السيد الحاكم الذي كان يأمرها بالاحتفاظ بستر وجهها حباً بها وغيرة

عليها فاصبحت وحيدة لا تكترث بشرائع الدين ولا تلتفت الى اقوال الناس ولا يهمها من العالم سوى ابن لها يدعى محمد علي ·

وكان محمد علي قد خرج مع رفاقه الى شاطىء البحر وركب قارباً صغيراً ليبعد به الى جزيرة ايبرو الصخرية ولما رأى الفتية البحر مضطرباً وان هذا العبور كثير الخطر خافوا سوء المغبة واشاروا على محمد علي ان يقلع عن هذا العزم اما هو فنظر اليهم مستهزئاً بجبنهم وقال — قد بدأت في هذا الامر فلا بد من اكماله وقد هزأتم بي مراراً وظننتم اني لا احسن التجذيف نظيركم فسترون الآن انني ساجتاز هذا الخليج المضطرب فابلغ جزيرة ايبرو هازئاً بجبنكم وخوفكم من النوء والعواصف · ثم اندفع بقاربه الصغير وما عتم ان تلاعبت به الأمواج فاخفته عن نظرهم وايقنوا بهلاكه وعادوا فاخبروا والدته بما كان مؤكدين لها انهم الحوا عليه بالرجوع واستحلفوه باسم والدته ان يقلع عن هذا العزم فلم يجب · ولما سمعت الست خضرة ذلك عن ولدها حتى اسرعت الى قمة الصخر فجثت وقد هلعت خوفاً من عنف الامواج ورفعت ذراعيها تسترحم الله وتستحلف البحر العجاج ان يشفق عليها وينقذ ولدها ويرده اليها سالماً · فليس احن من محبة الوالدة وليس خشوع الا في صلواتها حتى ان جنود الشر تقف خاشعة وتنشر اجنحتها بلطف اذا سمعت نحيب والدة او دعاء ام لولدها بل ان الملائكة اذا مرت على مثل ذلك الموقف لا يمكنها الامساك عن ذرف دمعة واحدة تكفي لانالة الام مرادها · ولا شك ان ملاكاً مرَّ في تلك الدقيقة ورأى الست خضرة في الحالة التي ذكرناها فسكب دمعة منه فوق البحر كانت كافية لايقاف اضطرابه فاخذت امواجه العالية تخف شيئاً فشيئاً وهدأت الزوبعة وسكن العاصف واخذ البحر في السكون حتى عاد الى حالته الطبيعية من مداعبة الشاطئ

باامواجه اللطيفة . واثر ذلك ايضاً على الجلد فانقشعت عنه الغيوم واشرقت من وراءها الشمس باشعتها الذهبية كأنها رسل بعثت بها لمصالحة البحر والرجوع به عن غيظه

وفي تلك الدقيقة سُمع من قمة الصخر صياحٌ رجع صداه الجمهور المجتمع على الشاطيء فاندفع الرجال والغلمان يصيحون باعلى اصواتهم صياح الفرح والسرور وقد امتدت الايدي الى جهة الجزيرة وكانت الامواج قبلاً قد غطتها واخفتها عن النظر فبانت الآن وقد ظهر بالقرب منها نقطة سوداء بين الزبد الابيض ترتفع تارة وتنخفض اخرى وتترنح تحت اشعة الشمس ترنح النشوان فكرر الجميع هتافهم وقد ايقنوا ان تلك العلامة السوداء ليست الاقارب محمد علي وجعلوا ينتظرون اقترابه . اما الوالدة فكانت الاولى في ذلك الاكتشاف ولما سمعت هتاف الجمهور ايقنت ان ما رأته حقيقياً فنهضت ثم جعلت تثب فوق نقر الصخر الى ان صارت بين المجتمعين على الشاطي وسقطت بينهم مغشياً عليها وكانت نساء البلدة قد بلغها الخبر فجئن يقودهن الاستغراب وتسوقهن الشفقة فحاولن انهاض تلك المسكينة قائلات انهضي ايتها الاخت فقد رحم الله ابنك واعاده سالماً فلم تقوَ عليه الجان ونصره ملاك الخير فاحمدي الله وكبري عظمته . وهكذا احتلن عليها وحملنها عائدات بها الى كوخها

وكان القارب لا يزال يتقدم رغماً عن عنف التيار وبان في وسطه الغلام وقد اعمل جهده في ادارة المجذاف بدون معين ولا مساعد كأنه تفرد لمكافحة الامواج وهو لا يخشي باسها وقد جعل همه الوحيد الوصول الى الشاطيء . ولما رأى الرجال ذلك اسرعوا فرموا اليه بالحبال وهم يصيحون ويهللون حتى ساعدتهم التقادير وبلغ احد الحبال القارب فالتقطه الغلام بقوة غريبة وكان الرجال

يشدون الحبل حتى صار القارب الى الشاطيء ووثب الغلام بمهارة فصار بينهم وكان هادئاً مطمئناً يتلألأ في عينيه نور الشجاعة وتلوح على وجهه علامات البسالة والازدراء بالمخاطر ونظر الى اوجه الرجال متبسماً ثم حول نظره الى الفتيان وقطب جبينه وقال بصوت هادئ فيه شيء من التهديد ـ قد رايتم ايها الرفاق انني ربحت الرهان وقد اتيت لكم ببرهان لا تستطيعون انكاره فها هو الخنجر الذي تركه ابراهيم امس على الجزيرة · ولما قال ذلك اخرج الخنجر من جيبه المبلل بالماء والقاه امامهم على الارض ثم قال ـ نعم قد ربحت الرهان ويشهد الحاضرون على ذلك فعليكم ان تفوني الجزاء الذي اتفقنا عليه · نعم يجب على كل منكم ان ياتيني مرتين في كل اسبوع بتقدمة من احسن الفاكهة الموجودة في حديقته واذا ذهبنا للصيد مرة اخرى فعليكم جميعاً ان تطيعوني وتعترفوا برئاستي

وكان في هيئته وكلامه من دلائل العظمة والمقدرة ماينـدر ظهوره في فتى لم يبلغ العاشرة من عمره · وما اتم كلامه حتى اقترب رجل من الحاضرين يدعى طوسون آغا وهو عم محمد علي فقال ـ قد عرفنا الآن السبب الذي اغرى ابن اخي على المخاطرة بحياته وايقاع والدته وجميعنا في الجزع والقلق · فعسى ان يتغير قلبك ايها الولد الجسور ويصلحك فهو كريم قدير · فقال الفتى — انني لا احتاج الى الاصلاح ياعماه · قد استهزأ بي الغلمان وقالوا انني لست في مقدرتهم وانه ليس بامكاني القيام بمثل اعمالهم ولا تسيير القوارب نظيرهم فتراهنا على ذلك وربحت الرهن فوجب عليهم ان يقدموا لي الجزاء المفروض وان يعترفوا برئاستي عليهم · ولذلك استشهدكم جميعاً على ذلك واطلب منكم تأييد دعواي في انني منذ الساعة رئيس فتيان قوالة

وكان الرجال يسمعون كلامه وهم يعجبون بفصاحته وقد سرتهم جرأته

وبسالته فانه مع صغر سنه كان يتكلم بصوت الآمر وفي منطقه مايدل على كبر نفسه وحدة مزاجه حتى قال بعضهم ان مستقبلاً مجيداً ينتظر هذا الغلام ومع انه فقير وعليه ان يقارع مصائب الدهر فان الله الذي نجاه من خطر هذا اليوم ينقذه من الاخطار التي ربما تلاقيه فيما بعد · اما طوسون آغا فمد يده ليمسك بابن اخيه و يوصله الى والدته فرفض محمد علي الاستعانة باليد الممدودة اليه وقال ـ لا ياعماه انني استطيع المسير وحدي ولست في حاجة الى المساعدة فسر امامي وانا اتبعك · ولما قال هذا اخفى يديه وراء ظهره فقال الغلمان انظروا كفيه انهما داميتان · فعاد طوسون آغا واخذ بيدي الغلام واذا براحيته قد كشط عنهما الجلد والدم يتحلب منهما فقال له محمد علي — لاتهتم بهذا الامر الطفيف ياعماه فانني لم اشاء ان اترك المجذاف وامسكته بعنف حتى اصق الجلد به اعند تركي اياه

فنظر الرجال بعضهم الى بعض عند سماع هذه الكلمات الدالة على القوة والشجاعة وقال احدهم ـ انه لبطل وان لم يتجاوز العاشرة من عمره · وكان الجميع يوسعون مجالاً لمروره في اتباعه عمه ذاهباً الى كوخه في قواله

الفصل الثاني

الام وابنها

وعاد الى الست خضرة صوابها في الكوخ الذي نقلت اليه فنهضت تريد الخروج واذا بباب الكوخ قد فتح ودخل عليها طوسون آغا ووراءه الغلام فقال لها قد اتيتك بابنك ياست خضرة فصفيه وو بخيه ماشئت واخبريه عن القلق العظيم الذي سببه لنا · فلم تفه خضرة بكلمة ولكنها فتحت ذراعيها وضمت ولدها

الى صدرها وجعلت تقبله بحنو عظيم وقد افلت من صدرها تنهد عميق · ولما رأى طوسون آغا ذلك انحدرت من عينيه دمعتان محرقتان مسحهما بطرف كمهِ وخرج وهو يقول بنفسه يجب ان يتركا على انفراد لانه لايجوز ان يسمع غير الله مايدور من الحديث بين الام وولدها · ثم سدد خطواته الى منزله حيث عاد الى عمله في حياكة الشباك

ولما رأى محمد علي نفسه مع والدته نسي ما كان فيه من الاعجاب فجثا امامها ثم اكبَّ على يديها يقبلها وقال بصوت منخفض — عفواً ياأماه على ماسببته لك من الحزن والقلق فقد كان ذلك بالرغم عني لانني لم اعد استطيع ان احتمل هزء رفاقي وازدراءهم بي · فنظرت اليه والدته مبتسمة وقالت — وعلام يهزأون بك ايها العزيز ألست اجملهم صورة واحسنهم خلقاً وامهرهم في الملاحة واتقنهم في الصيد ام لست انت الرجل فيهم وان كان اكثرهم اكبر منك سناً ؟

فهز محمد علي رأسه مفكرًا ثم نهض وقال — لم اصر بعد كما تقولين ياأماه ولكنني ارجو ان احصل على كل هذه الصفات في وقت قريب · نعم سأصير رجلاً ينظر اليه هؤلاء الغلمان نظر الرعية للتسلط عليها · اما ما فعلته اليوم فلم يكن الاَّ لاننا تراهنا على شيء فصممت ان افوز لاجلك ياأماه وياسروري فقد نجحت

فقالت والدته بتعجبٍ — لأَجلي ؟ لأَجلي انا ؟ وماذا عساه ان يفيدني فوزك هذا يابني ؟

قال — ان فوزي على هؤلاء الغلمان يخولني مقاضاتهم الرهان وعليهم منذ الآن ان يقدموا الجزاء الذي اتفقنا عليه وسيأتونك مرتين في كل اسبوع بافخر الاثمار واجمل الازهار من كرومهم وحدائقهم الى ان تنقضي ثلثة اشهر · نعم

ياأماه قد فعلت ذلك رغبة مني في رضائك لانني لم انس يوم وقفنا على قمة ذلك الصخر فنظرت الى البحر متنهدة وقلت وا اسفاه لم يبق لنا سوى كوخنا الحقير وقد فقدنا الحدائق والحقول فاثرت بي كلماتك جداً وصممت ان آتيك بما تشتهين وقد بدأت بذلك الآن فاسأله تعالى ان يحقق رغائبي فاعيد اليك ما فقدناه واجعل مسكنك افخر بناية في قوالة واحشد فيه الخدم والجواري واجعلهم يحنون رؤوسهم امامك فتحكمين فيهم ولا يحكم عليك غير الله ورسوله

وكانت الست خضرة تسمع كلمات ولدها وهي لاتصدق انها تسمع ذلك من فتى لم يبلغ العاشرة من عمره بعد ثم تفرست فيه ملياً نخيل لها انها تراه وقد تمثل بهيئة الرجولية فتمتمت قائلة — نعم . انه سيكون يوماً كما قال فقد انبأني بذلك الهاتف واكدته لي النبية

وسمع محمد علي بعض كلامها فقال — ماذا تقولين يا اماه ؟ فما هو الهاتف ومن هي النبية ؟

قالت — لا اظن من الحكمة اخبارك بذلك الآن يا ولدي . . . . ثم توقفت لحظة وقالت — لا . لا باس من اطلاعك على كل ذلك فان الشهامة والقوة من عطايا الله واذا اعطاها فهو لا يبخل بان يقرنها بالتوفيق لنيل الغاية فاجلس واصغ لما اقول

فجلس محمد علي وقد حدق بوالدته وهو يتوقع ان تبدأ بالحديث . اما هي فاغمضت عينيها برهة كانها تجمع قوى ذاكرتها ثم نظرت اليه وقالت — كنت منذ اثنتي عشرة سنة فتاة وحيدة فقيرة لا املك نقاباً استتر به وجهي وكان اضطراري الى الخروج حاسرة الوجه لتحصيل القوت يؤلم ضميري لمخالفتي شريعة التحجب . اما اهل البلدة فكانوا يرثون لحالتي ويعجبون بجمالي الرائع .

وحدث ان رجلا يدعى ابراهيم آغا وهو بلوك باشي الشرطة رآني يوماً فحسنت في عينيه واحب تلك الجميلة الفقيرة فجعلها زوجته واسبغ عليها الخيرات · واحبني والدك يا محمد حباً شديداً وامرني بالاحتجاب عن سواه ولم يشأ ان يتخذ زوجة اخرى معي وقد قال لي مراراً انني تسلطت على قلبه فلا يريد ان يشاركني في هذه السلطة احد · فلا تسل عن سروري وسعادتي في تلك الايام · وقد ايقنت انني واياه في نعيم دائم كأننا في جنة الخلد · ولم يكن والدك من اصحاب الثروة وليس له من الدخل غير اجرته الشهرية ولكنها كانت تزيد على حاجتنا · واذا كان الحب الزوجي متبادلاً سادت القناعة وذهبت الحاجــة · ومرت السنة الاولى ونحن على ما نريد من الصفاء وشاء ربك ان يزيدنا من نعمه فوضع في احشائي جنيناً صرنا نتوق الى يوم ولادته وهو انت ايها العزيز · قالت اننا كنا في اتم سعادة وصفاء والحقيقة ان سعادتي لم تتم وقد كان يقلقني دائماً وجود والدك في ذلك المنصب المحفوف بالمخاطر ولا سيما بعد ان ظهر في شبه جزيرتنا عصابة من اللصوص الاشقياء فعاثوا وافسدوا وكان على والدك ان يتأثرهم برجاله ويلحق بهم الى المحلات المقفرة والمكامن الخطرة ليقبض عليهم ويقطع شأفتهم فكان هذا الامر كافياً لاضطراب بالي وايقاعي في الخوف والوجل · وفي ذات يوم كنت اصلح الطعام وقد تشردت افكاري وانا اتوقع عود والدك بسلام فاذا بوقع اقدام يقترب من المنزل تتلوه اصوات مختلفة اللهجة فكدت اقع على الارض مغشياً عليّ وقد حدثتني نفسي بوقوع خطب عظيم ولكنني تجلدت وتشجعت واستقبلت القادمين فرايت رجالاً يحملون جثة زوجي الحبيب مضرجة بالدماء وقد تشوه وجهه حتى لم اكد اعرفه · وعلمت بعد ذلك انه صادف اللصوص في بعض المفاوز الصعبة فتأثرهم وخاف رجاله سوء العاقبة فعموا ولم

يلحقوا به فغضب وتقدم وحده حتى بلغ عطفة كمن اللصوص بها فاحاطوا به وقتلوه شر قتلة ثم تركوه ومضوا فتقدم رجاله ورأَوه على تلك الحالة فحملوه الى المنزل جثة لا حراك بها

فجحظت عينا محمد علي ونهض واقفاً امام والدته وقال — وماذا فعلوا باولئك الادنياء ؟ الم يقبض عليهم ويعدموا ؟

فتنهدت الست خضره وقالت والبكاء يكاد يخفي صوتها — لم يتمكنوا من ادراكهم يا بنيَّ لانه لما عينت الحكومة خلفاً لوالدك كانوا قد عبروا البحر واصبحوا بعيدين عن هذه البلاد

فصاح الولد وقد ابرق في عينيه نور حاد — اقسم لك يا اماه انني سانتقم له . نعم سانتقم

قالت انت تنتقم له ايها المسكين ؟ تنتقم له وانت تجهل القتلة ومحل وجودهم ؟

قال — انتقم له من العالم باسره . سأثأر له من هذا العالم الشرير وابدأ باعدائي اولاً . . . ولكن . . . بالله عليك يا اماه كملي حديثك . . . فماذا فعلت عندما استقبلت جثة ابي ؟ الم تضعي يدك اليمنى على عينيه وتقسمي امام الله انك ستنتقمين له ؟

فكفكفت دموعها وقالت — كلاً يا بنيَّ لم افعل ذلك ولكنني جثوت امام ذلك البطل وقد اسكته الموت وجعلت اقبله واغسل دماءه بدموعي واقسمت في ذلك الموقف الرهيب ان ابقى امينة له وحده وان انتظر اليوم الذي اضم فيه اليه وان لا احب بعده سوى ولدي وكان لا يزال في احشائي . . . .

ولبثت برهة لا تستطيع كلاماً ثم استجمعت قواها وعادت الى اتمام حديثها فقالت — كان والدك بعد زواجنا يفاخر اصدقاءه بزواجه ويكثر من

وصف سعادته البيتية ويطنب في مدحي فبعد ان توفي بمدة قصيرة اجتمع حولي كثيرون وكلهم يطلب الاقتران بي فرفضتهم بتاتاً وجعلت انفق على نفسي من بيع ما تركه لي زوجي حتى لم يبق لي من العالم باسره سوى هذا الكوخ الحقير. فلما رأى اولئك بلوغي درجة الفقر والمسكنة عادوا يطلبون الزواج فرددتهم خائبين وتأهبت لمحاربة الخطوب وزاد شعوري بحملي الثقيل فمسحت دموعي مخافة ان تسقط دمعة الام على جنينها فتضعف قلبه وتغشي بصره وجثوت اسأل الله تعالى ان يمنحني القوة والصبر لاعيش لا لنفسي بل لولدي الذي كنت احب ان يرى العالم كما رآه والده وان يستقبله بجنان ثابت نظيره. وشعرت ذات ليلة بألم شديد تحملته بسكون الى ان انتصف الليل ثم نمت فجاءني في منامي هاتف ايقظني ووقع نظري على عرش تتألق حوله الانوار وعليه رجل مدجج بالسلاح قد انتضى حسامه بيمناه ولمع في عينيه نور سماوي وطفحت هيئته بالبشر والجمال. وظهر لي انني اعرف الرجل وان لم اكن رأيته قبلاً بل رايته اشبه الخلق بزوجي ابراهيم آغا وتغلب علي الاعتقاد بانه ابنه. اما الرجل فكان قد ادار وجهه ونظر الى العالم الواسع نظرة الغضب وحب الانتقام ولم يعبأ بالالوف الجاثين بين يديه بمنتهى الخضوع والاحترام. ورأيت وراء العرش فضاء في اخره صحراء رملية قاحلة وفي منتهاها ابنية مرتفعة غريبة الشكل تنطح قممها الغمام وينبثق منها نور باهر ففتح باب اكبر تلك القصور ونظرت في داخله فرايت ذلك الرجل بعينه وهو بمثل حالته الاولى غير انني رايت الان فوق رأسه هلالاً يحيط بنجوم ثلاث. وما كدت اتحقق المنظر حتى رايت الرجل قد تحول بغتة الى طفل بهيئة ملاك جميل نشر اجنحته الذهبية وطار من ذلك البعد الشاسع قادماً اليّ فمددت ذراعيّ لاقتباله وصحت بملء صوتي يا ولدي. يا

ولدي · فايقظني الصياح وفي الصباح التالي ولدتك يا بنيَّ وما رايت طلعتك البهية وانا اردد الفاتحة واشكر الله حتى اقشعر جسمي واعتراني الذهول لما رايته في وجهك من الشبه التام بالحلال الذي طار اليَّ في الحلم · وكنت بعد ذلك كثيرًا ما اتفرس في وجهك واراجع في مخيلتي وقائع ذلك الحلم الغريب حتى اعتقدت ان الهاتف الذي ايقظني في تلك الليلة لم يكن الا ملكاً سمويًا جاءني في تلك الرؤيا واعدًا وبشيرًا

وحدث بعد ايام ان جاء مركب الى ميناء قواله فنزل ركابه الى البر ليبتاعوا مايحتاجون اليه في سفرهم و بينهم زمرة من النور يرتزقون بصناعتهم تفسير الاحلام وقراءة المستقبل وسمعت ان بينهم عجوزًا هي اكثرهم خبرة وقد لقبوها بالنبية فاحببت ان اختبرها بنفسي فذهبت اليها وفتحت راحتي امامها وقلت ارجو ياخالتي ان تخبريني شيئًا عن مستقبل حياتي · فنظرت الى راحتي ثم تفرست فيَّ مليًا وقالت وهل تريدين ان اخبرك الحلم الذي حلمته ليلة ولادة ابنك ؟ فلما سمعت منها ذلك كدت افقد رشدى وقد استغربت جدًا ذكرها الحلم لاني لم أفه به لمخلوق ولا يمكن ان تكون المرأة قد عرفت شيئًا عن حياتي وهي لم تبلغ قواله الا بالامس فضلاً عن كوني مسكينة فقيرة لا يهتم بي احد · ولما تمالكت اعتقدت بمهارة تلك النبية فاومأت اليها بان تفعل فبدأت للحال تقص عليَّ حلمي كما رأيته تمامًا ثم شرعت في تفسيره

وكان محمد علي يسمع كلمات والدته باصغاء ولهفة فلما بلغت الى هذا الحد من كلامها اقترب منها وقال بلهفة شديدة — وماذا كان التفسير ياماه ؟

فتبسمت والدته وقالت — قالت لي النبية ان ابنك سيكون اميرًا وحاكمًا قويًا تجثو عند قدميهِ امة فيذللها بحسامه و يحملها نيره فتفتخر الشعوب بغناه ويتحدث

العالم بقوته · فقد بشرتك السماء بالخير ورأيت بعينيك الرجل على عرشه وما هو سوى ابنك فسلام عليك ياست خضرة وسلام عليك ياام الامير سيد الاقوياء ·

ولم يتمالك محمد علي عن الصياح متهللاً — أصحيح ياماه ؟ وهل اصير كما قالت اميرًا وحاكماً قويًا ؟ بالله عليك اعيدي عليَّ ماقالته

فقالت والدته — نعم قالت ذلك وانه ستخضع شعوب عند قدميه ويتحدث العالم بعظمته · فنهض محمد علي وكانهُ استعار قوة غير عادية فاشرق وجهه وقال ـ اقسم لك ياماه بتربة والدي وبالله العظيم وبنبيه الكريم انني سأحقق نبوءة تلك الامرأة واصير كما قالت · فاشكرك لانك كشفت لي عن مستقبل حياتي واسأله تعالى ان يبقيك حية لتري ذلك · واذا عاد الفتيان رفاقي الى الهزء بي وقالوا اي نفع يرجى من محمد علي المسكين فساقول لهم انني سأجعله اميراً حاكما قوياً · نعم وسابدأ للحال باخضاع هؤلاء الجبناء فالويل لهم اذا تأخروا عن ايفاء الجزاء ···· اماه ·· اماه ·· ان السعادة والسرور قادمان اليك فلا تقنطي

فنظرت الست خضرة الى ولدها بحنو وتبسمت تبسم المرتاب وقالت اواه ياولدي · يسؤني ان يكون في صدري ماينفي ذلك الرجاء ولكنني ارى تحقيق امالك ضرباً من المحال لاننا فقراء والحظ لايصادق غير الاغنياء

قال ـ نعم اننا فقراء الآن ولكنني ساسعى في ان نكون اغنياء وقد وجدت من يساعدني على ذلك

قالت ـ اظنك تعني صديقنا المسترليون ؟

قال ـ نعم هو فساذهب الساعة اليه واساله عما يجب ان افعله لنصير اغنياء وقبل ان تتمكن والدته من مجاوبته تناول طربوشه الاحمر اللون فغطى به شعرهُ الشديد السواد وخرج يجد السير في تلك الازقة الضيقة في حي الفقراء حتى بلغ

مساكن الاغنياء في طرف البلدة وهو لا يلوي على شيء وقد شغل ذهنه بحديث والدته · ولقي في طريقه زمرة من فتيان البلدة فلما راوه اختفوا من طريقه وراء جدارهم يقولون دعونا من النظر الى وجه هذا المعتد بنفسه فقد فاز علينا برهان الامس و سياتي يوم يموت فيه عمه وتنطرح والدته على سرير المرض والفقر المدقع فنرى ما يكون من امره ولا شك انه سيذله الفقر فيعود الينا مسترحماً ويجثو امامنا طالباً كسرة من الخبز ليسد بها جوعه · وكان محمد علي قد رآهم وادرك ما يضمرون فلم يعبأ بهم بل هز راسه وقال في نفسه سانافشهم الحساب يوماً ما على ما يقولون فهم من جملة الاعداء الذين سيلحق بهم انتقامي · وما زال سائراً وقد ارتسمت على وجهه صورة الانفعالات الداخلية المستحوذة عليه حتى بلغ محل تجارة الخواجه ليون ودخله من طريق ضيق بين بالات الاقمشة وصناديق البضائع وبراميل السوائل حتى وصل الى حاجز خشبي ينفذ منه النور وهو المكتب الخاص بصاحب المحل وسمع صوتاً يرحب به قائلاً - اهلاً وسهلاً ببطل ايبرو اهلاً بسلطان البحر · اهلاً بالعزيز محمد علي

فارتسم على شفتي محمد علي تبسم لذيذ وقال في نفسه ان هـذا الترحاب وهذه الالقاب ليست الا من باب الاطراء من محب صادق ولكن لابد ان اسمعها يوماً من افواه الامم التي ساسود عليها · وكان قد دخل الى وراء الحاجز فاستقبله الخواجه ليون وضمه اليه وقال له بحنو — تعال ياعزيزي لاهنيك واشاركك في سرورك فقد بلغني مافعلته وارى في راحتيك الداميتين مايؤكد لي صدق الرواية ويسرني جداً ان اسمع عن جسارتك ومهارتك وتغلبك على فتيان قواله

فقال محمد علي — اشكرك ياسيدي على اطرائك وان اكن لا استحقه لان الفخر ليس بالتغلب على الغلمان بل على الرجال والممالك

فنظر اليه المستر ليون بتعجب وقال – ماذا تقول؟ واي شيء يشغل فكرك الآن؟

قال – تشغل فكري امور عديدة وقدجئتك طالباً مشورتك ومساعدتك اياي لتوطيد مستقبلي

فقال التاجر وهو يبتسم – يسرني جداً اهتمامك بامر مستقبلك وكثيراً ما كلمت والدتك بذلك لانني توسمت فيك انك ستصير رجلاً يهتم بنفسه · وقد رأيت ايضاً ان والدتك وعمك طوسون آغا يعرقلان مساعيك باحتفاظهما الشديد بك واعتقادهما انك لا تزال يافعاً فيفرشان تحت قدميك اوراق الورد والرياحين بدلاً من ان يعوداك دوس اشواك المتاعب والصعوبات

فهز محمد علي كتفه وقال – نعم انهما يريدان ذلك لو تركت لهما الخيار ولكنني ساكشف قناع التحفظ واستقبل عواصف الحياة وساخلع حذاء الترفه لادوس الاشواك الحادة واتعود مصاعب الحياة ومشاق المعيشة وعليه فاني استحلفك بالله يا سيدي ان تعلمني ماذا يجب ان افعل لاضمن لي مستقبلاً مجيداً

فتنهد المستر ليون وقال – يصعب علي جداً ايها العزيز فراغ يدك من العامل المهم الذي لا بد من توفره لمن يروم الحصول على ما انت طالب

فقال محمد علي – وما هو هذا العامل يا ترى؟

قال – هو المال يا بني فانه لا يكفي الانسان ان يقف صامتاً ليستجير براحم الله ويردد آي القرآن بل عليه ان يتعلم ويعمل بيد لا تكل · فاذا توفر لديك المال حصلت على ما تريد

فقال محمد علي – اذاً ابدأ بتحصيل المال لابلغ غايتي فاتقدم اليك ان تعلمني كيف احصله؟

قال — حقاً انك بسيط القلب يا محمد · الا تدري ان تحصيل المال من اصعب الامور · لا انكر ان اغنياء كثيرين جمعوا ثروتهم بسهولة باتباع طرق النهب والسرقة والرشوة فتسنموا المناصب العالية والمراكز السامية ولكنني متيقن انك لست من هؤلاء وانك تفضل الفقر على الغنى ان لم يكن بطريقة امينة وشريفة

فقال محمد علي — هو كما تقول يا سيدي فانا احب الحصول على الشرف والعظمة والغنى بقوة ارادتي

قال — الشرف ؟ والعظمة ؟ والغنى ؟ انها كلمات كبيرة يا محمد يشق الوصول اليها ولا استطيع ان اضمن لك نيلها لكنني اتعهد بادخالك في اشغالي فاجعلك تاجرًا اذا شئت

فقال محمد علي — تاجرًا ؟ و كيف اكون تاجرًا وليس لي ما اتاجر به ؟

قال — لك ذاتك فتاجر بشخصك ···· عفوًا ايها العزيز لا تسؤك كلمتي هذه فاني لم اقصد ان تتاجر ببيع نفسك بيع العبيد · كلا · بل ان تتاجر بما وهبك الله من العقل والحكمة : انني اشتري منك ارادتك في مساعدتي وخدمة زبائني ومبيع بضائعي لقاء اجرة شهرية تاخذها لوالدتك غير ما اقدمه لك من القوت والكسوة

فقال محمد علي — اظنك تعني ان اقف على باب مخزنك واتظاهر باللطف واللين والترحيب بالزبائن كما تفعل انت ؟

قال — نعم يا ولدي

فقال — وان اسمع حديث الزبائن واظهر الاهتمام واللذة · وان اريهم اصناف السجاد والشالات الكشميرية · وان استر ما عليها من الوساخة والسقط

باصابعي . وانا اساومهم الثمن واحاورهم في قوله او تنزيله كما تفعل انت ؟

قال — نعم . نعم ويسرني انك تعرف العمل قبل ممارسته .

فقال — وان استقبل السيدات واقدم لهن القهوة واصبر النفس على خدمتهن وسماع حديثهن وما يقلنه عن بيوتهن وخدمهن و كلابهن وان انتظاهر باستحسان ذلك وان كان مزعجاً وان اعجب بجمالهن ولو كن كعجائز وائل كما تفعل انت ؟

قال — نعم . نعم والله انك تاجر كامل الصفات لا يعوزك شيء من التعليم والتدريب

فتبسم محمد علي تبسم الازدراء وهز راسه وقال — اذاً لا . لا يا سيدي العزيز . انني احبك واجلّ مقامك وكثيرًا ما وقفت انظر اليك واعجب بمقدرتك العظيمة ومهارتك في عملك اما انا فلا يمكنني ان اكون تاجرًا لانني لا استطيع ان اخرج احساساتي واتظاهر بما لا اشعر به . فاقترح علي غير ذلك

فصمت المستر ليون برهة ثم قال — حسناً اذا كنت لا ترغب في ذلك فتعلم الكتابة واسلمك اشغالي الكتابية لان وكيلي شاخ وعجز عن العمل فتكون اذ ذاك بين الدفاتر والاقلام لا يزعجك حديث احد ولا تضطر لاحتمال ما اظهرت نفورك منه . فضلاً عن ان صناعة الكتابة تضمن لك نجاحاً سريعاً ودخلاً حسناً لان الكتاب نادرون و .

فقاطعه محمد علي قائلاً — ولا الكتابة تلذ لي يا سيدي فانني لا احب صناعة القلم واذا اردت الكتابة يوماً فانما اود ان اكتب اسمي بسيفي على وجه اعدائي فقط

فضحك المستر ليون حتى بانت نواجذه وقال — يا لها من كتابة حسنة اذا اتقنتها ولكنني انصحك ان لا تضيع الوقت بالانتظار انت تعرف ولا بد الشيخ

محمد الشاعر القصاص فهو يروي في كل مساء قصصاً غريبة وتواريخ قديمة فيجتمع الناس لسماعه ويعطون عليه النقود بالقبضات فجمع بذلك ثروة طائلة ولكنه شاخ وذهبت اسنانه ولم يعد يحسن الالقاء فاذهب اليه واحفظ رواياته واخلفه في عمله

فقال محمد علي - لا يا سيدي ان هذا العمل ايضاً لا يوافق رغائبي لانني لا اسر بتلاوة ما فعله الغير بل اود ان اقص الاعمال العظيمة متى فعلتها انا ولا افعل ذلك ايضاً الا اذا شخت واجتمعت حولي رجال اسرتي فانني اخبرهم اذ ذاك بما قمت به من عظائم الامور ليكون حديثي عبرة لهم ومثالاً . ويظهر لي الان انه لم يبق امامي من امل سوى الانخراط في الجندية فسأصير جندياً

فقال المسترليون - بالحقيقة ليس اوفق من الجندية لمن كانت مطامعه مثل مطامعك ولو كنت اكبر سناً واشد قوة لعرضت ذلك عليك ولم تبلغ العاشرة من عمرك فيصعب ذلك عليك فاصبر حتى تبلغ الخامسة عشرة فتدخل الجندية واذا اطال الله في عمرك فاني اوقع لك مستقبلاً حسناً وسعيداً . فاذهب يا ولدي على بركات الله ولا تنس انني آليت على نفسي الاعتناء بك و بوالدتك ومساعدتكما ما زلتما في حاجة الى ذلك فلا تهتم بشيء قط واذا بدت لك حاجة فتعال اليَّ وثق انني لا اذخر وسعاً في مساعدتك . فاخذ محمد علي يد المسترليون وشكره بعبارات كلها امتنان واحترام ثم قال له - اذاً سانظر الى ان ادرك الخامسة عشرة من عمري واذا لم اتمكن من قيادة الجنود الآن فلا اقل من الاكتفاء بقيادة فتيان قواله واجبارهم على احترامي وايفائي الجزاء

الفصل الثالث

احلام الصبا

اثرت حوادث الفصل السابق على حياة محمد علي فذهب ما كان فيه من اللهو والمزاح وهجر الغلمان رفقاءه وكان يسير غالباً وحده عابساً صامتاً او يتأبط بندقيته وهي التذكار الوحيد الذي ورثه عن والده ويخرج الى الصيد . ولم يمض عليه زمن طويل حتى صار صياداً ماهراً لا يخطئ غرضه قط واذا رأى عمه الشيخ وكان في اول صبائه جندياً لاعبه بالسيف . وكان ينتظر البحر اذا هاج واشتد نوؤه فيلقي بنفسه فيه ويمرن عضلاته ساعات عديدة في مصارعة اليم كانه صمم على احراز جميع طبائع الرجال . وكانت والدته متى عاد الى البيت ترى في وجهه صور العوامل الداخلية وتقرأ في هيئته ما يكتبه يومياً من المطامع وقوة الارادة التي ورثها عنها وتقول انه يفعل ما كنت افعله اذ لو خلقت رجلاً لما كنت لاقنع بحياة الفقر والمسكنة التي نحن فيها بل كنت اجوب البلاد واقتحم المخاطر طمعاً في نيل امنيتي ولكنني ارملة ضعيفة لا امل لي الا بانتظار ملاك الموت ليلحقني بسيدي الذي سبقني الى الدار الآخرة وكفى ان ارى ولدي كفرخ النسر يربي اجنحته ليطير من هذا العش الحقير الى العالم الواسع ويحلق في جوه فليباركه الله وليحرسه النبي الكريم ولا حول ولا قوة الا بالله

وكان محمد علي اذا اراد النزهة سار وحده على رمال الشاطي او تسلق الصخور الوعرة المحيطة به . ووقع بصره يوماً على فتحة في جانب صخر مرتفع ودفعه الاستغراب الى الدخول فيها وكانت لا تكاد تكفي لمرور جسمه وبعد المحاولة مراراً تمكن اخيراً من اجتيازها ووجد انها تتسع شيئاً فشيئاً حتى صارت كافية لوقوفه ومسيره فيها

بسهولة وبلغ منتهى ذلك الكهف فوجده فسيحاً وفي اعلاه كوة تخترقه منها اشعة الشمس فتنير ذلك الداخل المظلم والى جانبه نافذة يرى منها البحر فسر جداً بهذا الاكتشاف وصمم ان يبقيه سرًّا عن الجميع فيستأثر بامتلاك ذلك المخباء ويجعله مكان انفراده وخلوته وهو يقول من يعلم ان كنت لا اضطر يوماً الانتفاع بهذا المخبأ المجهول لاتخلص فيه من شر اعدائي بل من شر اصدقائي · واهتم محمد علي لساعته في ترتيب ذلك المكان وجعله صالحاً للسكن فكان اذا اعطته والدته شيئاً من النقود او اهداه عمه او المستر ليون شيئاً من ذلك فيتوجه به توًّا فيشتري مايلزمه من فراش وغطاء وما شاكل من ضروريات المعيشة حتى اذا جن الظلام نقل ما كان قد اشتراه الى مخبأه سرًّا كي لا يراه احد · ولم يكن يشعر بلذة حقيقية الا اذا دخل كهفه وتوسد فراشه واطلق لافكاره وتصوراته العنان فيتراءى له ان الكهف قد تحول الى قصر فخيم تنيره الشموع وان حصيرته الحقيرة بساط من من الدمقس وقد وقف حوله العبيد والاماء وان هدير البحر ليس سوى انغام الموسيقي وانشاد المطربين فينسى نفسه على تلك الحالة الى ان يفعل به الجوع فيضطر الى الخروج مكرهاً وهو يقول تباً للجوع فانه حاجة جسدية تقف احيانا امام الانسان في ابان مسراته فتمنعه عن اتمام لذته وسروره ولا بدّ لي ان اتعلم الازدراء بهذه الحاجة وامرن نفسي على ازاحة سلطتها عني · وقوي فيه هذا الفكر حتى انه كان كثيراً مايغيب اياماً بتمامها بين الصخور والغابات بدون قوت وقد آلى على نفسه ان لايخضع لسلطان الجوع وان يمتنع عن مناولة الطعام متى شاء او يكتفي على الاقل باليسير منه · وغاب مرة يومين متوالين عن كوخ والدته فقلقت لغيابه وخشيت ان يكون قد اصيب بمكروه فجلست امام كوخها تندب وتنتحب حتى انقضى الليل الثالث ولاح الفجر فرأته قادماً وقد اصفرّ لونه وبانت عليه علائم

الضعف فلما رأى والدته تنشط وبش في وجهها وهو يجتهد في اخفاء ما الم به فاسرعت اليه وضمته الى صدرها وقالت له — اين كنت يابني فقد اقلقني غيابك فانحنى امامها وقبل يدها وقال — كنت مع مستقبلي يااماه . نعم كنت في ضيافة ايامي الآتية تلك الايام التي اجلس فيها على عرشي شاهرًا حسامي على هام الشعوب الخاضعة لي . قد تحقق حلمك يا امي وقد تحول ذلك الحاكم العظيم الذي رأيته في الحلم الى جسم ولد هو ابنك الذي ترينه جاثيًا امامك يحييك ويطلب رضاك .

قالت — وعلامَ اراك اصفر اللون خائر القوى

فتأفف وقال — لا اعلم ماذا اصابني فانني اشعر بقوة تدفعني الى السير ولكن قدميَّ لا تطيعان ارادتي . ولكن لا يهمك هذا يا اماه ودعينا ندخل

ولما قال ذلك حاول ان يحمل والدته تحيبًا فلم يستطع ورأت من ارتعاش جسمه ما اكد لها ان الجوع قد سبب لهُ ذلك الضعف فلم تشأ ان تظهر امامه علمها بذلك فقالت له — انني لم اذق طعامًا من امس لانني كنت بانتظارك فهيا بنا نقتات معًا مما رزقنا الله ونظر محمد علي فرأى على خوان في وسط الكوخ كمية من الفاكهة والخبز فعلم ان ذلك من الجزاء الذي احضره الغلمان فابرقت اسرَّته ومد يده ليتناول شيئًا ولكنه عاد فارجعها للحال وقد صبغ وجنتيه الاحمرار وقال — عفوًا يااماه فانه لا يليق ان يبدأ الاولاد بالطعام قبل والديهم فاجلسي وكلي وانا اخدمك الى ان تنتهي

ولم تشأ الست خضرة ان تعبث بتلك الحاسيات الشريفة فجلست واكلت شيئًا من الفاكهة بسرعة ثم ناولته منها وكانت الشهوة الجسدية قد تغلبت على اباء نفسه فاخذ منها شاكرًا واكل بلذة عظيمة حتى اذا قارب الاكتفاء قالت له والدته — واين كان غيابك يابني

قال — كنت تارة بين الصخور وطوراً عند شاطىء البحر

قالت — ولكن هذه الاماكن ليس فيها شيء من القوت لغير الغربان والنسور فمن جاءك بطعام

قال — لم اذق طعاماً وقد قصدت بذلك ان اتعلم التغلب على الجوع وصدقيني يا اماه انني سررت بهذه التجربة لانني لم آكل قط بلذة كما اكلت الآن بعد جوعي الشديد

فقالت وقد ترقرقت الدموع في ماقيها — ليباركك الله يابني وينيلك مشتهاك . ثم دفعت اليه زجاجة وقالت — خذ لك جرعة من هذه الخمر المعتقة فقد ارسلها لي صديقك المستر ايون وهو يقول انها دواء لتقويتي .

قال — كلا ياأماه — انها دواء لتقويتك فلا احتاج اليه انا ولي في الماء القراح المنفجر عن نقر الصخور مالا اطلب سواه . ولما قال ذلك تناول كاساً مصنوعة من القرع المجفف وخرج الى النبع امام الكوخ فملأها وتجرعها مرة واحدة ثم رجع وقد عاد اليه نشاطه ولونه الجميل . ورأت والدته ذلك فقالت — يسرني ان اراك قد عدت الى نشاطك ورجعت اليك قوتك فاستحلفك بالله يامحمد ان لا تعود الى مثل هذه التجارب التي تضر بصحتك . انه حسن ان يعود الانسان نفسه على احتمال المصاعب والمشاق ولكنه لايجوز له ان يضعف جسمه فيعذبه بالجوع والعطش لغير داع .

قال — لم يكن عملي هذا لغير داع . فقد طالما سمعتهم يقولون ان الانسان لايشعر بلذة الشيء الا اذا حرمه مدة فقد اختبرت ذلك بنفسي الآن واني اود ان احرم نفسي كل شيء حتى اذا ملكت كل شيء اشعر بلذة فائقة وانسى التعب

والشقاء فلا تلوميني يا اماه ودعيني اعدّ نفسي للمستقبل الذي بشرتني به لان الله سبحانه وتعالى سيحقق حلمك فهو يعينني ويوفق اعمالي

قالت — ليكن ما تريد ايها الحبيب ولكنني لا اطيق غيابك وربما احتجت يوماً ان اراك وانت غائب عني فكيف اعلم اين تكون

قال — انني لا ابتعد عن هذا الكوخ كثيراً .. هل تذكرين يوم خرجت واياك الى قمة ذاك الصخر وطلبت اليك ان تقلدي صياح النمر ؟ انني قصدت ذلك حينئذٍ لاعلمك هذا الصياح حتى اذا غبت عنك واحتجت الى حضوري فليس عليك الا ان تقفي على باب الكوخ وترددي مثل ذلك الصياح فتريني امامك للحال

قالت انه فكر غريب يا بنيّ . وماذا تقول المارّة اذا راوني املأ الفضاء بصياح كنعيق الغراب . الا يعتقدون اني فاقدة العقل

قال — وهل انت ممن تهمهم اقاويل الناس ؟ وهل من الواجب ان نكون مستعبدين لافكار البشر ؟ انهم اذا هزأوا بنا الان فلسوف يأتونك في المستقبل القريب يطلبون منك الرضاء عنهم والشفاعة فيهم لدى ابنك . فيا اله الحق استجب طلبي وابق والدتي لترى ذلك اليوم

ثم نظر محمد علي بغتة الى والدته فراى علامات الحزن واليأس على وجهها فاقترب منها بلهفة وقال — مالك يا اماه وعلام تبكين

قالت — لا اعلم لذلك سبباً وانما اخشى ان لا يكون ذلك اليوم قريباً وان لا اعيش لاراه

قال — ولماذا ؟ انت مريضة يا امي ؟ هل تشعرين بشيء من الالم ؟ بحياتك قولي لي

فتململت قليلاً ثم استجمعت قواها وقالت — لا · لست مريضة ولا اشعر بالم بل كيف يتمكن المرض من الاقتراب اليَّ وانت معي فصحتي وسروري ان اراك و · · · ·

فقال — وقد زاد قلقه — الك لا تقوين على الكلام ·· نعم اني ارى اصفرارك وارتعاش شفتيك فبربك قولي لي ماذا اصابك

قالت — قلت لك اني لا أشعر بشيء ولكنني اتوق يا محمد الى اقتراب ذلك الوقت الذي اراك فيه عظيماً مبجلاً من الناس محبوباً من الله

قال — اما محبة الله لي فلا تكون الا اذا رضيتِ عني وباركتني · ثم لا بد من بقائك حية الى ان تتم آمالي وتتمكني اذ ذاك من اخبار والدي متى اجتمعت به عن تحقيق حلمك واتمام النبوَّة فعديني انك تبقين الى ان يتم ذلك

فقالت — وهل اعلم قصد الله لاعدك بذلك · الا تعلم انه لا يدرك الغيب سواهُ وان لا سطوة لنا على حياتنا · فالبشر يا بني كاوراق الشجر اذا جاء الخريف وهبت الرياح ذبلت وسقطت وحملت الى حيث لا يعلم احد ومتى بلغنا خريف الحياة لا يبقى لنا سوى انتظار ملاك الموت ماموراً من الحق سبحانه وتعالى ليرجع ارواحنا الى خالقها · · · ·

فوثب محمد علي وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف فامسك بوالدته وكأنه يحاول انتشالها من يد قوي وقال — لا · لا اصدق ان تفارقني رحمة الله · لا اصدق انك تفارقين ولدك قبل ان ينيك اتعابك في تربيته ومحبته · لا يمكن ان ياخذك احد من يدي فانك ستحيين · نعم ستحيين

وكانت والدته قد تألمت من شدة قبضه عليها وبان ذلك في وجهها ولكنها حاولت ان تخفي ألمها فقبلت ابنها بحنو وقالت — اذا كنت قد بقيت الى الآن

يا ولدي فانما بقيت للاعتناء بك وما هي حياتي ان لم تكن نورها. ولكنك تريد ان تكون رجلاً فالرجال لا يبكون وتود ان تصير من الابطال والابطال لا تروعهم النوازل ولا تثبط همتهم المصيبة متى حلت

قال — انا اعلم انك تشجعينني بهذا الكلام وتعدينني لاحتمال مضيبة فقدك ولكن اذا احتملت نوازل الدهر وخطوب الحياة فلا اقوى على فقدك واعلمي انك اذا غبت عني فلا اعيش بعدك بل القي بنفسي الى البحر او ....

ولم يستطع اتمام كلامه فاخفى راسه في حجر والدته وبكى بكاء مراً. واغتنمت والدته تلك الفرصة فمسحت دموعها لتخفي بكاءها ثم قالت له — ارأيت يا ولدي ان النفس مهما كبرت يذللها اذلال الجسم. ان نفسك اكبر من ان ترزح تحت التصورات الخيالية واعظم من ان تذلها النوائب ولكنك قد اضعفت جسمك جداً في هذه الايام فضعفت نفسك ايضاً والا لما بكيت كما يفعل الاطفال

وكان في كلمات والدته ما اصاب فؤاد محمد علي فانتصب امامها وقال — انك من ابطال الزمان يا اماه وتريدين ان اتعلم منك فسأفعل ان شاء الله

ولبث الاثنان برهة ينظر احدهما الى الآخر كأن عواطفهما تتحادث وتتخاطب بلغة خاصة. واثرت تلك الدقائق على ذاكرة محمد علي فلم ينسها في حياته كلها وطالما جلس في شيخوخته يفكر في ماضيه ويتذكر تلك الدقائق وقد ضمته والدته الى صدرها وغرست في قلبه لاول مرة عواطف الحب الحقيقي.

وبعد هنيهة وضعت الست خضرة كفها على كتف ابنها وقالت له — عدني ان لاتعود الى تعذيب نفسك بالجوع كما فعلت بالامس

قال — انني اعدك بذلك وقد اقتنعت بوجوب تغذية الجسم لتقوية النفس

فانا محتاج الى نفس قوية تساعدني على تسلق صخور الحياة الوعرة . نعم اعـدك بذلك ولكنني اود ان ادرب جسدي على الانقياد لاوامر نفسي فلا تتكدري ولا تقلقي اذا غبت عنك يوماً او غير يوم لانني مولع بالوحدة واميل الى الانفراد فتلك مدرستي وفيها أتلقن العلوم التي احتاج اليها . ان الارواح الغير المنظورة التي تجول حولي في هواء العزلة تعلمني اشياء كثيرة تلزمني في مستقبل حياتي . واذا احتجت الي فناديني كما طلبت اليك بتقليد صياح النسر .

فقالت وهي تحاول اخفاء اضطرابها — واذا لم استطع ذلك وضعف صوتي حتى لا يسمع ؟

فحلق محمد علي عينيه مرة اخرى وقال — ماذا تقولين ؟ هل تتوقعين ذلك هل تشعرين بالضعف ؟

قالت — لا اشعر بشيء من ذلك الآن ولكنني اقول انه من المحتمل حدوثه

فاخفى محمد علي وجهه بين راحتيه وانبعث من صدره تنهد عميق ثم قال — نعم ليس ذلك بمستحيل فساذهب واعلم عمي طوسون آغا هذا النداء حتى اذا اقتضت الحال تقولين له فيتكفل بمناداتي . فعديني بذلك ليرتاح قلبي . والا حرمت من الراحة التي اطلبها في انفرادي وفقدت الانتباه الى عملي ودرسي .

قالت — اعدك بذلك فلا يؤخرك حناني عن اتباع ما كتبه لك الله . فطر ايها النسر الصغير وحلق ماشئت فقد رضي الله عنك ولترشدك السماء الى مابه الصواب . ثم انحنت على رأسه فقبلته وقبل يدها وخرج قاصداً عمه حيث كان يشتغل على مقربة من الكوخ فلما صار امامه جعل يوضح له القصد من مجيئه اليه ويهتم في تعليمه الصوت المطلوب فنظر اليه طوسون آغا بتعجب وقال — ماذا اصابك اليوم ياولدي وهل تنتظر من شيخ نظيري ان يعود الى ايام الصبا ويتعلم

اصوات الطيور لينا ديك بها متى شاءت والدتك ان تراك ؟ فجعل محمد علي يلح عليه وهو تارة يكلمه بصوت المستجير وطوراً بلغة الآمر ثم اخذ بيده وقاده بالرغم عنه حتى بلغ حافة الصخر وجعل يتوسل اليه ان يفعل ذلك اكراماً لوالدته وما زال يلح عليه حتى اقنعه وجعل الشيخ يمارس النداء المرة بعد الاخرى وما اتقنه حتى ابرقت اسرة محمد علي وقالت قد استراحت افكاري الآن فاذا طلبت منك والدتي ان تحضرني اليها فقف هنا وردد هذا النداء فاجيء للحال . ولكنني لا ازال في حاجة لمعرفة امر يهمني جداً فاستحلفك ياعماه بكل عزيز لديك و بالنبي و بشفاعته و بالله ورحمته ان تصدقني الخبر اليقين عن والدتي فهل هي مريضة

فتغيرت سحنة طوسون آغا وارتسمت على وجهه علائم الحزن الشديد واحنى راسه وهو لا يعلم بماذا يجيبه فتقدم محمد علي اليه وقال — قد استحلفتك ياعماه باعظم الاقسام ان تصدقني

فقال — لا تسلني ايها العزيز لانه لا يحق للانسان ان يتطاول لمعرفة ما سيجريه الله وما علينا الا القبول بما قسمه لنا

فقال محمد علي — ولكنه اوصانا بكتابه العزيز ان نعتني بوالدينا فيجب ان اعلم السبب الذي يجعل والدتي في هذه الحالة

فقال طوسون آغا بصوت كئيب قد اضعفه الحزن — انها صفراء اللون واذا مشت خطوات متتابعة يضيق تنفسها وقد لاحظت ولا شك انك اذا لمست يدها تلقاها كالنار المتقدة . ويغلب على ظني ان ذلك من عواقب الحمى الشديدة التي اصابتها مؤخراً غير ان الضعف قد تمكن منها ولذلك قد تكرم المسترليون فارسل لها من الخمر المعتقة لتشرب وتتقوى

قال — نعم لابد ان تنال العافية فان الله لا يأخذها مني ويتركني في هذا

السن وحيداً وبلا نصير في العالم

فنظر اليه طوسون آغا نظرة التوبيخ وقال ـ وحيداً ؟ وبلا نصير في العالم ؟ لا . لا تقل ذلك فان ابن ابرهيم آغا لا يعدم نصيراً محباً ما زال عمهُ طوسون في قيد الحياة

فصبغ الاحمرار وجه محمد علي وتقدم الى عمه فتناول يده وقبلها مراراً ثم قال ـ اعذرني ياعماه فان مجرد تصوري وجودي بدون والدة اعدمني رشادي . اما حبك وحنوك فلا انساه واشكرك من صميم فؤادي .... والآن قد تعلمت النداء فلا تنس ان تناديني متى اردت حضوري

ولما قال ذلك ـ نظر الى عمه نظرة الوداع وذهب يثب فوق الصخور كالغزال النافر .

وكان عمه يشيعهُ بنظره ويقول ما احلاه وما احبه فكم من الوقت تتمتع والدته برؤآه بعد بل كم اتمكن انا من مشاهدته ياترى . وكانت الدموع تترقرق من ماقيه فلم يمسحها مخافة ان يحجب نظره عن اتباع ابن اخيه ولما غاب هذا عن النظر وحجبته الصخور احنى طوسون آغا راسه على صدره وعاد الى عمله

الفصل الرابع

نذير الموت

ولم ينس محمد علي ماسمعه من والدته وعنها فاشتد قلقه على صحتها وتقاسمته الهموم فانصرف عن اللهو الى الجد وعلا وجهه الحزن فرأى الفتيان ذلك واصبحوا يجتنبون ملاقاته والاختلاط به على انهم مازالوا يقدمون اليه الجزاء المفروض .

وكان يدعوهم احياناً الى السباق والمصارعة فلا يلبي طلبه الا الاقوياء منهم غير انهم عجزوا عن التغلب عليه فصاروا اذا رأوه تفرقوا من وجهه واختفوا لكي لا يقع عليهم بصره غير ان عينه النقادة كانت ترى ذلك فيتبسم باحتقار وهو يقول لا عجب ان تجتنب العقبان ملاقاة النسر ولكنني سوف اجعل هذه العصافير الصغيرة بلا ريش ايضاً فيعلمون تمام العلم اني سيدهم وليس سواي

واهتم محمد علي في ايجاد طريقة لكسب المال وان يوفر لوالدته ما استطاع من اسباب الرغد والهناء فجعل يتغيب عن منزله اكثر من الاول واذا هاج البحر وامتنع على الصيادين العبور الى ايبرو لجمع شباكهم وما فيها من الصيد عرض هو نفسه لذلك بشرط ان ينقدوه الاجرة مضاعفة · فكانوا يقبلون مضطرين خوف ان تذهب الامواج بشباكهم وصيدهم

وحدث يوماً ان صياداً قصد عبور الخليج لجمع شباكه وكان البحر في شدة هيجانه وقد زاد نوءه فلم يستطع وايقن بتلف الشباك والصيد فوقف يضرع الى الله ويولول نادباً حظه واذا بصوت ضعيف يقول له ـ لماذا لا تعبر الخليج وتأتي بها فالتفت الصياد واذا بمحمد علي وراءه يتبسم فقال له ـ ومن يستطيع المخاطرة في نوء كهذا وهذا اليوم يوم الخميس وفيه تخرج عفاريت البحار من مكانها لتجذب الناس الى العمق فانا ولا شك فقدت شباكي وصيدي وما ذاك الا لحسن حظ عمك طوسون آغا لانني ساضطر الى مشترى شباك غيرها منه وكعادته سيتقاضاني جميع النقود الموجودة معي ·

فقال محمد علي ـ ان عمي طريح الفراش الان ولم يعد قادراً على العمل فاقبل نصحي واجتهد في تخليص شباكك لانك لا تقدر ان تحصل على مثلها مهما فعلت

فقال الصياد وقد ادركه الغيظ ـ وما نفع نصحك يا هذا · فماذا افعل بل اي صياد ماهر يخاطر بحياته في مثل هذا اليوم

قال ـ ان كنت لا تقدر انت على ذلك فماذا تعطيني اذا جمعتها لك واحضرت ما فيها من السمك ايضاً

فقال الصياد واسمه عمر ـ انت تهزأ بي يا محمد علي فما اظنك تخاطر بحياتك في مثل هذا النوء اما ترى كيف يفتح اليم فاه ليبتلعنا ونحن على الشاطئ فكيف اذا صرت في وسط اللجج

قال ـ ان قاربك خفيف استطيع ادارته بسهولة وان شياطين اللجج تحبني فتحملني الى ايبرو وترجعني سالماً فانا اذهب لجمع شباكك اذا دفعت لي الاجرة التي اطلبها

فقال عمر وقد ابرق في عينيه نور الامل ـ وما هي الاجرة التي تطلبها

قال اطلب نصف ما يكون في الشباك من السمك فاذا جمعتها ورجعت تدعو اربعة من ارفاقك فيقدرون قيمة ما فيها وتنقدني ثمن النصف · اتقبل بذلك يا عمر

فعاد عمر الى عبوسه وقال ـ هل سمع احد بمثل هذا الطلب الفاحش · انني اكون عديم العقل اذا قبلت به

فقال محمد علي ـ بل تكون عديم العقل اذا لم تقبل وتفضل ذلك على خسارة الشباك والصيد معاً · واني اذكرك للمرة الاخيرة ان عمي طوسون آغا قد ترك صناعة الشباك وان شباكك هذه من امتن الموجود

فقال عمر ـ خلِّ الطمع جانباً يا محمد فاني ادفع اليك ربع القيمة فقط اذا شئت

قال — اني لست بتاجر حتى تساومني فاما ان تقبل باعطائي نصف القيمة او لا اذهب

فتأفف عمر متضجراً ثم قال — اذا كان لابد من ذلك فليكن لك ماتريد وهاك قاربي فعجل بحياتي قبل ان تقطع الامواج الشباك

قال — حسناً ولكن قبل الشروع يجب ان تشهد شهوداً على رضاك

فقال عمر وقد جحظت عيناه — أوليس الله شاهداً على صدق قولي ؟

قال — نعم : ولكنني اخشى ان يحول هدير البحر دون وصول كلامك الى سماعه فسآتي بصديقي المستر ليون وتعيد وعدك امامه

وقبل ان يتمكن عمر من ايقافه وثب وجعل يعدو كالنعام الجافل حتى بلغ محل الموسيو ليون وتوسل اليه ان يرافقه لسماع اتفاق حصل بينه وبين الصياد فلم يتأخر الموسيو ليون عن اتباع محمد علي وهو يحبه كثيراً ولكنه ما سمع بما كان حتى نظر الى الصياد نظرة الغضب وقال له — أما تخاف الله ياعمر ان تغرر بهذا الولد في مثل هذا النوء الشديد . انك ترتكب الاثام اذ ترمي بهِ الى القبر المعد لابتلاعهِ .

فوقف محمد علي امامه وقد صعد الدم الى وجههِ فاسند ذراعيه الى صدرهِ وقال — انظر اليَّ جيداً ياموسيو ليون اما تراني اكبر من كثير من الرجال واقوى منهم ايضاً فلماذا تدعوني ولداً

قال — العفو ايها العزيز فانما نظرت الى سنك وليس الى قوتك ولكنك سواء كنت رجلاً او ولداً فلا يجب ان تركب البحر في مثل هـذا النوء الشديد

فقال محمد علي — ولكنني سأريك انه لايجب الاهتمام بالنوء متى كانت الاجرة حسنة . وقبل ان يتمكن الموسيو ليون من ارجاعهِ اسرع الى القارب فحله

ونزل اليم وفي لحظة صار على ظهر الامواج تتقاذفه وهي تارة ترفعه الى الجو وطورًا تهبط به كأنها تضمه الى جوفها فتخفيه عن البصر وهو مع ذلك يعمل قوته في تحريك المجذاف وقد اخذته هزة الطرب فجعل يصيح بملء فمه · هكذا يجب ان اصارع الحوادث ماعشت وعلى هذا المنوال ساذلل مصاعب الحياة وسترى الامواج شدة عزمي فتبلغني ايبرو بسهولة · وكانت الريح مع قوتها قد ساعدت محمد علي على بلوغ غايته بهبوبها الى جهة الجزيرة فبلغها وجمع الشباك وقد اذهله كثرة مافيها من السمك فجعل ينتظر هبوط العاصف ليعود · وكأن والدته قد تنبأت له بقولها ان عفاريت البحر تحبه وشهد على سلامته لانه ماعتمت ان هدأت الانواء وسكنت الرياح فعاد البحر الى سكوته وبرزت الشمس فبددت الغيوم المتكاثفة حول الجزيرة ولم يجد محمد علي صعوبة كبيرة في الرجوع الى حيث كانت زمرة من الصيادين تنتظره وبينهم عمر مكفهر الوجه نادماً على مافرط منه من عدم الانتظار وعقد ذلك الاتفاق وانه والحق يقول لولا ان يكون الموسيو ليون شاهداً لنكث عهده واخلف وعده · وزاد كدره عند ماجعل الصيادون يفرغون الشباك ويعجبون بمحمولها وقد قدروها باربعة دوقات (والدوقة قطعة من الفضة تساوي من ٤٠ الى ٥٠ غرشاً) فابرقت اسرة محمد علي وما صدق ان رأى عمر بعد التردد والتأسف قد اخرج من جرابه الجلدي النقود فعدَّها ودفعها اليه قائلاً — خذ لا بارك الله لك فيها ايها الطماع فقد سلبت ابًا نصف رزق عياله فسأطلب من عفاريت البحر ان تقتص لي منك وتستوفي ماسرقته مني

فقال محمد علي — انت رجل ياعمر فلماذا تسبب لنفسك الاهانة والاحتقار اني لم اسلبك شيئاً وقد خاطرت بحياتي من اجل هذه الاجرة التي حصلتها بشرف فلا يحق لك ان تهينني امام الوقوف هنا · هلم ايها الناس وانصفوا بيننا · فقام

الجميع بصوت واحد يؤبنون عمر ويقولون لقدصدق محمد علي فيمايقول · واقترب منه الموسيو ليون وقال — لايحق لاحد ان يهينك يابني لاجل ماأكتسبته بالحق واراك تعبت كثيراً فتعال معي الى منزلي لنتناول الطعام سوية وتجفف ثيابك امام النار

فضحك محمد علي وقال — ان ثيابي مبللة ولكن مافي عروقي من الحمية سيجففها سريعاً · ولا انكر انه قد انهكني الجهاد وخيل لي ان شياطين البحار عمدت على ابتلاعي فكان زئيرها يقع في اذني اطرب من انغام الموسيقى فانا جائع واقبل دعوتك بالشكر

فنظر اليه الموسيو ليون وقال بتعجب — انك لغريب الاطوار ايها العزيز ولولا خوفي من قولهم اني اريد جعلك نصرانياً لتبنيتك · فقل لي · اذا غادرت هذا المكان فهل ترافقني الى بلادي وتدين بديني وتصير وريث اموالي

قال — ما اخالك الا مازحاً ياموسيو ليون في ماتطلب مني وانك لا تنتظر من ابن ابرهيم آغا ان ينتسب الى غير ابيه · · لا · لا · · ان المسلم الذي يرضى ان يتحول الى نصراني كافر · · · · العفو عن نطقي بهذه الكلمة فانني لا اعنيك بها و · · · ·

فقاطعه الموسيو ليون قائلاً — نما تعني النصراني الكافر فلا بأس دعنا نقف عند هذا الحد · فقد كلت لي بالكيل الذي كلت لك به فلنعد الى صداقتنا الاولى ونشرب كأساً من الخمر سوية · ولما بلغا منزل الموسيو ليون جلسا الى مائدة فاخرة فاكلا وشربا بسرور وبعد العشاء قال محمد علي — لو لم تدعني للمجيء معك لكنت اتيت من نفسي لاني اود ان اكلمك بامر يختص بالمال الذي حصلته اليوم

فقال الموسيو ليون — يسرني ان اراك تهتم بذلك فلعلك تريد ان تعطيني

مار بحته لاشغلة لحسابك . حسناً وانا اعدك ان احسب لك عليه فائدة كبيرة

قال ـ لا . لا انتظر ان ابني منزلاً بحبة من الرمل فليس هذا قصدي وانما اريد ان اشتري منك بعض الحاجات ولاعتقادي بمحبتك لي ارجو ان لا تطلب مني اثمان باهظة كما تطلب من الاغنياء .

فقال الموسيو ليون — لا شك بذلك وثق اني ابيعك مهما شئت من بضائعي برأس ماله فما هي الاشياء التي تود مشتراها

قال — اريد ثوباً من فاخر الحرير وقناعاً ابيضاً طويلاً يليقان بنساء الاعيان

فتنبه الموسيو ليون وقال — قد فهمت الآن ما قلته لي انك لم تعد بعدولداً فانت رجل يشغلك الحب وستهدي ما تشتريه الى عروسك

قال — لا يا موسيو ليون لم افتكر بعروس بعد ومع ذلك فلا انكرك ان ما ابتاعه ساقدمه هدية محبة

فقال — اذاً لك خليلة يا محمد ويسرني ايضاً ان لا تقيد نفسك بالخطبة وانت في هذا السن كما هي العادة عندكم ثم تنتظر الى ان تتزوج فترى ما لا يسرك

قال — يظهر من كلامك انك تستهجن هذه العادة ولكننا اذا وجدنا الزوجة على غير ما نحبه فاننا نرجعها الى بيت ابيها ولا نضطر نظيركم الى البقاء مع نسائنا ولو قاسينا معهن الموت الاحمر . فقد رتب لنا نبينا هذا الامر على غاية من الحكمة بينما نراكم مقيدين بالمحافظة على نسائكم مهما كانت حالتهن وكم من مرة ترون انفسكم قد خدعتم ولات حين مناص

فقال الموسيو ليون ـ اذاً تؤكد لي ان هديتك لعشيقة تولعت بها فانصحك ان تتدبر وتكون على غاية الحذر

قال — لا تهتم بنصحي ولا يغرنك كلامي فانما الهدية لوالدتي التي لم احب

وان احب سواها · فاعطني ثوباً جميلاً مطرزاً ونقاباً مزركشاً بالذهب لالبسها اياها فتذهب الى الجامع وتظهر بين النساء بلباس يحسدنها جميعهن عليه

فقال الموسيو ليون وقد دمعت عيناه · سأعطيك ما تحب يا ولدي · اني ادعوك ولدي لاعبر عن شدة محبتي لك فهلمّ معي الى المخزن واختر لنفسك ما يحلو بقطع النظر عن الثمن

فدخل محمد علي وانتقى من بين الاثواب الجميلة ثوباً ارجوانياً مطرزاً بالفضة ونقاباً حريرياً مزركشاً بالذهب مما تتمنى بنات الملوك ان تتجلبب بهِ ودفع الى التاجر النقود التي اخذها من عمر الصياد ثم تأبط ما ابتاعه واسرع فرحاً الى والدته فدخل عليها وهو يقول — قد جئتك يا اماه بما تشتهين

قالت — وهل جئتني بسواك فانا لا اشتهي ولا اتمنى غير وجودك معي

قال — بل تحتاجين الى ثوب ونقاب كما تلبس نساء الاعيان وقد اتيتك بذلك · · · · لا · · لا · · لاتكدري فقد ابتعتها بمالي الذي حصلته بعرق جبيني

وعوض عن ان تسر الست خضرة بهذه التقدمة انقبضت نفسها وعلت وجهها صفرة الموت وقالت — ليس البذخ من شأني يا بني

قال — بل هما لك يا اماه وسلي الموسيو ليون فقد نقدته الثمن · أتظنين انني لم ارَ اللباس البالي الذي تذهبين به الى الجامع ام تحسبين اني لم الاحظ نقابك الرث المرقع · قد سمعت مرةً بعض الناس يلومونني لانه ليس عندك من اللباس ما يليق ان تظهري به فكدت اجن من كدري اما الآن فان سروري لا يقدر لانني تمكنت من ان احرز لكِ ثوباً جديداً فالبسيه يا اماه ولا تذهبي الى الصلاة الا بهِ

قالت — يستحيل ذلك · ان الناس اذا هزأوا بنا لعدم وجود اللباس

اللائق فانهم يهزاون اكثر متى راوا ارملة ابراهيم آغا الفقيرة مرتدية بالارجوان والحرير كنساء الاغنياء · واذا كنت قد ابتعت هذه الاشياء ولا يمكن ارجاعها الآن فاحفظها لتقدمها يوماً ما الى عروسك الفتاة وليس الى والدتك العجوز

فقال محمد علي وقد تنازعته الرقة والغضب ـ انك لاتزالين في مقتبل الحياة يا امي فاذا ارتديت بهذه الاثواب فقتِ كل نساء قواله جمالاً فالبسيها اكراماً لي واحسري القناع ليرى الجميع وجهك ويتعجبوا من جمالك

قالت ـ كفاك هذياناً ياولدي ويسرني انه ليس معنا ثالث يسمع ما تقول لانه ما من امرأة عفيفة تسفر عن وجهها ليراه اسافل الناس ولست بآتيةٍ بما يحمر له وجه ولدي محمد علي خجلاً فارجع يا ابني هذه الرزمة الى الموسيو ليون لانني لا استطيع ان البس مافيها

وكان محمد علي قد وضع الرزمة امام والدته فلما سمع ذلك تناولها ثانية وقال — اذاً لا تقبلينها ؟ وترفضين ما يهديه اليك هذا القلب المملوء من المحبة والسعادة بتقديمها لكِ ؟

قالت ـ نعم ارفض ايها الحبيب فلا تتكدر وقد اوضحت لك السبب

قال ـ اذاً لم يبق لي الا ان اقدمها لبنات شياطين البحر فهن يشكرنني على ما غررت بحياتي في سبيل الحصول عليه · ولما قال ذلك ادار وجهه ومشى الى جهة الباب بسرعة البرق

فقالت لهُ ـ الى اين انت ذاهب يا بنيَّ ؟

قال — لا بد من القاء هذه الامتعة في البحر

قالت — ارجع واني اقبل بما تريد فان حفظ ما اتيت بهِ خير من ان تطرحه في البحر

فتبسم محمد علي وقال ــ اذاً تعدينني ان تلبسي هذا الثوب

فجلست والدته وفتحت الثوب امامها وجعلت تتأمله بابتسام محزن فقال لها عسى ان يبرهن لك هذا على محبتي الخالصة التي تتمنى ان تكسوك بالارجوان وتحليك بالذهب اني اود ان ارى الست خضرة اجمل امرأة بين النساء قال هذا والبشر يلوح في وجهه ولكنه لم يلبث ان انقبض وعلاه الهم والقلق عندما رأى شدة اصفرار والدته وخصوصاً عند ما انبسطت الثوب الارجواني بين يديها فقال لها هل انت مريضة ياامي ؟ اني اراك تتألمين

قالت – لا لست مريضة وسترى كم تسر متى رأيتني يوماً ما ازهو بهذا الثوب الجميل وهذا النقاب المذهب فالشكر لك يافلذة كبدي ونور عيني اشكرك من صميم فوادي لاجل هذه الهدية الثمينة واني سافظها كخير تذكار منك ما دمت في قيد الحياة

فقبل محمد علي يدها وقال ــ وانا اشكرك ياأماه على قبولك اياها وانما ارجو ان لا اكون قد ارغمتك على ماتكرهين

ولم تعد تتمالك الست خضرة نفسها فقالت له ــ لا لم اتكدر وقد مضت مدة لم اراك تخرج فيها كعادتك للنزهة على الشاطي فهلا ذهبت بينما اعود عمك المريض وارجع . ولا تهتم بالعودة حالاً لاجلي فانني سانام حال رجوعي بدون ان انتظرك فاذهب ولا تنس ان بركات والدتك ودعاها يرافقانك

فتبسم محمد علي بسرور ثم عانق والدته ملياً وودعها وخرج الى الخلاء

الفصل الخامس

القصاص

ولما خرج محمد علي من حضرة والدته سار مسرعاً في زقاق يوصله الى القمة الصخرية وهو يخاطب نفسه قائلاً — قد علمت شيئاً اليوم ووالدتي تقول انها الكة صحتها فما يمنعني عن الاستراحة قليلاً في قصري الصخري · وكان شوقه الى ذاك المكان قد اعاره اجنحة فما عتم ان بلغ الممر الموصل الى الكهف فدخله وهو يحاذر ان يراه احد فلماصار داخله سري عنه وابرقت اسرته وصاح بملء صوته قائلاً هوذا قد عدت الى مملكتي وكم كنت مشتاقاً اليها فما اسعدني الآن · وكأنه تذكر شيئاً فتوقف بغتة وقال ألم تقل لي والدتي انه انما ينال السعادة من ينكر نفسه فقط ألم اعاهد نفسي التعود على الحاجة وعلى ان اجد السعادة في حرمان نفسي مايسرها · ألم اعقد النية على ان لا اسير على بساط من الورد بل على الاسل فتعتاد رجلاي الألم وها انا كطفل جاهل اسر بان اوجد في كهفي وعلى عرشي المنفرد · لا · لا والف لا · انه يسرني البقاء هنا ولكن يجب ان انكر نفسي مايسرها · اني اود ان ابقى في كهفي واسرح طرفي بين الجو الازرق والبحر الجميل واتعلم الدرس المرسوم عليهما ولكن هذا جهل مني فخير لي ان اسمع احاديث غيري من ان اقصها على نفسي · ثم قفل راجعاً من حيث اتى وقد عزم على الذهاب لسماع القصاص المشهور الشاعر فسار مسرعاً لا يلوي على شيء وكأنه يهرب من ذاته مخافة ان يستولي عليه حب الذات فيعود الى الكهف ويردد بصوت منخفض قائلاً قد بدأت بنكران ذاتي فيجب ان اسعد

وما سار طويلاً حتى اتى في طريقه حسان الشوربجي تحف به حاشيته فلما

وقع نظره على محمد علي بش له وحياه فرد محمد علي التحية بمنتهى الوقار والتبجيل فقال له حسان — لقد ساقك الي القدر يامحمد علي لاني ارسلت في طلبك فان ابني عثمان المريض رأى يماماً طائراً في الفضاء فاشتهى الحصول على شيء منه ولو كله مشوياً مع علمه بصعوبة الحصول على ذلك واحب شيء الى الانسان ما منعا فلعلمي بانه ليس من يفوقك في استعمال البندقية ولرغبتي في انالة عثمان متمناه امرت باستدعائك عسالك تكرم فتقوم لي بهذه المهمة · فاجابه محمد علي قائلاً — ان اعظم مسرتي ان اقوم باية خدمة لسيدي عثمان فارجوك ان تعلمه بذلك وها انا ذاهب لآتي ببندقيتي وبعد ساعة آتيك بما يتوفق لي صيده

وما كاد ينهي حديثه حتى جعل يعدو الى كوخ امه فتناول البندقية وحشاها وسار في طلب اليمام ولم تمر الساعة حتى عاد يحمل اربعاً منها وهو يقول ان انكاري ذاتي اليوم قد افادني ايضاً وسيكون جزائي سرور عثمان بحصوله على مرغوبه · ولما بلغ قصر حسان آغا الشوربجي وجد في الباب عبداً ارمنياً ينتظره فانحنى امامه وقال — ان سيدي عثمان ووالده ينتظرانك في الحديقة وقد امراني ان ادخل بك عليهما حال وصولك فاتبعني · ولم يكن محمد علي قد دخل تلك الحديقة من قبل فاجتاز بين خمائل الزهور والرياحين وقد فاح شذاها فكاد يطير فرحاً لتمكنه من الدخول الى هذا الفردوس الارضي ولكنه لم يظهر على نفسه التعجب وسار برزانة وعدم اكتراث حتى وقف امام سرادق مزين بالذهب وفي داخله سرير توسد عليه عثمان المريض والى جانبه والده جالساً على كرسي فاخر · ولما وقع نظر عثمان على محمد علي قال لابيه — انظر يا ابتي ما اجمل هذه الملامح وما ابدع تركيب هذا الجسم فهكذا ليكن الشباب والا فلا فان محمداً من سني ولكن انظر الى هذا الفرق العظيم في جسمنا · فاجابه الاب باسماً وقد اخفى تنهده عجّل الله شفاءك يابني فتصير

لمحمد علي عافية وقوة · ثم اشار الى محمد علي ان يتقدم وقال له ــ هل انجزت وعدك واحضرت اليمام ؟

فقال – نعم وقد صادفني التوفيــق وهاك يامولاي عثمان ماتريد

فاتكأ عثمان على وسادته ومد يده الناحلة فصافح محمد علي وقال له ــ قل لي لماذا لاتكثر الترداد اليَّ الا تعلم اني اسر جداً بلقياك

فقال محمد علي ــ اني اتوق الى ذلك ياسيدي ولكنه ليس لفقير مثلي ان يتطاول الى معاشرة الاغنياء والنبلاء

قال ــ وماذا تعني بالاغنياء والنبلاء انما انت الغني يامحمد لانك صحيح الجسم شديد القوة تطيعك مخلوقات البحار وطيور الهواء فانت قوي والقوة هي النبــل

ولم يستحسن الشوربجي هذا الاطراء من فم ابنه فقال ــ حسبك ياعثمان مالك من الغنى والشرف اما الصحة فستنالها قريباً باذن الله · ثم تناول اليمامة من يد محمد وجعل يقلبها وينظر الى ريشها الجميل وهو يقول انها لاتزال فيها حرارة الحياة وقد كانت منذ ساعة تتمتع بلذتها فجاءها ابن آدم بحيلته فاماتها وقضى على سعادتها · اني اشكرك يامحمد علي لاسراعك في تلبية طلبي فاقبل مني هذا الجزاء قال ذلك ومد يده الى جيبه فاخرج قطعتين من الذهب ودفعها اليه · فتأخر محمد علي الى الوراء وقد احمر وجهه وبانت عليه علائم الغضب ولحظ عثمان ذلك منه فاشار اليه ان يتقدم نحوه وقال له ــ قد نسي والدي ان يخبرك عما نقصده من اعطائك هذه النقود · انني اعلم انك جئتني باليمام تلبية لطلب صديق وليس لمقاضاة الثمن وكفاني برهاناً على صداقتك مافعلته معي بالامس مما لا انساه قط مدى الحياة

فقال الشوربجي بتعجب ــ وماذا فعل ياعثمان ولماذا لم تخبرني

قال ـ لم اخبرك بما حصل مخافة ان توبخني فاني منذ مدة امرت اثنين من الخدم ان يحملاني بحسب اشارة الطبيب الى التلال وجلست تحت الشجرة التي احبها وامامي البحر بحا كي بهديره سجع الحمام فنظرت الى الافق عند نقطة التقاء السماء بالارض فكنت اقرأ فيه ماتنشرح له نفسي واذا بالجو قد اسود منذراً بالمطر العاجل ولم يكن ذلك في الحسبان لنستعد له فارسلت الخادمين على الفور ليحضرا لي نقالة ويحملاني فيها الى البيت خوفاً من البلل الوخيم العاقبة علي . ولم يكادا يذهبان حتى هطل المطر وكانت نقطه الكبيرة تتساقط عليّ من خلال اوراق الشجر فشعرت ببرد شديد وايقنت بسوء العاقبة واذا بوقع اقدام وكان محمد علي ماراً فلما راٰني على تلك الحال ادرك خطر بقائي تحت المطر فظللني بجسمه بالرغم عني ووقاني شر المطر والبرد . ولما رجع الخادمان كان قد تبلل كل جسمه فتوسلت اليه ان يرافقني الى البيت فلم يقبل والححت عليه ان يقبل عطية مني فرفض وقال ليس تبللي هذا الاغسلة سررت بها ولكنك لو تبللت انت لتاذيت . ثم تركني وفر هارباً حتى لايسمع شكري له

فلما سمع الشوربجي ذلك قال ـ لقد احسنت يامحمد علي ووقيت ولدي من عاقبة البلل فاشكرك على صنيعك وصار يحق لك عندي مكافأة عظيمة وساعطيك ثوباً جديداً تلبسه عوض هذا الثوب البالي

فقال محمد علي ـ اشكرك يامولاي اما الثوب الجديد فلاحاجة بي اليه لان ثوبي هذا الرث حفظته لي والدتي عن ابي فلا اريد ان اغيره لانه يذكرني به

قال — اذاً خذ هذه الدراهم التي قدمتها لك فهي لاتزال في يدي

فقال محمد علي — وهذه ايضاً لا استطيع قبولها يامولاي لانني لم افعل سوى ما يجب علي فعله ولا احب ان آخذ اجرة للقيام بواجباتي

فقطب الشوربجي وجهه ولكنه قبل ان يتكلم سبقه عثمان فقال بل ياعزيزي محمد علي يجب ان تأخذ هذه النقود للغرض الذي سأقوله لك وقد قلت لك منذ هنيهة ان والدي نسي ان يخبرك عن القصد من اعطائك اياها . فقد سمعت ان قصاصاً جديداً جاء البلدة والجميع يطنبون كثيراً في مدحه ويقولون انه يفوق جداً الشاعر محمد . ولا خفاك ان محمداً كان يجلس في وسط السوق ويقص على الناس الاحاديث السالفة وتاريخ مملكة الاتراك . فهذا الشاعر الجديد قد جاء من الاستانة واحاديثه على مايقال غاية في اللذة والحسن ولكنه لا يجلس في السوق بل قد اكترى له محلاً مخصوصاً ولا يسمعه الا من يدخل اليه بعد دفع الرسم المفروض وقد احببت ان اسمعه بنفسي غيران والدي لم يسمح لي بذلك وهو يقول ان سماع القصص يهيجني وان الهواء الفاسد في ذلك المنزل يضر بي فأحببت ان تقبل هذه الدراهم من والدي لتذهب بالنيابة عني فتدفع الرسم وتأتي كل يوم فتقص علي ماتسمعه بالامس . وانا اعتقد انك لاتضن علي بهذه الخدمة ايها العزيز فانت تعلم انه ليس لي صحتك وقوتك ولا اقدر على تسلق الجبال او الجلوس على الصخور اتمتع بسماع هدير البحر ومشاهدة الامواج كما تفعل انت بل انا مطروح على فراش سقمي . هذا كل مايسرني يجب ان يؤتى به اليَّ فهلاً اتيتني يامحمد بهذه التسلية التي اتوق اليها

فتأثر محمد علي من كلام الفتى المريض فمد يده وتناول يد عثمان وضغط عليها بلطف وقال والدموع تترقرق من ماقيه - قد قبلت الدراهم يا سيدي وساذهب لسماع الشاعر الجديد وارجع اليك في الغد وكل يوم اذا شئت فاقص عليك ما اسمعه وساكون سعيداً لقيامي بهذا الامر الذي يسرك . فشكره عثمان واخذ الدراهم من والده فدفعها اليه وطلب منه ان لا يتأخر عن زيارته في الغد وان يجتهد في حفظ

جميع ما يسمعه من الشاعر القصاص فاخذ محمد علي الدراهم شاكرًا ثم انحنى مودعـًا وخرج لا يستلفت نظره شيء مما يحف به من العظمة والجلال وقد نسي كل شيء الا شوقه الى سماع القصاص وعودته الى عثمان في الغد

ولما آن الموعد المعين توجه محمد علي الى منزل القصاص فرأى جمعـًا غفيرًا في دائرة حول الرجل وكلهم ينتظرون الحديث وكأن على رؤوسهم الطير فدخل وانسل بين الحضور حتى بلغ مجلساً محاذيـًا للقصاص فجلس وبعد هنيهة بدأ الرجل بالحديث فقـال:

قصصت عليكم لمحة من التاريخ القديم وشرحت لكم عن قوة دولة الاتراك وباسها وعظمتها اما الآن فسانتقل بكم الى ذكر الممالك البعيدة والاصقاع الشاسعة التي ضمها جلالة السلطان الى مملكتنا بقوته وبطشه فاولها مصر وهي بلاد في عبر البحر وستعلمون انه باذن الله وبركة رسوله قام خليفته ولي نعمتنا السلطان سليم ثبت الله عرشه الى الابد بما تعجز عنه ملوك العالم باسرها . وقد ذكرت لكم بالامس شيئاً عن اصل تلك المملكة والحروب التي اثارها البرابرة فيها وانتهائها باستيلاء العرب عليها وكيف ظلت امارة تحت رعاية الخلفاء الراشدين ثم الامويين ثم العباسيين حتى استقل بها احمـد بن طولون التركي ثم افضت حكومتها الى محمد الاخشيد وهو تركي الاصل أيضاً واتصل بعده الى عبد اسود يسمى كافور وادعى ان الاخشيد قلده الولاية من بعده وعضده الجند في هذا الادعاء فدانت له الرعية . غير ان هذا ايضاً لم يدم له الهناء فزحف اليه عبيد الله المهدي من سلالة علي بن طالب رضي الله عنه وكان قويًا شجاعاً فجـاء بسفنه من بلاد المغرب الى الاسكندرية وهي مدينة عظيمة شهيرة على شاطىء البحر ثم انزل عساكره الجرارة وفي مقدمتها الراية الخضراء الموروثة عن جده علي فاستولى على الاسكندرية اولاً وجعل يمد سلطته شيئاً فشيئاً غير ان القدر لم يطل في حياته فقام بعده حفيده المعز لدين الله فأتم اخضاع مصر بمئة الف جندي سيرهم بقيادة قائده جوهر في البادية الى الفسطاط المدينة العظيمة التي بناها فاتح مصر الاول عمرو بن العاص فاستولى جوهر على الفسطاط وبنى بالقرب منها مدينة اخرى تفوقها

عظمة سماها القاهرة . ثم نقل المعز عرشه اليها واسس في مصر الدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة ابنة النبي وامرأة علي جده . وما زالت القاهرة تزهو بالعلم والصناعة وتزداد غنىً ومجداً حتى فاقت بغداد التي لم تعد تذكر بالنسبة اليها . ولكن لم يكن الفاطميون احكم من العباسيين الذين حكيت لكم عنهم بالامس فطغوا وتجبروا ولم يجعلوا للرحمة والعدل محلاً واكتفوا بادعائهم انهم من سلالة النبي بدلاً من ان يتبعوا اوامره ويحترموا حقوق اخوانهم . غير ان احدهم المدعو الحاكم بامر الله لم يكتف بذلك فقط فادعى النبوة ودعا الناس الى الايمان به فلما انكر اهل القاهرة ذلك عليه امر الجنود فاحرقوا نصف المدينة ونهبوا النصف الآخر . وكان الحاكم بأمر الله يذهب في كل يوم الى جبل المقطم الواقع على ضفة النيل فيختلي بالله على زعمه فيكامه كما كان يكلم موسى قديماً . وحدث يوماً انه ذهب كعادته الى جبل المقطم ولم يرجع وبحث عنه جنده فوجدوا جثته مقطعة بالخناجر . وكانت مدة حكم الفاطميين مئتي سنة فسلط الله عليهم الكفرة عقاباً على تجروئهم على الله ورسوله فقهروهم واستولوا على البلاد فجعلوها تحت الجزية وكان هولاء الكفرة يدعون انفسهم الصليبيين ويلبسون على صدورهم واذرعهم اشارة الصليب ويرسمونها على راياتهم . وآخر الخلفاء الفاطميين خليفة اسمه العاضد وكان ضعيفاً فاستنجد جاره أمير الشام واسمه نور الدين فانجده بجند في جملتهم قائد كردي الاصل اسمه صلاح الدين فترقى صلاح الدين في بلاط الخليفة حتى صار وزيره واستبد بالحكومة وأمات العاضد غماً واستلب الملك له فكان مؤسس الدولة الايوبية

الفصل السادس

المماليك

ولما بلغ القصاص الى هذا الحد من روايته توقف قليلاً واجال نظره بين الحاضرين ليرى تأثير حديثه عليهم . وكان الجمهور يصفق له استحساناً و ينشطه و يطلب منه المزيد فتبسم اعجاباً بنفسه وعاد الى تتمة روايته فقال :

ولم تطل مدة الدولة الايوبية ايضاً فكانت اقصر عمرًا مما سبقها ولم يملك فيها سوى بضعة سلاطين فقط لم يكن همهم سوى البذخ والابهة واقتناء العبيد والاماء والانصراف الى الملاهي . وظهر في ذلك الحين جنكيزخان المغولي فضم اليه اقواماً عديدة من التتر وسار بهم على ضفاف الدجلة فشطوط بحر قزوين وكان يسير في اثره الدمار والخراب لانه لم يخرج من بلاد الا تركها بلقعاً مقفرًا وسكانها عظاماً منثورة ورمادًا . ولما كانت جنوده من القتل والنهب وسفك الدماء نزل بهم بلاد الجركس فجعلوا يقتنون المماليك ليبيعوهم الى الايوبيين واشترى أحد الايوبيين اثني عشر الف مملوك وجاء بهم الى مصر فالبسهم الحرير المطرز واعتنى بهم فنموا وتكاثروا مع الزمان ونشأت عنهم امة كبيرة اطلق عليها لقب المماليك وجند منهم السلطان فرقة لخدمته الخصوصية فقويت شوكتهم حتى وقعت هيبتهم في نفوس العظماء وخافهم السلطان . ولما رأوا المنعة التي اصبحوا فيها خلعوا مولاهم عن ملكه وقتلوه فكانت بذلك آخرة الدولة الايوبية وسكروا بخمرة انتصاراتهم وكانوا جميعهم سفاكي دماء ظالمين فكثر في ايامهم القتل والنهب ولم يرعوا حرمة ولا خفروا ذمة فكان عندهم الامير والصعلوك سيين على شرط ان لا يترفع احد امامهم فتفردوا بالتصرف في البلاد على ما يريدون وكان دينهم القتل وشريعتهم السيف فطغوا وتجبروا وكأن الله سبحانه وتعالى لم يطق حكمهم الجائر فسلط على بلادهم الاوبئة والجوع فزاد البلاء وعم الشقاء . وكان هؤلاء المماليك في بادىء امرهم وثنيين اميين اكرهوا على الاسلام فلم يتعلموا غير قراءة القرآن وكان همهم الوحيد استعمال السيف وركوب الخيل والتزلف الى ساداتهم والخضوع لارادتهم فكان اذا نبت عذار المملوك منهم حرره سيده وجعل له رتبة الرئاسة ليرأس غيره من المماليك الذين لم يتحرروا بعد فطمحت عيونهم الى الرفعة واستخدموا ما شاءوا من التمليق والفتن والخيانة والدسائس لنيل مرغوبهم فكان منهم الاغنياء والبكوات والامراء . وكانت تقاس سطوة الواحد منهم وشدة باسه بكثرة عدد الحاشية التي تسير وراءه فصاروا يكثرون من الخدم والعبيد والاماء والخيول العربية والسيوف الشامية والجواهر الغالية والشالات

العجمية حتى اصبح بينهم اغنياء لاتحصى ثروتهم. ولما لم يكن لهم رادع ديني ولاادبي انغمسوا في الملذات والشهوات واتباع الرذائل حتى في رابعة النهار. وكانوا يستخفون بسواهم من البشر فيركبون الخيول و يطلقون لها الاعنة في الاسواق فتمر احياناً فوق اجسام الناس وهم لايهتمون ولا يسألون وانحصرت قوتهم في هذه الشهرة فصاروا اذا هجموا على عدو وكان قد هاب شهرتهم ورأى هجومهم كالذئاب الخاطفة تراجع عنهم ففرقوه ايدي سبا ونكلوا به تنكيلا واذا كان العدو ممن لم يهتم بهم وثبت امامهم في اول كرة ولوه اقفيتهم وفروا هاربين

ولم تحتمل البلاد المصرية مثل هذا الضغط الشديد والعذاب المر فبلغ انينها السماء وكان الله شفق عليهم فانقذها بعد مئتين وخمسين سنة لعهد المماليك بواسطة آل عثمان الذين كانوا قد دوخوا البلاد واخضعوا الامصار لسلطتهم وعبروا البوسفور فنصبوا عرشهم على شاطئه الغربي في مدينة استانبول العظيمة وزها ملكهم فيها الى ان حولوا جامعها العظيم الفخيم الى كنيسة دعوها مسجد اياصوفيا. ولما كان آل عثمان في زهاء مجدهم سمع السلطان سليم الاول بامر المماليك فاخذته الحمية والغيرة لله ولرسوله فسار بعسكر جرار وهو يدوخ البلاد التي يمر فيها حتى بلغ مصر وحاصرها ولم يلبث المماليك بعد الدفاع الشديد ان خضعوا لسلطته صاغرين فدخلها وايد فيها السلام. ولما رأى السلطان ذل المماليك وانكسارهم توهم انهم قد اذعنوا له وخضعوا لامره واحترموا رايته التي رفعها فوق ابراج القلعة اكتفى باخذه عليهم يمين الطاعة واطلق لهم الحرية عوضاً عن ان يسحقهم سحقاً و يريح العالم منهم ولم يكتف بذلك فقط بل ارجع اليهم شيئاً من سلطتهم السابقة وامر ان يكون بين الموظفين من الاتراك اربعة وعشرين موظفاً من المماليك ظاناً ان وجود قوتين مختلفتين في البلاد يحفظ ميزان النفوذ فيها فقويت شوكة المماليك وعينوا لهم رئيساً سموه شيخ البلد كان له من النفوذ ما للباشا نائب السلطان وكان من رجال الحكومة اغوات هم رؤساء الوجاقات السبعة التي يتألف منها جيش مصر. وزادت سطوتهم فزاد بطشهم ولم يكن لظلمهم واستبدادهم حد وازدادت قوتهم حتى خلعوا نير الطاعة للسلطان وطردوا الباشا من مصر بتدبير

رئيس لهم يدعى علي بك فنادى بحرية مصر.وهو بالحقيقة قد زاد في استعبادها لمقاصده يستبد فيها كما يشاء وراسل بعض امراء الكفار راغباً في عقد المحالفات معهم خوفاً من سطوة السلطان . ثم سار بجنده الى الحجاز وجرد سيفه على المدينة المكرمة واستولى عليها فاشتد اعجابه بنفسه وتغطرسه وأمر ان يلقب بسلطان البرين والبحرين ولما كانت عين الله لا تنام عن ادراك الظالمين ومجازاتهم بشر اعمالهم فقد لقي علي المذكور عاقبة طغيانه اذ قتله احد عبيده وكان يثق به كثيرًا واسمه محمد ابو ذهب فملك مكانه ولم تطل مدة سروره ولاحقته جريمته فاصبح يتخيل بالليل والنهار مولاه المقتول قائماً امامه يداعيه فناله من ذلك نصب شديد انتهى بفقد صوابه فانتحر

ولم ترجع مصر بعد الحوادث المذكورة الى ظل حماية سلطاننا بل تنازع الملك فيها ثلاثة من كبراء المماليك وهم مراد بك وابراهيم بك واسماعيل بك وكل يؤيد دعواه وينسب الى نفسه الحق في الحصول على لقب شيخ البلد وكان اسماعيل اضعفهم فاتحد الاولان عليهِ وقهراه وقتلاه ولما اتفقا استتب لهما الامر في كل بلاد مصر فاصبحا عزيزي الجانب ليس لهما في سلطتهما منازع . ولا يزال هذان المملوكان مراد وابراهيم حتى الساعة في مدينة القاهرة العظيمة وقد ارتقيا من طبقة العبيد المماليك الى طبقة الابطال فطبقة الامراء

الفصل السابع

احلام المستقبل

اكمل القصاص حديثه فانصرف الجمع بين الاستحسان والاستغراب وبقي محمد جالساً شاخصاً ببصره الى مكان القصاص كانه لا يزال يراه ويسمعه وقد غاص في تأملاتهِ الى ان نبهه سكون المكان فنهض ومشى مفكرًا فيما سمعه عن سيرة المماليك ونسي كل شيء سواه فلم تخطر بباله والدته مع انهُ كان شديد القلق عليها ولم يهتم بالغلمان ارفاقه فلم يرهم مع وجودهم في طريقه ولم يذكر كهفه او فردوسه الذي كان

يحن الى هدوه وانفراده بل سار توًا الى الاكمة الصخرية فجعل يتسلق مفاوزها كالوعل الشارد حتى بلغ الى اعلى قمتها المدعوة اذن بوسيفالوس حيث لا يراه ولا يسمعه احد غير الله فارسل بنظره الحاد الى منتهى البحر الواسع حيث يلتقي بالافق ثم مد زراعيه كانه يتوق الى ضم حبيب وصاح بصوت دوى صداه في نقر الصخور فقال — اليك اليكِ ايتها الارض البعيدة مصيري . نعم سأذهب الى ارض السعادة والحظ . الى الارض التي يصير فيها العبيد ابطالاً والابطال امراء . ستتحقق احلامكِ يا اماه فانشئ لنفسي هنالك مملكة وابني قصورًا واجلس في ذراهـا مجردًا سيفي فتجثو الشعوب امامي . ساسير الى بـلاد العظمة والمجد فانهـا منذ آلافٍ من السنين قد ساعدت مريديها وجعلت اصحاب الهمّة فيها حكامـًا وامراء . نعم نعم قد وجدت ضالتي فساوجه فكري لاتعلم كيف احكم البشر واصير نفسي اميرًا تخر لهيبته الامراء

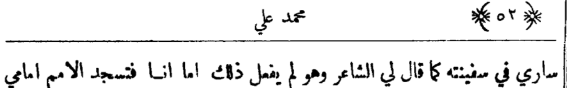
وغاص محمد علي في هذه التأملات فانسته ما هو فيه وكان في تلك النقطة المرتفعة اشبه بنسر سابح في الفضاء يشرف على الارض من سماه . وفيما هو يسرح طرفه في الافق رأى نقطة سوداء لا تكاد ترى وعرف انها سفينة قادمة الى البر ثم جعلت تقترب رويدًا رويدًا وهي ترقص على سطح الماء ناشرة اشرعتها كاجنحة الطير فسره هذا المنظر وقال لنفسه انني سأملك أيضًا سفينة تنقلني على ظهرهـا حيثما ذهبت وتسير باوامري

ولما قاربت السفينة مرساها تألب اهل البلدة على الشاطئ للتفرج عليها لانه قليلاً ما كانت السفن تزور بلدتهم وليس فيها من اصناف التجـارة سوى تبغها المشهور فلم يزرهم من السفن الاّ واحدة في كل ستة شهور كانت تأتي من الاستانة وترجع اليها حاملة اموال الضرائب التي جمعها حاكم البلدة باسم السلطان . ولما بلغت السفينة الشاطئ علم الجمهور انها ليست السفينة المعتاد قدومها ورأوا على ظهرها رجلاً تركيًا عليه امارات العظمة والسؤدد وقد اتكأ على طنفسة من الحرير واحاط به الخدم والاماء بحللهم البهية وبعضهم ركع امامه وفي ايديهم مراوح من ريش الطاوس والناس شاخصون الى هذا المنظر يتساءلون من عسى ان يكون هذا الزائر العظيم وما

هو سبب قدومه . وما كادت السفينة تلقي مرساتها حتى انزل منها قارب ركبه ثلاثة رجال وتوجهوا الى البر فلما بلغوه ساروا في طريق قواله يمرون بين الجماهير المجتمعة لا سلام ولا كلام كانهم لا يرون احدًا . اما الرجل العظيم فبقي على وسادته فوق ظهر السفينة يدخن التبغ بشبق طويل قد رصع طرفه بالجواهر الثمينة

وكان لا يزال في فؤاد محمد علي شيء من التأثير الذي استولى عليه عند سماعه حديث القصاص فتعجب مما رآهُ وادهشه ذلك المنظر فنزل من قمة الصخر حيث كان وصار بين الجموع كانه يتوقع سماع بعض الاخبار عن تلك البلاد التي صمم على اخضاعها. ونظر الى ظهر السفينة وتأمل ذلك المتكيء ثم قال في نفسه هكذا ستكون حالتي يومًا ما اذ اصير اميرًا فاتكيء على الطنافس الحريرية وتحيط بي العبيد والاماء ولو اطلع الوقوف حوله على ما يجول في نفسه حينئذٍ من الآمال والاماني البعيدة لاغربوا في الضحك وعدوه فاقد العقل فانه كان واقفًا بينهم في سراويل رثة تقطع اسفلها فوبطها عند الكاحل وفي رجليه حذاء من الجلد الاحمر وعلى جسمه قميص رثٌ قد غيرت لونه الايام وتمنطق بشال لم يبق لالوانه اثر وتعمم بكوفية بالية فوق طربوش كبير يغطي اكثر شعره الاسود وبالاجمال فانه لم يكن في ظاهره قط ما يشفع في امانيه او يتحقق اماله وهو ينظر الى الرجل العظيم الجالس على ظهر السفينة ويقول بنفسه ساصبح يومًا اعظم منك

ولم يكن الا ريثما بلغ الثلاثة الرجال قواله حتى عادوا منها يتقدمهم حسان الشوربجي حاكم البلدة ووراءهم العبيد تحمل محفة ثمينة الفرش مزركشة بالذهب والفضة فدخل الحاكم حسان والرجال القارب فنقلهم الى السفينة واسرع حسان حتى صار امام الرجل المشار اليه وانحنى وسلم فاجابه ذلك باحناء رأسه قليلاً ولم يتحرك من مكانه فزاد استغراب الجمهور عندما رأوا حسانًا الشوربجي حاكمهم واعظم رجل في بلادهم يحترم ذلك الرجل المجهول وهو لا يكاد يلتفت اليه . اما محمد علي فنظر شزرًا وقال في نفسه اني ساصير اعظم من هذا الرجل فانه ليس اميرًا والا لوجب على الحاكم ان يخر على وجهه امامه الى الارض ولو كان اميرًا لخفقت رايته فوق اعلى



ساري في سفينته كما قال لي الشاعر وهو لم يفعل ذلك اما انا فتسجد الامم امامي الى التراب

ثم قام الزائر وسار متكئاً على كتف الحاكم وهذا يعد ذلك العمل نعمة عظيمة حتى بلغا السلم فنزل الحاكم اولاً ليقوم بواجب المساعدة في النزول واسرع الخدم ففرشوا القارب بالطنافس والاوسدة المطرزة بالحرير والذهب فجلس الزائر عليها ووقف حسان بين يديه يخاطبه بمزيد الاحترام تحف بهما العبيد بالمراوح الثمينة الى ان بلغ القارب البر فترجل الجميع ووقف حسان الشوربجي مخاطباً الجمهور فقال اجثوا جميعكم وحيوا بالاحترام مولاكم الوزير الخطير خسرو باشا فسقط الجميع جاثين وكأن على رؤوسهم الطير ريثما مر الباشا والحاكم قاصدين قواله الا محمداً فانه لم يجث بل اختبأ وراء صخر هناك وجعل ينظر تارة الى الباشا وطوراً الى الجمع الجاثي وقد استخف بذله . ولما غاب الموكب عن النظر ظهرت حريم الوزير وتراكض الخصيان فاسرع اثنان منهم الى البر ليعدا ممراً لهنَّ ثم سارا في الشوارع يأمران الرجال بالاختفاء ريثما يمر هؤلاء . ولما انتهى كل ذلك نزلت السيدات الى البر وسير بهن الى دار الحاكم حيث تنازل الوزير ورضي ان يقيم فانزلن بالقسم المختص بحريم حسان وكان هذا القسم خالياً من السيدات منذ عدة سنين لاشتغال حسان عن النساء بابنه عثمان الذي كان يحبه محبة تفوق التصور . وكان محمد لا يزال وراء الصخر فلما انتهت الجلبة والضوضاء اقترب من الشاطىء ليتمكن من الامعان في السفينة فجعل ينتقدها ويراقب حركات النوتية فيها ثم قال — آه يا ليتني اعرف وجهة سفرها لاذهب فيها ولم يكد يتم كلامه حتى سمع وراءه صوتاً اجفل له وهو يقول — اذا كنت تعني ما تقول فهلم معنا لان السفر لذيذ وانت طويل القامة شديد العضل فما من صعوبة من قبولك . فابرقت اسرت محمد علي قليلاً ثم التفت فرأى المتكلم غلاماً نحيف البنية بلباس الاتراك ولكنه حليق الرأس لا يلبس الطربوش والكوفية فانقلبت سحنته ونظر اليه شزراً وقال له — الست مملوكاً ؟ قال — نعم ولكنني سوف اتحرر لان الربان سيبيعني حيث نحن ذاهبون وهناك اذا كان المرء نشيطاً نال ما يريد

فقال محمد علي — والى اين انتم قاصدون. قال — مصر بلاد الخير والربان ذاهب الى هناك ليتاجر ببضائعه ومن جملتها انا

فقال محمد علي — أإلى مصر انتم ذاهبون ؟ الى البلاد التي يصير فيها العبد بطلاً والبطل اميرا ؟

فتبسم المملوك وقال — نعم واراك قد سمعت بتلك البلاد فلا بدَّ انك سمعت حديث الشعراء والقصاصين فانهم ملأوا الدنيا باخبارها وقد سمعتهم انا في استانبول واحببت ان اقتفي اثر بني جنسي فان المماليك ليسو الا وكلاء البكوات في مصر فانا انتظر ان يشتريني احد اولئك البكوات واذ ذاك اعرف كيف اكون حرًّا آمرًا فشعر محمد علي بلذة في محادثة الغلام فقال له — وهل تتأكد ان تجد من يشتريك في مصر ؟

قال — لا شك في ذلك لانني احسن ركوب الخيل الى الدرجة القصوى ولا يسبقني احد في ركوب الخيول عارية وتذليل الجامح منها حتى انني مرة قطعت رأس حصاني بسيفي وهو في اشد عدوه . ولي مهارة تامة في استعمال السيف والرمح فهذا كل ما يلزمني واملك لا تصدق كلامي وتراه لا ينطبق على ظاهري فاعلم انني في الرابعة عشرة من عمري وان اكن اضعف منك جسماً واقصر منك قامة فلي قوة الابطال وسأنال بقوتي ما انا طالب

فقال محمد علي — ومن اين انت قادم واين كنت في ماضي ايامك ؟

قال — انا عبد منذ حداثتي وقد حصلت بعض العلم لشدة رغبتي فيه وخدمت سيدًا لي ثلاث سنوات فلم اطق الخدمة وتاقت نفسي الى الحرية فجعلت اعاند مولاي وارتكب الذنوب امامه ليطردني من خدمته فلم ينلني من ذلك سوى العناء وكان يذيقني الضرب الشديد وانا اصبر على ذلك صبر الرجال الكبار النفوس الى ان سئم سيدي من بقائي فباعني ولا تزال آثار الضرب على قدميَّ ويسرني النظر اليها لانها الثمن الذي به ابتعت مستقبلي

وبلغ السرور والاعجاب من محمد علي ان ضحك حتى بانت نواجذه فنظر اليه

المملوك وقال — لا تضحك يا هذا فان للناس اذواقاً مختلفة وقد كرهت عيشتي الاولى بل انا اكره ان اكون مثلك وحيداً بين هذه الصخور الجرداء فساذهب الى مصر وفي مصر انال ما انا طالب

فقال محمد علي — لم اضحك يا صاح الا سروراً واستحساناً فقد رأيت من يسعى في ما انا ساع فيه ولكنني لا اعرف كيف يجب ان ابدأ بنيل ذلك

قال — ولا انا اعلم غير ان ذلك يتوقف علي قدر ما تروق مهارتي في الفروسية واستعمال السلاح في عيني الشخص الذي سيبتاعني . فاذا تغلبت على الصعوبة الاولى وصرت مملوكاً سموت الى العلى ونلت ما اتمنى . واعلم يا هذا ان اسمي عثمان وقد علم بعضهم ما اضمر فاعطوني لقب بك للهزء والسخرية ولكنني ساحصل على هذا اللقب واريهم حقيقة امري واذ ذاك يشتهر امري وتطير شهرتي ولا بد انها ستصل الى هذه الصخور القاحلة فاذا سمعت بسيرة عثمان بك في مستقبل ايامك فتذكر انني كلمتك

فنظر اليه محمد علي باحتقار وقال — اما انا فاسمي محمد علي ابن ابراهيم آغا فاذا بلغك اسمي يوماً ما فاذكر الحالة التي لقيتني بها على هذا الشاطئ . واعلم اني ولدت حراً وسابقى كذلك فلم احن رأسي لمخلوق فاياك ان تنسى اسمي يا عثمان لانه سيبلغك يوماً ان شاء الله . ولما قال ذلك احنى رأسه باحتقار وانصرف فضحك عثمان وقال له بصوت لم يسمعه محمد علي — ما اظن الا انك انت ستسمع بي اولاً ايها الوقح الشحاذ ولا اظنني اسمع اسمك بعد يا محمد علي ابن ابراهيم آغا فاذهب وليرسخ في ذاكرتك اسم عثمان بك

وعاد عثمان الى القارب ومنه الى السفينة اما محمد علي فصعد الى ذروة الصخر ليستريح ويفكر فيما رأى وسمع . وكانت السفينة قد اكملت مهمتها في تلك الجهة فاقلعت للحال وكان محمد يتبعها بنظره الى أن غابت وراء الافق فتنهد وقال قد غابت السفينة وربما لا اراها بعد اما هذا المملوك عثمان أو عثمان بك فيغلب على ظني انها ليست آخر مقابلة بيننا فعساه لا ينسى اسم محمد علي . آه كم احسده على ذهابه

الى مصر . مصر محط رحال امالي فكم كنت اتمنى ان اذهب واياه ولكن يا للعجب يذهب المملوك المقيد وابقى انا الحر على هذه الصخور لا حرية لي في الذهاب نعم يجب أن ابقى من اجل امي

اما السفينة ففي اليوم الثالث من سفرها بلغت المياه الافريقية وقد تحوَّل لونها الى الاخضرار . ثم رست في اليوم الرابع في ميناء الاسكندرية فصعد اليها التجار والنخاسون ليبتاعوا ما تقله من السلع والعبيد وعرض الربان مملوكه عثمان للبيع وجعل ينادي ويقول انه ليس مثله في اجادة الخدمة وتعبية الغليون واطاعة اوامر مولاه . فاستشاط عثمان غضباً وصاح قائلاً — بل اعرف غير ذلك ايضاً . اعرف كيف اجرب القفار على ظهر فرسي بدون سرج ولا لجام . واعرف كيف انتضي سيفي واطير بهِ الرؤوس بضربة واحدة

وكان كبير المماليك مراد بك في حاجة دائمة الى الخدم والفرسان وقد فوض الى النخاسين ان يشتروا له مهما عرض لهم من العبيد الفتيان الاقوياء ليعزز بهم حاميته . فلما سمع احد النخاسين كلام عثمان التفت اليه ورأى في هيئتهِ ما يدل على صدق كلامهِ فرمقه بعين الرضى وقال للربان — بكم تبيع هذا الغلام ؟

فهز الربان كتفيهِ وقال — قد سمعت ما يعرف الغلام فلا تتعجب اذا كان ثمنه باهظاً . وبعد المساومة والمعالجة طويلاً اتفقا على ثمنٍ دفعه النخاس واستلم الفتى فسار بهِ . ولو تمكن محمد علي من ارسال نظره الى تلك البقعة ورأى عثمان يباع كانه كيس من السكر او بالة من القطن . ولو رأى بعد ذلك كيف سر الامير مراد بك بتلك الصفقة الرابحة وكيف ادخل عثمان بين اتباعهِ واعتنى به لافتخر مع فقره ووحدتهِ بكونهِ حرًّا لا يباع ولا يشرى وبكونه لم يخدم احدًا وبانهُ شاعرٌ بما هو مخبوءٌ له من العظمة والفخر بين ثنايا المستقبل

وبينما كان محمد علي على الصخر يشيع بنظرهِ السفينة المسافرة كانت والدته في الشارع الكبير متأبطة رزمة خرجت بها من كوخها تقصد مخزن الموسيو ليون وما صارت اليه حتى رآها هذا فخف لاستقبالها ومد يده مسلماً وقال اهلاً بك يا ست

خضرا فقد كنت بانتظار تشريفك علي أيتها الجليلة المكرمة

قالت — ولمَ هذا التجمل فهلا كلمتني بالمختصر البسيط ام انت تهزأ بي

قال — معاذ الله ان افعل ذلك وانا احترمك كوالدتي وفوق ذلك فانا اعلم الغرض من مجيئك اليَّ فانك تحملين تحت نقابك الثياب المطرزة التي أشتراها لك محمد علي وقد جئت لترجعيها اليَّ

قالت نعم ايها الصديق . أود أن ارجعها لانها لا تليق بي ولم اشاء أن يتكدر ولدي برفضها فانه يسر لمجرد الفكر باني ساتزين بها وعلى ذلك قبلتها حينئذ . أما الآن فارجو أن تسترجعها مني

قال — قد انتظرت ذلك وهوذا الدراهم التي دفعها لي أبنك ثمن هذه الثياب قد ابقيتها لارجعها لك

قالت أنني رجوتك أسترجاع الثياب لا ارجاع الدراهم فاني لا آخذها وقد علمت انك بعت هذه البضاعة لابني بأقل كثيراً من ثمنها

قال — بعتها برأس مالها لانني اعامل محمد علي كولدي . أما قولك أنك لا تأخذين الدراهم فماذا تريدين أن أفعل بها ولا أستطيع ارجاعها له فأني أخاف ان يشتد غضبه فيرفع علي يده وربما فعل ذلك أيضاً اذا علم انني قبلت منك أرجاع الثياب

قالت — انه لا يعلم ذلك وأذا سألني فسأقول له اني أرسلت الثوب الى خياطة توفنه عليَّ لالبسه في عيد الاضحى القادم ومتى جاء العيد المذكور لا اكون هنا فينسى امر الثياب

فقال الموسيو ليون لا تكونين هنا في العيد القادم ؟ والى أين تنوين الذهاب ؟

قالت وقد رفعت يدها مشيرة الى السماء — اكون هناك . فقد حان ان اتبع زوجي حيث هو في حضرة خالقه واشاهد نبينا (صلعم) الذي كثيراً ما رجوت شفاعته في خير ولدي

قال — ما هذا الكلام يا ست خضرا وعلامَ تتوقعين الموت ونحن نود بقاءك

ليس الى العيد القادم فقط بل والى اضعاف امثاله أيضاً باذن الله ·

قالت — انا عالمة بانني مائتة لا محالة وقد دب الموت في جسمي منذ يومين ولو تمكنت من النظر الى وجنتي وشفتي لتحققت ذلك بنفسك ولكنني قد لونتهما ودهنتهما بدهان وردي حتى لا يرى ابني شدة اصفرارهما · فلا تلمني على هذه الخديعة وأن الله نفسه يسامحني على ذلك فقد فعلته مدفوعة بشدة محبتي لولدي فقط · وبما انني لا محالة مفارقة هذا العالم فارجو منك ان تبقي الدراهم معك حتى اذا احتاج اليها ابني يوماً ما فادفعها اليه وقل له انها هدية من والدته ارسلتها اليه مع بركتها ورضاها واوصه ان يحسن استعمالها· اما انت يا مسيو ليون فقد كنت ولا تزال صديقنا المخلص ولذلك اتوسل اليك ان تسهر على ولدي بعد موتي وذكره بمحبتي وقل له ان لا يحزن على فراقي بل يسر انني في خدمة زوجي والده ابراهيم واننا نراقب اعماله فيجب عليه ان يسير بخوف الله ليستدر رضى والديه · فمدني يا مسيو ليون عدني ايها الصديق انك تفعل هذا

فترقرقت الدموع في عيني الرجل وقال · اعدك بشرفي يا سيدتي واتعهد امام الله وامامك اني اعامل محمد علي معاملتي لولدي فاسهر عليه وانصحه واساعده بكل ما في امكاني وهاك يدي عربوناً على هذا التعهد · ولم يكد يلمس يدها النحيلة حتى ارتعش جسمه وقد شعر بالحمى المحرقة السارية في جسمها ولم يشك في أن الموت صار قريباً منها · أما هي فنهضت لتنصرف وقالت ــ اشكرك يا مولاي فقد اطمأن قلبي الآن فتى مت اموت براحة · ويجب ان ارجع الى منزلي الآن وانتظر عودة محمد علي فانه لم يبق لي بعد معه سوى ساعات معدودة ويجب ان اقضيها أو كل ما استطعت منها معه فاستودعك الله

الفصل الثامن

الصديقان

اصبح قصر حسان الشوربجي غير ما كان عليه بعد ان اقام فيه الوزير خسرو باشا فنزل هذا في الطبقة العليا منه وسكن نساؤه في دار الحريم الخصوصية وقطع لهن القسم الاكبر من الحديقة لان نوافذهن تطل عليها فلم يبقَ لعثمان سوى جزء صغير منها وساءه ذلك فشكا همه الى صديقه محمد علي قائلاً - آه يا محمد قد حرمت النزهة والتمتع بنور الشمس والهواء النقي واراني افقد وسائل سروري جميعها فآه ما اصعب الحياة لمن كان مثلي . وكان محمد علي قد جاءه ايتلو عليه ما سمعه من القصاص فالفاه مضطجعاً على سريره فجلس بجانبه واعاد الى سمعه بمزيد الحمية ما حفظه عن حديث المماليك فكان عثمان يسمعه وهوشاخص اليه ببصره فلما فرغ محمد علي قال — ألم يسرك هذا الوصف يا سيدي وألا تود انت أيضاً ان تذهب الى تلك البلاد التي يصير فيها المماليك ابطالاً وامراء ؟

فقال — اواه . لا ادري اني قانع ببقائي هذا متكئاً على سريري فتشرق الشمس عليّ وأنت بجانبي اسمع حديثك

فقال محمد علي — ولكن قل لي ألم تستحسن هذه الاخبار

قال — والله لا ادري وقد لهوت بالنظر اليك عن سماع حديثك وسررت بذلك جداً فاني أنظر اليك يا محمد كأنك شخصي الثاني فأفتكر كما تفتكر أنت وأشعر بما تشعر به واسر عند سماعي اياك تتكلم بفصاحة وحمية لا استطيعها انا واتصور نفسي لو كنت صحيحاً لكنت مثالك تماماً فلذلك اذا رأيتك اكون كأني رأيت نفسي لو لم اكن عليلاً

فقال محمد علي — لا تيأس يا مولاي ولا بد ان تتعافى سريعاً باذن الله فتصير فريداً في قوتك حتى اخضع لك كما خضع لي فتيان البلدة وتفرض عليّ جزاء

اقدمه لك كما يقدمون لي الآن

فرفع عثمان يده وتأملها قليلاً فقال — لا . لا ألا ترى هذه اليد النحيلة الشاحبة اللون كانها زهرة ذابلة انها تصلح للضغط على يد صديق مخلص لا لتمتشق الحسام أو تغالب الامواج القوية كيدك . وقد صرت اقنع بان اعيش كزهرة الحقل أو كالغصن الضعيف لاني لا اقدر ان اعيش كعقاب الجو أو كالجواد القادر أو كمحمد علي . نعم انا اقنع بما قدر لي ولكل من هذه الدنيا نصيب فنصيبي ان اضجع على الارجوان في نور الشمس واسمعك تعيد عليَّ حديث القنصاص وغاية ما ارجوه ان تزورني في كل يوم لا سيما وقد اصبحت تعيساً لتضييقهم عليَّ دائرة معيشتي منذ جاءنا هذا الضيف الثقيل . وقد علم والدي بانقباض صدري فصار يتمنى رحيله عنا مع علمه بان وجوده في منزلنا يسبب لوالدي الفخر والتقدم

فقال محمد علي — وهل تظنه يبقى مدة طويلة في ضيافتكم يا عثمان

قال — ان ذلك يتوقف على اشراق نجم سعده في استانبول فانه واقع الآن تحت سخط مولاه وهو منفيٌّ ريثما يسعى اصدقاؤه في اعادته الى عزه الاول وكان يجب عليه ان يقصد حيث ثار المماليك على الحاكم التركي هناك ولكنه تعود الكسل والانهماك في الملذات فلم يخطر له ذلك وقد لجأ الى هنا

فقال محمد علي بكدرٍ — صرت اكره هذا الرجل ياعثمان فانا احتقر كل من يفضل محادثة النساء ومغازلة الغادات على ركوب الجياد واقتحام غمار الحرب

فقال عثمان ضاحكاً — لا اظنك تبقى على هذا الرأي طويلاً

قال — بل لن اغير فكري وما النساء في مذهبي سوى العوبة يلهو بها الرجل اذا لم يجد ما يعمل والخامل من يجعلهن شغله الشاغل كضيفكم خسرو باشا فيتمرغ على بساط الرخاء بينهن بدلاً من ان يجد في طلب العلى

فقال عثمان — اما ضيفنا خسرو باشا فيصرف نهاره واكثر ليله بين حرمه في الغناء والطرب فواحدة تروح له واخرى تقدم الشبق وغيرهما ترقص الى غير ذلك وهو ينظر اليهن متكئاً على وسادته جزلاً مسروراً

قال — ولعله يظنهن يفعلن ذلك لشدة محبتهن له

فقال عثمان — اظنه يتوهم ذلك ولا انكر ان شفتي المرأة تقطران عسلاً و يبدي وجهها جميع ضروب السرور وان لم يكن ذلك في ضميرهـا ويغلب على ظني اني لو جلست الى احدى اولئك الحوريات تغازلني لشعرت بسرور عظيم وخف ما بي من الالم فاننا نحن للذين لم نولد لنكون ابطالاً لا نقدر الا ان نجيب داعي الغرام اذا دعا وتذوب انفسنا شوقاً الى الحبيب . اما انت فلا اخالك تفهم للغرام معنى

قال — لا . لا افهمه ولن ادع لغرام هؤلاء الغانيات سلطاناً عليّ ما حييت . ان النساء يا عثمان اشراك تصيد الرجل فتسلبه عقله وتجره الى الخمول والخراب ولكن ليس كل النساء نساء فان امهاتنا نساء أيضاً ولا يدخلن تحت اسم الغانيات اللواتي اعنيهن

فتبسم عثمان وقال — لا بد ان تقع يومـاً في شرك الهوى الذي تستخف به الآن . فلا تجتهد في انكار ذلك واعلم ان النبي نفسه قد صبا قلبه ونحن موعودون بالحور اللواتي سيخدمن المؤمنين في الجنة فلا تقل ان الهوى بعيد عنك لانك شجاع وقلب الشجاع لا بد ان يحب . اما انا فلم اصر بعد رجلاً وربما لا اصير قط ومع ذلك فلي حبيب وحيد لن احب سواه

فقال محمد علي — ومن هو هذا السعيد الذي استحق محبتك يا عثمان

فتبسم عثمان ثم مد يده الى تحت وسادته واخرج مرآةً صغيرة لها اطارٌ من الصدف ويد ذهبية فوجهها الى محمد علي وقال هاك صورة حبيبي

فلم يستطع محمد اخفاء تأثره وشخص الى وجه صديقه ثم قـال — اني لا اكتمك الحق يا عثمان ولو كنت حتى الآن لم اتجاسر على ذكره فاني بعد والدتي لا احب مخلوقاً اكثر منك وانا مستعد في كل آن ان افديك بنفسي اذا تنازلت ودعوتني حبيبك فلنتعاهد على حفظ الولاء وهاك يدي اثباتاً للقسم فمتى احتجت الي يا عثمان فادعني واينما كنت البي طلبك . واني اعدك ايضاً اني لا اخفي عنك شيئاً من حالتي فمها اصابني من خير أو شر اعلمك به ولو كتمته عن العالم باسره فهل

تعاهدني على مثل ذلك

فقال عثمان — نعم اعاهدك فاحفظ اتفاقنا هذا سرًّا واني اسأل الله ان يقدرني على ان ابرهن صدق ودادي لك ·

فضغط محمد علي بلطف على يد صديقه ونظر اليه بحب فكان في نظراتها ما يغني عن اوضح بيان

ثم قال محمد — دعني انصرف الآن فقد حان موعد القصاص وسآتيك غدًا فاقص عليك ما سامعه الليلة · فودعه عثمان وهو يقول له الى الغد وانطلق محمد علي مسرعاً تشيعه نظرات صديقه ونسي ان القسم الاكبر من الحديقة محظورٌ عليه المرور فيه وقصد ان يخرج من الباب الخلفي واذا بجورية محجبة اقبلت نحوه يتقدمها خصيان حالما رأيا محمد علي صاحا به أن يخلي الطريق على الفور فوقف ناظرًا اليها بازدراء وقال — ومتى صرتما اصحاب منزل حسان آغا الشوربجي حتى تصدرا مثل هذه الاوامر فلست بمنصرفٍ لامركما بل لمجرد اختياري · ولما قال ذلك رجع حتى قارب سيدتهما فجاز بالقرب منها وهو لا يرفع طرفه اليها · اما هي فوقفت تنظر اليه بعينين سوداوين اشتعلت فيها نار الجوى وتحركت شفتاها الحمراوان فتمتمت قائلة يا لله ما اجمل هذا الفتى وما ابهى طلعته بل ما اشرف نظره وقد مرّ كالسهم فاحرق فوادي

الفصل التاسع

الاختصار

اكثر محمد علي الترداد لسماع حديث القصاص وكان كلما سمعه مرة يخرج وفي رأسه افكار وفي صدره آمال ولم يعد يهتم بشيءٍ من حالة معيشته الاولى وجعل يقول لذاته ما الفائدة في كوني امهر من اطلق بندقية في قواله وابرع من حرك في بحرها مجذافًا او افضل من اصطاد على شواطئها سمكاً · ماذا يهمني كل ذلك ومن يعلم

به سوى بعض التجار الذين يأتون لمشترى التبغ أو جامعو الخراج الذين يأتون بلادنا مرتين في السنة . لا لا فان نفسي تحتقر هذه المفاخرات الصبيانية وتتوق الى نيل آمال اسمى واعظم وهذه لا انالها الا في مصر . وكان يشتد به هيامه هذا فينفرد بنفسه على اعلى قمة من تلك الصخور تدعى اذن بوسيفالوس فينظر الى الافق ويتصور انه يرى تلك البلاد كما وصفها القصاص ويخيل له انه بلغ شاطىء افريقيا وشاهد مدينة الاسكندرية العظيمة وما فيها من الجوامع والمآذن والابراج وامامها مرفأها الفسيح ازدحمت فيه السفن الضخمة وقد زينت جوانبها بالالوان الذهبية وارتفعت سواريها تخفق فوقها الالوية العديدة وحولها مئات من القوارب تسير ذهاباً واياباً كالنمل الزاحف . ثم يخيل له انه اكتشف مدينة القاهرة وقد قامت في وسط صحراء واسعة وبرزت قصورها وجوامعها ومآذنها تنطح الجو وتجول في وسطها الشعوب المختلفة الاصل واللغة بين تركي وعربي ومصري واوربي واميركي ونوبي وحبشي الى غير ذلك

وبينما كان مرة ثملاً بمثل هذه التأملات استوقف سمعه صياح نسر فجعل يبحث عنه بنظره ولما لم يجده وكان قد تكرر الصياح ظن الفاعل عمه طوسون وانه يناديه كما علمه وخطر له ان والدته محتاجة اليه فاقشعر جسمه وهب من مكانه يقفز كالظبي الخائف وسمع الصياح ثالثة فصرخ بملء صوته رويدك يا اماه فقد جئتك ولم يقف حتى بلغ الكوخ وصار داخله

وكانت الست خضرا قد شعرت بدنو الاجل فصارت تتمنى ان ترى ابنها لتودعه وهي تنتحب فسمعها طوسون آغا ونهض من سرير مرضه فجاء اليها ولما علم رغبتها ولم يكن يعلم اين يوجد محمد علي خرج الى امام الكوخ وجعل يردد الصياح المتفق عليه فلما ردده ثلاثاً عاد الى فراشه وقد انهكه التعب . ولما وصل محمد علي اسرع الى والدته فجثا بالقرب منها واخذ يدها فوجدها باردة ونظر الى عينيها الشاخصتين اليه وقال بصوت حزين يتقطع له القلب — اماه . هوذا ابنك قد جاء اليك . ألا ترينه ؟ ألا تسمعينه ؟ اماه قد اتيت اليك فلا تموتي . وكانت روح الامرأة

قد بدأت تفارقها غير انها شفقت على ذلك الولد المسكين فترددت فترة تمكنت بها المائتة من امتلاك حواسها فتكلفت التبسم ورفعت رأسها قليلاً لتقبله وقالت له — نعم عرفتك يا ولدي وقد انتظرت لاودعك قبل ذهابي

فصاح محمد علي بصوت يقطعه الحزن — استحلفك بالله يا اماه ان لا تتركيني.
واستجمعت الست خضرا كل ما بقي لها من الرمق واجهدت نفسها فنطقت بهذه الكلمات لا تحزن يا بني . ولا تيأس يا ضياء عيني . لا استطيع البقاء وقد دب الموت في جسمي منذ ايام فغالبته ما امكن وقد كاد يخمد الان نفسي فاخرته ايضاً ريثما اراك مرة اخرى . وكان محمد قد شهق بالبكاء ولم يستطع كلاماً فتمتمت قائلة — انني في نفسي الاخير اوصيك ان تتشجع ولا تجعل لليأس والحزن سبيلاً الى قلبك فكن رجلاً واذكر الحلم الذي قصصته عليك واهتم بتحقيقه واجعل محمد علي البائس بطل المستقبل وعلى رأسه التاج وفي يمينه السيف كما وعدتني . انني ارى شيئاً من المستقبل وكأني أرى بنيك مكالين بتيجان الملك وامامكم الشعوب الخاضعة لصولتكم نعم ان روحي قد ردت اليّ لاعلمك بهذا

فقال والزفرات تقطع كلماته — اذا كانت روحك قد ردت اليك فمريها ان لا لا تفارقك بعد . اواه يا اماه ان حياتي بدونك ظلام او خذيني واياك فانه لم يعد يهمني الحلم ولا الهاتف ولا النبية . خذيني فنجتمع معاً بوالدي . . .

فقالت — لا . لا . لكل نفس اجل ولكل اجل كتاب . انني ساجتمع بوالدك وحدي الآن فاقص عليه خبر ابنه واعلمه بانك بقيت لترفع اسمنا وتخلد ذكرنا في العالم . فأطع رغبتي وحقق آمالي . وكان قد اجهدها الكلام فانطرحت على وسادتها وهي من الهشيم الجاف فتقطع تنفسها وجحظت عيناها ورأى محمد علي ذلك فارتعب واقترب منها فقال — اماه . اماه بحقك كلميني مرة اخرى فقط

فتمتمت شفتاها قائلةً — سمعتك واجبتك واحبك وقد قوتني محبتك على المجاهدة مع الموت سنة بتمامها تمكنت فيها من اخفاء امري عنك ولو لا ذلك لمتُّ من زمن طويل . وقد حان الاجل الآن فسأسير الى مصير كل حي . فافرح يابني

لسروري لانني سأستعيد صباي واعود الى خدمة والدك كما كنا في اول زواجنا .
واني اتمنى لك يا بني عزاء وسلوى وان يرزقك الله زوجة تحبك كما احببت اباك
وتحن اليك كما حنت اليك والدتك ... فليحرسك الله .... وليمطر عليك سحب
البركة والرضوان .... فاليه اتركك ... وفي يديه استودعك ....

وكان محمد علي قد اقترب منها كثيراً الكي لا تفوته كلمة من كلامها فرآها تحرك
شفتيها وهي تريدان تقبله فقترب منها وتعانقا ثم ارتسم على وجهها تبسم لطيف
واغمضت عينيها ولفظت روحها . واحس محمد علي ببرودة جسمها واصفرار لونها
فاقشعر بدنه وصاح بصوت ارتجت له جوانب الكوخ قائلاً اماه . اماه . اماه .
وسقط مغمياً عليه وعلمت بعض نساء البلدة وجارات الست خضرا بقرب مماتها
فاسرعن الى كوخها للقيام بواجب المؤاساة فلما بلغن الكوخ سمعن صياح محمد علي
وعلمن ان قد قضي على تلك المسكينة فدخلن ورأين الميتة والى جانبها محمد علي فاقد
الشعور فعالجنه حتى افاق فنظر الى جثة والدته ثم الى النساء واندفع الى الباب يعدو
كالمجنون ولم يهتم احد بايقافه . وقد ظنت النساء انه انما خرج ليخفف شيئاً من لوعته
و يعود . واهتمت الجارات بتجهيز الجثة والقيام بما تقتضيه الحال ثم سير بالجنازة
محمولة على الايدي الى المدفن وكانت الست خضرا مع فقرها وانفرادها محبوبة من
جميع اهل البلدة يحترمونها ويكرمونها فاحتفلوا بمأتمها كما يليق بمقامها ولم ينتبه احد الى
غياب محمد علي لاشتغالهم بذلك الفرض المقدس . اما هو فانه لم يعلم بشيء مما كان
لانه لما ترك الكوخ سار الى كهفه او بالحري فردوسه الخفي وقد صمم ان يجعله قبراً
له . ولما دخله انطرح في ارضه وفاضت دموعه فجعل يندب والدته ونفسه و يقول —
قد اصبحت وحيداً في هذا العالم الواسع بلا والدين يعتنيان بي . فقد تركني والدي
في بدء طفوليتي وتركتني والدتي في بدء رجوليتي . فآه ما امر اليتم وآه ما اصعب
الموت . وتغلب عليه الحزن فنام وساد حوله سكون المكان ولم يبق سوى هدير
البحر الزاخر ولكنه لم يسمعه وخرجت الحشرات والزحافات والهوام من مخابئها
فجعلت تسرح في الكهف غير عالمة بمن فيه فوطئت جسمه وهو لا يشعر بها الى ان

ايقظته افعى مرت على جسمه فوثب فجأة ثم عاد الى سكونه وقال علام اخاف الموت وانا اطلبه فقد طالما تمنيت ان ابقى الى الابد في هـذا الكهف الذي لا يعلم بهِ احد سواي . كم مرة جئت اليه يدفعني الشوق ورجعت قبل ان ادخله لانعلم نكران الذات وانال السعادة . فها انا قد انكرت ذاتي مرارًا ولم تأتني السعادة اما الآن فسأنال السعادة بالموت على الاقل وقد وطنت نفسي على ذلك فيجب ان ابقى هنـا الى ان اموت . آه ما نفع المجاهدة في هذه الحياة وما الفائدة من الوهم في تنظار السعادة المقبلة وما اشد جنوني في تخيلاتي وآمالي ولا ارى في الايام سوى زيادة البؤس والشقاء . فلأمت وليهنأ بالعيش سواي . بلى ليحرز المملوك عثمان ما لم يستطع محمد الحر ان يحصل عليه ولكنه سينال الجزاء فالموت بالمرصاد للجميع . ثم نظر من نافذة الكهف الى الجو ثم الى البحر مودعًا وعاد فاستلقى على الارض وهو يقول دع المملوك ينل مرغوبه وليمت محمد علي الحر فموته افضل

وحاول محمد علي ان يجد في النوم ما يسليه ولكنه لم يستطعه وانى له ذلك وقد ذكر المملوك عثمان فهاجت افكاره ولم يعد بامكانه ضبط تصوراته فجعلت تهيم به في وادي النيل مملكة الخلفاء وضريح بعضهم ومقر سلطة المماليك فاضطرب دماغه شديدًا وظن حالته لم تكن سوى نذير الموت ولكنه افاق بغتة على ما انساه الآمال والتصورات فان الجوع الكافر والظماء المحرق عضاه بانيابهما فتحقق ان النفس اذا اشتهت الموت فلا تجده ان لم يوافقها الجسد ايضًا وتذكر انه قاوم سلطان الجوع والعطش مرارًا واراد ان يكون بطلا هذه المرة على الاقل فيقـاوم تلك الحاجة عند موته ولصق بالصخر كانه يستجير به ليحميه من اذعانه الى الخروج . غير انه كان قد وصل الى حالة لم تبق للروح فيها اقل سلطة على الجسم فسار على غير هدىً يريد الخروج فزحف الى فتحة الكهف وهو لا يعلم ماذا يفعل من اضطراب عقله وقد تورَّمت شفتاه وتشققتا من شدة العطش

ولما بلغ خارج الكهف استقبله الهواء البـارد فخارت قواه وانحلت عزائمه فسقط الى الارض وشعر كأنه يسمع صوتاً يناديه فلم يجد قوة للاجابة . وكان ما

سمعه حقيقياً صاحب الصوت المسيو ليون فتقدم حتى صار بالقرب من محمد علي فجثا بقربه وانحنى فوقه وقبله وهمس قائلاً — وااسفاه يا محمد علي ما انت فيه اذا نظرتك والدتك التي احبتك اكثر من حياتها وانت على هذه الحالة أفما كانت تبكي دماً ؟

ثم رأى محمد علي وقد فتح عينيه فقال له — قد علمت انك لم تذق طعاماً وقد احضرت لك شيئاً تأكله وتتقوى به فكل لتعود اليك قوتك . ثم اخرج من جيبه زجاجة خمر سكب منها شيئاً بين شفتي محمد علي وجرب هذا ان يمتنع فلم يقو وابتلع جرعة ثم الثانية والثالثة فطلب اكلاً فناوله المسيو ليون وقد تهلل سروراً عند ما رآه قد استقام تنفسه وانتعشت قواه اما محمد علي فنظر اليه وقال — ماذا فعلت ايها الصديق ولم ارجعتني الى الحياة وانا اريد الموت لالحق بوالدتي

فقبله ليون بحنو وقال — ان امك لا تريد ذلك ايها العزيز وهي تحبك وقد ارسلت اليك هذه القبلة . نعم انها امرت اليّ ضعفها وقالت لي انها ستموت وكلفتني ان احمل اليك قبلة سلام منها كلما لقيتك فهذه القبلة رسالة منها وبها تامرك ان تتشجع وتسر في باقي حياتك

فتساقطت دموع محمد علي غزيرة وكأنها مع سخونتها تبرد لوعته فقال له ليون وقد خنقته العبرات — ابك ايها العزيز فما يخفف احتراق القلب سوى ذرف الدموع ولا يخجل الرجل اذا بكى فكيف الغلام . ثم قعد المسيو ليون على الارض بجانبه وضمه اليه وقال — لا تيأس ايها الحبيب ولا تتصور وجودك فقيراً وحيداً فان والدتك رحمها الله جاءت الي قبل وفاتها وارجعت الي ما ابتعته مني لتهديه لها ودفعت اليّ ما وفرته لك من الدراهم فلك عندي امانة خمسون قطعة من الذهب فهي ملكك الآن ويمكنك ان تتصرف بها كيف شئت الى ان يفتح الله عليك ويرزقك ما انت طالب واعلم انني عقدت لوالدتك عهداً فاذا احتجت الى مساعدة او نصيحة فتعال اليّ وانت لا تجهل اني احبك فسر وتشجع واذكر ان والدتك قد تألمت كثيراً لاجلك في حياتها وان دموعك تزيد في آلامها الآن فدعها تستريح في مقرها

الاخير وقم بنا نذهب سوية وقد فاتني ان اخبرك بان صديقاً اخر محباً ينتظرك في الجهة الاخرى من هذا الصخر

فمسح محمد علي دموعه وقال — ومن هو هذا الصديق ألعله عثمان

قال — نعم فان حالته لا تسمح له بتسلق هذه الصخور كما فعلت انا

فنهض محمد علي وقال — لنذهب اذاً اليه ولا اظنه يهزأ بي اذا رأى اثر الدموع في عينيّ . ثم سارا حتى التقى الصديقان فتعانقا وانحبست السنتهما فامتنع عليهما الكلام ولما رأى المسيو ليون ذلك انسل وتركهما قائلاً — لا يعزي الصديق غير الصديق ولا يجد الحبيب سلوى الا مع حبيبه فلا يجوز لغيرهما ان يسمع شكواهما

ولما ارتوى الصديقان من البكاء مسح محمد علي دموعه وربط جاشه فمد عثمان يده النحيلة واخذ بيد محمد علي وقال له — قد توفيت والدتك ايها الحبيب ولكنها لا تزال حية في قلوب محبيك فهي توصي اليّ الآن ان امد يدي اليك واقودك الى منزلي فهو منزلك أيضاً منذ الان لانني لا اسمح لك بالبقاء وحدك فلا تخالف رغبتي . فاخذ محمد علي يد عثمان وقال — اشكرك ايها الحبيب ولكنني صممت ان لا اكون عبداً لاحد واجبارك اياي هكذا اعده استعباداً

قال — انت واهمٌ يا محمد علي فانا اطلب منك الانقياد لي ليس كعبد بل كصديق أو كأخ وانت تعلم اني وحيدٌ وليس لي من يحبني ويستطيع ان يسليني في وحدتي ومرضي نظيرك

فتوقف محمد علي لحظة ثم نظر الى صديقه نظرة كلها حب واعتبار وقال — هانذا يا عثمان طوع بنانك ولست بعد الان بمستنكفٍ من الاستعباد اذا كان في خدمة اخ صادق نظيرك

الفصل العاشر

خسرو باشا

وكان محمد علي بعد موت والدته يقضي اكثر اوقاته في تسلية صديقه عثمان ويخرج احياناً فيتسلق الصخور للقنص والصيد أو يعبر الى ابيرو لجمع شباك الصيادين أو يركب جياد الشوربجي الجامحة لتذليلها . وكان يجد في كل ذلك لذة عظيمة تكاد تنسيه همومه الكثيرة . وكانت صداقته لعثمان تزداد على توالي الايام فلم يعد يدخر وسعاً في تسليته واجابة مطاليبه غير أنه لم يطعه في امر واحد فقط وهو السكن معه في منزله وقد فضل البقاء في كوخه الحقير فظل مقيماً فيه ينام على فراش والدته ويشرب من كاسها ويستعمل الامتعة التي كانت لها مفضلاً عيشة الفقر مستقلاً على ان يكون غنياً تحت منة غيره . وكثيراً ما توسل اليه عثمان قائلاً — بالله عليك يا محمد تعال الي وعش معي انا اعرف انك تحتقر البذخ وتكره الابهة ولكنني ارجوك ان تضحي هذه الافكار لاجلي واكراماً لوالدي الذي يتمنى ذلك وقد عرف بالاختبار ان وجودك معي يعجل شفائي فانني اذا علمت انك باق بجانب سريري يلذ لي النوم واشعر براحة فائقة لا اجدها متى كنت وحدي ولذلك استحلفك بالله ان تجيب طلبي اذا كنت تود ان اشفى

وحركت هذه التوسلات شعور محمد ولكنها لم ترجعه عن عزمه فقال — ان ذلك ليس بامكاني ايها الحبيب لانني اذا فعلت جلبت لنفسي الحزن والغم بحجز حريتي واذ ذاك يعود الوبال عليك لانني افقد ما بي من اسباب تسليتك واصير سبب كدر واشمئزاز لك يضر بصحتك عوضاً عن كوني الان سبباً لسرورك فدعني اتمتع باستقلالي لاجدد في النشاط والسرور واذ ذاك اتمكن من اتمام واجباتي بقربك عندما اعلم ان مجيئي هو عن رغبتي في تسليتك وليس انه فرض واجب . وفضلاً

عن كل ذلك اذا قبلت ما تطلبه فانني اصير موضوع هزء عبيدك ويعتقدون انهم يخدمونك لانهم مشترون بمالك اما انا فيقولون عني اني عبد لم اشتر بمال فيستخفون بي . فدعني بحقك استقل بامري واحصل قوتي ولباسي بجدي وتعب يدي واعلم انه وان يكن ثوبي خلقاً وطعامي حقيراً فانني افتخر بذلك لانني اتصرف بمالي وما املك وليس بما للغير فاحمل جميلهم . نعم ان غايتي الحرية وهذه الغاية لا احصل عليها الا اذا كنت في كوخي وعلى الفراش المقدس الذي كان لوالدتي

فقال عثمان — انا عالم بابائك وكبر نفسك فيجب ان اوافق اميالك ولو نالني من ذلك الالم فلا اقيدك ولا اجبرك على ان تمتن لي

قال اما ممنونيتي فيعلم الله ان قلبي مفعم بها واني مديون لك بكثير حتى ان والدك نفسه يتنازل فيلاطفني ويجلسني على مائدته كاني مساوٍ له وما ذلك الا نتيجة تفضلك عليَّ

فتبسم عثمان وقال — لا . أنه يفعل ذلك لانه يعلم ضرورة وجودك معي ويخشى ان تمتنع عن المجيء اذا ظهر لك منه عدم اكتراث . وهو يعلم ان صحتي تتحسن يومياً متى رايتك . ان مرضي ثقيل يا محمد وانا سقيم كما ترى حتى ايقنت انني لا أعيش كثيراً ولكنني اراني قد دخلت في سن الرجولية وذلك لاني استعير من وجودك قوة وحماسة فرؤيتك تنعشني وحدة ذهنك تبعث في الحياة فلا تقل انك ممتن مني وانت المفضل علي كما يعرفه ذلك والدي أيضاً فهو يشاركني في شكرك

قال انك تراعي شعوري فتسمعني هذا الكلام اللطيف تكرماً . ولكن الحقيقة لا تنكر والله يعلم ما اضمره لك ولوالدك ولولاكما لم اكن اعرف ما عرفت فقد سمحت لي ان اشاركك في دروسك وسهلت لي سماع حديث القصاص فتعلمت منه تاريخ بلادي وغيرها واطلعتماني على كثير من احوال العالم وأنت تعلم انني اول مرة حضرت فيها تدريسك لم اكن اعلم شيئاً من كل ذلك

فقال عثمان — نعم اذكر ذلك وما كان اسرعك في تحصيل كل ما تعلمت فقد

اعجب الجميع بقوة ذاكرتك ولا يفتر استاذي عن مديحك وهو يتمنى ان يراك كلما اتى اليّ

فتبسم محمد علي وقال — نعم ان الفضل في سرعة حفظي ما سمعته عائدٌ الى ذاكرةٍ قوية وهبنيها الله ولكني يسوءُني أن لا اتمكن من تعلم الكتابة فان اناملي الفت القبض على المجذاف أو البندقية أو زمام الجواد فلا اتمكن من تهذيبها لتحسن امساك القلم

فقال عثمان — لا شك ان في عدم امكانك الكتابة خسارة ولكن كم من علماء يفتكرون ولا يكتبون والفضل للدماغ الذي يملي وليس لليد التي تكتب فدعني اكون كاتب سرك ايها العزيز لان الكتابة توافق يدي الضعيفة فمتى افتكرت شيئاً فامله عليّ واكتبه لك . و يكون ذلك سبباً لنبقى معاً مدى الحياة

قال هيهات ان نبقى معاً يا عثمان ان والدك سيهتم عما قريب بانتقاء عروس لك ومتى تزوجت دخلت دار الحريم وامتنع علي الاجتماع بك و بقيت وحيداً لا اهتم بحبيبة ولا حبيب

فضحك عثمان وقال — ان من يوطن النفس على عدم الوقوع في شرك الهوى يكون السابق الى مهاويه اما انا فلا خوف عليّ من ذلك وأنى لي الاهتمام بالحريم وانا عليل شاحب اللون ضيق الصدر قصير النفس . لا . لا انني لا ارتبط بنساء يكون شغلهن الوحيد تمريضي والسهر عليّ . وكثيرًا ما كلمني والدي في ذلك واظهر رغبته الشديدة في ان اكون ابا عائلة قبل وفاته فلم اجسر على اظهار افكاري لئلاَّ يتكدر بل كنت اصمت حتى توسم في القبول وعزم مؤخرًا على ادخالي الى دار الحريم فلحسن الحظ جاء ضيفنا خسرو باشا فشغل حرمه الدار المذكورة وصرت اتمنى ان تطول الضيافة فيتاخر والدي عن اتمام ما رتبه

فقال محمد علي — اما انا فلا اتمنى ان تطول اقامة هذا الضيف الفظ المتعجرف فقد صرت اكرهه لانه يعد نفسه اشرف مخلوق وجد على الارض ولا يحترم احداً في كل قواله حتى ولا مولاي والدك مضيفه وحاكم البلاد . ولا ادري سبب تكبره

وهو واقع تحت غضب مولانا السلطان ومنفيٌ من العاصمة . و بمناسبة ذلك اخبرك ماسمعته عنه بالامس فقد قيل لي ان القبطان باشي حسين باشا ابتاع هذا الرجل غلاماً واحبه فحرره واغناه واهتم بتعليمه وتثقيفه ثم حمل جلالة السلطان على ترقيته فعمل وابلغه درجة عالية . ولما رأى هذا ماوصل اليه من المكانة العلية نفخ في انفه الشيطان وتطاول الى ايقاع الشر بمصطنعه حسين باشا ليأخذ مركزه فوشى به الى جلالة السلطان ثم حاول ان يميته مسموماً

فقال عثمان — لاتصدق كل ما تسمع ايها العزيز لانه متى سقط الرجل العظيم كثر الذين يختلقون الاخبار عنه ورموه بكل نقيصةٍ . ولو كان هذا الخبر حقيقياً لما امتنع حسين باشا من اعدامه وهو اعظم منه وله عليهِ الامر . وقد اخبرني والدي بحقيقة الامر كما بلغه من استانبول وذلك انه صدر امرٌ سام بتعيين خسرو باشا والياً على مصر فخشي هذا بأس المماليك وامتنع عن قبول التعيين فغضب جلالة السلطان عليه لعدم امتثاله وامر بابعاده . ولم يامر جلالته بتعيينه والياً لاعتقاده بانه اهل لذلك ولكنه شعر بان خسرو باشا يتطاول الى تعشق احدى نساء البلاط وانه يسعى في الوصول اليها بواسطة العبيد والاماء فتأثرهُ ذات ليلة حتى دخل غرفة عشيقتهِ وسمعها يتكلمان فدفع الباب ولم يكن في الغرفة نور فلم يرَ شيئاً حتى امر فجاءوهُ بمصباحٍ فوجد الامرأة وحدها بقرب النافذة فتبسمت له وقالت انها أرقت فجلست امام نافذتها تتمتع بالهواء النقي المنعش وهدوء الليل ورؤية النجوم . فحرّق السلطان اسنانه ولكنه كظم غيظه الى الصباح فاستدعى خسرو باشا وكانت نتيجة المقابلة ابعاده الى هنا رغماً عن مداخلة حسين باشا في امره والتوسط له . وقد علمت من ابي ايضاً ان حسين

باشا لا يزال يسعى في الحصول على العفو عن خسرو باشا فيعود الى مركزه الاول وقد رأى هذا وجوب الاذعان لامر ولي نعمته فارسل يقول انه لا يعارض في رساله الى مصر

فتبسم محمد علي هازئاً وقال — انهُ لايعارض في ارساله الى مصر ؟ وهل رضي اذًا ان يذهب الى حيث ينال المجد و يحسب ذلك تنازلاً ؟ لاشك ان الرجل عديم العقل والا لما رفض ما يبذل سواه حياته في سبيل الحصول عليهِ ·

فقال عثمان — وهل كنت تذهب انت لو كنت مكانه ؟

قال — لو خيرت لرضيت ان افقد نصف حياتي وكل ما عندي لاحصل على مثل ذلك المركز في مصر · آه · آه · لو كنت رجلاً ذا مقام وامرت ان اذهب لسرت توًا الى تلك البلاد العظيمة وقمعت شوكة المماليك وارغمت انوفهم وامتلكت مصر ولكن وا اسفاه لست الاَّ غلاماً جاهلاً احلم بالمستحيل

وما بلغ الصديقان الى هذا الحد من حديثهما حتى رأيا خسرو باشا والحاكم مقبلان عليهما فنهض محمد علي يريد الانصراف وهو يقول — انني لا اريد ان اجالس هذا الرجل العاتي الفظ لان قلبي ينفر من رؤيته · فامسك بهِ عثمان وقال — لا لا تفعل فانهما ينظران الينا ولا يليق ان يراك والدي ذاهباً قبل وصولهِ بل ربما توهم خسرو باشا انك خشيت بأسه وهيبته فهربت من امامه ·

فتوقف محمد علي هنيهة ثم قال — قد اصبت ياعثمان · ثم وقف منتصباً وطوى ذراعيه على صدره ورفع راسه كبرًا وظل بجانب سرير صديقه فلما وصلا وحيا الشوربجي ابنه عثمان انحنى له محمد علي اجلالاً ولكنه لم يكترث بخسرو

باشا ولا اظهر اقل اشارة تدل على اعتباره له . اما خسرو باشا فحيا عثمان بلطف ثم التفت الى محمد علي وهو ينتظر ان يراه ساجداً امامه ولما رآه لا يزال كما كان نظر الى الحاكم حسان وقال له من هو هذا الفتى ؟ لعله احد عبيدك ؟ وقبل ان يجيب الحاكم كان عثمان قد سبقه فقال — كلا يا حضرة الباشا بل هو صديقي العزيز محمد علي

فقال خسرو باشا — يا للعجب . انك تهين شرف اجدادك باعطائك لقب صديق عزيز الى خادم سمج وقح كهذا ثم ادار وجهه الى محمد علي وعيناه تقدحان شرراً . وكان محمد علي قد غلى الدم في عروقه عند سماع كلام الباشا فتقدم خطوة الى الامام وقال بصوت ابح يكاد يخنقه الغيظ — وهل تظن من الشرف الذي لا استحقه اذا دعاني ابن الحاكم صديقه ؟ الم يسبق قبل الآن ان يتخذ اعاظم الناس اصدقاء حتى من العبيد الذين يشترونهم بالمال ويساوونهم بانفسهم ؟ اما انا فقد سمعت بالامس ان غلاماً شركسياً اشتراه الامير حسين باشا الشهير ثم حرَّره وصافاه ولم يستح بصداقته مع انه كان عبداً له واسمه خسرو و . . . . .

وكان الحاكم يشير الى محمد علي بعينيه متوسلا اليه ان يصمت فلما لم ينتبه هذا الى طلبه صاح به قائلاً — كفى يا محمد واستحلفك بالله ان تصمت

فقال خسرو باشا متكلفاً عدم الاهتمام — لماذا تأمره بالصمت وهو انما يعيد قصة سمعها من الناس وقد جرت العادة ان يدفع الناس للقصاص اجرة فخذ جزاءك ايها القصاص المهزار . قال ذلك واخرج من جيبه ديناراً فرمى به الى محمد علي . فهاج غضب محمد علي والتقط الدينار وهم ان يرميه الى وجه الباشا فلحظ عثمان ذلك وقبض على يده وتوسل اليه ان يملك نفسه فامتنع ولكنه

امتقع لونه ورقصت شفتاه وارتعش جسمه فوجه الى الباشا نظرًا حادًا وعيناه تقدحان شررًا . ثم التفت الى بعض العبيد السائرين في خدمة الحاكم فناداه واعطاه الدينار قائلاً — خذ هذه العطية من عبد الى اخيه

وساد بعد ذلك سكون تام وكل يردد نظره في وجه الاخر ثم التفت الباشا فقال للحاكم — لو كنت مكانك لكنت امرت ورايت العصا تاكل من ظهر هذا الجلف شيئاً فتخمد حدته وتخفض وقاحته ويتعلم احترام العظماء

فقال محمد علي — اراك تصف الدواء كانك خبرته بنفسك ولكن لا يغرب عن بالك انك الان في شبه جزيرة كونتيسة وفيها لا يؤبون بالضرب غير العبيد . اما انا فلست عبداً وان اكن رث اللباس حقير المنظر فاني ارى في كوخي المظلم وعلى فراشي البالي من اللذة والسرور ما لا يتمتع به العبيد الذين اصطنعهم اسيادهم ورقوهم فصاروا ينامون على الحرير

ولم يتمكن خسرو باشا من امتلاك غيظه فهجم يريد ان يلطم محمد علي على وجهه وكأنه ارهبه سكون ذاك واستعداده لمقابلته بالمثل فتوقف ثم نظر الى الحاكم وقال — يا شوربجي قد اهانني خادم في منزلك فمن واجباتك مجازاة هذه الوقاحة . . . .

فتبسم محمد علي وقال — لا . لا استحق المجازاة لاني لم اتعدَّ شريعة بلادي وان اكن قد كلمتك بوقاحة فلأنك تنازلت وابتدات بهذا الحديث واعلم ان القصاص هنا يلحق المذنب فقط وليس كما ترتأي ان يكون بالمحاباة

وكان الحاكم قد تقدم الى خسرو باشا فجعل يستعطف خاطره ويتوسل اليه ان يعفو عن صديق ابنه وهو يقول — قد ذكرت لك يا مولاي ان عثمان ولدي واملي الوحيد من الدنيا وهذا الفتى سلوته الوحيدة اذا بعد عنه ناله مكروه

فاشفق على ولدي وعليّ واقبل رجائي بان نسير من هذا المكان · ثم اخذ بيد الباشا وسار به وهو يبذل جهده في تسكين غضبه معتذرًا عن جهل محمد علي وعدم تعوده مؤانسة الناس ومعرفة قدر العظماء

فقال خسرو باشا وهو يتميز غيظًا — انني لا اتمنى شيئًا بقدر ما اشتهي ان اقبض على عنق هذا الوغد الزنيم وادوسه برجلي · وكان حسان يسرع بالمسير مع الباشا لكي لا يسمع محمد علي كلامه فيتسع الخرق · اما محمد علي فبقي واقفًا حيث كان وهو يتبع الباشا بنظره حتى غاب هو والحاكم عن النظر · فنهض عثمان والقى بنفسه على صدر محمد وطوق عنقه بذراعيه وقبله قائلاً — لله درك ايها البطل · فلأنت ملكي وحارسي ولا استطيع ان افيك ما تستحق من الشكر وقد فرجت همي بمقابلتك هذا الرجل العاتي بما يستحق

الفصل الحادي عشر

الثورة

وحدث في تلك الاثناء ان ارسل الحاكم حسانًا الشوربجي يطلب جباية الاموال الاميرية من اهل بروستا التابعة لادارته وامر الجباة ان يجمعوا ضعفي المبلغ المعتاد لاضطراره ان يرسل هذا المال الى الخزينة العامرة مع قلة محصول التبغ في تلك السنة وكثرة المصاريف التي انفقت في سبيل اصلاح الطرق العمومية · فلما بلغ شيخ بلدة بروستا هذا الطلب اخذه القلق وقال للرسول ليس في وسعنا ان ندفع ضعفي المبلغ المعتاد وليس في بلدتي من يقوى على ذلك · فهز الرسول كتفيه وقال انه لا يهمني الاطلاع على حال رجال البلدة بل يهمني ان

تنفذ اوامر مولاي ويجمع المال وسيأتي لاستلامه جابيان مخصوصان في الغد · ولما قال ذلك ادار ظهره وانصرف وهو لا ينتظر الجواب · اما الشيخ فدعا وجوه بلدته وفقهاءها واطلعهم على الامر وبعد المباحثة والمفاوضة قرروا الامتناع عن تحمل هذا الظلم · وجاء الجباة في الصباح الى منزل شيخ البلدة فوجدوه مكتظاً برجال البلدة وهم يقولون انه ليس بامكاننا دفع المطلوب وليقنع الحاكم بقبولنا دفع المعتاد لاننا حتى الان لم نر شيئاً من الخير في بلادنا لقاء الاموال التي ندفعها سنوياً فاذا اخصبت غلالنا قاسمونا على المحصول واذا امحلت طلبوا منا زيادة المال ونحن مع ذلك لا نرى سبباً موجباً لهذا الطلب · فقال الجباة — لا سبب الاَّ ارادة مولانا الحاكم فقد امر بذلك ولا بد من الخضوع لاوامره فانه ينوب في حكمه عن جلالة مولانا السلطان وله الحق اذا شاء ان يستولي على ارضكم وبيوتكم وجميع ما تملكون

فقال الشيخ — اننا لم نعتد سماع مثل هذا الكلام الذي لا يقبله العقل وسيعلم الحاكم وغيره اننا احرار في مالنا ولسنا تحت سلطة احد · ولما قال ذلك استل الرجال خناجرهم وهجموا على الجباة بقصد اهلاكهم فاوقفهم الشيخ وقال لا يجب ان نبدأ بالعداء ايها الاخوان ثم جمع بعض الفقهاء حول الجباة وسألهم الرجوع الى الحاكم بجوابهم النهائي قائلاً اننا لا يمكننا اجابة طلب الحاكم هذه السنة لاسيما وان ارضنا قد امحل موسمها في هذه السنة وذهب النوء بشبا كنا فقلل صيدنا ولذلك يستحيل علينا دفع ضعفي مايطلب منا وقد كنا نود اعفاءنا في هذه السنة من دفع الخراج ولكننا لا نريد ان نجاهر بالعدوان ونعد انه اذا عوض الله علينا خسائرنا في السنة القادمة فاننا نقدم مايطلب منا عن طيبة خاطر

ولما سمع رجال البلدة جواب الشيخ ارتفع ضجيجهم وصاحوا قائلين ليحيَ

شيخنا العادل . حقاً انه ليس من العدل ان نحرم انفسنا وعيالنا ما اصابنا هذه السنة على قلته لنعطيه الى قوم ينفقونه في التأنق واللهو ونحن نتضور جوعاً . فليحيَ شيخنا . فليحيَ شيخنا . ثم هجموا على شيخ البلد وحملوه على اكتافهم وهم يهتفون حتى ملأ صراخهم الفضاء . اما الجباة فما صدقوا ان ابتعد عنهم القوم حتى رجعوا الى قواله . . . ولما بلغ الشيخ منتصف البلدة محمولاً على الاكف اوقف الجمع وقال — ثقوا ايها الاخوان اني ادافع عنكم واحمي مصالحكم اذا بقيتم متفقين ثابتين فان الاتفاق والثبات اذا كان بجانبهما الحق تغلبا على القوة متى رافقها الظلم

فصاح الجمع — انا متفقون وسترى ثباتنا ايها الشيخ المحبوب . فتبسم الرجل علامة الرضى ثم صرفهم الى بيوتهم وهو يقول انتظروا الآن لنرى ما يكون من امر الحاكم

وكان محمد علي قد انقطع الى زيارة عثمان واكثر من التردد عليه في كل آن ففي اليوم الذي ذهب فيه الجباة الى بروستا كان حسان الحاكم مع ولده عثمان ومحمد علي جالسين في الردهة الخارجية وكان الحاكم ينظر الى وجه ابنه مسروراً بتقدمه الى العافية ورأى عثمان ذلك فقال له — اذا سرك ياوالدي انا أتماثل سريعاً فاشكر الله وصديقي محمد علي لانني لم اشعر بلذة الحياة ولم تطب لي الصحة الا عند ماصار يجيء الي ويصرف كل وقته معي فانا احسب نفسي سعيداً للغاية متى وجدته بالقرب مني . فتبسم الحاكم وقال — لا يجهل محمد علي مقدار شكري له وحبذا لو قبل رجائي ورضي ان يقيم معنا دائماً فيكون لي ابناً ثانياً ويعجل شفاءك

فقال محمد علي — يعلم الله يامولاي انني ما كنت لارفض امرك هذا وما كنت لامنع شيئاً عن حبيبي عثمان لولا خوفي على حريتي فاني لا اود تقييدها

واني مذ الآن اجيبه الى مايشتهي بشرط ان يترك لي قيادي فادخل واخرج متى شئت لانني انا ايضاً لي داء ولا دواء له سوى الانفراد في كوخي او السير في الوعور و بين الا كام

فصاح عثمان قائلاً — ليكن لك ماتريدايهاالعزيز وانما عدني انك لاتتاخر عن المجيء الي كلما سنحت لك الفرصة . وفي تلك الدقيقة اقبل الجباة عائدين مسرعين . ورأى الحاكم على وجوههم علامات الخوف واقلقه دخولهم عليه بغير استئذان فتوسم شرًّا وصاح بهم ماوراءكم واي خطر يهددكم و يسوقكم الى الدخول عليَّ بهذه الصفة

فقال واحد منهم — جرى لنا امر خطير يامولاي فقد امرتنا ان نمضي الى بروستا لجمع المال . فلما بلغنا البلدة وطلبنا ذلك من شيخها استعظم المبلغ المطلوب ثم جمع رجال البلدة وعلى وجوههم علائم الغضب والعصيان فاسمعونا كلاماً مهيناً واشهروا في وجوهنا خناجرهم وصمموا على قتلنا لولا ان ادركنا الشيخ وبعض الفقهاء فردعوهم عن هذا الفعل وقالوا لنا انهم لايدفعون المال المطلوب وامرونا ان نعود اليك ونعلمك بقرارهم هذا الذي لايرجعون عنه وانهم بانتظار الجواب

وكان محمد علي قد نهض عن كرسيه عند سماعه هذا الكلام ونسي انه بحضرة الحاكم فقال للرجل — ارفض اهل بروستا امر الحاكم بهذه الصورة وابوا الانصياع لارادته ؟

قال — نعم . وكانت سيوفهم وخناجرهم تهتز في ايديهم وتلمع في عيونهم نار الشر والفتنة

فقال محمد علي — ولماذا لم تقابلوهم بالمثل وتعملوا سيوفكم في احشائهم وتجبروهم على الطاعة ؟

قال — انهم خمسون رجلاً باسلاً مدججين بالسلاح ومن اين لنا ان نقاومهم

فقال محمد علي — انهم اكثر منكم عدداً ولكنهم انذال فاقل منكم قوةً وكان يجب عليكم ان تروهم بياض افعالكم وتصبغوا ساحة البلدة بدم العصاة او تموتوا شهداء القيام بواجباتكم لا ان ترجعوا على هذه الصورة لتخبروا الحاكم عن جبنكم وسوء تصرفكم

اما عثمان فكان ينظر الى صديقه معجباً بحماسه وكان حسان قد عبس وجهه واكمد لونه وغرق في بحر من الافكار ثم امر الجباة ان ينتظروا امره خارجاً وجعل يتمشى في الغرفة ذهاباً واياباً والصديقان لا يجسران ان يكلماه وبعد هنيهة قال — انني كنت اخشى مثل هذا العصيان ورجال بروستا مشهورون بالصلف والقوة وان عددهم يفوق القوة العسكرية التي عندي فليس لي من جباة الاموال سوى خمسين رجلاً متفرقين في انحاء مقاطعتي وهب انهم كانوا الآن جميعاً هنا لما استعملت القوة لقاء اهل بروستا الا مضطراً . ثم نظر الى ابنه عثمان وقال له كأنه يستشيره — انني ارى افضل ما يجب عمله ان اذهب بنفسي الى بروستا واسكن هياج رجالها باللطف واقنعهم ان يدفعوا المال المطلوب

اما محمد علي فكان ينظر الى الحاكم ويسمع كلامه وقد اتقدت عيناه واحمرت وجنتاه فنظر الى عثمان كأنه يتوقع جوابه فاشار عثمان اليه وقال لوالده — سل محمد يا ابتاه فرأيه احسن من رأيي . ولم ينتظر محمد علي ليسأله الحاكم فقال — لا ارى ذهابك انت ياسيدي ففي ذلك ما يدل على الضعف واذا شئت ان تفوض اليَّ هذا الامر اعدك اني اكفيك شر هؤلاء البغاة وآتيك بالمال

فتبسم الحاكم مرتاباً باهلية محمد علي وقال له — وكيف تنتظر ان يتم لك ذلك؟

قال — قد قلت لك عما عزمت ان افعله اما طريقة الوصول الى ذلك فمن

خصوصياتي ولا اطلب منك سوى ان تخولني السلطة المطلقة في الامر وتصحبني باثنين من الجباة وستة انفار من الجنود

فوقف الحاكم برهة ينظر الى محمد علي و يراجع افكاره ثم قال له — وسأعطيك حرسي الخاص وهم ثمانية ابطال مجربين وقد خولتك تمام السلطة وقلدتك الامر المطلق وساوصي رجالي ان يطيعوك طاعة عمياء

وما صدق محمد علي ان سمع ذلك حتى ابرقت اسرته واكب على يدي الحاكم يقبلهما و يشكره على ثقته به ثم ودع صديقه عثمان وسار ورجلاه لا تكادان تطأان الارض لشدة ما ظهر عليه من الحمية وثبات الجاش . وتبعه الحاكم الى الدار الخارجية حيث امر حرسه واثنين من الجباة ان يرافقوا محمدًا و يذعنوا لارادته في كل ما يامرهم به ولما سمع احد الجباة غرض الرسالة قال اننا نسير الى الموت لان رجال بروستا سيقتلوننا لا محالة فصاح به محمد علي قائلاً لا يمكنهم الحاق اقل اذى بكم اذا ثبتم امامهم ثبات الرجال اما اذا استولى عليكم الجبن وفعل فيكم الخوف وجال في خاطركم الفرار فاني لا اترك لهم فرصة اللحوق بكم بكم بل اقتلكم بيدي

وكان الحاكم قد بدا يشعر باهلية محمد علي ويتوسم الخير في ارساله فقال له — الا تاخذ سلاحًا يا محمد ؟ قال — لا ارى له لزومًا يا مولاي ولكن اذا شئت ذلك فانا اكتفي بسيف وغدارة « فاسرع الحاكم واحضر له بنفسه السلاح المذكور فتقلده محمد علي ثم ودع الحاكم وقد رافقه هذا بادعيته وسار في طليعة تلك الشرذمة مفتخرًا مسرورًا كأنه فتح العالم »

وما زال محمد علي سائرًا برجاله الى بروستا وكان في اول البلدة جامع فدخله مع تابعيه ولم يشعر احد بقدومهم فاستقبل محمد علي الكعبة جاثيًا وتوسل الى الله ان

يسدد خطوته الاولى هذه التي يخطوها في سبيل ما يرجوه من المجد في المستقبل واستدعى في صلاته شفاعة النبي ورضي والديه ولما فرغ امر الجنود ان يوصدوا ابواب الجامع الثلاثة و يتركوا الرابع مفتوحاً ثم ارسل اربعة منهم لطلب الشيخ وثلاثة من الفقهاء واوصاهم ان يذهب واحد منهم الى كلٍ من المذكورين و يخبره ان الحاكم قد اوفد اليهم احد رجاله ليبلغهم رسالة خطيرة . ولما صرف هؤلاء اخفى الاربعة الباقين على جانبي الباب من الداخل وحرضهم على الثبات وتوعدهم بالقصاص الصارم اذا اخلفوا او سلموا للعصاة وامرهم ان يلبثوا في امكنتهم حتى اذا صار الشيخ والفقهاء داخل الجامع انقضوا عليهم وسدوا في وجوههم سبيل النجاة . وبعد ان اكمل اوامره وقف في وسط الجامع صامتاً وقد شعر بخطارة المهمة التي اخذها على نفسه . ثم طارت تأملاته الى والدته وشعر ان روحها قد جاءت ترف فوق رأسه لتراه على وشك الدخول في حياة جديدة فقال في نفسه — انني اذا غادرت هذا المكان سالمًا اكون قد برهنت على صيرورتي رجلاً يسعى في تحقيق ذلك الحلم الذي لا يزال نصب عيني

واذ ذاك عاد احد الجنود ومعه شيخ البلدة وهمَّ محمد علي ان يتقدم لاستقباله باحترام ولكنه اوقف نفسه وقال لذاته — لست الان ذلك الولد الحقير الصغير لاحترم الشيخوخة بل انما انا نائب الحاكم فالاحترام للسلطة لا للسن . اما الشيخ فلما دخل ولم ير احداً سوى محمد علي تبسم مستهزئاً وقال — ظننت انني ساجد رجلاً في مقام الحاكم لينوب عنه ولم يخطر لي قط انني سارى هذا الغلام محمد علي ابن ابراهيم آغا ولو علمت ذلك لما تكلفت مشقة المجي الى هنا بل كنت انتظرت حتى تأتي اليَّ انت ايها الغلام

فقال محمد علي بمنتهى العظمة — ان من حمل امر الحاكم وناب عنه وجب احترامه نظيره بقطع النظر عن سنهِ

فقال الشيخ ضاحكاً ها ها ها وهل تظن ان شيخاً نظيري يخيفه مثل هذا الكلام ؟

فانقدت عندئذ عينا محمد علي بغضب شديد ووضع يده على قبضة حسامه ولكنه توقف لما رأى الجنود الآخرين داخلين بالفقهاء الثلاثة فلما صاروا امامه تلا عليهم امر الحاكم واخبرهم ان لا مندوحة لهم عن الطاعة وان جزآء العصيان الموت . فاجابه الشيخ قائلاً وانت عد الى الحاكم واخبره باننا لا نذعن لظلمه وعتوه ولا نخشى بأسه فلنا حقوق ندافع عنها الى الموت فلا ندفع المال الذي يطلبه مضاعفاً بل لا ندفع له ما عودناه على تقديه في الماضي وليفعل ما يشاء

وقبل ان يتم الشيخ كلامه كان محمد علي قد اشار الى الجنود فهجموا عليه واوثقوه مع رفاقه وقال — انا مكلفون بحملكم الى الحاكم لعله يكتفي بارواحكم هذه السنة فلا يعود الى طلب الجزية ويجعلكم عبرة لكل عاص .

اما الشيخ فكان قد خشي سوء العاقبة وقبل ان يترك منزله اشار الى بعض غلمانه باعلام رجال البلدة ولم يتأخر هولاء عن اتباع شيخهم الى الجامع وتألب جمعهم حول بابه فنظر اليهم محمد علي بغضب وصاح فيهم قائلاً — من دخل منكم هذا الجامع أخمدت انفاسه . وقرأ الجمع في عيني محمد علي ما يدل على صدق كلامه فتقهقر القوم وشاء بعضهم الدخول من الابواب الاخر فوجدوها موصدة وعادوا الى الباب الكبير فوجدوا شيخ بلدتهم وفقهاءهم مطروحين الى الارض وخناجر الجنود فوق صدورهم وارادوا الدخول لنجدتهم لكنهم كانوا يجهلون من في الجامع فوقفوا من بعيد يحرقون الارم غيظاً وحقداً . وفي تلك الدقيقة سمع الجميع صوتاً ورأوا فتاة مقنعة مرّت امامهم ودخلت الجامع قبل ان يتمكن الجنود من ايقافها وكانت مرتدية ثوباً ابيض كالثلج فلم تقف حتى قاربت شيخ البلدة فالقت نفسها الى جانبه وصاحت بصوت يفتت الجلمود واابتاه واوالداه . وشعر محمد علي عند سماعه ذلك الصوت الملكي ان سهماً اخترق فواده فنظر واذا بالفتاة قد مزقت قناعها ونظرت اليه قائلة — اسألك يا هذا ان ترحم والدي او اذا كان لا بد من قتله فاقتلني قبله . ونظر محمد علي فرأى عينين دعجاوين يكللها حاجبان مقرونان يتوسلان اليه بحنو وانكسار ورأى شفتين حمراوين ترتعشان ووجهاً انقى من البلور

فوق عنق كعنق الغزال فشعر باختلاج في صدره وانحلال في قواه ولكنه تمالك فمد يده واخذ قناع الفتاة فستر به وجهها وقال لها بصوت الآمر انهضي ايتها الفتاة وغادري هذا المكان فاني لم اجيء لاقاتل النساء

ولما نظرت الفتاة الى وجه محمد علي وسمعت كلامه شعرت بشيء حرك فوادها فتغيرت لهجتها ودنت اليه بطرف ساحر وقالت — اسالك الرحمة بوالدي يا مولاي

فقال محمد علي وهو يحول نظره عنها — ان خلاص والدك متوقف على طاعته ايتها الفتاة فاذا اذعن ونهى قومه عن العصيان واجابوا طلب مولاي الحاكم صرفته برفقتك للحال

اما شيخ البلد فنظر الى ابنته وقال لها — لم يكن من واجباتك يا جوهرة الحضور الى هذا المكان ولكنني اصفح عنك لعلمي انك انما فعلت ذلك من شدة تعلقك بي فارجعي الى المنزل واعلمي ان الفتيات لا يخرجن من منازلهن اذا اردن ان يبقين شريفات

فقالت والتنهد يكاد يخفض صوتها فلا يسمعه أحد — وما نفع شرفي وحياتي بدون والدي فانا لا افارقك في الشقاء كما اني لم افارقك في الهناء

اما محمد علي فنظر الى الجمهور المجتمع على باب الجامع وقال هل يكفيكم ما نظرتم وهل رأيتم انه لا بد من انفاذ امر الحاكم؟ فقاطعه الشيخ قائلاً كلا لا يطيعون للحاكم الظالم أمراً ونحن لا ندفع المال . ولما رأى محمد علي انقياد الجموع لكلام الشيخ تبسم بمرارة وقال — قد حكمت على نفسك ايها الشيخ وحكم عليك رجالك ثم نظر الى الجميع نظرة التهديد والغضب وأمر الجنود فاوصدوا الباب و بقيت جوهرة داخلاً فولولت وانطرحت على قدمي محمد علي تقبلهما وتقول له — رحماك ياسيدي فاشفق عليَّ واعطني والدي . ألم يكن لك والد تحبه ألم يكن لك والدة تعبدها فاذكر والديك وتحنن عليَّ . وكانت كل كلمة تنطق بها الفتاة تدمي قلب محمد علي ولكنه تجلد وأمر باخراجها بدون ان ينظر اليها فوقفت امامه وقالت — لا تأمر رجالك بحملي ايها القاسي

بل انا ذاهبة من نفسي واعلم انه اذا اصاب والدي مكروه فانا مائتة لامحالة واذ ذاك اقابل في الجنة والديك واشكوك اليهما فيعلمان باية قساوة يتصرف ولدهما في هذا العالم ويطران عليك غضبهما . قالت ذلك ومشت على مهل الى الباب واشارت الى الجنود بعظمة وكبر ففتحوه لها واقفلوه بعد خروجها . فنظر الشيخ الى محمد علي وقال له — هل صممت على قتلنا ايها الجاحد النعمة . قال — انني لم اصمم على ذلك ولكنكم انتم اخترتم القتل على السلام . ثم أمر اتباعه ففتحوا الباب الخلفي وخرجوا يحملون الاربعة الاسرى وفي طليعتهم محمد علي وورائهم الجابيان لحراسة مؤخرهم واسرعوا في طريقهم الى قواله

ولما اعيا القوم الانتظار امام باب الجامع اندفع بعضهم الى اختبار قوة الابواب الاخرى فوجدوا الباب الخلفي مفتوحاً ورأوا محمد علي واتباعه سائرين على الطريق فملا ضجيجهم واسرعوا يريدون اللحاق به . فرأى محمد علي ذلك واشار على رجاله بالتقدم ولبث هو واقفاً وقد ارتسمت على وجهه علامات القوة والبسالة . ولما رآه رجال قواله وكانوا يفوقون الخمسين عدًّا وقفوا وهم يكادون يختطفونه بابصارهم ولا يجسرون على التقدم اليه لما رأوه في هيئته من حب التفاني وتجسم لهم كملاك الموت . اما محمد علي فلم يكترث بهم وقد شغل نظره ذلك الشبح الابيض بين اثنين من النساء وخيل له انه لا يزال يسمع كلمات الفتاة الاخيرة اذ ذكرته بوالديه فافلت من صدره تنهد عميق وانحدرت دمعتان محرقتان من مقلته مسحهما حالاً وقال — لا يا محمد علي لا يجب ان تغلب مثل هذه التأثرات على الواجبات التي اتخذت على نفسك القيام بها وما حزن هذه الفتاة سوى سحابة صيفٍ فلا تلبث ان تسلو والدها وتنسى وجوده . ثم انتبه لرجال بروستا وهم محجمون لا يجسرون على التقدم ولم يخطر لهم ان محمد علي يقدم على ما فعل بهذا العدد القليل من الاتباع بل ظنوا انه اخفى لهم كميناً يجهلون عدده . ولما رأى محمد علي ان اتباعه وصلوا بالاسرى الى مسافة بعيدة نظر الى رجال بروستا وعرف بعضهم فصاح بهم قائلاً — انت يا اسماعيل وانت يا ماروت وانت يا روطي ألا تعرفونني فصاح الثلاثة معاً — بلى اننا نعرفك يا محمد علي بن ابراهيم آغا ولكننا لم نظن قط

انك تنم علينا وتخون اصدقاءك القدماء

قال — لم انم قط ولا انا جاسوس بل انفذ الشريعة المقدسة التي حاولتم الازدراء بها ودوسها باقدامكم فتقدموا اليَّ لابلغكم شيئاً يهمكم جميعاً . فتقدم المذكورون وهم على حذر خائفين من الكمين الموهوم فلما صاروا على مقربة منه حاول بعضهم الكلام فاسكته محمد علي وقال — انى لم ادعكم لسماع نصائحكم وماهي سوى كلمات عصاة بل لاسمعكم مااقول . انني انوب عن حاكم المقاطعة وقدوكل اليَّ القيام بمنطوق ارادته فلا فائدة من المانعة والماطلة ولا بد من جمع المال المطلوب وعليه فاني اعينكم انتم الثلاثة وامهلكم الى صباح الغد فاذا أزفت صلاة الصبح ولم تحضروا الى قصر الحاكم في قواله ومعكم المال المطلوب نقطع رؤوس شيخكم والفقهاء وترسل اليكم دليلاً بيناً على عصيانكم ونذيراً يشكوكم الى الخالق انكم قتلتموهم بتمردكم على حاكم البلاد ثم اشار اليهم بسيفه مودعاً وادار ظهره وتابع سيره في طريق قواله غير هياب ولا وجل كانه قائده يسير امام كتائبه ملك تحيط به رجال بلاطه

الكتاب الثاني

النعيم والجحيم

الفصل الاول

زهرة بروستا

لما ذهب محمد علي للقيام بالمهمة التى اسندت اليه عاد حسان الى غرفة ابنه عثمان فجعلا يتفاوضان في شجاعة محمد علي وسداد رأيه ويتساءلان عن نتيجة بعثته وماذا عساها ان تكون ولكن طرأ على فكر الحاكم ماأقلقه فخشي ان يصيب رسوله ورفيق ولده مكروه او ان تكون نتيجة ذهابه الى بروستا شراً من ذهاب الجباة وان لا يكتفي

رجال بروستا بعدم دفع المال بل ربما دعاهم عامل الثورة والعصيان فيهجمون على قواله ويتفاقم الشر . وكانت هذه الإفكار تنتابه فقطب حاجبيه وجعل يتمشى في الغرفة مفكرًا وهو لا يقرّ له قرار فتارة يعود الى قصره وطورًا يرجع الى غرفة عثمان وبقي كذلك الى ان أزف موعد رجوع محمد علي فذهب يصحبه عثمان الى الردهة الكبرى المطلة على الطريق . وما جلسا فيها قليلاً يرقبان المارة حتى فتح الباب ودخل عليهما اثنان من العبيد وقف كل منهما الى جهة وتلاهما ثالث اعان قدوم خسرو باشا ثم جاء وقد تزين بافخر ملابسه واتكأ على ذراع كاتم سره . فخف الحاكم للقائه الى الباب وانحنى له عثمان مسلماً ولكنهما لم يتمكنا من اخفاء ماظهر على وجهيهما من عدم الرضى عن قدومه في مثل ذلك الوقت . غير ان الحاكم كان عالمًا بما فطر عليه ضيفه من التيه والاعجاب بنفسه والاعتقاد بكونه اذا دخل مجلساً شرفه وكان اعظم من فيه فنمق له ماحضرة من عبارات التعظيم فتبسم ذاك واشار بعلامة الاستحسان ومشى حتى بلغ صدر الردهة فجلس وأمر عبده فقدم له غليونه المرصع بالجواهر ثم نظر الى الحاكم وقال — أصحيح مابلغني ياحسان ان اهل بروستا نبذوا طاعتك وجاهروا بالعصيان

قال — لم يصل الامر الى هذا الحد ياسيدي ولكنهم تظلموا من طلبي المال السنوي منهم ضعف ماكنت اطلبه قبلاً ورفضوا تأديته

فقال الباشا — وانى لهؤلاء الكلاب ان يرفضوا ذلك ألم ترسل اليهم من يقبض على زعمائهم ويقودهم اليك فترميهم بالرصاص كما ترمي الكلاب الكلبة ؟

فقال الحاكم وقد كدره كلام الباشا — لم تضق بلادنا بعد عن سكانها ياسيدي لنقللهم بالقتل وفضلاً عن ذلك فان رجال بروستا مع قلة عددهم ذوو نشاط وهمة وحمية يدأبون لتحصيل قوت عيالهم وقد امحل موسمهم في هذه السنة وجاءهم طلبي المال ضعف المعتاد فاكبروا الامر وما هي الا سورة غضب وتزول ولي الثقة ان يفوز رسولي فيقنعهم ويصلح الحال

فقال الباشا — ولماذا طلبت منهم اذًا ان يدفعوا المال مضاعفًا مع علمك بعدم مقدرتهم على ذلك في هذه السنة ؟

قال — ان المال السنوي الاصلي هو الذي يجب ارساله الى الخزينـة العامرة اما الذي طلبته زيادة فليسد نفقات ومطاليب ......

فتبسم الباشا وقال — نعم نعم فهمت فأنت تعني ما يلزم لنفقاتي ومطاليبي وما أمرتَ ان تقدمه لي .. فكيف يجسر هؤلاء الانذال ان يرفضوا ذلك مع علمهم ان مايطلب منهم عائداً لي انا خسرو باشا صديق حسين باشا واحد كبراء المملكة ؟ انهم يستهينون بمقامي وسطوتي فوالله لو كنت مقيماً هنا لقدتهم كالكلاب الى امامي وذبحتهم ذبح الاغنام وجعلت بلدتهم قاعاً بلقعاً .. ثم تقولُ انك تثق بان رسولك سينهي الامر على الطأنينة والسلام فلعلك ارسلت تستعطفهم الى دفع ما يجب ان يقدموه بالرغم عنهم ؟ اعلم يا حسان انه قد قرب الوقت الذي فيه يترك خسرو باشا هذا المنفى ليعود الى عظمته ويزداد كرامة فاذكر ذلك وذكر رجال بلادك وكونوا على حذر فاني سأعرف اذ ذاك ان اكافيء من يخدمني وان اجازي من يتجرأ على الاستخفاف بسلطتي

فقال حسان وهو يكظم غيظه — انت تعلم ياسيدي شـدة سروري لحصولي على شرف خدمتكم ولا أنسي مدى العمر هـذه الايام التي تنازلت فيها ورضيت ان تشرف منزلي الحقـير باقامتك فيه فهل ترى يامولاي اني مقصر في خدمتك ؟

فهز الباشا رأسه ولم ينطق بكلمة شكر لمضيفه وكأنه رأى الامل بقرب عودته الى منصبه فاختار السكوت عن اظهار شعائره الى ذلك الحين . اما عثمان فكان قد تأثر جداً لدى سماعه كلام الباشا وزاد تأثره من جواب والده فصعد الدم الى رأسه وقدحت عيناه شرراً وحاول النهوض غير ان والده كان يرقبه بطرف خفي فادرك ما يجول في نفس والده واقترب منه ملاطفاً ثم اسر اليه قائلاً — خفض من حدتك يا بني فحقوق الضيوف مقدسة وفضلاً عن ذلك فالعاقل من يكتم غيظه اذا كان في اظهاره ما يعود بالضرر عليه

ثم التفت الى الباشا وقال — لا يغرب عن فكر مولاي اننا في هذه النقطة المنفردة لا يتيسر لنا ان نظهر بمظاهر القوة التي تتمتعون بها وليس عندي من الجنود سوى

ثمانية انفار والمدد القليل الباقي متفرق في انحاء المقاطعة فليس من الحكمة ان نعامل بغير اللين بلدة بسكانها وهم اذا هجموا علينا بعصيهم غلبونا على اخرنا

فقال الباشا — وماذا عزمت ان تفعل اذًا ؟

قال — ان محمد علي صديق أبني اتخذ على نفسه اصلاح الامر فاصحبته بالثمانية الجنود وتراني الآن بانتظاره

فقال خسرو باشا وقد بان عليه التعجب — يخضع البلدة عنوة بثمانية انفار ؟ حقًا ان هذا الغلام شجاع ابي النفس . ثم نظر الى عثمان وقال — اني اهنيك بهذا الصديق ولا شك انه عبدك أو عتيقك وقد اصطفيته لانه لا يوجد لك عشير سواه في هذه الناحية ؟

فقال عثمان لا ليس عبدي ولاعتيقي و يا ليت لى من الشرف والشهامة ما لمحمد علي فانا احبه واعتبره ولكوني ابن رب هذا البيت فاود ان كل من يدخل الى بيتنا هذا يقدم الاعتبار اللائق لصديق أبن مالكه

ولم يتمكن عثمان من اتمام حديثه ولا فكر الباشا في جواب لان الحاكم كان قد نظر من النافذة وصاح صيحة السرور قائلاً عاد محمد علي ومعه اربعة اسرى بالقيود وهم والله شيخ بروستا وفقهاؤها الثلاثة . ثم سار يريد الخروج للقاء محمد فامسكه خسرو باشا بذراعه وقال ان من واجبات رسولك ان يمثل امامك لا ان تذهب لملاقاته انا ايضًا احب أن اسمع ما فعل

فوقف الحاكم مضطرًا واذا بمحمد علي قد دخل فانحنى امام الحاكم وأرسل الى صديقه عثمان نظرة كلها حب وحنو ثم قص عليهم ماجري له منذ تركه اياهم الى ان بلغ في حديثه الى رؤيته جوهرة فخانه صوته ولكنه تجلد فتجاوز ذلك واتم الحديث . وكان الحاكم يسمعه بسرور ودموع الفرح تكاد تتساقط على خديه ثم قال — اذًا اتيتني بهؤلاء الاربعة الذين هم وجوه البلدة واغنياؤها فماذا صممت ان تفعل بهم ولا اظنك تنوي قتلهم حقيقة كما تهددتهم

فقال محمد علي بل ذلك ما اقصده يا سيدي لان رجال البلدة يطيعونهم طاعة

عمياء وهم الذين حرضوهم على المجاهرة بالعصيان فهم زعماء الثورة والثائرون جزاؤهم القتل . وزد على ذلك انني امرت القوم بان يحضروا المال المطلوب الينا في صباح الغد قبل ساعة الصلاة واقسمت لهم باسمك انهم اذا لم يفعلوا قطعت رقاب هؤلاء بدون تاخير

فقال الحاكم — انني لا اريد أن اكون قاتلاً : ولست ملكاً ليكون لي جلاد ... لا لا اسمح بقتلهم

فقال محمد علي — انبتني عنك يا سيدي وقد فعلت ما فعلت باسمك ولا اظنك تروم التنازل عن سلطتك بيدك . واذكر انك فوضت الي امر جمع المال واخضاع العصاة فبموجب تفويضك يجب ان اتمم عملي واذا لم يصل المال في الوقت المعين كما اخطرتهم فلا بد من قطع رؤوس الاسرى ولو اضطررت ان اقتلهم بيدي خنقاً

فتنهد الحاكم وقال — عسى الله ان يهديهم سواء السبيل وتحقن الدماء . على انه يجب الاحتفاظ بالاسرى فمر الجنود ان يدخلوهم السجن ويحرسوهم جيداً

وكان امام قصر الحاكم قفص كبير من الحديد فيه اسد اهدي اليه وبقي عنده عدة سنوات وقد خافته اهل قواله ولم يطمئن لهم بال حتى سموه فمات وبقي القفص . فلما قال الحاكم ذلك اجابه محمد علي — كلا يا سيدي فلا يليق ان تحجبهم جدران السجن عن النظر بل يجب ان ازجهم في القفص الحديدي واحرسهم بنفسي واخبر المارة بحديثهم وما كان من امرهم فيكونون عبرة لجميع اهالي المقاطعة ويصل خبرهم الى بروستا قبل المساء فيكون ذلك حاثاً لهم علي تأدية الجزية المطلوبة

فلم يتمالك عثمان ان قال — انك مخيف يا صديقي محمد علي واذا صرت يوماً ملكاً فانك ترعب قلوب رعيتك

اما خسرو باشا فكان يسمع و يرى صامتاً ثم قال في نفسه — ان هذا الغلام مصيب في حكمه فما اشجعه وما أشد اقدامه ولا بد ان يصير رجلاً يذكر اذا أمد الله في حياته وأرى نفسه طامحة الى العلى فلاسعين في استمالته الي لعله ينفعني

وكان محمد علي قد خرج من الردهة وأمر فاخذوا الاسرى وادخلوهم القفص

الحديدي ولما تأخر الفقهاء عن دخوله قال لهم شيخ البلد — ان المذنب يستنكف من تعرضه للاهانة اما من كان الحق الى جانبه فيصبر بدون تذمر فاحمدوا الله على كل حال وليرحمنا الله بجاه نبيه الكريم ·

ولما دخلوا جميعهم اقفل محمد علي عليهم الباب وقال — انتم احرار في استدعاء من تريدون من بلدتكم ولكم اما ان توصوهم بالطاعة فتخلصوا أو تحرضوهم على الثبات في عصيانهم فتقطع رؤوسكم وانا معيد عليكم وعيدي أنه اذا لم يحضر المال في صباح الغد قطعت رؤوسكم وعلقتها فوق التل المشرف على بلدتكم ليراها قومكم ويندموا ولات ساعة مندم

الفصل الثاني

جوهرة

دخل شيخ البلدة ورفقاؤه الثلاثة الى القفص الحديدي فلم يظهر عليهم اثر الخوف ولا راعهم هول القتل · وارسل محمد علي واحداً من الجباة الى بروستا وامره ان يجلس على باب الجامع ويخبر من يسأله بان الحاكم لا يمنع احداً من اهل البلدة عن المجيء لمشاهدة الاسرى والاعتبار بما اوصلهم اليه عنادهم بشرط ان لا يجيء منهم في كل مرة اكثر من ثلثة اشخاص وان يكونوا بدون سلاح وان مرجع الحكم باعدام الاسرى عائد على اهل البلدة لانهم اذا شاؤوا ان يخلصوهم فلا اسهل من ان يفتدوهم بالمال المطلوب · ولما سمع رجال بروستا ذلك التصريح جعلوا ياتون ثلاثة تلو ثلاثة لزيارة شيخهم واخذ اوامره · اما جوهرة ابنة الشيخ فانها اسرعت الى قمة التل الفاصل بين بروستا وقواله وجلست تنتحب وتتوسل الى المارة باذرع ممدودة واعين دامعة وكلما مرّ امامها واحد من اهل بلدتها تقول

له — بربك اشفق عليّ وارحم والدي فلا تتركوني يتيمة وخلصوا ابي من الموت

اما الرجال فكانوا ينظرون اليها بحزن مشفقين على صباها ولا يستطيعون اجابتها بشيء قبل مقابلتهم الشيخ وكان الشيخ والفقهاء كلما زارهم احد من بروستا يحرضوه على عدم الخضوع ويشددوه على الرفض قائلين — انا نشتري راحتكم بدمائنا لانكم اذا قبلتم طلب الحاكم هذا جرأتموه على طلب المزيد ايضاً في السنوات المقبلة اما نحن فقانعون بما قسمه الله لنا واذا كان قد قدر لنا الموت على هذه الكيفية فلا مندوحة عنه ولا مانع وهو حسبنا ونعم الوكيل

وكان محمد علي قد اختبأ وراء الباب يسمع كلام السجناء واذا بصديقه عثمان قد جاء اليه وجعل يقنعه بوجوب الدخول الى الغرفة ليستريح من تعب النهار وان لا يخشى فرار الاسرى فالجنود يحرسونهم بعناية تامة وكان غرض عثمان الحقيقي ان يحاول تليين قلب صديقه فلا ينفذ حكمه على الاسرى وادرك محمد علي ذلك فقال له — لا تتعب ياعزيزي عثمان في تحويل عزمي لابد من تنفيذ الحكم والا سقطت سلطة والدك الى الابد . وكان حسان قد جاء ايضاً فسمع كلام محمد علي فقال له — واذا لم يجيء المال في الصباح فماذا تفعل ؟

قال — اتم كلامي وانفذ حكمي

واذ ذاك دخل خسرو باشا بعظمته المعتادة فقال — عافاك الله يامحمد علي انك مصيب في ماتقول قد خيرتهم بين الطاعة والموت فكان تخييرك شريعة وعدلاً واذا وجدت الشريعة ورافقها العدل بطلت الرحمة

فقال الحاكم — الله اكبر يامولاي ولكنني لا اريد ان اضرج ساحة قصري بدماء رعيتي . وقد حكمت حتى الآن باللين والحنو فيصعب عليّ ان اغير خطتي في اواخر ايامي

فقال خسرو باشا ــ انت في خطاء مبين ياحسان فليس اللطف واللين من شان الحكام ولا يستطيعون ان يحفظوا وقارهم بين الشعب بغير القوة والقسوة واذا شاء الحاكم ان يكون مطاعاً فعليه ان يجعل تبسمه النطع وضحكه السيف

فارسل عثمان الى خسرو باشا نظراً احد من السهم وقال ــ واذا فعل الحاكم ذلك و بلغ عرش السلطة سائراً على طريق عدها له السيوف و البنادق فهل يرجو ان يسر بسماع اصوات المديح والثناء والسرور او يسمع انين الجرحى وحشرجة القتلى ؟ وهب انه فضل ذلك فمن تكون رعيته وما تكون مملكته سوى الارض المقفرة وقد ملأتها الجثث وصبغتها الدماء لا لا لو خيرت لما رضيت ان اسمو بهذه الكيفية وفضلت على العز المشترى بالدماء ان ابقى وضيعاً اعيش بسلامة وهناء يحبني اصدقائي ولو كنت لا ارى سوى الاصداف التي على شاطىء البحر

فقهقه الباشا ضاحكاً ثم التفت الى محمد علي وقال له ــ وانت يامحمد ماهي غايتك ؟ هل تفضل ان تبقى مع صديقك لتجمع الاصداف ام ان تسير باتباعي في طريق المجد والعلى ؟

فلم يجبه محمد علي ولكنه نظر الى عثمان وقال — انت تعلم ايها العزيز انني وضعت لنفسي طريقاً وسأتبعه منفرداً بنفسي ولو كنت لا اعلم الى اين ينتهي بي وقد وطوت الامل على عدم السير برفقة احد ولا اكون بقيادة احد .... لاتكدرك كلماتي ايها العزيز ولا تظن انني سئمت الاقامة معك فانني ساعودك والبث بقربك واساعدك في جمع الاصداف كلما سمحت لي الفرص

ظل اهل بروستا يأتون وفداً تلو الآخر ابروا شيخهم وكان هذا لا يفتر عن تحريضهم على الثبات الى ان غربت الشمس وازفت ساعة صلاة العشاء ثم نام كل من في قصر حسان وساد السكون على قواله . اما اهل بروستا فاجتمعوا في

جامع بلدتهم وجعلوا يضرعون اليه تعالى ان يلهمهم سبيل الصواب وينقذهم من هذا المشكل الصعب . وكانت جوهرة جاثية بينهم فجعلوا يحثونها على الذهاب الى ابيها فترجوه ان يسمح لهم بالخضوع لامر الحاكم ولو كان جائرًا . اما هي فلم تزدد الا بكاء وتحسرًا لانها كانت ادرى الجميع بخلق ابيها وتعلم انه يفضل الموت على ذل الخضوع

نام اهل قواله وسكان قصر حسان جميعهم الا محمد علي فانه بقي ساهرًا يحرس الاسرى بنفسه . وكان حسان وعثمان قد الحا عليه ان يترك ذلك الى الجنود فيتناوبون الحراسة ويجد هو لنفسه شيئًا من الراحة بعد تعب النهار فأبى محمد بتاتًا وقال وهو يتجنب النظر الى وجه عثمان لئلا تنم عيناه عن بعض ما يختلج في صدره لا . لا . ان راحتي الوحيدة الان هي في القيام بما تفرضه علي واجباتي فدع الجنود يرتاحون الان لعلنا نحتاج اليهم في الغد . ولما رأى الحاكم وابنه اصراره تركاه وذهبا وعزم محمد علي على السهر الليل بطوله فهل كان الباعث الى ذلك شعوره الشريف فقط وتفانيه في سبيل القيام بواجباته ام كان ينتظر ان يكشف له نور القمر منظرًا جميلاً اوحاه اليه فؤاده غير المنظر الطبيعي الجميل الذي يظهر من قصر الحاكم ....

وكان في مدخل ساحة القصر صخر مرتفع يشرف على الطريق فجلس محمدعلي في اعلاه ولبث يسامر النجوم ويحادث القمر وهو في كل هنيهة يرجع بنظره الى جهة الطريق فلما انتصف الليل رأى شبحًا ابيض يقترب بمزيد الاحتراس فاسرعت ضربات قلبه وكاد يقف تنفسه ثم تمدد على الصخر بحيث يرى ولا يرى . وما زال الشبح يتقدم حتى بلغ الصخر فعرف محمد علي انه جوهرة ابنة الشيخ فخفق فؤاده . وظلت تتقدم باحتراس حتى دخلت الساحة وهي لا تحسب احدًا يراها سوى القمر والنجوم ثم بلغت القفص الذي فيه السجناء فجثت امامه ورفعت يديها متوسلة وقالت بصوت لا يكاد يسمع — يا ابي العزيز ياوالدي الحبيب هل تسمع صوت ابنتك ؟

فافاق الشيخ وقال — نعم سمعت وعرفت هذا الصوت يا ابنتي وقد كنت

بانتظار مجيئك فاني اعرف قلبك وما جبل عليه من الرقة والحنوّ

اما محمد فكان قد استعار اذان الخلد ولم تفته كلمة واحدة فلما سمع اسم جوهرة تنهد وقال — جوهرة جوهرة ما اثمن هذا الاسم وما احلى وقعه على سمعي فقد اخذ بمجامع فوادي . ثم اعار اذناً صاغية ليسمع تتمة الحديث وكانت الفتاة تضرع الى والدها وتتوسل اليه بصوت سماوي ان يرضخ لحكم الضرورة ويأذن رجال بلدته بان يدفعوا المال ويخلصوه . اما الشيخ فكان ينتهر ابنته ويأمرها بالصمت لئلا تزيد جراحه ألماً بدموعها ثم قال لها — ما حياتنا يا بنية الا حلم قصير بالنسبة الى الحياة الآتية فالويل لمن يقصر عن تتميم واجباته في هذه الدنيا لان الله واقف بالمرصاد فغضبه شديد وقصاصه عادل . انني قد اقسمت حين توليت منصبي ان احافظ على مصالح اهل بلدتي فلا احنث بيميني في عشية ايامي

فقالت — انني لا انكر ذلك ولكنني اذكرك بنفسي فانك قبل ان تتسنم منصبك الحالي كنت قد صرت والدي وسبق ان اقسمت بان تكون لي اباً يحافظ علي ويصون حياتي فاذ كان لا بد من البر بيمينك فتمم اليمين الاولى اولاً وخاص حياة ابنتك ايضاً واعلم انه اذا اصابك مكروه وصممت على ترك هذه الدنيا تكون قد اسلمت ابنتك الى الهلاك لانه لا تطيب لها الحياة بعدك . آه . اماه . تركتني صغيرة لا اعلم شيئاً من هذه الحياة وخلتني لعناية والدي ففعل ولم يشأ ان يقترن ثانية لئلا ازل في منزله وصرف اهتمامه وحبه الى ابنته الوحيدة ونعم مافعل ولكن آه .

لا انكر يا والدي ان عليك واجباً عظيماً لبلدتك ولكن يجب أيضاً ان تتصور ما ذا يحل بي اذا تركتني وحيدة في العالم فينخر قلبي الحزن وتذيب حشاي الوحشة وتذلني الحاجة فاصبح كالزهرة المائتة المرمية على الطريق تدوسها المارة فلا اجد من يجبر قلبي الكسير بكلمة واحدة واموت شر ميتة لا تأسف علي نفسٌ ولا تبكيني عين

ولم يتمالك محمد علي عند سماعه كلامها عن ذرف دموع سخينة وقال لنفسه — كلا لن تموت ولن تذل فاذا حييت انا فهي ستحيا و يكون قلبي رفيقها ووجودي حارسها وحياتي رهن سرورها . اما جوهرة فلم تسمع شيئاً من ذلك بل لبثت تتوسل

بدموعها وتضرع بالحاح الى والدها وهو لا يستطيع ان يجيبها لشدة تأثره حتى ملك روعه فقال لها — لا اقدر ان اجيب طلبك يا بنية . انني اتمنى ان ابقى حياً فاعيش معك بسرور وتقر عيني بالنظر اليكِ واسمع صوتك العذب الذي طالما ذكرني بوالدتك التي احببتها كثيرًا ولكن لا انسى واجباتي الاخرى ولا بد لي من القيام بها . لا . لا يليق ان اذل شعبي واكسر قلوب بلدة بتمامها من اجل احساسي الشخصي فلذلك ساحتمل نصيبي بصبر واقنع بما قسمه لي الله فلتكن مشيئته ولا اله الا هو .

وكان الفقهاء قد استيقظوا ايضاً واذ ذاك لاح الفجر فنهضوا مع الشيخ وصلوا الصلاة الاخيرة وجوهرة تسمعهم بسكون وتنظر اليهم بعين ادماها البكاء فكان منظرًا يفتت الاكباد . ولما فرغوا من الصلاة قال لها الشيخ وهو يهتم في اخفاء تلجلجه — انزلي الآن يا جوهرة الى بروستا وابقي في البيت واستسلمي الى الصبر وانتظري بسكون ما يحمله اليكِ النفد من اخباره . اذهبي و برهني على طيب اصلك وشرف عنصرك . اذهبي فاستودعك الله واياه اسأل ان يصونك و يباركك

وكان محمد علي قد انتصب ليسمع جلياً و يرى ما يكون فرأى جوهرة قد اخذت يدي والدها فقبلتهما وهي جاثية واجهشت بالبكاء ثم نهضت وانسحبت بهدوء يتبعها دعاء أبيها و ينيرها ضوء القمر ونور الصباح فكاد يحسبها حورية هبطت من دار الخلد او روح بعض الاولياء تمر بقر به ولا يسمع لوقع اقدامها صوتاً .

الفصل الثالث

بدأ الخليفة

سارت جوهرة منفردة في سكون الليل يكسوها نور القمر ثوباً فضياً وترمقها النجوم بعيون كلها محبة وحنو وهي لا تخشى هول الانفراد ومخاوف القفار لاعتقادها ان الاولياء يحرسون العذارى الطاهرات ولكنها ما لبثت ان اجفلت وذعرت اذ رأت في سبيلها شبح فارس قد ظهر امامها بغتة فقالت اللهم سترك . ثم ضيقت خمارها

واستأنفت المسير . غير ان الفارس كان قد صار بالقرب منها وشعرت بيد قبضت على كتفها وسمعت صوتاً يقول لها — قفي يا جوهرة فارتعدت فرائصها وحاولت اتباع المسير فلم تقوَ على ذلك لان قدميها كانتا قد سمرتا بالارض فجعلت تبتهل اليه تعالى ان ينقذها ويحرسها . ثم تكلم الفارس بصوت في غاية الرقة فخاطبها قائلاً — لا تخافي يا جوهرة واسمعيني فلست من الجان ولا ممن يريدون بك شرًّا

قالت — انني لا اخاف حتى ولا من الجان فان عيني والدتي ترقبانني من الاعالي وتسهران عليَّ . وانني طاهرة الذيل والله معي اينما سرت اما انت . انت . (وكانت قد رأت وجهه) فبلا شك عدوي لانك عدو ابي فقد عرفتك الآن . نعم انت هو ذلك الفتى القاسي القلب الذي لم يرحم دموعي بالامس وساق ابي اسيرًا الى الموت . انت الذي كسرت قلبي وجلبت علينا هذا الشقاء . فدعني اذهب وارفع يدك عن كتفي لانه لا يحق لغريب ان يلمس فتاة طاهرة بيد شقية وخلي سبيلي لابلغ منزلي واندب والدي وصباي

فقال محمد علي بصوت ضعيف وكان هو الفارس الذي عارض الفتاة — تقولين انني عدوك . وعدو ابيك . والله ياجوهرة ما انا بعدو بل انا العن الساعة التي قبلت فيها ان اكون آلة الشريعة وسيف القضاء فاجلب الحزن الى قلب افديه بحياتي . انك سترين هذا الذي تدعينه عدوًّا الآن فتىً كدين انه اصدق المخلصين لك ولابيك ولو سبق لي ورأيت هاتين العينين الفاتنتين اواشرقت علي شمس هذا الوجه الجميل لما ركبت هذا المركب الخشن الذي لم يعد باستطاعتي ان اتحوّل عنه في هذا الوقت . نعم ان اباك الآن في موقف حرج للغاية وقد قابلتك لا كلمك بشأنه فهل تقبلين رأيي ؟

فقالت وهي ترتعد خوفاً وغيظاً — كلا لا اريد ان اسمع كلامك ولا اريد ان ارى وجه قاتلي

قال — اقسم لك بانفاس والدتي الاخيرة اني اقول ما به الخير وما يدمل جراحك التي اصابت قلبي ايضاً فلا تزيدي الامي باعراضك عني . انني لم اعرف

ياجوهرة . انني لم اعرف ولم احب من جنسك سوى والدتي فلمـا توفيت انفردت بنفسي وقصدت الانتحار لالحق بها ولكنني قبل ان افعل جاءني نذير سموي فقال لي عش يا محمد على ما قسم الله لك من الحياة واحتمل ما كتبه لك من الالم فلم يسعني الا الطاعة وعدت من وحدتي اجعل حزني سلماً ارقي به الى اكمة الحياة حتى رأيتك فخيل لي ان روح والدتي تناجيك من عينيك الجميلتين فانتفى القسم العظيم من حزني اما الآن فقد لحقت بك من قواله لاشرح لك ما اخفيه عن نفسي وما لا يسمعه سوى اذنيك . غير انني لا اريد ان اقول ذلك على قارعة الطريق لئلا يفاجئنا طارئ فاتوسل اليك باسم والدتك وباسم والدتي أيضاً وبمـا في قلب كلٍ منا من الحب والاعتبار لهما وبنور هذا القمر وتلك الكواكب ان ترافقيني الى قمة تلك الاكمة فاسكب امامك للمرة الاولى والاخيرة قربان قلبي وابدي لك طريقةً لا يوجد سواها للنجاة والدك ولخير رجال بروستا

فنظرت جوهرة اليه ثم الى الاكمة وقالت — كيف . ولمَ تريد ان يأخذني الى هناك ؟

قال — اصعد بك بكل وقار واحترام واتبعك كما يتبع العبد مولاه . نعم ان الطريق صعبة وصخورها حادة ولكنها سهلة للغزلان فانا اتذكر الآن انني رأيتك مراراً بثوبك الابيض تطيرين كالحمامة وتقفزين فوق الصخور كالابل فاستحلفك بالله ان لا تخيبي رجائي . هلمي بنا فقد اخترت قمة صخور بوسيفاوس لوحدتها فلا يسمع حديثنا احد سوى الطبيعة ولا يرى خلوتنـا غير الله فاكلمك بشان ابيك وبلدتك وشخصك

وكانت جوهرة مطرقة الى الارض اطراق المرتابة في صدق كلامه وصفاء نيته ثم رفعت عينيها الى وجهه وكان قد استقبله نور القمر فقرأت في عينيه الاخلاص والصدق فتنهدت ثم ضيقت لثامها وقالت له — سأريك اني انـا ايضاً لي قلبٌ لا يخاف فسر امامي وانا اتبعك . فشمر محمد علي بسرور فائق وكاد ينطرح امامها شاكراً غير انه امسك نفسه وانحنى بمنتهى الوقار ثم سار وهي في اثره صامتان يقفزان

من صخر الى صخر وكان محمد علي يدير رأسه من حين الى آخر ليرى اذا كانت لا تزال وراءه او اذا كانت في حاجة الى مساعدته . ولما بلغا قمة الاكمة وقف محمد علي وكانت قد صارت جوهرة الى جانبه فقال لها – ألا يؤثر فيك هذا المنظر الجميل ؟ أترين كيف صار نور القمر ضئيلاً وكيف اخذت تتلاشى جيوش الظلام امام طلائع الشمس التي تبدد الغياهب وتنير النهار ؟ أتعلمين ان مثل تلك الشمس تضيء الآن على نفسي فينفجر النهار في حياتي التي لم تكن حتى الساعة الا ظلاماً قاتماً . وكانت قمة الاكمة شاهقة في الارتفاع يطل الواقف فوقها على الارض المنبسطة امامه كانه طير محلق في الجو . وكان القمر في تلك الساعة مسرعاً في اختفائه من وجه ملكة النهار والبحر قد انعكس عليه لون الجلد واختلط به فلم يبن له فاصل الا في نقط تسابقت فيها الغيوم وقد كساها الشفق حلة قرمزية . والنجوم قد اخذ منها النعاس بعد سهر الليل فاغمضت اجفانها وحجبت نورها وافاق البحر من رقاده فهدرت امواجه وهبت الريح من مكانها كحفيف ملائكة تحمل الى الارض اذكار عظمة الباري وتخبر بقدرته . ومد محمد علي يده فاخذ بيد جوهرة ورفعها بلطف الى شفتيه فرسم عليها قبلة احرقت اثرهـا انفاسه الحارة . وكانت جوهرة قد استولى عليها الذهول لدى مشاهدتها ذلك المنظر البديع واصابها ما اصاب محمد علي من ثورة الغرام فلم تمانع في اعطائه يدها . وبقي الاثنان متماسكين في تلك الخلوة وقد ساد عليهما شعور خفي تركا الى الطبيعة حولهما وصفه وتفسيره . ثم تنهد محمد علي وقال – يا جوهرة قد تهت مراراً عديدة على هذه الصخور وشاهدت بزوغ الفجر وشروق الشمس ولكنني لم ار هذا المنظر بهجاً قط كما اراه اليوم ولا حملت الي الشمس حرارة لطيفة كالتي اشعر بها الان . كنت انتظر هنا بزوع النهار لاسعى وراء الرزق في طلب الصيد أو العبور الى ايمبرو لجمع شباك الصيادين اما الان فاري ان كل ما يحيط بي يحمل الي سراً لم اكن اعرفه من قبل . نعم لم اشعر قبل الان بسر الحب فما احلاه انه يريني ما لم انتبه اليه قبلاً . انه يفتح عيني فارى الآن للمرة الاولى في حياتي جمال الطبيعة وبهجتها ......

فقالت جوهرة بدلال — لا اعرف ماذا اقول بل لا ادري اذا كان يجب ان اسمع حديثك هذا واجيبك عليه بدون اذن من ابي

قال — حسناً ولكنك بدون شك تسمحين لي بهذه النعمة يا جوهرة وتأمرينني ان اذهب الى ابيك واطلب اليه يسمح لي بابنته لتعيشي معي مدى الحياة

فقالت وقد صبغ الاحمرار وجهها — لا . لا. لا احب ان اسمع هذه الكلمات لانك انما اتيت بي الى هنا لتكلمني بشأن والدي وخلاصه فلا احب الان ان اسمع غير ذلك

قال — نعم هذا هو سبب مجيئنا الى هنا وقد صممت على محادثتك مليا بهذا الشان ولكن ...... قد اضعت ذاكرتي فلم اعد اعلم ما اقول .

فقالت — لا ليس الامر كذلك ولكنك شئت ان تختبرني وترى اذا كنت اخلو بك وحدي فعلت ذلك واستهزأت بي ... ولكن ... اعلم يا محمد علي ان جوهرة كاسمها فاذا كانت بين اترابها أو محاطة بجواريها او منفردة في اي قسم من الارض فهي لا تفقد ذرة صغيرة من قيمتها اما الان فاذا لم يكن لك ما تقوله لي بشان والدي فدعني اذهب واياك ان تتبعني

فقال لا والله لم يخطر لي ذلك واقسم بالله انني اتيت بك لاكلمك كما ذكرت ولكنني شعرت عندما لمست يدك بانني ولدت ولادة جديدة فنسيت حياتي الماضية وكل ما يتعلق بها

وكانت جوهرة قد احبت محمد علي لاول وهلة واشتد هيامها به اكثر منه بها غير ان النساء يفقن الرجال في اخفاء عواطفهن والظهور بغير مظاهرهن الحقيقية فقطبت حاجبيها وقالت له — دعنا من كل ذلك وعد الى تذكر ماضيك وكلمني عن ابي

فتأوه محمد علي وقال — ان والدك اسيري وقد اقسمت ان اخضع العصاة قبل ان اراك فشرفي يتطلب مني البر بيميني .. آه .. رأيتك فندمت . وكنت قاسياً فلنت ووددت ان لا اكون قد فعلت ما فعلت . والان ترين محمد علي

النحيف . الظالم . القاسي يتمنى ان يقع على قدميك فيسكب امامك قلبه كما هو .
آه لا اقدر ان ارجع بكلامي ولا ان احنث بيميني اقسمت امام رجال بروستا فاذا
لم يقوموا بالطلب الذي بلغتهم اياه باسم الحاكم حسان الشوربجي اضطر الى تنفيذ
وعيدي وقطع رؤوس اسراي

فاجفلت جوهرة كانها اصيبت بسهم سام وصاحت وقد غطت وجهها ــ اواه
واوالداه !

فتنهد محمد علي وقال — جوهرة جوهرة اواه واشرفي . انني اعز شرفي اكثر
مما تحبين والدك . فالطريقة لخلاصه بدون تدنيس شرفي هي ان اموت ... انني
لا اطيق كدرك فيجب ان اموت ليحيي والدك . فان تبسمك اللطيف وقولك قد
مات رحمه الله فداء لوالدي الذ على سمعي وأفخر لي من ان اعيش لاراك دامعة الطرف
تندبين والدك وتلعنين قاتله . ان الحاكم لم يكن من رأيي في تنفيذ الحكم ولم يمنعه
عن اطلاق الاسرى سواي فلذلك يكون امرهم بيدي ولا يطلق سراحهم سوى موتي .
نعم قد تذكرت الآن ما اردت ان اقوله لك فهو ما سمعته . وقد قربت النهاية ولم
يعد لي بالحياة مطمع سوى هذه الدقائق القليلة التي اقضيها بقربك فتوازي الحياة
بطولها . آه كم وقفت على هذه الاكمة واجلت طرفي في مناظر الطبيعة وصفاء الجو
وكم متعت عيني بمشاهدة البحر وشروق الشمس الى ان بصرت بك فامحى ما مضى
ولم اعد ارى سوى حاضر حياتي وانتِ . انني افدي والدك بحياتي فلي عندك لقاء ذلك
حاجة لابد ان تعديني باتمامها فقد اخبرتني والدتي قبل وفاتها انه اذا حان اجل المرء
احاطه الله بروح من عندهِ وأرسل اليه اطهر ملكٍ من جنتهِ ليذوق وهو بعد على
الارض طرفاً من لذة النعيم . ولا اشك الآن في انكِ انت بعينك الملك المرسل
اليّ ولذلك اتوسل اليك ان تزيحي نقابكِ هذا لانظر الى محياك فما هي الا نظرة
اموت بعدها قرير العين مجبور الخاطر

وكانت كل كلمة من كلام محمد علي تندفع كسهم حاد فتفتح جرحاً جديداً في
فؤاد جوهرة ولم يعد بامكانها امتلاك عواطفها فرفعت يدها الى وجهها ونزعت برقعها

عن وجهها واستقبلته بوجه كالشمس بل اشرق ورأى في نرجس عينيها لؤلؤتي دمع تحاولان الانحـدار على ورد خديها وقالت له — هاك وجهي يا محمد علي اني اريكه عن طيبة خاطر فانظر اليه ولا تمت . ولا بد من ايجاد وسيلة اخرى لخلاص أبي فما المنفعة اذا خلصت حياة باماتة حياة

وفي اثناء ذلك برزت الغزالة من وراء الافق فصبغت الارجاء بلون ذهبي جميل وبان لمحمد علي وجه وقامة فخيل له انه بازاء الهة الجمال والعفة فوقف هنيهة كالمأخوذ ثم ارتعش بدنه فسقط الى الارض جاثيـاً امامها خاراً على وجهه يردد صلاة حارة ويقول — ان صلاتي يا الهة الحب هي انني احبـك . ابحثي في اعماق قلبي فترين قد سطر عليها باحرف من نار انني احبك . قد كان قلبي خلياً وعواطفي لا تعرف شيئاً عن الحياة والخلود اما الآن فان عشت وان مت فانني احبـك . ثم نهض فجأة فطوق الفتاة بذراعيه وضمها الى صدره ورسم على شفتيها قبلة اشتركت فيها جميع حواسه ورجف لها جسمها فالقت برأسها على كتفه لحظة ثم تخلصت منـه وارسلت النقاب على وجهها كما كان وقالت — قد قلت لي انك اتيت الى هنـا وقصدك ان تموت لتنقذ والدي وانا اقول لك الآن انك لم تصب في فكرك واني لا اريد ان تموت

فقال وهو لا يعلم كيف يصيغ كلماته — اذاً تريدين ان احيا . ان امرك مطاعٌ يا جوهرة فساحيا ولكن لمَ ولاي سبب . هل تبادلينني الحب وهـل تقسمين ان تكوني لي فتشاركيني في حياتي ؟

ولبث محمـد علي ينتظر جوابها وسكن هبوب الريح وساد السكون على الطبيعة باسرها لانها انصتت معه لتسمع الجواب . فتوقفت جوهرة برهة ثم قالت وفي صوتها رنة غنج اخذت بمجامع فؤاده — انا ايضا . . . قد . . احببتك

ولم يكد يسمع هذا الجواب حتى وقف امامها شاخصاً ببصره اليها وهو يحسبها الهةً لا يجوز للبشر الاقتراب منها ولكنه لم يلبث ان انتفض بغتةً وقال — اواه . وشرفي . فانما اتيت لاموت شريفاً لا لاحيا فاقد الشرف

فقالت بتبسم– ألا تزال مصمماً على الموت . . . ؟ وما هي الا دقيقة مذ بدأنا ان نعيش ؟

قال – وما العمل وقد اقسمت بشرفي ان اعدم الاسرى اذا لم يدفع المال . فرجال بروسنا لا يدفعون والحكم لا يمكن نقضه فلا بد من موتي لخلاص والدك لان الحاكم رحيم طيب القلب فاذا مت برأ نفسه من قسمي واطلق سراحهم ورفع عنهم الجزية بتمامها . بيد انني لو بقيت حياً لما سمحت بشيء من ذلك فتكون حياتي القضاء على والدك وكيف اطيق ان اكون جلاد ابيك واسبب لعينيك ذرف الدموع وفي كل دمعة منها نار كاوية لفؤادي وخنجر يطعن صدري

فتأوهت وقالت – مهما يكن الحال فلا يجب ان تموت . ألم تقل انك ستحيا لي ايها القاسي القلب . ان عيني تذرفان الدموع اذا قتل ابي فهل تظن انك تنشف دموعي اذا كانت حياة والدي موقوفة على فقد حياتك

وشعر محمد علي انه قد اختطف الى النعيم ولم يعد بين اخوانه من البشر فاذهله الامر ولم يستطع كلاماً . اما هي فتابعت حديثها قائلةً – لا بد لنا من تدبير الامر ايها الحبيب . فاجمع افكارك واستنجد الله واولياءه . ولنستشر ارواح والدتينا فانهن ينظرن الينا من مقامهن العالي . تعال نتداول في الامر لانه لا يجوز ان تموت انت في سبيل انقاذ والدي كما انه لا يجوز ان احب قاتله . قد وعدتني ان تحبني كما احبك انا وما نفع الحب اذا بدأ بالحزن والفراق والموت فهلم وساعدني بنصيحتك ودعنا نعمل معاً على تحقيق امالنا . دعني اذهب الى بروسنا فاتوسل الى قومي ان يدفعوا المال رغماً عن تحريض ابي فاذا فعلوا صنت شرفك واتممت كلامك وانقذت والدي

فقال وقد افعمه الحزن – واذا ابوا فماذا تكون النتيجة سوى التأخير

قالت – انهم لا يرفضون لي طلباً ففي شفتي الآن سحر اكسبنيه الحب يحملهم على فعل ما اريد وان محبتي لوالدي واشفاقي عليه يكسبان كلامي قوة تجعلهم يجيبون طلبي بالرغم عنهم . نعم انهم اذا رأوا دموعي تطالب منهم الرحمة لا يقوون على الرفض وفي بروسنا يا محمد رجال قلوبهم طيبة ملآنة من الرحمة والحنان وهم يحبون

والدي الى درجة العبادة فلا يسمحون له بالموت ولو انقذوه منه بالرغم عنه . فدعني دعني اذهب قبل ان يفوت الوقت

فنظر اليها محمد علي وقد سحره كلامها وقال — اذهبي وليبارك الله مسعاك . اذهبي واذا كان لمحمد علي نصيب في الحياة فليكن كما أملت ولكن ..... آه ياجوهرة اذا كانْ عاندك التوفيق ؟ .... يا جوهرة قبل ان تتركيني ......

ولم يستطع اتمام كلامه ففهمت مراده واحمرت وجنتاها فاطرقت حياء وكان قد اقترب منها كثيراً فازاح نقابها بيده واصابت شفتاه مبسمها . ثم عاد فاسدل النقاب وقال — اقسمي لي يا جوهرة انه ان لم يفرقنا الموت ان يرفع هذا النقاب عن وجهك لاحد سواي

قالت — آه يا محمد علي . علام تكلفني ذلك وانت تعلم ان والدي حي فهو ولي امري وطاعته فرض علي ... بل اني اقسم لك ان قلبي لم يعد لي فقد ملكته انت . اقسم لك انني ابقى امينة ودادك ما حييت واذا ترك الامر لخياري فانا أقسم لك ايضاً انني افضل الموت على ان يزيح نقابي عن وجهي مخلوق سواك

وحاول محمد علي ان ينطق بكلمة حب فكان صوته اجش وفي حلقه غصة فاشار اليها ان تعجل بالذهاب وانه يرافقها جزءًا من الطريق فادركت مراده وهزت راسها ممانعة واشارت الى السهل الواقع امام بلدتها وكانت الشمس قد انارته فقالت — لا ترافقني خطوة واحدة فقد بدأ الناس بالخروج الى اعمالهم وماذا عساهم ان يقولوا اذا رآنا بعضهم سائرين سوية بل باي السنة حادة يسلقوننا . لا . لا .. دعني اذهب وحدي وادعُ الله ان يوفق رسالتي حتى متى قدّر ان ترجع اليك هذه الحمامة التي اصطفيتها تدخل الى العش الذي تهيئه لها نقية الصيت طاهرة الذيل . اما انت فعد الى قواله ولا تنظر اليَّ فانني لا اقوى على المسير ما دامت عيناك تراقبانني

فنظر اليها محمد علي نظرة لا يترجمها قلم وقال سيري بحفظ الله ثم حول نظره ولا تسل عما قاساه من لوعة افتراقها عنه وهو لا يسمع صوت خطواتها ولا يستطيع ان يشيعها بنظره فلبث يشغل نظره باستقبال السماء تارة والبحر المزبد تارة أخرى

حتى اذا سرق النظر الى جهة بروستا ورأى ان عذراءه قد احتجبت عن عينيه سار مطرقاً وهو يقول اللهم نجحها في مهمتها لا عيش لها وهي لي باركك الله يا جوهرة وجعل حياتي منذ الساعة سعيدة لانني ساحيا لك

الفصل الرابع

حليّ جوهرة

لم يغمض جفن في بروستا في تلك الليلة بل كان سكانها في خوف وقلق يتأسفون لما اصابهم ويفكرون في ما يجب عمله لخلاص اسراهم ولما كان الفجر اجتمع الرجال امام الجامع يتفاوضون في الامر واذا بجوهرة مقبلة فخفوا للقائها عالمين انها عائدة من زيارة والدها وراجين انها تكون قد أتتهم ببشارة تخفف من كربهم ولما سالوها عن والدها قالت — ان حياة ابي وموته في ايديكم وقد ضاقت حيلتي في اقناعه فجئت ارجوكم ان تسعوا في خلاصه وخلاص الفقهاء معه . جئت استحلفكم باسم الشفقة والحنان ان تخضعوا لامر الحاكم وترحموا فتاة تجثو على اقدامكم طالبة خلاص والدها

فتأثر القوم وقالوا — اننا نشعر معك يا جوهرة ويهمنا خلاص والدك ورفقائك ولكن ما العمل وقد امرنا والدك ان لا نفعل وحظر علينا الخضوع للامر الظالم

قالت — انه امركم والح عليكم بذلك اطاعة لصوت ضميره فانه لا يود ان يسلبكم مالكم لتنفقوه في خلاصه فهلا اطعتم انتم اصوات ضمائركم وصوت الانسانية والشرف وبذلتم ما لكم لاجلهم كما يبذلون ارواحهم من اجلكم . اتفضلون ان يقول عنكم العالم انكم فضلتم اذخار المال على خلاص اربعة شهداء

فاجاب واحد منهم وقال لا يا جوهرة ليس امتناعنا عن حب في اذخار المال بل لحفظ الكرامة والمبدأ فقد فرضوا علينا الآن خراجاً مضاعفاً فاذا قبلناه تقاضونا في المرة الثانية ثلاثة اضعاف ثم اربعة وهكذا الى ان نصبح فقراء وليس لنا سوى

المسكنة والفقر وفوق كل ذلك فانهم يطلبون منا ضعفي المعتاد في هذه السنة وقد امحلت مواسمنا وذهب النوء بشباكنا فوالله انهُ يستحيل علينا دفع المعتاد فكيف يمكنا دفعه مضاعفاً . وعليه فما لنا سوى احتمال امرنا بصبر وانت فسلمي امرك لله وهو يعوضك خيراً

فجثت امامهم ورفعت يديها وقالت والدموع تنسكب من عينيها — بربكم اشفقوا عليَّ ودبروا طريقة للخلاص . . ثم نهضت فجأة وقالت عليكم تدبير طريقة بل عليكم ان لا تكونوا شركاء القتلة بامتناعكم عن خلاص الاسرى والاَّ فاعلموا ان الله واقف بالمرصاد لا تنام عينه عن مجازاتكم فيحل بكم البلاء ويحيط بكم الشقاء

واثر كلامها في السامعين فقالوا — ولكن ما العمل ونحن لا نملك المال الكافي ؟

قالت خذوا ما عندكم واذهبوا الى الحاكم وتذللوا امامه وقولوا انكم له مطيعون وانكم بالحقيقة لا تملكون غير ما تأخذونه له وقد علمت انه طيب القلب محب حنون فلا يلبث ان يقبل رجاءكم ويعفو عن اسراكم وربما ارجع لكم مالكم ايضاً . وما زالت تكلمهم بفصاحة فتعدهم برضى الله عن عملهم وتتوعدهم بقصاصه اذا امتنعوا حتى لانت قلوبهم ورأوا الخطر الذي يهدد حياة اسراهم وربما حياتهم ايضاً فقالوا وماذا تريدين ان نفعل الآن . قالت ليذهب كل الى منزله ويرجع بمنتهى السرعة حاملاً المال الذي يستطيع تقديمه وساذهب انا أيضاً الى منزل والدي فاذا رجعتم قبلي فانتظروني ريثما اعود . ولما قالت ذلك وثبت كالغزال الشارد ولم تقف حتى اتت دار أبيها فلقيها جاريتان لها كانتا تنتظرانها بذاهب الصبر ولكنها جاوزتهما مسرعة وصعدت الى غرفتها الخصوصية ثم اقفلت بابها من الداخل وعمدت الى صندوقها ففتحته واخرجت منه علبة مرصعة بالاصداف وبعض الحجارة الثمينة وجعلت تنتقي منها حلاها واحدة واحدة وهي تقول هذا هو الحلق الجميل وهذا العقد البديع وهذه عصابة الرأس وقد قيل لي انها تساوي على الاقل مئة دينار ولا اظن ضعفي الخراج يزيدان عن ذلك فاذا زادا رجوت الحاكم ان يقنع بكل حلاي وينتهي المشكل . وكانت تلك الحلى لوالدة جوهرة وقد اعطتها لابنتها وهي على

فراش الموت فحفظت ذلك التذكار كاثمن كنز . أما الان وقد مست الحاجة فلم تر بدًّا من بذلها ولكنها نظرت اليها والدموع ملء عينيها ثم انحنت فوقها وجعلت تقبلها قطعة قطعة وتقول — اماه . اماه لا يسوءك ان تسمح ابنتك بهذا التذكار الثمين فانت تعلمين اني اضطررت الى ذلك لشدة محبتي لوالدي . قد كان املي ان اتزين بهذه الحلى يوم زفافي لتكون لي بركة منك ولكن لا اشك في ان من يحبني يكفيه النظر الى وجهي فلا تهمه الجواهر . و بعد ان قبلتها ثانية اعادتها الى الحقيبة واقفلتها ثم تابطتها تحت ازارها وخرجت مسرعة الى الجامع وكان رجال البلدة يفدون الى ذلك المكان مسرعين وقد احضروا ما استطاعوا من النقود الموجودة عندهم . ولما كمل عددهم سالتهم عن قيمة الجزية المطلوبة فقيل لها ان الخراج المعتاد هو مئة دينار يدفعها خمسون رجلاً فيصيب الواحد منهم دينارين و يرى صعوبة كلية في دفعها فكيف وعليهم الان ان يدفعوا اربعة دنانير فوق ما اصابهم من المحل اما هي فابرقت اسرتها وقالت مئة دينار فقط . اشكر الله فقد هان الامر ثم جمعت ما جاء به القوم وكان المجموع يعادل الخراج المعتاد فاخذته منهم وسارت وساروا هم في اثرها حتى بلغوا الاكمة التي تشرف على قواله فاوقفتهم وقالت — يا ايها الاخوان قد اعطيتموني الجزية المعتادة ولي امل ان يساعدني الله فاذهب الى الحاكم واقنعه بطريقة يعلمنيها الله فيفك قيود اسرانا فلا تكونوا قد ظلمتم بدفعكم الجزية المضاعفة ولا يكون قد قتل اربعة من خيرة رجالكم تحت ذنب الثورة والعصيان فانتظروني في هذا المكان ريثما آتي قصر الحاكم فاما أن ادعوكم لاتباعي أو ان اعود اليكم بنفسي . ولما قالت ذلك تركتهم يفكرون في ما يكون من امرها وبعضهم يستحسن والبعض يستهجن اما هي فتوجهت الى القصر فدخلته وقد احترست ان لا يراهـا احد فيعلم اباها ويمنعها عن اتمام مشروعها

وكان حسان الشوربجي قد افاق من نومه المزعج وخرج الى الردهة وعلى وجهه علائم القلق واضطراب البال وهو يلوم نفسه على تسليمه امر جمع الضريبة الى محمد علي وتخويله السلطة المطلقة . ثم يتصور اعدام اربعة ابرياء في ساحة قصره

فيقشعر بدنه . وكان قد أوفد أبنه عثمان الى محمد علي وألح عليه أن يستعمل كل ماله عنده من المحبة والصداقة ليقنعه في الرجوع عن عزمه وجعل ينتظر عودته وهو يتساءل عما اذا كان ينجح عثمان واذا بباب الردهة قد فتح ودخلت منه فتاة مقنعة فما زالت تقترب حتى صارت أمامه فجثت على ركبتيها وقالت — انني ابنة شيخ بروستا المسجون يا مولاي وقد جئتك اسألك الرحمة فتحنن على امتك هذه ورد لها اباها .

فتنهد الحاكم وقد زاد تأثره وقال — والله لو كان ذلك في يدي لما تأخرت لحظة واحدة ولكنني قد قيدت نفسي باعطائي سلطة مطلقة لرسولي محمد علي ولم يعد بامكاني الرجوع بكلامي والا لكنت اطلقت سراح ابيك حالاً والغيت امري بطلب الجزية

قالت — لا اسالك يا مولاي الغاء الجزية فانها فرض عادل لا بد منه وقد جئت اقدمه عن طيبة خاطر باسم اهالي بروستا جميعهم . وانما جئت بنفسي لاسألك نعمة يا مولاى ولا اشك في انك تسديني اياها . ان رجال بروستا يا سيدي بالحقيقة غير قادرين على دفع المئتي دينار ولم يمكنهم بعد بذل قصاري الجهد الاجمع الجزية المعتادة وهي نصف المطلوب فقد جئتك انا بما يعادل النصف الثاني وارجو ان لا تمانع في قبول ذلك

فتبسم حسان مسروراً ولكنه استغرب حديث الفتاة فقال لها — اذا كنت قد احضرت المطلوب فقد انتهى المشكل وتم الامر ولكني اري في كلامك الغازاً فماذا تقصدين بقولك انك اتيت بما يقابل قيمة النصف الآخر

فنظرت الى الباب باحتراس كانها كانت تخاف دخول محمد علي فيرى ما هي عليه ويمنعها عن اتمام قصدها . ولما رأت انه لا يراقبهما احد قالت وقد اخرجت الحقيبة من تحت ازارها — هاك يا مولاي هذه الحلي فقد تركتها لي والدتي تذكاراً فهي ملكي اتصرف بها كما أشاء ولذلك قد اتيت بها لتسد ما يطلب من قومي وانا أوكد لك انها تساوي اكثر من مئة دينار ولكني أبيعك اياها بالمئة

فاخذ حسان الحلى وجعل يتأملها ثم قال — لو كان الامر بيدي وحدي لاتفقت واياكِ على ما ترغبين غير ان محمد علي قد أمر باحضار الجزية نقداً . اما انا فليس لدي من النقود ما يمكنني من شراء هذه الحلى الثمينة والا كنت نقدتك اياها حالاً . وبدون ان يعلم احد .. ولكن .. اصبري فقد تذكرت رسولاً جاء بالامس من العاصمة يحمل الى ضيفي خسرو باشا اكياساً من المال فسأريه هذه الحلى وأسأله ان يشتريها ولا أشك في انه يفعل ولا أظن أحداً يستطيع ان يساعدنا في هذا الامر سواه . اقول يساعدنا لانني مهتم بهذه المسألة نظيرك ولم أرضَ بهذا العنف الذي تورط فيه محمد علي فانا اتمنى السلام من كل قلبي فابقي حلاك الان معك وانتظريني هنا ريثما اعود

الفصل الخامس

الخلاص

لبثت جوهرة في مكانها حيث تركها حسان وهي تعد الدقائق لرجوعه وتضرع الى الله ان ينجح مسعاه وان ينتهي الامر قبل حلول الساعة التي عينها محمد علي واذا بالحاكم قد عاد الى الردهة ومعه خسرو باشا فقال الحاكم — هذه الفتاة التي ذكرتها لدولتكم . ثم نظر الى جوهرة وقال — انت في حضرة رجل عظيم فحييه بوقار وهو وحده قادر على مساعدتك . وما سمعت جوهرة ذلك حتى جثت على ركبتيها امام الباشا وقالت له بصوت يدل على الحزن واليأس — آه يا سيدي اذا كنت حقيقة تستطيع مساعدتي فبربك لا تتأخر . ارحمني وخلص أبي ونجنا من الشر الذي نحن فيه . وساعدها الحاكم فجعل يخبر خسرو باشا بامر الفتاة وانه يستطيع اذا شاء ان يشتري منها حلاها لتتمكن من شراء ابيها . اما خسرو باشا فكان ينظر الى الفتاة وقد ادهشه جمالها فباحت عيناه بما اصابه من الميل اليها منذ رأى قوامها الجميل وسمع صوتها العذب وعاين تلك العيون التي خرقت صدره بسهمي لحاظها

فتقدم نحوها وقال — اريني الحلى ايتها الفتاة

فدفعت اليه الحقيبة وقالت — خذ يا مولاي وليلين الله قلبك فتخلص انفساً عديدة من الموت

فتناول خسرو باشا الحقيبة وجعل يتأمل ما فيها وعلى شفتيه تبسم الاحتقار وقال مخاطباً الحاكم — ما ظننتك بسيطاً الى هذا الحد يا حسان فتنطلي عليك الحيلة وتقبل ان تشتري نحاساً وزجاجاً ملوناً بثمن الذهب والحجارة الكريمة . ان كل هذه الحلى لا تكاد تساوي دينارين

وكأن افعى نائمة نهشت صدر جوهرة فوثبت امام الباشا وقالت بصوت اشبه بالتهديد — أتتهمني بالاحتيال ؟ والله انك مخطيء فيما تقول بل انت البسيط الذي لا يميز بين الحلى الحقيقية والنحاس المغشوش . ان هذه الحلى من الذهب النقي وحجارتها من اثمن الجواهر فقد اهداها جدي وكان صائغاً الى ابنته والدتي وهي وهبتها لي عند موتها ولم ألمسها من ذلك الحين . لا ليس من علو الهمة وشرف النفس ان تتهمني بالاحتيال والغش

وتقدم الحاكم ليخفف من حدة الفتاة ويستغفر الباشا عن جرأتها وجسارتها في الكلام فقال له الباشا وكان غضبها قد هيج فيه الشفقة وزاده اعجاباً بها — دعها تتكلم ما تشاء يا حسان فان حدتها تعجبني وأود ان اكلمها على انفراد حتى اذا رأيت وسيلة لمساعدتها فعلت فانسحب انت الى الغرفة الثانية ولا يدخل علينا احد

ولما اختلى خسرو باشا بجوهرة تقدم اليها وقال — قولي لي الحقيقة هل تحبين اباك الى هذا الحد

قالت — كيف لا يا مولاي وليس لي اهل سواه فقد رباني صغيرة وكان لي أباً واماً وأخاً وخادماً ورفيقاً ولم تكن حياته باسرها سوى بحث دائم عن الاسباب التي تسرني ليفعلها ويجعلني مسرورة

فهز الباشا رأسه وقال — مسكينة انتِ اذاً . . . اذا لم يدفع قومك المال المطلوب فانه لا بد من تنفيذ امر محمد علي الذي صارت بيده وحده السلطة التي خوله اياها

الحاكم وقد قربت ساعة الاعدام ولا بدمن ان يكون محمد علي يستعد الآن لانه اقسم ان ينفذ الحكم بنفسه

قالت — هل اقسم ان يقطع رؤوس الاسرى بيده ؟

قال — نعم وهو بدون ريب يعني ما يقول فانه غلام قاس سفاح يسره سفك الدماء ويسكره قتل البشر

قالت — لا تقل ذلك يا مولاي فهو رقيق القلب لا يود ضرر أحد

فقال الباشا وقد اشتعلت في صدره نيران الغيرة — كيف تقولين ذلك فهل رأيته أنت ؟

قالت — نعم رأيته وسألته الرحمة والرفق .... وكانها شخصت أذ ذاك المصيبة التي هي فيها بين ان يقتل والدها أو ينتحر حبيبها أو أن يسهل لها الله ما يخلصها من تلك الورطة فشهقت بالبكاء

فقال لها الباشا — خفني عنك يا هذه فعليّ خلاصك

فنظرت اليه وقد ملأ السرور قلبها وقالت — أتساعدني أنت ؟ قد سمع الله أذًا توسلاتي وشفق عليّ . فقل لي يا سيدي ماذا يجب أن أفعل ؟

قال وقد تبسم حتى بانت نواجذه — ما عليك ألا أن تزيحي قناعك لاتمتع بنظرة من وجهك الجميل واشاهد محياك الملائكي

فاقشعر بدنها ورفعت يدها فضيقت لثامها وقالت — انت تعلم يا مولاي أن شريعتنا تحظر على الفتاة كشف وجهها امام رجل غريب

قال — أعلم ذلك ولكن ليس عن الرجل الذي سيضمها الى عداد حريمه

قالت — نعم ومع ذلك فهي لا تفعل قبل أن تصير له حلالاً . فبربك يا مولاي دع هذا الموضوع الان فلم يعد لنا من الوقت ما نستطيع أن نضيعه بمثل هذا الكلام

قال — انت تطلبين خلاص والدك وتعارضين في الطريقة التي تؤدي الى خلاصه فاذا كانت هذه ارادتك فالخاطر لك وليمت ابوك فتتركين يتيمة فقيرة لا مأوى لك

ولا نصير واعلمي بعد ذلك انك قتلت اباك بامتناعك عن ازاحة قناعك فقط

فقالت وهي تشرق بالدمع — بربك ارحمني ولا تسلني ان افعل ما اخجل منه وما يعبث بطهارتي فقد فرض عليّ واقسمت أن لا انزع قناعي

فنظر اليها نظرة حادة وقال — اقسمتِ ؟ ولمن يا ترى ؟ ومن الذي فرض عليك ذلك ؟

وكادت تزل جوهرة فتعترف له انها اقسمت لمحمد علي حبيبها وتجاب على الجميع نقمة لا تزول لكنها عادت الى هداهـا فقالت — فرض علي الدين وأقسمت لخالقي

فقهقه وقال — حسناً غير أنه لما كان لا بدّ لي من مشاهدة وجهك الفتان قبل أن انقذ والدك كما وعدتك . ولما كنت قد اقسمت أنك لا تزيحين نقابك عن وجهك فلكي لا تخلفي بقسمك وانال مرغوبي سأنزعه بيدي . وقبل أن تتمكن من منعه كان قد رفع يده فازاح النقاب وشخص ببصره اليها

وحدث في تلك الدقيقة أن محمد علي مرّ امام الغرفة الخارجية فوقع نظره على ذلك المنظر وكأنّ شعلة كهربائية حوّلت دمه الى نار وأعصابه الى قوة لا تحصر فاصر باسنانه ووثب يريد الدخول الى الردهة فلم يشعر الا والحاكم قد وقف امامه وامسكه بمنتهى قوته ليمنعه عن ذلك واحتال حتى حاذى باب الردهة فاوصده بالمفتاح . أما محمد علي فكان يجاهد ويثب كالاسد الهائج وهو يقول لا بدّ لي من الدخول . وسمع عثمان صوت والده يناديه فاسرع ولما رأى محمد علي مع والده على تلك الصورة تقدم بلطف فوضع يده على كتفه وقال له — يا أخي محمد علي أنسيت أن هذا والدي فما هو السبب الذي انساك نفسك الى هذا الحد

وكان في كلمات عثمان ما اسكت هيجان محمد علي فارخى يديه وأجتهد في كظم غيظه ثم قـال — تسألني عن السبب يا عثمان . أن هذا الوحش الكاسر بل العتل الزنيم خسرو مختلٍ بابنة الشيخ يتطارحان الغرام ويمنعني والدك من الدخول اليهما

فقال الحاكم — ليست هذه الحقيقة يـا محمد علي وماذا يهمك من ابنة الشيخ

فانها جاءت ترجو خلاص ابيها

فصاح محمد علي — لماذا تهمني ابنة الشيخ ؟ لماذا تهمني جوهرة ؟ ثم لحظ في عثمان ما يشير عليه بعدم الاباحة بسره فتوقف عن الكلام ثم جعل يرتعد وغطى وجهه بيديه وبعد هنيهة قال بصوت اشبه بحشرجة الموت — نعم يجب أن اسكت فانا التعيس الذي ولدني الشقاء وربتني الهموم . قد كتب على جبيني يوم ولدت أن ارى السعادة واشقى في سبيل الحصول عليها فاذا بلغتها وقبضت عليها بيدي اراها تحولت الى سراب لا حقيقة له فارجع بيد فارغة وقلب كسير . نعم انني سأضيف هذه الخسارة الى ماسبقها وسأنسى كل شيء الا الانتقام ...

وبعد هنيهة نظر محمد علي الى الحاكم وقال — لعلك تريد استرجاع كلامك فتسلبني ما اعطيتني من السلطة المطلقة في امر الاسرى

قال كلا لم يسبق أن رجعت بكلام أعطيته ولو سبب خرابي ولكنني ارجو ان لا تكون صادقاً يا محمد علي فانك لو سمعت مثلي توسلات هذه الفتاة ورأيت دموعها للان قلبك ولما اضطررتها الى انتضرع لخسرو باشا ليساعدها .

فقال محمد علي — تتضرع اليه وكأنه يقوى على توقيف امري . لا . لا فقد قرب الوقت ولا تمنعني قوة ارضية عن تنفيذ كلامي

فتقدم عثمان وطوق عنق محمد علي بذراعيه وقال له — هوّن عليك ايها الحبيب وكن رابط الجاش فلا تندفع بسرعة العوامل الفجائية وليرى الجميع شرف نفسك وثبات جنانك . فلم يجبه محمد علي ولكنه ضمه اليه ووضع رأسه على عنقه وجعل ينتحب كالطفل

وكان خسرو باشا في شغل عما يجري في جواده فلم يسمع شيئاً وقد ادهشه جمال الفتاة الرائع فلبث رافعاً برقعها بيده وسألها ما اسمك فلم تطق النظر الى عينيه وقد تمثلت فيهما الشهوة والدناءة فاطرقت خجلاً وقالت بصوت منخفض — اسمي جوهرة وأرجو منك أن تترك نقابي

قال بل دعيني اشبع نظري من جمالك لاعلم بماذا اشبهك فان قلت انك

البدر فالبدر يعتريه المحاق وأن شبهتك بالورد فالورد يتنابه الذبول اما انت فزهرة جمال في فجرالطهر على راس حورية ارسلتها الي السماء

ولم تسمع جوهرة شيئاً من كلامه وانحدرت دمعتان محرقتان على خديها وهي تتوسل اليه أن يرسل نقابها فقال ان هاتين الجوهرتين الساقطتين من نرجس عينيك تفوقان جميع الحلي التي في حقيبتك فدعيني التقطها عن خديك بفمي

فرجعت جوهرة الى الوراء مذعورة وسحبت نقابها فتغطت به ورفعت رأسها بانفةٍ وقالت ــ أنه لعار عليك أن تهين فتاة ضعيفة .....

فقال ــ آه ما أطرب هذا الصوت على سمعي فعنفيني ووبخيني ما شئت فلست بغاضب ولا يزيدني ذلك الاّ حباً لك وهياماً بك وكل ما يفعل المحبوب محبوب .

وسمع في تلك الدقيقة صوت محمد علي في الغرفة الخارجية فقال لها ــ هذا صوت السفاح فيظهر أنه قد حان وقت الاعدام وسترينه عما قليل مخضباً بدم والدك الاّ اذا شئت بان اكون سبب خلاصه

قالت ــ ايكون في استطاعتك خلاص الناس وتتأخر . انني اتوسل اليك أن لا تتأخر اذا كان ذلك باستطاعتك

فاقترب خسرو باشا منها وهمس في اذنها قائلاً ــ نعم استطيع ان اخلصه بدفع المال من غير أن اشتري حلاك فابقيها لك . أستطيع أن ادفع لك المال المطلوب من بلدتكم واضعافه أيضاً ولكن بشرط واحد وهو أن ابتاعك بذلك المال فاجعلك مع حريمي وترين بينهن كثيرات يحاكينك جمالاً وظرفاً وربما كنّ من أسر اشرف من اسرتك . صدقيني انهن يحسبن أنفسهن سعيدات لاختصاصهن بي . وانا اعدك أن اجعلك فوقهن جميعاً فتأمرين ويطعنَ واكون أنا قدوة لمن في ذلك . فاكون مالكك وتكونين مالكتي

وكانت جوهرة تتراجع عنه والخوف قد ملأ فوادها ثم صاحت قائلة ــ لا . لا . أنا لا أبيع نفسي انني حرة يا هذا فلا ابيع تلك الحرية التي قد وهبنيها الله . لا . لا كيف تجسر أن تعرض عليّ مثل هذا الرأي

فضحك وقال أترفضين اذاً . حسناً فتمتعي بحريتك هذه وتواسيك على موت والدك . آه يا قاتلة والدها هل تظنين أنه توجد طريقة أخرى تمنع محمد علي عن اتمام وعيده . مرة أخرى أقول لك أتفضلين أن تبقي قاتلة حقيرة متروكة ام أن تصبحي مالكة ومليكة خسرو باشا تتمتعين بغناه وتسودين في قصره . اعلمي أني راجع قريباً الى العاصمة واعود الى مركزي في الوزارة فاذا قبلت ما اعرضه عليك جعلت مقامك فوق الجميع وبقي والدك حياً يفتخر أن خسرو باشا في عداد عبيد ابنته . اسمعي انهم في حركة وهياج وربما في هذه الدقيقة تمر الفرصة من امامك ويكون قد سيق والدك الى الذبح . أنا قلت لك أني أبتاعك فلا تتوهمي أني اريد بذلك جعلك عبدة رق كلا بل أريد أن ابتاع حبك فقط . يبان لي من عينيك أنك تقولين « أنا لا احبك » ولا عجب في ذاك فالحمامة البرية لم تعتد معاشرة النسر الداجن ولكنك سترين حسن معاملتي وتفاني في رضاك فيلين قلبك وتحبينني اكثر مما أحبك الآن

وجعل خسرو باشا يكثر من الكلام وقدجراه سكوت جوهرة فكان تارة يخيفها وطوراً يتملقها وحيناً يزين لها المستقبل والعز وهي كالمأخوذة لا تنبس ببنت شفة . ثم طرق اذانهم صوت صراخ وعويل من الخارج فقال الباشا — انسمعين هذا العويل ان رجال بروستا يصيحون متألمين لانهم يرون الجنود قد احاطت بالاسرى لتقودهم الى القتل وقد آذنت ساعة الصلاة التي عينها محمد علي . فسقطت جوهرة الى الارض كانها فقدت الرشد وجعلت شفتاها ترتجفان بصلاة حارة تبتهل فيها الى الله ان يوليها الرحمة . واقترب خسرو باشا لينهضها وهو يقول — ازف الوقت اسرعي بالجواب والا قضي الامر . ثم علت الجلبة في الخارج فنهضت وهي ترتعش ثم قالت بصوت يقطعه الحزن — اواه لا استطيع ان اقتل والدي بيدي . قد بذلت جهدي وذللت الصعاب واقنعت اهل بروستا فلما وصل الامر لمطلق ارادتي هل اتأخر ؟ لا . لا . فليحيَ والدي ولو قضيت على نفسي فياسيدي انني اقبل ماعرضته عليَّ فهات المال . اسرع

قال — الحمد لله فقد عاد اليك صوابك وصرت منذ الآن ملكة فؤاد خسرو

باشا فاصعدي الى حريمي وساذهب بالمال الى محمد علي وافك قيود الاسرى بيدي

قالت — رحماك ابقِ لي حريتي هـذا اليوم فقط فقضيه مع والدي ولا يعلم الضحية التي قدمتها لاجل خلاصه

فنظر اليها وقال — اسمح لك اذا اقسمت لي بتربة والدتك انك ترجعين اليَّ غداً صباحاً

قالت — اقسم لك بذكرى امي ان آتيك في صباح الغد

قال — حسناً ومتى جئت فادخلي من الباب الخافي حيث تجد بن خدمي بانتظارك ثم اقترب من باب الردهة ونادى حسان الحاكم وقال له — مر بايقاف الاعدام فاني سآتيك بالدراهم المطلوبة واطلق الاسرى . ثم نظر الى الفتاة وقال — الى صباح الغد ياجوهرة . لا يغرب عن بالك القسم المقدس الذي حلفته واذكري انك صرت ملكي فانت لي اين كنت . واود ان اراك باكراً فمتى لاح الفجر تعالي كما اخبرتك وترين خصياً أرسله ليأتي بك اليَّ

قالت — انني مطيعة يامولاي وساقوم بما أمرت

فاومأ الباشا برأسه علامة الاستحسان وخرج اما جوهرة فوقفت تنتفض كالعصفور وضيقت نقابها لتخفي الدموع المنهمرة من عينيها

الفصل السادس

الهرب

ولما استبطأ رجال بروستا عودة جوهرة ورأوا ان ساعة الصلاة قد حانت يئسوا من نجاحها وقرروا بينهم وجوب السعي لخلاص امرائهم ولو اضطروا الى ان يمدوا الحاكم بدفع المطلوب مرتين عوضاً عن دفعة واحدة فاسرعوا الى قواله و بلغوا قصر حسان فصدهم عن دخوله الجنود الذين اوقفهم محمد علي للحراسة . ولما رأى الرجال ذلك استلوا خناجرهم وعزموا على الدخول عنوة وهم يقولون اننا لانريد الشر وغاية ما نطلبه

مقابلة الحاكم لنسترحمه فقط . واذ ذاك ظهر امامهم محمـد علي وكان لايزال عليه اثر الغيظ والكدر فاسكتهم بصوت جهوري كالرعد القاصف وقال — أأذعنتم في آخر دقيقة فاتيتم تترجون الحاكم وهل ظننتم انه يغير الحكم فاتيتم تسترحمونه . لا لم يبق مجال للتغيير فالمطلوب منكم لم يدفع ولم يبق سبيل للرحمة . و بان و راءه عبد يحمل النطع وفي يده حسام مرهف يبرق الموت الزؤام من افرنده فهلعت قلوب الرجال واستولى عليهم الرعب وجعلوا يتذللون امام محمد عليَ و يسألونه الرحمـة والشفقة وان بينهم شيخهم وفقهاءهم وعملهم ريثما يجمعوا المال اما هو فقطب حاجبيه وقال — كان يجب عليكم ان تظهروا مثل هذا الخضوع وتعدوا هذا الوعد قبل ان ظهر عصيانـكم و بدر مني القسم الذى لامندوحة عن اتمامه فتنحوا عن الطريق لان ساعة الموت قد دنت . وفي تلك الدقيقة فتحت نافذة في اعلى القصر وظهر منها خسرو باشا فنادى قائلاً — قد انتهى الامر يامحمد علي ولم يبق من حاجة لسفك الدماء وانتم يارجال بروسنا قفوا قليلاً فلي معكم كلام

ولم يدر محمد علي شيئاً من قول الباشا انه قد انتهى الامر ولم يعرف كيف يجب ان يوقف انفاذ حكمه ولكنه شعر بانقباض في صدره عند مارأى خسرو باشا وسمع صوته . ثم عرته قشعريرة وقد رأى جوهرة تتقدم من باب القصر فمرت بجانبه كانها لم تنظره فخرج من صدره زفرة دلت على مافي احشائه من نار الغيظ واليأس فقال في نفسه آه من الخائنة لم يمض يوم واحد على قسمها لي بان لايرى وجهها مخلوق سواي واراها تحنث بيمينها . قد ظننت البشر مثلي يحافظون على عهودهم فذكرني الواقع ان لاامانة في العالم ولا صدق في الوجود فوااسفاه على بزرة حب غرستها في قلـبي فيبست قبل ان تنبت . قد اقسمت لوالدتي ان اكرس حياتي للانتقـام من البشر وكدت احول عن عزمي فجاءني الآن مايذكرني ويثبتني على ذلك العزم .

وكانت جوهرة قد بلغت القفص المسجون فيه والدها فمـدت ذراعيها وجعلت تصيح بمنتهى السرور — قد نجوت ياابي فاحمد الله . . ولم تتم كلامها حتى صار محمد علي بجانبها فدفعها بعنف الى جانب فسقطت الى الارض ولم تقل شيئاً بل نظرت اليـه

نظرة الآسف المسترحم ولم يطق ان يحتمل سهام تلك النظرات فادار وجهه وهو يقول — تباً للخائنة وسترين ان هول انتقامي أشد من هيامي

ونزل خسرو باشا يتبعه حسان وهو يتخطى بملابسه الثمينة ويده على صدره تلاعب الجواهر المعلقة عليه فتقدم الى رجال بروستا وحادثهم قليلاً فاندفعوا الى جهة الاسرى هاتفين بملء اصواتهم — ليحيَ خسرو باشا المحسن العظيم . ليحيَ الوزير الخطير . ليحيَ المخلص والمنقذ . وكان خسرو باشا ينظر اليهم بابتسام ويهز رأسه علامة الرضى

اما محمد علي فوقف امام القفص الحديدي وقابل الرجال بنظرة ارهبهم ما فيها من دلائل الاقدام والهيبة وقال لهم — قفوا يارجال بروستا فالسلطة المطلقة لي وما أمرت به لا بد من اتمامه ولا اعلم ماالذي يوجب سروركم ويجعلكم تصيحون مستبشرين بالخلاص والعفو فانني لم احصل على المال المطلوب منكم حتى الآن فسأحصل على رؤوس الاسرى

فقال واحد منهم — ولكننا قد اتيناك بالمال ايها القاسي القلب وهاكه فخذه

فقال — لا اخذه منكم بيدي بل ضعوه على هذا النطع لانه لم يعد الجزية المطلوبة بل الفداء الاضطراري . ووقف برهة ينظر الى الدنانير تعد امامه على النطع فلما انتهت نظر الى جوهرة نظرة غضب وقال — عافاك الله يابنية فقد بعت عرضك رخيصاً وكنت اقدر له ثمناً اكثر. اما هي فنظرت اليه بانكسار وقدلهت بابتلاع دموعها عن النطق غير انها حاولت الاقتراب منه فرفع يده وقال — آه ياخائنة قد نسيت يميناً اقسمتها منذ بضع ساعات فقط وتقترب بين اليّ لتغشيني مرة اخرى فاذهبي و . . .

ثم دفعها بيده فكادت تقع ثانيةً لولا ان عثمان كان قد اقترب منهما ايضاً فالتقطها بين ذراعيه وهمس في اذنها قائلاً — سامحيه يا جوهرة فقد افقدته عقله شدة الغضب ولا تلوميه فانه لم يعرف الحقيقة

فنظرت اليه بتذلل وقالت — وهل عرفت كل شيء ياسيدي

قال — نعم . اما الآن فاصمتي لان عيون الجميع تراقبنا وانتظري رسالة مني

في هذا المساء

وكان الرجال في شغلٍ عن مشاهدة هـذا المنظر الذي حصل في برهة قصيرة جداً . اما محمد علي فانه فتح باب القفص لانه لم يعد له حق في ابقاء المسجونين فيه وما كاد يفـعل حتى وثبت جوهرة الى الداخل فعانقت اباها وهي تبكي بكاءً مرًّا فضمها والدها الى صدره وعانقها ثم حملها على ذراعيه وخرج يتبعه الفقهاء الثلاثة وقابلهم الجمع بالهتاف والتهليل فاسكتهم الشيخ باشارة منـه وقال ـ انكم سررتم بخلاصنا ولكنكم قد اسأتم الينا والى نفوسكم فاننا كنا نفضـل الموت على ان تشترونا بمالٍ تصدَّق عليكم به الغير فصرتم تحت منةٍ لهم واستعبدتم الى ما شاء الله

فتقدم خسرو باشا بعظمةٍ وقال ـ هون عليك ياشيخ فانا لم اتصدق بما دفعته ولكنني لم يهن عليَّ ان تهان شيخوختك وان تدمع عينا هذه الفتاة النقية . والتفت اذ ذاك الى محمد علي فتبسم لما رأى من شدة اصفرار وجهه ثم اكمل حديثـه فقال . ولا اخفي عنكم ان طلب الجزية المضاعف في هذه السنة كان بسببي ليتمكن الحاكم من القيام بالنفقات اللازمة لي ولاتباعي فانا احق منكم بحمل ذلك ولا سيما انني سأنصرف عنكم قريباً فلا يعود ثمة موجب للتضييق عليكم فاهنيـك ايها الشيخ واتمنى لك ولرجالك التوفيق والسرور

فصاح الجميع ـ ليحي خسرو باشا . ليحي الوزير الخطير ولبثوا يرددون الصياح حتى طبقت اصواتهم الجو ولم يسمع احـد منهم صوتاً هائلاً يصيح معهم قائلاً ـ ليمت خسرو باشا وليلعن الله عدوي الالد . وكان الصارخ محمـد علي ولم يسمعه سوى عثمان فوضع يده على فمهِ وقال له ـ بالله عليك يا عزيزي اسكت . فاين صبرك واين احتمالك اصبر فلعل الامور تتغير قريباً ويبسم لك المستقبل

وكان رجال بروستا قد حملوا شيخهم وساروا بهِ تتبعه ابنته جوهرة فنظر محمد علي اليهم وقال لعثمان ـ تقول ان المستقبل سيبتسم لي . لا . لا ان الدهر لا يريني سوى سواد الحظ والحياة لا تقدم لي سوى المصائب والاحزان . لا لم يبق لي من امل في شيء ولا عاطفة تتحرك لغير الانتقام فآه . آه

فقال عثمان — خفف عنك اكراماً لي وانظر فان ابي وخسرو باشا قد صرفا الجوع وهما عائدان الينا والباشا يكاد يطير فرحاً لانه تمكن من اغاظتك فهل تريد ان تزيد سروره اذ تريه انه تغلب عليك

قال — صدقت والله فلن امتعه بمثل هذا الوهم ولا بد ان اكيل له يوماً زيادة عما كاله لي ولما قال ذلك تكلف التبسم وسار برفقة عثمان لمقابلة القادمين . فاستقبله الحاكم بسرور وقال له — وجب علي ان اشكرك يا محمد علي على قيامك بما وعدتني فقد تصرفت بغاية الحكمة والشجاعة ويجب ان اكافئك كما تستحق درايتك وبسالتك فقد خطر لي بعد حادث الامس وتمرد رجال بروستا ان اجند زمرة من الجند الاحتياطي للمحافظة على السلم عند الاقتضاء وسأجمع العدد المطلوب من جميع انحاء المقاطعة ويكون مركزهم بالقرب مني في قواله . ولا اظن احداً اولى منك باستلام قيادتهم وتدريبهم وتمرينهم وعليه فاني منذ الآن امنحك لقب بلك باشي وافوض اليك امر من سيجتمع منهم

فاحمرت وجنتا محمد علي لسماعه هذا الاطراء وتمتم قائلاً — اشكرك يا مولاي وليست هذه اول نعمة غمرتني بها اما انا فلم افعل الا بعض ما وجب عليَّ

فقال عثمان — دعني اكون اول اخ يهنيك بلقبك الجديد ياحضرة البلك باشي واهنئ نفسي اذ اراك بلباسك الجديد تسير في طليعة فرقتك فاني سأكون من اسعد الناس متى صرت تحت حماية بطل باسل نظيرك

فابرقت اسرة محمد علي وخيل له أنه هاجم في مقدمة جماعته لينال ما يتمنى من الانتقام وقال في نفسه هل جاءت الساعة التي انتظرها يا ترى

فقال الحاكم — اذهب متى شئت الى وكيل المال ومره أن يقوم لك البدلة المختصة بك

فقال عثمان — ولا تأخذ سيفاً فاني ساهديك سيفي المذهب الذي جاءني من الصدر الاعظم بعد أن زارنا آخر مرة فأنه لا ينفعني ولا أظنني اتفاق لاتمكن من حمله واذا تقلده صديقي تصورت أني تقلدته أنا لاحامي به عن بلادي فتعال ندخل

القصر يا أخي محمد لانني لم اعد أقوى علي الوقوف وأنت في حاجة كلية الى الراحة بعد سهر الليل وتعب النهار

فقال الحاكم — نعم ادخلا وسنتبعكما لاننا جميعاً في حاجة الى الراحة بعد تعب الجسم والعقل في أمر ابتدأ بالشؤم ولكنه والله الحمد قد انتهى بسرور

فقال خسرو باشا — نعم أن الجميع في سرور ولله الحمد غير ان محمد علي في كدر على ما يظهر لي فهو عوضاً عن أن يفتخر بالرتبة التي منحته أياها عن غير استحقاق لا يزال مقطب الوجه ينظر الى الجميع بغضب وعدم ارتضاء

فحدجه محمد علي ببصره وقال له — بل انـا مسرور وما تراه على وجهي من الانكماش ليس الا مرآة فكري فانني كنت اناجي نفسي في امر الرتب والمقامات العليا التي تعطى لاناس لا يحصلونها الا بالرياء والتزلف والعبودية بينما الذين يستحقونها من الاحرار المخلصين لا يحصلون عليها فيعيشون ويموتون غير معروفين وبدون أن يشعر أحد بهم

فقال الباشا ـ أن فلسفتك هذه لا افهمها . ثم نظر الى الحاكم وقال ـ كم كنت احب ان استأنس بجلوسي معك ومع ولدك ولكن كلما اردت ذلك ارى هذا الغلام الفظ معكم فيعكر صفاي . وقد كان غشوماً فاجرًا قبل ان زدته في ذلك باعطائك اياه رتبته الجديدة التي يظهرانها بهرت عينيه وافقدته صوابه فصار يتكلم بما لا افهمه

فنظر اليه محمد علي شزرًا وقال ـ أن لم تفهم ما اقول فما عليّ . . . . ثم التفت الى الحاكم وصديقه عثمان فاستأذنهما بالانصراف طلباً للراحة وخرج . فاتبعه الباشا بنظرات حادة يلتهب فيها نار الحقد وقال ـ لا يزال هذا الجلف يتعرض لي وانا احتمله مراعاة لحرمتكم فقد احسن بانصرافه ووالله لو لم يكن في داركم لما احتملته قط ولكن الويل ثم الويل له اذا عاد الى مجافاتي بعد الآن فان ذلك سيكلفه حياته فيندم حين لا ينفعه الندم

الفصل السابع

الرسول

ذهب رجال بروستا بشيخهم والفقهاء الى بلدتهم فاجتمعوا كلهم في مكان واحد وجعلوا يغنون و يطربون ويولمون الولائم وهم يثنون على كرم الباشا وحلم الحاكم ودعة ابنه عثمان ولم يكن يسوءهم سوى محمد علي وقساوته فجعلوا يسلقونه بالسنة ويلعنونه بكل شفة ولسان ويتندمون على قبولهم اياه في بلدتهم صغيرًا وتعليمهم اياه ركوب البحر وصيد السمك . ولم يعلم محمد علي شيئاً من ذلك بل لو سمع حديثهم لما اهتم كثيرًا اذ كان في حالة تشغله عنهم لانه لما استأذن الحاكم وعثمان في الانصراف توجه توًا الى قمة الاكمة حيث جلس بعيدًا عن الناس تتجاذبه الفكر وتتقاسمه الهموم يتذكر صباح ذلك اليوم الذي استقبل فيه في نفس المكان شروق الشمس فكان الهناء حليفه والعالم باسره يبتسم له من ثنايا تلك الفتاة التي كانت برفقته فاورقت حياته من ورد وجنتيها وابيض ثغر الدهر له من بياض ثوبها وتأكد صفاء العيش وحلاوته من صفاء رونقها وحلاوة حبها . ويقابله بالساعة الحاضرة التي اسودت السماء بها في وجهه فلم يكن تغريد الطيور حوله غير اصوات مزعجة ولا هبوب النسيم العليل الا ارواحاً شريرة توسوس في اذنيه فتصور له الافكار المقلقة التي تمزق فواده وتجعل حياته مرارة وشقاء . وكأنه اراد أن يمحو من تلك البقعة ما بقي من آثار لذته الاولى فجثي وكنس التراب بشفتيه وغسله بدموعه ثم صرخ قائلا — لأنزعن الحب من فؤادي ولأنسخن تلك الآمال من صدري ولأمحونّ تلك التصورات من مخيلتي ولتصم اذاني عن سماع صدى ذلك الصوت الذي رنّ في اذني فخلته من اصوات الملائكة . ملت بكليتي الى تلك الفتاة واقسمت لها بيمين الاخلاص فخانتني وقدمت لها قلبي فداسته غير مبالية بالامي واقسمت بروح والدتها ان لا يرفع نقابها عن وجهها سواي فاخلفت وحنثت تصورت انها ملاك خير ارسلته السماء لتسليتي و تعزيتي فلم تكن الا ملاك الشر والخبث اتت لتعذيبي . آه اواه

من لي بمن يساعدني على نسخ هذه الذكرى بالكلية من فكري . فانني الهو عنها في النهار بامور الحياة ولكنها في الليل الصامت تلازمني وتذيقني صنوف العذاب فآه منك يا جوهرة

ان اول انبثاق الحب الطاهر في قلب الفتى يسعده وانقطاع الوداد لعلة يشقيه فكيف وقد اجتمع الشكلان في قلب محمد علي بيوم واحد فنتج عنهما ان التهبت في احشائه نيران الالم المبرح فجعلته رجلاً جديداً . واشتد به الالم كما اشتد به السرور من قبل فلبث على الثرى يقبل المكان الذي وقفت جوهرة فيه في الصباح وهو يقول وينتحب كالطفل الى ان استدعى انتباهه صوت غريب بالقرب منه يقول — يا محمد علي ان الرجل الذي ينتحب لا يكون رجلاً ولا ترجى منه فائدة لمن يستغيث به . فنظر واذا بشبح ابيض بالقرب منه ظنهُ من الجان فانتصب امامه وقال — انت مصيبٌ ايها الشبح فلا فائدة لمن يستجير بي لانه لم يعد باستطاعتي ان آتي عملاً غير النقمة والويل . فاذهب عني ودعني استعد لتدبير الخراب والدمار ....

فلم يتحرك الشبح بل قال — قد رأيت غيرك يتألم ويتوجع اكثر منك ولم يستسلم الى العويل والانتحاب مثلك بل رأيت نساء وفتيات تشق سهام الدهر قلوبهن فينتحبن داخل غرفهن ولا يظهرن الضعف امام مخلوق . بل اعرف فتاة يا محمد علي احبت فتى فسلمته قيادها وكرست حياتها له ووضعت له في قلبها كعبة وجهت اليها صلاتها وعبادتها فلم ينته اليوم حتى اتهمها زورًا وبهتاناً ودعاها خائنة ولعله فوق كل ذلك يستنزل في هذه الدقيقة نقمة الله على منكرٍ لم ترتكبه وذنب لم تتلطخ به طهارتها

فقال محمد علي هازئاً — لك الهناء ايها الشبح اذا كنت تعرف في العالم من ينطبق عليها هذا الوصف اما انا فلا اعرف في النساء من ليست عنوان الخيانة وربة الخداع

فقال الشبح — عجباً أولا تعرف فتاة اجمل من حورية واطهر من ملك ألا تعرف جوهرة ؟

فابرقت اسرة محمد علي قليلاً وردد كلمتها الاخيرة. جوهرة. جوهرة ولكنه ما عتم ان انقبضت سحنته فضم يده ورفع قبضته بهيئة تهديدية وقال — انك لفي ضلال ايها الهاتف فان الذي ذكرت اسمها الآن هي الخيانة الجسدة بعينها ولا تظنني اقول ذلك عن وهم أو تصور فقد رأيت ذلك بام عيني وشاهدته بمقلتي حتى كاد يقضي على حياتي وعلق في صدري كسوس ينخر في فوادي . فاذهب ايها الهاتف واختبر الناس بعد ولا تحاول أن تعيد ثمتي الى الهة الغدر فلست ممن يغش مرتين . ولما رأى ان الشبح لا يزال في مكانه ولا ينوي الذهاب تحوّل لينحدر عن الاكمة من جهة اخرى فتقدم الشبح اليه مسرعاً وتعلق به يمنعه عن المسير وقال له — قف يا محمد علي. قف بالله فلي كلام معك ولي روح على شفار الموت اطلبها منك . وكان في هيئة الشبح وتوسلاته ورنة صوته ما اوقف محمد على مدهوشاً ثم رفع الشبح ازاره فظهر تحته امرأة في ربيع الحياة لم تترك له فرصة للكلام او الابتعاد عنها بل قالت — يجب ان تسمعني وتنقذ من الموت الفتاة التي احبها في العالم . أني خادمة جوهرة واسمي جميلة وقد سلمتني اياها والدتها وهي على فراش الموت واقسمت لها ممسكة بيدها وهي تفارق الحياة ان اهتم بها كنفسي واحميها من كل سوء وقد قمت بكل ذلك حتى الان واحببتها اكثر من نفسي. ولما كان اليوم وقد رجع رجال بروستا باسراهم وعم السرور جميع انحاء البلدة رأيت جوهرة حزينة واثار الالم بادية على وجهها فلازمت غرفتها ولم تشارك القوم في فرحهم فتبعتها الى باب خدرها وسمعتها تنتحب وتتضرع الى الله ان يمن عليها بالموت فدخلت عليها وقلت لها يا جوهرة انت تعلمين اخلاصي ومحبتي لك فثقي بي واشرحي لي همك واشكي لي امرك فلعلي اساعدك على ما يريك اياه اليأس مستحيلاً . وما زلت اكلمها حتى نهضت ورمت نفسها على صدري واعترفت لي بين الشهيق والزفرات بما ظهر لها بين نجوم الصباح وشروق الشمس وبتلك اللذة السموية وحلاوة الحب ومرارته فاقسمت لها ان لا ابوح بسرها وان اكرس حياتي في سبيل مرغوبها وان اجيء بنفسي فاكون رسولها الى من تحب ......

فقاطعها محمد على قائلاً — حسناً فاذهبي اذاً الى الذي تحبه فهو في قصر الحاكم

حسان وترينه متوسدًا عرش مجده تحيط به حريمه اللواتي ستكون سيدتك واحدة منهنّ . فاذهبي وبلغيه رسالتها فهو ولا شك يحسن وفادتك ويكافيك

قالت — بل انا اعرف الشخص المقصود وقد اتيت اليه فان قلوب العاشقين لها عيون ترى مالا يراه الناظرون وقد اوصتني جوهرة ان أجيء الى هذه البقعة واكدت لي انني ساجدك فيها تذكر لقاء الصباح فتلمنه بسكب الدموع وقد جئت حسب اشارتها ووجدتك كما قالت فلا تعرض عني واسمع ما كلفتني ان ابلغك اياه . وحاول محمد علي ان يتملص منها فلم يستطع ولم ير بدًا من الانصياع فجلس الى صخر بجانبها فقالت له — يامحمد علي ان جوهرة مذ عادت الى منزلها احتجبت في غرفتها للبكاء والنواح وقد اقسمت يميناً مغلظة انها ستنتحر الليلة بالقاء نفسها في البحر ان لم تدبر واسطة لخلاصها من الشقاء الذي هي فيه والعار الذي يهددها فهل تعدني ان تلبي طلبها لاخبرك بحقيقة الامر . فتردد محمد علي في الجواب ثم قال — لابأس فتكلمي ولكن اعلمي انه لم يعد عندي من العواطف غير الكره ومن الاعمال سوى الانتقام فاحترمي لنفسك اذا كنت تحاولين خداعي . قالت — ستعلم ذلك بعد حين . اما الآن فاقترب اليّ لاكلمك سرًا فان ما تريد ان تقوله لك جوهرة لايجب ان يعلم بهِ حتى ولا النسيم

ولما قالت ذلك أخذت رأسه بيديها فادنته من فيها وقد انقاد لها مطيعاً فجعلت تهمس في اذنه حديثاً بانت اهميته على وجهها . اما محمد فكان يسمع وقد اصر باسنانه واتقدت نار الغيظ في عينيه ولكنه مالبث ان صار يتغير شيئاً فشيئاً وجعلت ترتسم على وجهه علامات الفرح والسرور حتى اذا انتهت من كلامها وثب على قدميه وقد اشرق وجهه ولاح على شفتيه تبسم لذيذ وأراد ان يهتف لشدة فرحه غير ان ضربات قلبه كانت تتابع فلم تمهله الكلام فمد يديه وكانه تصور حمامة الصباح طائرة امامه بادية الطهر والعفاف وهو يحاول ان يضمها الى صدره ويعانقها . ولما تمالك روعه صاح قائلاً — آه ما اجمل الحياة وما الذ العيش وما اغرب هذه الدنيا فهي تارة جحيم وتارة نعيم . فاذا وجدت النعيم فلادخلنه واتمتع بالسعادة السموية على هذه الارض

خلافاً لما يعتقده البشر ان لاسعادة الا بعد الموت

ثم نظر الى خادمة جوهرة وقال— ياجميلة و يابشير الخير اننا في هذه البقعة وقفنا في صباح اليوم وعلى هذا الصخر تبادلنا عهود الامانة والاخلاص فهو مكان مقدس لي لانني فيه وجدت سعادتي وعليه سكبت دموع يأسي . آه قد تحملت عذابات لاتحصى في هذا النهار وما ذلك الا لسوء ادراكي فما كان اجهلني . آه سامحيني يا جوهرة وسأكفر عن ذنبي بان اقف حياتي ضحية على مذبح حبك فانت وحدك ملكة حياتي مازال في عروقي نقطة من الدم وما دام هذا القلب فيه نبض . . . ياجميلة اجلسي واصغ الى ما اقوله لك

الفصل الثامن

الاختفاء

صرف اهل بروستا يومهم باللهو والطرب والسرور فرحين بخلاص شيخهم من الموت ولما امسى المساء عادوا الى منازلهم للمبيت ودخل الشيخ عند العشاء الى منزله فقدم فروض الصلاة وقبل ان يذهب الى فراشه اراد ان يرى ابنته جوهرة فعرج الى غرفتها ووجد امام بابها الخادمة جميلة فاشارت اليه ان يخفف الوطء لئلا يزعج جوهرة فانها نائمة وقالت له همساً — انت تعلم ياسيدي كم قاست جوهرة من التعب والهم في هذين اليومين وقد خارت قواها فلم تستطع البقاء بدون راحة وقد سألتني ان انتظرك فابلغك احترامها واطلعك على حقيقة أمرها . ولا يخفى عليك ياسيدي انها قضت نهار الامس بالبكاء ولم تذق زاداً حتى اليوم فاعذرها الليلة واذا جاء الصباح ايقظتها لتدخل اليك بالقهوة والغليون

فقال الشيخ — نعم مافعلت فدعيها تنام وتستريح واياكم ان توقظوها حتى تنهض من نفسها . وانا ايضاً في حاجة كلية الى الراحة فلننم جميعاً واذا استيقظت قبلكم اجيء لارى جوهرتي . ولما قال ذلك مشى بهدوء الى غرفته و بعد هنيهة ساد السكون

في منزل الشيخ وفي البلدة كلها لان القوم كانوا جميعهم في تعب شديد ووصب بعد حوادث ذينك اليومين

وكان قد ساد السكون في قواله ايضاً وخيم عليها ظلام الليل فلم يكن يرى الا في قصر الحاكم نور ضئيل ينبعث من احدى نوافذ غرفة خسرو باشا وقد ازل على النافذة ستاراً زاد النور ضئولاً . ولم يكن خسرو باشا قد نام بل وقف الى جانب منضدة وعليها شمعدان من الفضة اوقدت فيه شمعة وقع نورها على قفطانه المطرز وعلى سحنته وقد بدت عليها اثار القلق واشتغال البال . ثم جعل يسير في الغرفة ذهاباً واياباً وهو على احرّ من الجمر ينتظر الغادة التي اشتراها بدم ابيها وكلما سمع هبوب الريح يصغي ويقترب من النافذة عله يراها قادمة فلا يرى شيئاً فيحتدم غيظاً لابطائها في المجيء ويقول لنفسه قد اقسمت بتربة والدتها ان تأتي فلا تجسر ان تحنث بقسمها ولما اعياه الانتظار فتح النافذة ليرقب قدومها عن بعد فهب الهواء واطفأ النور فزاده ذلك غيظاً وقال الويل لها ان هي اخلفت فوالله لانزلن غداً بعبيدي الى بيت شيخ بروستا فاهدمه على من فيه واستخرج من انقاضه تلك الغادرة فانها ملكي قد اشتريتها بنقودي . وعدتها ان تكون ملكتي اما الآن فسأريها انها مملوكتي وعبدة رق لي وكان يقول ذلك وهو لا يزال يرجو ان يراها قادمة ويحسب هبوب النسيم وقع اقدامها حتى اصبح كالنمر الهائج اذا افلتت منه فريسته فظل على تلك الحالة وهو لا يشعر بمرور الوقت حتى انشق الفجر وبدأت طلائع النهار تتغلب على جيوش الليل فسمع خسرو باشا وقع اقدام فاسرع بلهفة واذا به يرى احد الخصيين اللذين اوقفهما على باب الحديقة لانتظار جوهرة فلما رآه سأله ماوراءك ياهذا ؟ قال — لم يأت احد يامولاي والطريق لاتزال خالية من كل بشر فهل تأمر ان ننتظر بعد ؟ فقال الباشا وهو يعض شفتيه غيظاً — لا فاذهبا الى دار الحريم محل اقامتكما ولا بد انها اساءت فهم كلامي وظنت الموعد في المساء القادم . فانحنى الخصي امامه وخرج الى رفيقه مسروراً باخفاق سعي مولاه وقال لرفيقه — ان مولانا قد قضى ليلته مستيقظاً ويسرني ان تكون قد هزأت به الفتاة واحطت من كبريائه . فتبسم الآخر مسروراً

وكان المرء يسرّ احياناً اذا رأى تقلبات الدهر والمضادّات تصيب بسوئها الا كابر كما تصيب الاصاغر

ولما بسطت غزالة الصباح اشعتها لتنبه الناس من رقادهم الى اعمالهم نهض شيخ بلدة بروستا من سريره وانتظر ريثما تجيء اليه ابنته جوهرة بالقهوة فلما اعياه الانتظار وأثر به الشوق لرؤيتها قام فمشى الى غرفتها وناداها فلم تجب فدخل الغرفة وبحث عنها فلم يجدها فجعل يناديها ولم يكن من مجيب فسرى القلق في فؤاده واسرعت ضربات قلبه ووقف كالمصعوق . ثم خطر له انها ربما خرجت لتعد له القهوة فاهوى مسرعاً الى عرصة المنزل وهو يناديها ولكنه لم يقف لها على اثر واذا بالخادمة جميلة قادمة فقابلها بلهفة وسألها عن جوهرة . فقالت — لا اعلم يامولاي فانني خرجت باكراً جداً لاحتلب الماعز واحضر منه اولاتي وها انا عائدة اليها فكيف تسألني عنها وهي لا تزال في غرفتها

قال — لا . . فقد ذهبت الى غرفتها ولم اجدها بل بحثت عنها في كل خبايا المنزل فلم اراها

فتظاهرت جميلة بالقلق والخوف حتى سقط وطب اللبن من يدها واندفعت تجري الى غرفة جوهرة وهي تلطم وجهها وتعول وتنتحب وتصيح آه يامولاتي . آه ياحبيبتي اين انت ياجوهرة ؟

ولما رأى الشيخ اهتمام جميلة وانتقالها من غرفة الى أخرى جعل يدور معها . ثم خطر له ان ربما افاقت جوهرة باكراً جداً فخرجت الى شاطىء البحر لتتمتع بنسيم الصباح او ان يكون قد دفعتها تقواها فذهبت الى الجامع تقدم فريضة الشكر والحمد فاسرع الى الجامع ولم ير احداً ثم تحول الى الشاطىء وهو ينادي جوهرة في طريقه بدون جدوى حتى اذا بلغ البحر وسمع هديره خطر له انها ربما جاءت لتستحم فزلت قدمها وقويت عليها الامواج فابتلعتها فجلس يندب نفسه ويخاطب المياه والصخور علها تنبئه عن محل وجود ابنته . ثم استسلم للحزن فبكى بكاءً مراً . ولما عاد الى سكونه رأى ان لا فائدة من البقاء هناك فعاد الى البلدة وهو يؤمل ان تكون قد خرجت في

حاجة عند احدى صواحبها من نساء البلدة وانها تكون الآن قـد رجعت غير انه مابلغ المنزل حتى وجد جميلة على بابه محلولة الشعر ممزقة الثياب تلطم وتنتحب وتنادي يا جوهرة وقد اجتمع حولها عدد غفير من الرجال والنساء وهم ذاهلون حيارى فايقن اذ ذاك انه لم يبد له امل بلقيا ابنته واشتد عليه الحزن فسقط الى الارض مغشياً عليه فاسرع بعضهم للاعتناء به وتفرق الباقون رجالاً ونساءً واولاداً في الطرقات و بين الصخور لا يدعون نقرة أو شجرة أو جهة الا و يبحثون فيها

اما محمد على فانه عندما اشرقت الشمس جمع بعض رجال قواله الذين تطوعوا للتجند معه وكانوا جميعهم يعزفون بآلاتهم الموسيقية و ينفخون بمزاميرهم فسار في طليعتهم وقد ارتدى البدلة التى امر له الحاكم بها وجاء تجاه القصر ليقدم مع رجاله فريضة الشكر . فسمع حسان الشوربجي نغم الموسيقى ولما علم السبب استدعى ولده عثمان ثم توسل الى خسرو باشا ان يرافقه لمشاهدة متطوعي محمد علي فاجاب هذا بالرغم عنه وهو يخفي ما به فلم يبدو عليه سوى اصفرار لونه مما اثر عليه اخفاق مسعاه وسهره في الليل الغابر . ولما صار محمد على امام شرفة القصر اشار بسيفه مسلماً على الحاكم وانحنى لصديقه عثمان فاجابه هذان بالسرور ولم تخف على عثمان حالة محمد علي وقد بان في وجهه ما دل على سروره العظيم ولمع في عينيه نور غريب . ولحظ ذلك أيضاً خسرو باشا فاكفهر وجهه وابتلع لعنة كادت تنطق بها شفتاه ثم تكلف عدم المبالاة بالرغم عن النار المتأججة في صدره

واوقف محمد على تابعيه حوله صفا عسكرياً وجعل يفهمهم كيفية السير والتقدم والتحول كما تفعل الجنود

فقال خسرو باشا بصوت عال ليسمعه محمد على — حقاً ان صبيان الازقة تتعلم حركات العساكر من مجرد نظرها مرة واحدة والا لما تمكن محمد على من التشبه بالرجال المدربين . وكانهُ خاف ان يسمع جواباً غير مرضي فدخل للحال وعاد الى غرفته الخصوصية حيث استدعى الخصيين وقال لهما — متى اكمل هذا الغلام عمله الان وفرق رجاله فاذهبا اليهم وامراهم باسم الحاكم ان يحملوا سيوفهم ويحشوا بنادقهم

ويتبعوكما فتذهبان بهم الى بروسنا ومتى بلغتما شيخها فأعلماه اني انا ارسلتكما لارجاع امتي الي واذا رفض طلبكما او اخفاها فأهدما منزله واحرقاه فيه وابحثا عنها في جميع منازل البلدة لانه لا بد لي من الحصول عليها فاذا لم تجداها اليوم تجداها غداً بل اعطيكما فرصة اسبوع لتحضراها اليَّ حية او ميتة واذا مضى الوقت ولم تفعلا ما امرت قطعت راسيكما وجعلتكما عبرة لكل متهاون كسول . ولا يغرب عنكما امر الباك باشي الجديد ويظهر لي ان له يداً في امر الفتاة فأرصدا له بعضاً خدمي ليلاحظ حركاته سراً في الليل والنهار بدون ان يشعر فأنه فطن حذور وها انا قد اوصيتكما بما اريد ففي ايديكما ان تحصلا على المكافاة او المجازاة

وبينما كان خسرو يوصي خصيبه ويحرضهما على ما ذكر كان حسان قد دعا محمد علي اليه وقال له — لم يبق عندي اقل شك في انك ستكون جندياً باسلاً وعندك الشجاعة المطلوبة فاذا ضممت اليها امتلاك نفسك صرت اهلاً لان تقود وتحكم على الغير . وقد صرت الان من رجال الحكومة وتستحق المكافاة فخذ هذا الكيس وفيه راتبك عن ثلاثة اشهر ادفعها اليك مقدماً لانه لا بد لك من بعض النفقات الضرورية الشخصية . ولما قال ذلك ادار وجهه وانصرف ليتخلص من سماع تشكر محمد علي . اما هذا فانه اخذ الكيس شاكرًا ولم يسره قبض مثل هذا المبلغ لاول مرة في حياته لانه ذهب وهاج بل ابرقت عيناه لغاية في النفس لم يعلمها سوى صديقه عثمان الذي كان ينظر اليه ويقرأ ما في وجهه فلما ذهب والده رمى بنفسه على عنق محمد علي وقال له — اني اهنيك ايها العزيز فقد رايتك واقفاً كالبطل الصنديد وملامحك تشف عما في صدرك من سعادة المحبة والحب . وقد قال ابي انه يعوزك امتلاك نفسك اما انا فقد رايتك الان حاصلاً على هذه الصفة . وقد رايتك تستطيع اخفاء الالم والحزن كما تستطيع ان تخفي السعادة والسرور غير ان الاخيرين كالشمس

في رابعة النهار فلا يمكن اخفاء نورها بالكلية وتراه عين الناقد البصير فاحذر ا
من ذلك ايها الحبيب لانه قد ينبه مثل ذلك النور شعور العدو فيسرع
تدبير وسائل الاحتراس او الانتقام . فتظاهر محمد علي بعدم الفهم وقال لم
ماذا تعني يا اخي عثمان . قال — اعني ان في ابداء اثار السرور على
خطرًا كبيرًا عليك فاذكر ذلك واجتهد ان تسدل حجابًا كثيفًا
فلا يقرأ احدٌ في وجهك ما يكون في صدرك

الفصل التاسع

اين هي ؟

قدر لرجال بروستا ان تكون سنتهم سنة كدر وانزعاج ولم تنته مسالة دومهم
الجزية والضنك الذي اصابهم وما بدأوا يفرحون لخلاصهم من تلك الورطة
حتى اوقعهم اختفاء جوهرة في حزن جديد ولم تكن هذه نهاية مصائبهم فانهم ما
انتصف النهار حتى رأوا خصيي خسرو باشا تتبعهما رجال محمد علي قادمين الى
بلدتهم . وكان الخصيان قد انتظرا ريثما فرق محمد علي رجاله ودخل الى صديقه
عثمان فخرجا وبلغا الرجال امر خسرو باشا واوهماهم انه امر الحاكم فصدقهما الرجال
وتبعوهما . ووصل الجميع الى منزل الشيخ فاستقبلتهم الخادمة جميلة باكية
وارادت ان تمنعهم من الدخول فدفعوها جانبًا ودخلوا فوجدوا الشيخ ملقى على
سريره خائر القوى فانهضوه وطلبوا اليه ان يسلمهم ابنته أمة مولاهم .
فنظر اليهم الشيخ وقد انهضه الغضب وقال — تسالون عن ابنتي وتقولون انها
أمة مولاكم ؟ فمن هو الجبان الذي تجاسر ان يعطيها هذا اللقب

فقال احد الخصيان — ان مولانا خسرو باشا يدعوها أمته لانه اشتراها

برضاها بالدراهم التي فككتم بها اسراكم وانتم ظننتم انه تبرع بها عفواً نعم انه تقدها المئة دينار التي انتم بها قومكم قيمة الخراج المطلوب

فحملق الشيخ بنظره وقال — خسئتم ايها الانذال وكذب مولاكم فارجعوا ...بروه ان الاحرار لا يباعون بيع العبيد وان فوق الظالم يد تقتص من الظلم ... الخصيان ذ ث امروا الرجال فهجموا عليه وشدوا وثاقه ثم تركوه ملقى ...ث كان يراجع افكاره وهو لا يعلم اذا كان ما يراه ويسمعه حقيقياً ثم دخلوا المنزل وفتشوه غرفة غرفة فلما لم يجدوا ضالتهم خرجوا الى الدار وكان كثير من ... فيها فطلبوا منهم ان يسلموهم ابنة الشيخ · فاجابهم هولاء انهم هم انفسهم ... حثون عنها ايضاً فدار الرجال في بيوت البلدة يبحثون فيها لا يراعون حرمة ولا يردعهم دين حتى اذا فرغوا من البحث ولم يجدوا الفتاة رجع الخصيان بالرجال الى قواله واخبرا خسرو باشا بما كان فاصر باسنانه غيظاً وقال لهما — وهل عرفتما شيئاً عن البلك باشي الجديد ؟ قالا لم نتمكن من مراقبته اليوم ولكننا سيأتيك باخباره في هذا المساء اوصباح الغد

اما محمد علي فبعد ان صرف رجاله كما ذكرنا دخل الى صديقه عثمان فجالسه برهة ثم خرج فتوجه الى محل صديقه التاجر المسيو ليون ولما راه هذا خف للقائه وجعل يهنئه بما ناله من الرتبة والمقام ويقول له — كم تمنيت ان تكون قد راتك والدتك بهذا اللباس لتسر بحصولك على رفعة الشان وبلوغك ما انت طالب

فقال محمد علي — نعم ليتها لا تزال حية فان وجودها كان يزيد في سروري ولكن هذه الدنيا وهذه احكام القدر وما اطيب العيش لولا تذكار الموت والخوف منه

ورأى المستر ليون في حديث محمد علي وهيئته ما لم يكن يعهده من رقة العواطف وانبساط الوجه ودلائل السرور والارتياح فساله ان يطلعه على

حقيقة امره وذكره انه لا يزال يحبه كولده وانه يتقاضاه وعده من اعلامه بكل ما يجرى له · فتبسم محمد على وقال ـ تسالني عما يوجب سروري ؟ اما ترى هذه البدلة التي حصلت عليها وقد كنت اتمناها من زمن طويل ؟

فهز المسيو ليون راسه وقال لا انكر ان هذا يسرك ولكنه لا يمكن ان يكون وحده الباعث على ما اراه فيك من التغيير فلا بد من وجود سبب اخر فاذا كنت لا تريد الاقرار به فاني لا الح عليك ثم اخذ بيده وادخله الى مخزنه فاجلسه الى جانبه وطلب له قهوة اما محمد علي فقال ارجومنك ايها الصديق ان لا تدعني اطيل المكث فعندي اشغال اخر لا بد من قضائها وانما جئت اليك لابتاع بعض البضائع التي لا يمكن الاستغناء عنها

فقال المسيو ليون ـ عجباً وهل من شيء في العالم لا يمكنك الاستغناء عنه ؟ الا تذكر كلامك لي من مدة غير بعيدة ام نسيت انك صممت يوماً ان تستغني عن كل شيء حتى عن الطعام · ولكن مالنا ولذلك فالناس لا يندمون على حالة واحدة وماذا تريد الان لعلك تحتاج الى شيء من المصاغ او الشالات الكشميرية او · · · ·

فقاطعه محمد علي وهو لا يجسر ان يوضح افكاره ـ نعم اني استغني عن كل شيء لو بقيت كما كنت قبلاً اما الان فمقامي الجديد يتطلب بعض الحاج وانه يلزمني الان سجادة جميلة زاهية اللون بديعة النقش

فتبسم [illegible] ليون وقال ـ قد علمت الان اهمية طلبك ووجوب اهدائك [illegible] السجادة الى السيدة الجميلة التي بلغني امرها

فنظر محمد علي بتعجب وقال ـ وماذا بلغك ايها الصديق ؟ بالله قل لي ولا تخف عني شيئاً

قال — سمعت الناس يتساءلون عن سبب تعلق عثمان بالشوربجي بك وكثرة احتفاء والده بشخصك وقد قال بعضهم ان السبب في ذلك ارادة الشوربجي ان يزوجك بابنة اخيه عائدة فهي آية في الجمال وغنية في المال والآداب وقد رأتك مرارًا فاحبتك جدًّا وكثيرًا ماراقبتها بنفسي فرأيتها تفتح نافذتها وتقف فيها لتراك كلما مررت من هذا الطريق . ولا يخفى عليك انها متزوجة الآن غير ان زوجها يسيء معاملتها وقد عرف ذلك الحاكم فهو يريد ان يطلقها من زوجها الحالي ليقرنك بها . واذا اردت نصيحتي ايها العزيز فانا اتمنى لك ذلك من كل قلبي لانك تحصل بزواجك منها على الجمال الملائكي الذي يتمناه الجميع وعلى غنى وافر تقدمه لك فقد رفضت مساعدتي المالية مرارًا لانك لم تشأ ان تكون تحت دين لاحد وقد فعلت حسنًا اما الآن فسياتيك الغنى عفوًا فلا ترفضه واعلم ان نجاح المرء موقوف على غناه وقيمة الانسان تقدر بما في قبضة يده ليس الا

وكان محمد علي يسمع كلام المسيوليون وهو مغرب في الضحك ثم شكره على نصائحه المفيدة وقال — لا تصدق كلما تسمع ايها الصديق فانه لا اساس لهذا الوهم وقد رأيت عائدة تمر مع زوجها وانا برفقة صديقي عثمان ولحظت مرارًا انها كانت تتنهد وتنظر الينا غير انه لم يخطر لي قط ان تلك الفتاة العظيمة الغنية تهتم بامر مسكين فقير نظيري . فما لنا ولكل ذلك اما الاشياء التي اود مشتراها فهي لنفسي ولحاجتي الخصوصية مثل حصباء لفرش بيتي وادوات المنزل وآنية الطعام ثم اود ان ابتاع بعض الاقمشة لاهديها لجارة لنا كانت صديقة لوالدتي وكانت رحمها الله تحبها كثيرًا

فاحضر له المسيوليون بعض الاقمشة الصوفية القاتمة اللون مما يليق ان ترتدي به العجائز فرفضه محمد علي وقال — كلا بل اريد من الاقمشة الحريرية الفاتحة

اللون . فتبسم المسيو ليون وتأكد ان محمد علي ينوي الاقتران وقد اراد ان يخفي ذلك عنه فجعل يريه بضائعه ومحمد علي يختار منها مايشاء حتى ابتاع اشياء لايشتريها الا فتىً على اهبة الزواج ولا يقدمها الا الى زوجته او حبيبته ثم زاد عليها شيئاً من الاسورة والخواتم وهو يتظاهر بعدم انتباهه الى ملاحظات المسيو ليون وتبسماته . ولما انتهى طلب معرفة القيمة فتقاضاه المسيو ليون اقل ثمن فدفعه محمد علي شاكراً ثم امر ان يرسل ما اشتراه الى منزله وطلب الى المسيو ليون ان لايذكر لاحد مااشتراه وان يبقي خبر زيارته له مكتوماً

ولما خرج من عند التاجر توجه الى السوق وابتاع كمية من اصناف المأكولات والمؤونة واستدعى ولداً حملها له وعاد الى كوخه ولم ينتبه الى غلام كان اتبع له من ظله يراقب حركاته و ينظر الى مايشتريه كانه موكلٌ بملاحظته ودرس كل ماياً تيه فلما اقترب من كوخه رأى عجوزاً شمطاء قابلته تطلب صدقةً فناولها من جيبه شيئاً ولم ينظر اليها فلم ير انها كانت تتفرس في وجهه برغبة وتتطاول بعنقها لترى الاشياء التي ابتاعها بل تركها وهو لايشعر بوجودها فدخل الكوخ بمااشتراه و بعد هنيهة جاء غلامان يحملان اليه مااشتراه من المسيو ليون فاخذه منهما واعطاهما عطية غير زهيدة ولماخرج معهما ليوصلهما الى الطريق لم ينتبه ايضاً الى العجوز التي كانت قد انطرحت على الارض بجانب الكوخ وتظاهرت بالنوم

الفصل العاشر

السفر

وفي صباح اليوم التالي وصلت الى ميناء قواله سفينة قادمة من عاصمة

المملكة وكانت مزينة بالاعلام وفيها افخر الرياش وسائر اسباب الراحة وما القت مرساتها حتى صعد ربانها وسأل عن قصر الحاكم فذهب اليه وطلب مقابلة خسرو باشا فلما مثل بين يديه اعلمه ان صديقه حسين قبطان باشي قد نجح في سعيه وتمكن من ازالة غيظ جلالة السلطان عنه فامر جلالته باعادته الى كرامته ومقامه وارسل تلك السفينة في طلبه · ثم دفع الربان لخسرو باشا رسالة العفو وفيها طلب رجوعه لاستلام منصبه فاخذ خسرو باشا الرسالة ونظر اليها بدون اكتراث لشدة تكبره كانه غير محتاج الى تلك النعمة ثم نظر الى الربان وقال — حسناً ولكنني لا استطيع السفر حالاً فلي اسباب تمنعني وربما تأخرت اسبوعاً اما انت فكن على استعداد دائماً وانتظر اوامري حتى اذا طلبت السفر في اية ساعة لا يكون ما يمنعنا عنه · فانحنى الربان الى الارض امامه وخرج · واستدعى خسرو باشا الخصيين فسألهما اذا كانا قد علما شيئاً جديداً ولما اجاباه سلباً هددهما بالقتل واتهمهما بالتراخي عن العمل فقالا كلا يامولانا فاننا لم ننم طول ليلتنا وقد صرفناها في المراقبة والتلصص فلم نعلم شيئاً سوى ان محمد علي ذهب بالامس الى محل التاجر الافرنجي المسيو ليون ثم الى السوق وابتاع ادوات البيت ولوازم اللباس واصناف المآكل · وعددا الاصناف التي اشتراها محمد علي بموجب تقرير الغلام والعجوز اللذين لم يكونا الا جواسيس ارسلهما الخصيان لمراقبته · فاكفهر وجه الباشا ودلت ملامحه على ما في صدره من نار الحقد ثم سألهما عما اذا كان محمد علي قد قضى ليلته في كوخه واذا كان عنده احد فقالا انهما لم يتمكنا من معرفة ذلك فانتهرهما وانهال عليهما بالشتائم ثم امرهما ان يبذلا جهدهما في تحقيق ذلك في مساء يومهم والا عاقبهما بالجلد حتى ينقطع لحمهما · فلما امسى المساء ذهب الخصيان فوجدا كوخ محمد علي مقفلاً فعمدا الى الحيلة واشعلا النار في كوخ قديم بالقرب منه وجعلا

يصيحان ويولولان خوفاً من الحريق واجتمعت حولهما الناس ثم توجها الى كوخ محمد علي وجعلا يصيحان ويناديانه ان يخرج وينجو بنفسه لئلا تتصل النار به فلم يكن من مجيب . وكأن محمد علي ادرك الحيلة وتغلب على مكرهما او انه حقيقة لم يكن في منزله وقد احتجب في مكان آخر لا يعرفه احد سواه

وفي اليوم التالي خرج عثمان الى القسم الذي بقي له من الحديقة فسمع صراخ الخصيان وعويلهم تحت السياط التي كانت تتساقط على ابدانهم فتأثر كثيراً وتوجع لهم ولا سيما لانه كان عالماً بسبب عذابهم . وانه لكذلك واذا بمحمد علي قادم اليه فسري عنه وبش له ومد يديه نحوه يرحب به وجعل يعاتبه على غيابه زمناً طويلاً فاعتذر اليه محمد علي محتجاً بانهماكه في اعداد المعدات اللازمة لتنظيم فرقته . ولم يخف على عثمان ماأراد صديقه ان يكتمه منه فتبسم واجلسه بجانبه ثم طوق عنقه بذراعيه وجعل يكلمه همساً فقال — لا تجفل من حديثي ايها الحبيب ولا تنكر علي ماساقوله لك واذكر انه ربما وجد من يراقب كل حركة من حركاتنا . فاعلم اني اعرف عنك اكثر مما تظن واكثر مما يستطيع خسرو باشا ان يعلم ولو انفق جميع امواله . وقد كنت الآن اسمع عويل خصييه من الم الجلد لانهما لم يتمكنا من اطلاعه على المكان الذي قضيت فيه ليلتك الماضية ولا تقل لي انك كنت في كوخك فانهما احرقا كوخ جارك وملاءا البلدة صراخاً وانذاراً لعلك تخرج فيعلمان انك هناك ولكن حيلتهما لم تنجح . اما انا فعرفت انك انما ذهبت بطريق بروستا بعد الغروب وكنت مسرعاً في مسيرك فصدمت رجلاً ضعيف الرجلين واوقعته الى الارض ولم تبالِ به وبما قاله لك . ثم تحولت الى جهة الشاطىء وتسلقت الصخور حتى بلغت الكهف الخفي الذي لم يعرفه احد غيرك والمسيو ليون وانا يوم وجدناك امام بابه اذ اردت الانتحار جوعاً

مع والدتك . فدخلت ذلك الكهف الموحش بل ذلك القصر السعيد وهناك صرفت الليل

وكانت علامات الدهشة والخوف تتعاقب على وجه محمد علي فنظر الى صديقه وقال — بالله خفض صوتك واياك ان يعلم بذلك احد . وانت كيف عرفت هذا

فتبسم عثمان وقال — انت لا تعرف مقدار محبتي لك بعد . اني احبك وارید ان انيلك كل ماتشتهي ولكنني اسوء الحظ قاصر عن القيام بما اريد لان بسعادتك سعادتي فلا اقل من ان اسهر عليك واراقب حركاتك واذود عنك ما امكن واجتهد في ان احميك ومن تحب من خطر اخشى وقوعكما فيه . اراك مع كل مافيك من صفات الرجولية والبسالة والاقدام تنقصك الفطنة وتعرض نفسك للخطر بدون انتباه . فقد خفي عليك انك محاط بجواسيس ارصدها لك خسرو باشا . وقد جاءه العفو الذي كان يتفانى للحصول عليه وجاءت السفينة لترجعه الى منصبه فلم يهتم بالعفو ولم يعجل بالرحيل بل قال للربان انه ربما تأخر اسبوعاً لانه حاقد عليك والويل لمن يحقد عليه مثل هذا الرجل القادر المحتال فانه عالم ان لك يداً في اختفاء جوهرة ولن يكف عنك البحث حتى اذا وجدها قاصها اعظم قصاص ليشفي غليله منها ومنك . فاقشعر جسم محمد علي وقال — وهل للباشا سلطة هنا فيعاقب ويامر وينهي كما يشاء

قال — بدون شك ايها العزيز . لاسيما وقد رجع الى منصبه فامره الآن مطاع في جميع انحاء السلطنة . ولا اكتمك ان ابي وانا نعلم ما اتفق عليه خسرو باشا وجوهرة فقد قبلت ان تبيعه نفسها لتفتدي اباها والفقهاء . وقد هزأت به واختفت بعد ان اسرت نفسها له فكن على حذر عظيم واعلم ان الخصيين يناضلان عن حياتهما ويسعيان بمنتهى قدرتهما لاكتشاف مخبأها وهما يعلمان ان لم يجداها

قبل نهاية الاسبوع قتلا . فلا تذهب الليلة الى كهفك بل نم في كوخك لتموه على اعين الجواسيس وتأ كد ان امام جوهرتك خطرًا شديدًا اقل هفوة منك توقعها فيه وثق بي فاني اطلع على مايجري في دائرة خسرو باشا بعين لا تغفل ولا تنام لان ابنة عمي عائدة تتردد كثيرًا على حرمه . ولا اخفي عنك ان عائدة تحبك محبة تفوق العبادة وقد عزمت ان تطلق نفسها من زوجها لتقترن بك فاعلمتها بامرك وان فؤادك مقيد بحب آخر فلم يكن ذلك الا ليهيج شجونها و يزيد حزنها و يزيدها تعلقًا بك فهي لا تزال ولن تزال تعمل مافي وسعها لتجلب لك السعادة وتحميك من كل اذية وقد قالت لي انه اذا لم يسعدني محمد علي بمحبته فلا اقل بان اجعله سعيدًا

فتعجب محمد علي من شهامة عائدة وعلو همتها وسأل عثمان ان يحمل اليها احترامه وشكره وتوسل اليه ان لا يطلعها على كل شيء فقال عثمان — كن براحة من هذا القبيل وعائدة لا تعلم شيئًا من سرك الخاص ولكنها علمت ان خسرو باشا عدوك الالد مذ اغلظت له في الكلام ولم تحترمه وانه اضمر لك الشر فشفقت عليك وجعلت تتردد على دار الحريم وتتنسم كل الاخبار فلا يفوتها شيء من كل مايقال عنك هناك . فقال محمد علي — وهل يعلم خسرو باشا بالعلاقة بين جوهرة و بيني ؟

قال — نعم لاحظ ذلك مذ راها لاول مرة وادرك انك عارف بقرها والا لظهر عليك شيء من القلق والانزعاج ولم يكن الفرق بين يومك هذا وامسك ليخفى عليه . فانا محق في ماوصيتك به فاحترس ما امكن ولا تزر كهفك الليلة والاوفق ان تبقى عندي

فقال محمد علي — لابد من ذهابي الى الكهف ولكنني ساحترس كما قلت اما انت فكيف اكافىء صنيعك ومحبتك الفائقة . اسأل الله ان يقدرني على ذلك

استودعك الله الى الغد . فقبله عثمان مودعاً وقال له ــ اذهب واعلم ان المحبين كثيرو النسيان وربما نسيت نفسك حيث تكون . اما انا فساسهر عليك واذا حدث مايوجب تذكيرك اطلقت عياراً نارياً من شرفة القصر فاذا كان مايوجب الخوف ورأيت خطراً يتهددك اطلقت عيارين وبعدهما عيارين آخرين فاذا سمعت العلامة الاولى فتذكر وانتبه واذا سمعت الثانية فاحضر اليّ اينما كنت ومهما كان الوقت . فاذهب وليحرسك من لا تنام له عين

الفصل الحادى عشر

القسم المثلث

وبقي عثمان بعد ذهاب محمد علي يفكر بصديقه وما يحدق به من الخطر فعزم ان يطلب من ابيه مرافقته للدخول على خسرو باشا فيحتالان عليه اذا لزم الامر لياخذا منه عهداً ان لا يعمل على اذية محمد علي فرده عن عزمه كرهه لذلك المتعجرف ناكر الجميل مع انه كان يتصرف في قصرهم تصرف المالك وهو لا يريهم شيئاً من شكره وشعوره بضيافتهم . وبعد التفكير فضل تضحية عواطفه واحتمال ذل الخضوع ليصون حبيبه محمداً فذهب الى والده واطلعه على قصده فاستصوبه وسار الاثنان الى غرفة خسرو باشا ودخل الحاكم اولاً فاستقبله خسرو وهو يتحفز للوقوف وبدا الحاكم بالكلام فاظهر شديد أسفه لما بلغه عن قرب سفر الباشا لحرمانه من شرف مكثه عنده ثم قال له ان ابني عثمان ايضاً اثر به ذلك ومع ضعفه فقد جاء معي ليعبر عن شعوره وهو ينتظر اذن دولتكم بالدخول . ولما سمع خسرو باشا عبارات التعظيم هذه ابرقت اسرته وقام بنفسه فاستدعى عثمان وادخله

فاجلسه بجانبه واشار الى حسان ان يجلس بالقرب من ابنه فقال عثمان — بلغني يامولاي انكم ستغادرون بلدتنا غداً فلا استطيع ان اصف ما احاق بي من الكدر مع ما اعلمه من السعادة التي ننتظركم في نهاية سفركم ولكننا شعرنا مدة تشريفكم ديارنا بعز اكيد وفخر عظيم حسدنا عليه الدهر

فتبسم خسرو باشا وقال — لا اعلم اذا كنت اسافر غداً وفي كل حال قد سئمت الاقامة في هذه البلدة التي لا عمل فيها ولا حراك واغبطكما على احتمالكما هذه المعيشة بين اقوام لا يزالون في تاخر عظيم بالمدينة واظن هذه المعيشة لا توافق صحتك ياعثمان فاود ان تاتي اليَّ متى رجعت الى العاصمة فترى ما يلهيك ويساعد على شفائك وتجد فرصة للتقدم . واذا صعب عليك الافتراق عن ابيك فاجد له مركزاً يليق به وفاءً لبعض ما انا مديون لكما به من الحفاوة والاكرام مدة اقامتي هنا . واذا ابيتما ذلك فلا بد من حاجة اقضيها لكما اورغبة انفذها لكما لاني لا احب ان تثقل كاهلي ديون الامتنان ولا يخفى انني قد عدت الى منصبي ولا تجهلون نفوذي فمهما طلبتما يكون لكما

فقال حسان — اما انا يامولاي فقانع بما انعم الله به عليَّ ولا اريد من العالم باسره سوى ان يكون ولدي هذا حاصلاً على ما يتمناه فاذا كان له ما يطلب من دولتكم فذلك مناي

فنظر خسرو باشا الى عثمان . وقال بلطف — اطلب ما بدا لك يا عثمان وانا اقسم لك بالنبي الكريم وبراس خسرو باشا ان انيلك طلبك مهما كلفني ذلك

فاستعاد عثمان القسم ثلاثاً ليتأكد من قيامه به ثم نظر اليه بعينين تبعث منها اشعة الامل وقال — ليس لي يامولاي سوى رغبة واحدة وهي ان تكون حياة صديقي محمد علي مقدسة لديك فلا توصل اليه اذىً بوجه من الوجوه .

فوجه اليه خسرو باشا نظرًا طويلاً ولم يجب فقال عثمان بمنتهى الرقة واللطف — انني سقيم يا مولاي كما ترى وحياتي نور ضئيل لا ادري متى تهب عليه الريح فتطفئه وليس لي في هذه الحياة القصيرة من سلوى غير صديقي محمد علي فانا سعيد ما دام قريباً مني · ولحظت انه تطاول على مقامك السامي بكلام غير لائق لم يكن الاعن نزق الشباب وجهله طريقة التأدب امام العظماء فاتوسل اليك ان لا تهتم بعمله وان تنيلني هذا الطلب الذي لا اظنك باخلاً باجابته وقد اقسمت باعز الاقسام ان تفعل

فقال الباشا — لا اعلم سبب خوفك مني على صديقك وانا قد نسيت وجوده · لا انكر انني كرهته لوقاحته وخشونته · فاذا كانت هذه رغبتك فانا اجيبك الى طلبك واشهد الله علي بذلك فلا تسقط شعر واحدة من رأسه بسببي ولكن اذا لقيته في غير هذه البلاد وتعرض لي اوكان لا يزال يجهل اداب السلوك فالويل له · نعم الويل له · ثم تلطف وقال لعثمان — ها اني قد اقسمت لك بما تحب وما ذلك الا لشعوري بوجوب مقابلة جميلكم فهل انت راضٍ ؟

فانحنى عثمان امامه بمزيد الاحترام وشكره على تلطفه ونهض مع والده فاستأذنا بالخروج وهما يكرران الدعاء للباشا

ولما خلا خسرو باشا بنفسه فكر بذكاء عثمان وسبوق وعده وخلاص محمد علي من يده فقطب حاجبيه ودعا خصييه وسألهما عما اذا كانا قد ادركا شيئاً مما وكل اليهما فجثا الاثنان امامه بتذلل وقالا انهما لم يدركا شيئاً بعد ولكنهما يرجوان ذلك قريباً وقد رأيا اثرًا ينويان اتباعه ليوصلهما الى الحقيقة · فتظاهر الباشا بالارتضاء وذكرهما بانه لا يزال امامهما اربعة ايام فقط فاما الجارية واما قتلهما · ثم اوصاهما ان يحافظا على حياة محمد علي فلا يوصلا اليه اذى وقال اذا سالكما احد

عن سفري فقولا اني مسافر في مساء الغد · ثم صرفهما وظل تمشى في غرفته وعلى وجهه سورة الغضب لاضطراره ان يقيد نفسه بالمحافظة على حياة محمد علي ولكنه ما عتم ان انبسطت ملامحه وقال بنفسه اذا كان لهذا الوغدعلاقة بجوهرة كما يغلب على ظني فانتقامي منها انتقـام منه بل هو اشد من قتله ولا بد لي من ايجاد هذه الفتاة وخصياني ككلاب الصيد لا يرجعون عن تاثر الفريسة فمتى وجدتها قتلتها امام عينيه ليموت قهراً

ولما انتشر خبر سفر خسرو باشا سرَّ الجميع ولا سيما اهل بروستا لانهم تأكدوا بعد فقد جوهرة انه هواصل بلائهم فلولاه لم يفرض عليهم الحاكم ضعفي الجزية ولم يسجن اعيانهم ويهددوا بالقتل ولولاه لم يخدعوا باحسانه اليهم بالمـال وهو نخاس يتاجر بالناس ولولاه ما فقدوا ابنة شيخهم وعذراء بلدتهم النقية وكان في اعتقاد اهل بروستا ان جوهرة انتحرت تخلصاً منه لان بعض غلمان البلدة كانوا قد راوها صاعدة الى اكمة بوسيفالوس فايقنوا انها القت بنفسها الى البحر هناك اما الشيخ فكان لا يزال طريح الفراش حزيناً على فقد ابنته وهو يطلب الموت للتخلص مما هو فيه ولما امسى المساء وهجم الليل بظلامه ساد السكون وبطلت الحركة ونام الناس الا محمد علي فانه ما زال يرقب الظلمة حتى حاكت حوله حجاباً كثيفاً فخرج من كوخه ينساب نحو الاكمة وهو يلتفت يميناً وشمالاً لئلا يراه احد حتى وصل الى قمة الصخر فانتصب ومد عنقه ليتأكد انه في مامن من الرقباء · وانقشع في تلك اللحظة الغيم الذي كان يحجب نور القمر · فوقعت اشعته الفضية بين يديه فساعدته في البحث عن الرقباء · ثم نزل الى فوهة الكهف ونادى نداءً متفقاً عليه وهو يجتهد في ايقاف ضربات قلبه لئلا تمنعه عن سماع الجواب ولكنه ما عتم ان سمع صوتاً عذباً خفيفـاً يجيب نداءه فشهق

سروراً والحال اختفى فحجبته نقر الصخر عن كل عين بشرية

الفصل الثاني عشر

النعيم تحت الارض

التقى المحبان داخل ذلك الكهف الصخري وهما يحسبان ان قد مرت على فراقهما الاعوام فتعانقا وتضاما ونسيا العالم وما فيه كانهما نالا سعادة النعيم وكان محمد علي يضم جوهرة تارة ويتفرس في وجهها تارة اخرى فقبل عينيها وقبل ثغرها وقبل خديها ومبسمها وهيهات ان يرتوي فجثا امامها يقبل هدب ثوبها وقدميها فالقت بنفسها اليه لتمنعه وجلس الاثنان يستنير كل منهما بوجه حبيبه ثم تنهد محمد علي وقال لها — هل سامحتني يا جوهرة ؟

فالقت راسها على صدره وقالت — أسامحك على أي شيء ايها الحبيب

قال — على ظلمي اياك بفكري . آه كم يصعب علي تذكر تلك الساعة التي لعنت فيها حبك وتمنيت ان ينتزع ودادك من فوادي وظننت النساء خائنات ولم ادرِ ان بينهن ملاكاً طاهراً هو انت . نعم وددت ان انزع كل أثر للحب من قلبي وصممت على مقارعة الخطوب وخوض غمار المنايا لاكتسب الفخار لعله يلهيني عما اقاسيه او ان اجد الموت وفيه الراحة . اما الان فلم يعد لي بغية سوى قربك ولا اشتري سعادة العالم ومجده بلحظة من الوقت الذي اقضيه معك في هذا الفردوس فيمناك طوق الذهب في عنقي ونور عينيك شمس مجدي مشرقة علي ونفحات فيك طيبي وحبك تاج ملكي وهذا الكهف عرشي فانت العالم باسره لي والسلام

فقالت بتدلل — آه يا ليت لي فصاحتك وعذوبة كلامك لاعبّر عن كل ما اشعر به انا أيضاً وكل ما استطيع ان اقوله هو أني اشعر الان اني في النعيم واتمنى ان نبقى فيه الى الابد وما احلى ان نمكث هنا ولا نعود الى العالم

فضمها الى صدره وقال — نعم ما احلى ان ننام هنا الى الابد وما احلى ان

نسافر معاً يداً بيد من هذا الفردوس الارضي الى فردوس النعيم ولكن اذا كان لا بدَّ لنا من العودة الى العالم فبربك اقسمي لي ألاتحيدي عن حبي ابداً

قالت — ما الحياة يا حبيبي الا يوم واحد فلا تغش نفسك مرة اخرى ولا تعتقد ان جوهرة تحنث في المساء بما اقسمت به في الصباح

فقال وهو ينظر اليها بعين ملؤها الحب — صدقت يا جوهرة وعسى ان يقدر الله لنا ان نقضي يوم حياتنا هذا بمنتهى السعادة . ان الحياة كلها ظلمة حالكة لولا نور وجهك الذي ينيرها . . . . انظري كيف يحاول القمر ان يرسل نوره الينا من تلك النافذة كانه عزول يريد ان يشي بنا . احتجب ايها القمر ودع المحبين في هنائهم لانه لا لذة لحياتي اذا بعدت عني جوهرتي فهي سلوتي الوحيدة . ثم ضمها ثانية الى صدره كأنه يحاذر ان يخطفها احد من بين يديه . وانه لكذلك واذا بصوت يدوي في سكون الليل فهبَّ محمد علي واقفاً وقد هلع فواده فتمسكت جوهرة به وقالت — الى اين ايها الحبيب ماذا اصابك

قال — سمعت طلقاً نارياً اطلقه عثمان ليذكرني بالخطر المحدق بنا فلا بد من مغادرة هذا المكان الآن آه من جور القضاء انه لا يتم للانسان سعادته . ان خسرو باشا سيسافر الان وقد بث العيون والارصاد اتراقبني فيعلم اين اكون و يعرف مقرك فلا يجب ان يعرف اني قضيت هذه الليلة خارج كوخي و يقتضي ان اعود اليه ومتى اصبح الصباح يكون هذا الظالم على ظهر البحر فيخلو لنا الجو ونعود الى اجتماعنا فيصير نعيمنا العالم باسره ليس هذا الكهف فقط

فقالت بلهفة — تذهب وتتركني وحدي هنا ؟

قال — نعم ايتها الحبيبة يجب ان تبقي هنا فاني اخشى ان يكون خبر سفره اشاعة دبرها بمكره ليكتشف على مخبأنا . فانتظري يا حياتي الى ان نتاكد سفره

قالت — لم اخف قبلاً اما الآن فان الافتكار بوحدتي في هذا المكان يخيفني . ثم تذكرت والدها فبكت وقالت — ووالدي هل سمعت عنه شيئاً ايها الحبيب فاني في حزن عليه واخاف ان يكون قد اودى حزنه بحياته

قال – خفني عنك فان والدك بخير وسيزيد فرحه عندما نذهب اليه معاً ويشاهد سرورنا وسعادتنا . ولما قال ذلك هم بالمسير فتعلقت به ثانية وقالت – بربك لا تتركني وحدي في هذا المكان المظلم لانني في هذه الدقيقة يخيل لي اني ارى اشباحاً مزعجة قادمة لتؤذيني . انني لا اخاف من المسير في ظلال الموت اذا كنت معي ولكن بعادك يظلم عيني ويصور لي المخاطر والمخاوف فبربك لا تتركني وحدي

فوقف محمد علي حائراً لا يدري ماذا يفعل أيتبع سبيل الحكمة والتعقل فيخرج ليرى ما يهدده من الخطر ويتلافاه او يصغي لنداء هواه وتوسلات حبيبته فيبقى ويجر على رأسيهما المصائب والاحزان . ثم خطر له انه لا يعلم احد بوجوده في ذلك الكهف فاي خطر يمكن ان يصل اليه وهب ان خسرو باشا تمكن من ايجاد ذلك المكان فلا اسهل من ان يحمل حبيبته وينزل بها الى شاطىء البحر في طريق لا يعرفها سواه فيجد بعض قوارب الصيادين فيركبانه ويجملان نعيمهما بين الامواج كما جملاه بين الصخور . . وقبل ان يقر قراره على وجه من الوجوه سمع طلقاً ثانياً نبهه الى ما هو فيه فنظر اليها وقال يا جوهرة لا بد من ذهابي ولا بد من بقائك ففي ذلك حياتنا والا اقترب الخطر وصعب المنفذ ان عثمان يسهر علينا ويحرسنا وقد وعدني ان ينبهني بطلق واحد اذا رأى وجوب احترامي فقط وانه يطلق عيارين اذا كان الخطر قريباً ويخشى منه وقد سمعت الطلق الثاني الان فلا بد من امر جلل فدعيني اذهب ونشجعي فما هي الا برهة قصيرة واعود اليك وفضلاً عن ذلك فقد بزغ الفجر وقرب طلوع النهار . فمتى خرجت ضعي هذا الحجر في مدخل الكهف كما فعلت بالامس وارجعي الى النقرة الداخلية حيث تنتظرين رجوعي واياك ان تجيبي نداء احد الا اذا سمعت ندائي الخاص الذي علمتك اياه

ودوى اذ ذاك طلق ثالث فاجفل محمد علي وعلم ان الخطر اشد مما كان يظن فقال الوداع ياجوهرتي واقترب ليقبلها فاجفل لما رأي من امتقاع لونها فحملها بين ذراعيه واقترب الى نافذة الكهف ورآها قد اغمي عليها فقبلها وقال انني بهذه القبلة اختم على صدق محبتي لك الى الابد فقابلني بمثلها . ولما حركت شفتيها ورسمت على

فيه قبلة حارة لم يعد يطيق ان ينظر اليها لئلا ينسى ما هو فيه فحملها واعادها الى داخل الكهف وخرج وقلبه ينذره بفراق مخيف و يرن في اذنيه صوت حبيبته تشير اليه وتقول له الوداع الوداع

الكتاب الثالث

المماليك

الفصل الاول

اخذ الثار

لما انتهى عثمان من تحذير صديقه محمد علي وخرج هذا من القصر بقي عثمان وحده في الحديقة وقد آلى على نفسه ان يسهر على حياة صديقه و يدفع عنه ما عساه ان يكون مخبوءًا له من الاخطار وكان لعثمان عبدان مخلصان صدقا له الخدمة والمحبة وهو يثق بهما وهما يتفانيان في خدمته فارسل احدهما ليراقب الكهف الصخري عن بعد خيفة ان يداهم محمد علي ما ليس بالحسبان وابقى الآخر معه ليستخدمه اذا مست الحاجة . ولما ادلهم الليل ابصر عثمان نورًا يتردد في الغرف المخصصة لخسرو باشا وشعر بحركة غير اعتيادية وان القوم ينتقلون ذهابًا وايابًا فاوجس شرًّا ثم جاءه عبده واعلمه انه رأى اشباحاً تتلصص بين صخور الاكمة وسمع من همسهم ما دله على ان حياة محمد علي في خطر . ولما سمع عثمان ذلك امر العبد ان يرجع الى مكان معلوم فيطلق العيارات النارية و ينتظر حتى يرى محمد علي فيأتي به اليه حالاً وبقي هو عرضة للافكار والشجون فاستمار لضعفه قوة وشددته محبته لصديقه وخوفه عليه فسار في الحديقة الموصلة الى مقام خسرو باشا وربض بحيث يرى ويسمع واذا بصوت الطلق الاول قد رن دويه في سكون الليل فتنفس عثمان وقال لنفسه حسناً فقد سمع

صديقي هـذا الصوت بدون شك ولا بد أنه تنبه الان كما اخبرته ولكن لا بد لي من معرفة ما يجري في هذه الغرف . فاستكن برهة واذا بباب قد فتح وخرج منه اثنان يحملان نقالة عليها ملاءة بيضاء فاجتازا الباب المودي الى الخارج واقفلاه وراءهما فتحير عثمان في امره ولم يدر ما هو المقصود مما رآه غير انه اجتهد في تسكين مخاوفه بتعليل النفس ان ما رآهُ من امتعة الباشا وقد بدأ بارسالها الى السفينة لكي لا يبقى ما يعوقه عن السفر في الغد . ولما عاد المنزل الى سكونه ولم يطلع على شيء جديد عاد من حيث اتى وانطرح على سريره ليستريح وبعد هنيهة اجفل لسماعه وقع اقدام فنهض فرأى عبده قادماً ووراءه محمد علي فما صدق ان راه حتى هب لاستقباله اما محمد علي فحيا صديقه وسأله عن السبب الذي دعاه الى استدعائه اليه فاعلمه عثمان بما جرى والح عليه ان يبقى عنده تلك الليلة دفعاً للشك وان خسرو باشا مسافر في صباح الغد فيخلو لمحمد علي الجو ويفعل اذ ذاك ما يشاء

فقال محمد علي — عفواً ايها الحبيب فكيف تسألني البقاء هنا وقد اخبرتني ان اشباحاً تتلصص بين صخور الاكمة فكيف استطيع ان امكث هنا وحبيبتي وحدها وقد احاطت بها الدبية فلا بد من رجوعي فوراً لان قلبي يحدثني بوقوع مكروه فاعطني غدارتك اذا كانت محشوة . ورأى عثمان ان محمد علي مصيب في عدم تركه الفتاة وحدها ولم ير بدًا من الاذعان فقال له — نعم ان غدارتي محشوة فخذها واحترس ما امكنك واذا وقعت في خطر شديد اسمعني اطلاقك النار فاذهب الى أبي فاوقظه واطلب اليه ان يرسل جنوده لاغاثتك فسر بحفظ الله واياه اسأل ان يقيك من كل شر

وانطلق محمد يعدو كهبوب الريح حتى بلغ الكهف ولم يرَ في طريقه احدًا فظن عثمان مخطئًا في ما اخبره . ثم زحف الى داخل الكهف فلم يرَ الحجر الذي أوصى جوهرة ان تسد به المدخل فقال لعلها نسيت ان تضعه . ثم ناداها بالصوت المتفق عليه فلم تجب فقال لعلها استولى عليها النعاس فنامت في النقرة الداخلية واسرع الى الداخل فلم يجدها فاصابته قشعريرة كادت تفقده صوابه ثم جعل يدور متلمساً جدران الكهف

وهو ينادي جوهرة ابن انت ياجوهرة اين انت فقد شغلت بالي . ولكنه لم يجبه
سوى صدى صوته الضعيف ترده جوانب الكهف . ثم عثر بالوسادات وبعض الامتعة
المبعثرة في كل ناحية فلم يعد يشك في الحقيقة التي كان حتى تلك الدقيقة يبعدها عنه
فسقط الى الارض خائر القوى وهو ينتحب و يقول بصوت يقطع الفؤاد — آه اواه
قد ذهبت جوهرتي قد فقدت سعادتي قد اختطفها مني ذلك النخاس الزنيم واويلاه
واحر قلباه . وكأن دموعه وزفراته خفت شيئاً من ضعفه ونبهته الى عدم الاستسلام
الى الانفعالات القلبية فنهض وقال — قد تجاسر الابالسة على دخول فردوسي واختطاف
جوهرتي . نعم ان ملاكي الحارس قد حاول طردهم والدفاع عن نفسه بشهادة ماأرى
من اثار العراك ولكنه لم يقو عليهم . فآه آه ياحبيبتي من هم هؤلاء الاوغاد وماذا
فعلوا بك وأين انت الاتزالين حية ام اعدموك الحياة . ولما بلغ بفكره الى هذه الكلمة
اعتراه هياج عظيم فجعل يثب ونسي حزنه وما هو فيه من الحسرة والالم فرفع يده
وهز قبضته كانه يضرب الهواء واقسم انه لايحول عن طلب الانتقام ولو فقد حياته .
ولكنه لم ينتهِ من لفظ الكلمة الاخيرة حتى شعر بيد كانها آلة حديدية قد قبضت
على عنقه من الوراء وطرحته الى الارض وفي اقل من طرفة عين انتزعت غدارته منه
وشد وثاقه شداً محكماً فاراد ان يصرخ و يستجير فرأى لمعان نصل سيف فوق رأسه
وقائل يقول له — لاتتعب نفسك بالصياح ياحضرة البلك باشي اذ لايسمعك سوانا
ثم اسرع المتكلم مع رفيقة فوضعا كمامة في فمه وحملاه بينهما كانه قطعة من خشب
لاحراك به ولا يميزه عن الجماد غير افكاره وشعوره وتألمه

فجحظت عيناه واخذ يقول لنفسه — انني اذا نجوت من هذه المكيدة التي لم
تخطر لي ببال اعلم كيف اخذ بثاري واما اذا اماتوني فاني اجتمع بحبيبتي في الابدية
واشكوهم الى اله النقمات ليقتص منهم فآه ليتهم يقتلونني حالاً و يريحوني من هذا العذاب
فما الفائدة من بقائي حياً وجوهرة ليست معي

وكان الخصيان هما اللذان كنا لمحمد علي وفعلا به مافعلاه فحملاه حتى بلغا الشاطىء
فظن انهما سيلقيان به الى البحر لكنهما وضعاه بمنتهى اللطف على الرمال اتباعاً لوصية

مولاها ثم اشارا اليه ان ينظر الى جهة قواله ولما فعل رأى اشباحاً مقبلة لم يتبينها جيداً تحمل في وسطها شيئاً ابيض فجمد الدم في عروقه وشعر ان قلبه قد توقف عن الحركة ولما اقترب القادمون سمع عويلاً عرفه للحال انه صوت جوهرة فاندفع من صدره زئير اشبه بزئير الاسود فهاج وماج وحاول ان يثب غير ان الوثاق والكمامة منعاه عن الحركة والصياح فتفطر فؤاده وكان يود ان يعلم جوهرة بوجوده بالقرب منها لتتشجع فلم يستطع . ولما وصل الحامل وضعوا حملهم على الرمال بالقرب من محمد علي فرأى نقالة عليها شخص مبرقع مسجى كالميت وقد اوقف الى جانبه العدو اللدود المتعجرف خسرو باشا وما رأى محمد علي ذلك حتى اندفع من عينيه شرر الغيظ ولاسيما لما رأى خسرو باشا ينظر اليه بمثل ذلك فافلتت من صدره أنة ترجمت عن شعوره في تلك الساعة . ثم اشار خسرو باشا الى الخصيان ان يقربوا النقالة الى الشاطي ويتنحوا عنه. وهو مع ذلك ينظر الى محمد علي نظر الغالب المنتصر ثم قال له — لك يا محمد علي صديق اكرمته فاستحلفني ان أحافظ على حياتك والالما بقيت حياً الى الساعة غير انني اعلمك الآن كيف نقسم وننال مع ذلك ما نريد لان الانتقام لايكون بالقتل فقط وسترى كيف يستطيع خسرو باشا ان يقتص و ينتقم ممن يتجاسر عليه و يزدري به وأؤمل ان تتذكر هذه الشالة ماحييت فانظر الآن الى هذه النقالة ومن فيها . ولما قال ذلك كشف الملاءة وكان الفجر قد لاح وانتشرت اشعة النور فتمكن محمد علي من تمييز الاشياء ورأى جوهرة ملقاة كالمائتة على قيد باع منه وهي مع ذلك بعيدة عنه بعد المغربين فلا يستطيع اليها وصولاً . ثم خطر له ان خسرو باشا قد ابتاع جوهرة حقيقة بالمال فاصبحت ملكه بمقتضى الشرع والسنة فاية قوة تمنعه الآن عن قتل مملوكته اذا صمم على ذلك فاذا دفنها حية او طرحها طعاماً للاسماك فانه لايجد من يعارضه . و بعد ان ثبت نظره طويلاً تنهد وانهملت عبراته بغزارة وصمت

اما جوهرة فانها لما شعرت بوجود محمد علي بالقرب منها حاولت النهوض فمنعها وثاقها أيضاً فحولت رأسها الى جهته ولما رأته على تلك الحالة صاحت قائلة — أيها الحبيب تشجع واشكر العناية التي جمعتنا وقد اشتهينا منذ هنيهة ان نترك العالم معاً وقد حكم الله

رغبتنا فاثبت على وعدك واسمعني صوتك فانه يقويني على احتمال كل شيء . ثم خنقتها العبرات فتوقفت عن الكلام . فنظر اليها خسرو باشا وقال — ياجوهرة الست جاريتي أو لم اشترك بمالي الذي دفعته لقومك . ألم تتوسلي اليّ ان اسمح لك بالذهاب يوماً واحداً تقضينه مع والدك فاقسمت لي قسماً مقدساً ان تعودي اليّ في المساء كما تفعل الامة المشتراة ولكنك سخرت بي وهربت مع هذا الغلام الغر فخنت مولاكِ القادر وحق لك الجزاء الصارم . على اني لاازال اشعر بميل اليك وقد تملك حبك فؤادي فانا أعيد اليك حريتك الآن اذا رجعت عن غيك وقبلت ان ترافقيني الى ابيك وتخبريه انني اشتريتك واصبحت ملكي وانك ترغبين الرحيل معي الى حيث اذهب وتعترفين امام الملأ انك طوع أمري وتستسلمين لي برضاك واختيارك فانا اصفح عنك واشفق على جمالك وصباك لان قلبي قد احبك واكون قد اغتصت بذلك عن اهانتي واقتصصت من هذا الغلام الفظ على ماساءني به . . . . . مابالك لاتجيبين ؟ اذا كنت لاتقوين على الكلام فارفعي يدك ثلاثاً علامة القبول وانا افك قيودك حالاً بيدي

اما جوهرة فكانت تنظر الى محمد علي وقد جمدت عيناها فكانها لم تسمع شيئاً من كلام خسرو باشا ولم تهتم به رغماً عن الحاحه عليها باعطاء الاشارة . وكان محمد علي يرى ويسمع وهو غائب عن الوجود في جحيم من العذاب . ولكنه شعر في وسط ذلك السعير بسعادة داخلية لانه مع عدم امكانه مكالمة جوهرة كانت روحه قد قرأت مافي روحها فتفاهما وشعرا بالسرور . رأى جوهرة تستهين بذلك الظالم المتكبر فلا تتنازل لمجاوبته . رأى ان جوهرة تعلم ان عاقبة اصرارها الموت وهي مع ذلك تفضله على خيانة عهد حبيبها . نعم رآها تستقبل الموت امام عينيه وهي رابطة الجاش ليس لتبرهن له عن شدة تعلقها به بل لتترك له ذكرى تعزية في باقي حياته اذا عاش بعدها رآها وقد فضلت الموت معه على حياة العز والرخاء مع سواه فما اسعد الحب الذي لايزحزحه الموت . وما الذ الموت الذي يقدسه الحب . رآها وكلاهما مغلول الايدي والارجل مكموم الفم ممنوع عن الحركة والكلام ولكن بقي لهما حرية الروح التي لاتقيد . فطارت الواحدة الى الاخرى والتقتا وتفاهمتا واسعدتهما الحال

ولما طال انتظار خسرو باشا وكثر الحاحه وهي لا تنظر اليه ولا تجيبه بكلمة احتدم غيظهُ وقال لها والسم يتحلب من شدقيه — اذًا تموتين ايتها الجارية الخائنة وتحل عليك لعنة موبدة . ثم دعا الخصيين وامرهما ان يضعاها في كيس ويربطاهُ جيدًا ثم يحملانها في قارب ويطرحانها في البحر على مرأى من محمد علي . فصدع الخصيان بما امرا وربطا الى فوهة الكيس ثقلاً حديديًا للمساعدة على الغرق ثم نزلا القارب بحملها وابتعدا قليلا فالقياه في البحر وخسرو باشا ينظر الى ذلك مبتسماً كانه من ابالسة الجحيم ولم يخطر له قط أنه قتل نفساً ذكية بريئة ظاهرة من صنع الله ولما عاد الخصيان اقترب خسرو من محمد علي واستأذنه بالذهاب مستهزئاً به وقال للخصيين اتركاه الان هنا لانه لا بد من وجود من يهتم به اما انا فقد حفظت وعدي فلم الحق به اقل اذية . ولما قال ذلك سار والخصيان يتبعانه الى قواله ليودع الشوربجي ويسرع بالسفر اذ لم يعد له ما يعيقه . وكانت السفينة على اتم الاستعداد وقد نقل اليها في الليل الغابر والنهار السابق جميع امتعة الباشا وحاجاته . فلما وصل خسرو باشا الى القصر طلب الحاكم ليودعه فسار هذا معه مشيًا الى الشاطىء متظاهرًا بالاسف الشديد على فراقه وهو بالحقيقة لا يصدق ان يتخلص منه . وما رفعت السفينة مرساتها وابتعدت قليلاً حتى عاد الحاكم الى قواله وتوجه رأساً الى غرفة ابنه عثمان ليبشره بخلاصهم من ذلك الفظ الثقيل وكان عثمان لا يزال ملقى على سريره في حديقته فلم يحتفل كثيرًا بتلك البشارة لاهتمامه بامر صديقه محمد علي وجسمه يرتعش وقد ظهر على وجهه اثر القلق والانزعاج . ولما ساله والده عن سبب انقباضه قص عليه حديث الليل الغابر وقال — قضيت طول الليل وانا انتظر خبرًا واتوقع سماع طلق غدارة محمد علي فلم اسمعها ولا بد ان يكون قد اصابه مكروه فآه لو كنت قويًا لطرت اليه حيث هو لكنني واأسفاه عاجز لا استطيع المسير وقد انهك قواي السهر فهلا ذهبت يا والدي الى الاكمة مع العبدين واستطلعت حاله لان قلبي يحدثني انه في ضيق شديد

ولم يعد عثمان يتمالك نفسه فامتقع لونه وسالت دموعه فجعل والدهُ يشجعه ويعده بالخير ثم انطلق مع العبدين الى الاكمة ومنها الى الشاطي فوجدوا محمد علي حيث كان

مطروحاً على الرمال وليس فيه حراك. فقطع الحاكم بيده وثاقه ونزع الكمامة من فمه ولكنه لم يتحرك واسرع واحد من العبيد فاتى بماء رش به وجهه و بذل الجميع جهدهم في معالجته حتى ردت روحه اليه فوثب كاللبوة الفاقدة اشبالها او كالنمر اذا افلت من الشراك وجعل يجيل نظره فيما حوله ثم صرخ صوتاً خرج من اعماق صدره واندفع يعدو نحو البحر ماداً ذراعيه كانه يود معانقة شخص يتوهم وجوده فاسرع حسان والعبدان وراءه وامسكوه بالرغم عنه واخذه حسان بين يديه وقال له — خفض عنك يا محمد علي وتشجع وارجع الى هداك واذكر حبيبك عثمان فانه يموت غماً عليك اذا أصابك مكروه

اما محمد علي فكان لايعي بل وقف بين يدي الحاكم وجسمه يرتعش كان قوة كهربائية قد اطلقت عليه ثم التفت الى حيث طرحت جوهرة وحاول ان يتكلم فلم يتمكن ثم اغمض عينيه وسقط الى الارض فاقد الحس. وأمر الحاكم فحمل العبدان محمد علي وسارا به الى القصر ولما رأى عثمان ذلك ادرك مايحملون فنهض للاقاتهم ووقع على عنق صديقه يقبلها و يغسلها بدمعه السخين . وكان انفاسه الحارة قد بعثت الحرارة الى تلك الجثة التي لم تكن قد فارقتها الحياة ففتح محمد علي عينيه ولما وقع نظره على صديقه تنهد وفتح فاه وهمس قائلاً — ماتت جوهرة ماتت . وكأنه ضمن في هاتين الكلمتين تتمة تاريخ الليل وشدة ما كمن في صدره من الاسى فاغمض جفنيه وغاب عن الوجود

الفصل الثاني

كل حال يزول

مرت على حوادث الفصل السابق عشر سنوات لم تتغير فيها احوال قواله الطبيعية . ما زال البحر يهيج ويسكن و يكدر و يصفو فيبتسم للشمس اذا اشرقت و يكفهر لونه اذا خيم ظلام الليل و يحمل ما يوضع على ظهره و يلتهم ما يقع في جوفه

وما زالت الاكمة الصخرية تنطح قمتها الجو وهي تنظر الى البحر غيرةً وحسداً لانها لا تتحرك مثله · مرت السنوات العشر ولم يظهر لكرورها اثر الا في وجوه البشر وما عشر سنوات الا كيوم واحد لمن كان سعيداً في حياته فيرجع بفكره الى الاعوام السالفة وتلذ له الذكرى اما الشقي التعس فيعد الايام دهوراً ولا تزيده الذكرى الا تعاسة ويأساً ولكن كل حال يزول وكما تفنى المسرات تفنى الهموم ومهما كانت الجراح مؤلمة وخطرة فالصبر يمنع تهيجها وطول العهد يشفيها · ولا بد من وجود من لا يجد للصبر سبيلاً فيأكله اليأس او من يكون ضعيفاً عن مقاومة شيطان اليأس فيهلكه · كما اصاب شيخ بروستا فانه لم يطق صبراً على فراق ابنته ولم يجد للعزاء سبيلاً فقضى اسىً ولفظ نفسه الاخير وهو يردد اسمها ولما حجبه التراب عاد رجال بلدته الى اعمالهم واحوالهم فنسوه كما نسوا ابنته واضافوا تاريخ حياة هذين الفقيدين الى اخبارهم القديمة · وكم من عاشق يقضي حياته ساجداً على مذبح محبته ويقول ان لا حياة له بدون حبيبه فاذا مات أو ابتعد اشتد به الحزن بضعة ايام او اشهر ثم ينساه او ينكره · وكان محمد علي يمر احياناً في شوارع بروستا ساهي الطرف ممتقع اللون فلم يكن يشعر به احد ولا بما جرى معه منذ عشر سنوات ولا انه هو الذي جرَّ عليهم حوادث تلك الخاتمة المحزنه

اما محمد علي فلم يكن لينسى ذلك ولما جاء به الشوربجي الى قصره كما سلف بقي عنده اياماً كثيرة فاقد الشعور شاخص الطرف الى الفضاء كأنه ميت في صورة حي ولم تفده معاملة حسان وولده لتخفيف حزنه ولا نفعه علاج ولا رقي ومن اين لهما الوصول الى النفس ليضمدا ما بها من جراح الاسى · وهكذا اغتنمت روحه فرصة انتهاك جسده وانصرفت الى عالم الخيال تتبع حوادث الماضي فترية زهرة بروستا وقد اشرق عليها نور الفجر وهي تنظر اليه بطرف منكسر · ثم تراجع امام مخيلته حديث فردوسه والامر الفظيع الذي جرى فيه الى مشاهدة ذلك الملك الطاهر يلقى في البحر فيرتعش جسمه ويحاول جمع قواه ويصرخ فلا يخرج صراخه لشدة ضعفه الا نفساً خفيفاً يمر بين شفتيه المطبقتين يهدد العالم بالانتقام · الانتقام·

وكان عثمان لا يزال ساهرًا على صديقه فيسمع ذلك التنفس الخفيف ويطمئن ان صديقه لا يزال حياً ولما طال عليه الوقت وهو في هذه الحال تحول يأسه الى ضعف شديد استولى عليه وتبعه انحراف في صحته المه شديدًا . واذا برح الالم بالانسان انساه كل شيء سواه فاخذ محمد علي ينسى حزنه شيئًا فشيئـًا فتراجعت اليه قواه وصار يرجى له الشفاء . ولم يكن عثمان وحده يسهر على محمد علي بل كانت تساعده في ذلك ابنة عمه عائدة فلما سمعت بما اصاب محمد علي خلعت في هواه عذارهـا فتركت زوجها وجاءت الى عمها حسان فقالت له انها سئمت الاقامة مع زوجها لغيرته وظلمه وصرحت له انها تحب محمد علي حبًا تملك من قلبها فهي لا تكون لسواه وطلبت ان تمرضه وتعتني به بنفسها . فلم يعارضها عمها في ذلك فكانت عائدة تقضي لياليها ساهرة بالقرب من فراش محمد علي تراقب انفاسه وتسمع ما ينطق به في هذيانه عن تلك الحوادث المريعة وذكره جوهرة ومحبته لها والانتقام من قاتليها فلم يكن ذلك الا ليزيدها تعلقًا به وتأثرًا من حالته . ولما اخذ محمد علي في الرجوع الى العافية وتركته الحمى رأى عائدة تخدمه وتعتني به مع عثمان فاصابت بتلك الرقة قلبه وتأثر كثيرا لانه كان يظن نفسه اصبح وحيدًا واذا به يرى اثنين يهتمان بشانه ويبذلان جهدهما في سبيل خدمته وراحته . ولما ايقن عثمان بزوال الخطر عن صديقه جعل يخبره عن عائد وهيامها به وانها قلقت اشد القلق لدى سماعها بما اصابه واهتمت كل الاهتمام بامره فجاءت تمرضه وهي تحسب في ذلك سعادتها وقد طلقت نفسها من زوجها بامل الحصول عليه لانها أقسمت ان لا تكون لسواه . فلمـا سمع محمد علي ذلك اغمض عينيه وتنهد من كبد حرّى لان كلام صديقه اصاب في صدره جرحًا لم يندمل بعد . ثم جعل يفكر في امر عائدة وحسن صنيعها معه وشدة تعلقهـا به حتى انها تركت زوجها ونبذت صيتها وشرفها من اجله وهي لا تخشى لومة لائم وكان يرى بنفسه ويقرأ ما يظهر في وجهها من لوائح البشر وعلائم السرور اذا رأت تقدمه بالصحة فقضى أيامًا يحدث نفسه بامرها ويتساءل عما اذا كان يليق بعد كل ذلك ان يعرض عنها . وقد كرست نفسها له مع كونها غنية صحيحة وهو فقير مريض

وهل يجوز ان لا يقابلها بمثل صنيعها فيكرس نفسه لها اذا عاد الي صحته وهي لا تزال ضعيفة في طبيعتها وحبها وانه اذا لم يفعل ذلك يكون قد ارتكب قساوة لا تحمل وقد ذاق من مثل تلك القساوة ما كفاه . وبعد مضي مدة طويلة قضاها محمد علي في مثل تلك الافكار صمم على مقابلة الحاكم ولما اختلى به اطلعه على افكاره واستشاره في الامر فاظهر حسان رضاه التام . واخذ هذا الحب الجديد ينمو على تربة الحب القديم فكان دواء شافياً لما بمحمد علي من الانحراف فاخذت صحته تتقدم حتى نهض سالماً معافى وعائدة لا تزال بقربه تخدمه وتسهر عليه فاخذ بيدها يوماً واعترف لها بمحبته وطلب منها ان تتخذه زوجاً لها . وكان ذلك غاية ما تتمناه فعقد الحاكم لمحمد علي على عائدة فصارت زوجته ووهبته جميع ما تملك عنواناً لمحبتها له فاصبح محمد علي زوجاً سعيداً غنياً

ولم يدر دولاب الدهر على شخص باكثر سرعة مما كان يدور على محمد علي فكنت تراه في الصباح سعيداً مبتهجاً كانه ملك العالم ثم لا تكاد تغيب الشمس حتى تراه انقلب الى الكدر والحزن فوجد ذاته فقيراً وحيداً مهجوراً وكان لا يزال مع تنقله في تلك الحالات وشدة سروره أو فرط كدره لا يطيل الاستسلام لما هو فيه فلما اقترن بعائدة واستلم المال الذي قدمته له رأى انه لا يليق به ان ينفق عليها من مالها او ان يترك المال معطلاً فاشتغل في تجارة التبغ وكان يجهل شروط التجارة واحوالها وجاء لمعونته صديقه القديم المسيو ليون وعلمه كيف يبتدئ ونصح له وهو يعلم ما فطر عليه من المضاء والصدق في اعماله ان يتاجر بالجملة لئلا يلتجئ الى التملق والتجمل في سبيل تصريف بضاعته . فنجح محمد علي نجاحاً باهراً وكانت التجار تقصد قواله من الانحاء البعيدة لمشترى تبغها المشهور وفضل الجميع معاملة محمد علي على سواه فبسم له الدهر وانهالت عليه الثروة فعاش في رغد وهناء مع زوجته ورزقه الله ثلاثة بنين كانوا موضوع حبه واهتمامه فعلمهم ركوب البحر وادارة القوارب واستعمال انواع السلاح وصيد السمك والطيور ولكنه لم يقترب معهم قط الى تلك البقعة المقدسة عند الاكمة . ولا علم احد قط بوجود ذلك الكهف ضمنها

وكأن الدهر نفسه اراد ان يخفي ذلك التذكار فسد فوهته بالردم

مرت السنوات العشر على تلك الحادثة المشؤومة ونسيها الناس واصبحوا لا يعرفون عن محمد علي سوى انه التاجر الغني زوج عائدة الجميلة ولكن هل نسي محمد علي ذلك ؟ كلا . كان قبيل ليلة زفافه على عائدة و بعد ان خيم الليل ونامت عيون الناس قد ذهب الى الاكمة وانساب الى داخل الكهف وهو يدخله باحترام كانه داخل الى معبد مقدس ثم انطرح على بساطه وقد افعم قلبه الحزن واشعل فواده الجوى فلم يطفه ما انسكب من مقلتيه من العبرات وكأنه اراد ان يقدم على ذلك المذبح العزيز كفارة نهائية عن المستقبل لانه كان لا بد له ان ينسى او يتناسى ذلك الفردوس وما يحيط به من الحوادث على تباينها . فصرف محمد علي ليلته هناك على تلك الحالة الى ان اصبح الصباح فنهض يريد الخروج وهو يود ان يدفن في ذلك الفردوس المقدس كل ما يتعلق به من حلو ومر. قلنا وكأن الطبيعة ساعدت محمد علي على اتمام رغبته فمحت اثار مدخل ذلك الكهف بما رجمته وبه من الحجارة . ولكن هل كان محمد علي ليخفي ذلك الاثر من فواده وهل كان ينتاب قمة صخور بوسيفالوس و يلقي بنظره الى البحر لمجرد تنزيه الطرف وترويض الجسم وهل كان ارقه وشحوب لونه وانكسار طرفه ناجماً عن مجرد انزعاج جسمه وليس عن آلام نفسه . لا . فانه مع شدة محاولته النسيان لم يكن يتمالك مرارًا أن ينقاد لبعض تلك المؤثرات وهو مع ذلك يلهو بتجارته ويحادث الناس و يستشير صديقه المسيو ليون في معضلات اموره و يصرف عنده كثيرًا من الوقت في سماع احاديثه عن سائر المعمور . وكان المسيو ليون يراقب وجه محمد علي ليرى ما يبدو عليه لعله يوانس ما يشير الى كمون مطامعه السابقة في صدره فلا يري فيه سوى ملامح الجد ومظاهر السكون فقط اما قلبه فلم يستطع احد ان يعلم ما به حتى ولا زوجته عائدة ولم يكن ليفهم حقيقة امر محمد علي سوى عثمان فانه كان اعلم الناس به. وضمهما مرة مجلس تكلم فيه الحضور عن خبر هام وهو ان الدولة انفذت الى مصر اسطولاً قوياً وشحنته بالعساكر لتأديب المماليك العصاة . فلحظ عثمان كيف ابرقت اسرة محمد علي عند سماعه ذلك . ورآه

مرة اخرى وقد امتقع لونه وانكمشت عضلاته عندما قدم البلدة احد التجار واخبرهم ان خسرو الذي كان منفياً في قواله أوفد نائباً الى مصر . فعلم عثمان ان محمد علي مع شدة محاولته الكتمان لا يزال يجتهد أن يغطي النار المتأججة في صدره تحت رماد السكون . ثم رأى محمد علي بعد سماعه الخبر الاخير قد انسل من بين الجلوس وخرج فلم يعد يراهُ كل ذلك النهار . فنظر الى جهة اكمة بوسيفالوس فرأى في اعلاها نقطة سوداء فلم يشك في انها شبح صديقه محمد علي وقد ذهب اليها ليخفف من آلامه وينفرد عن العالم فيخلو بنفسه بين مناظر الطبيعة وتذكراته

الفصل الثالث

اليوز باشي

واتفق في تلك الاثناء ان قدم الفرنسويون لفتح مصر فقاومهم المماليك جهدهم وهم يومئذ سادة البلاد واهتم جلالة السلطان بشأن هذا الفتح وجهز اسطولاً قوياً اوفده لصد هجمات الفرنسويون واخراجهم من مصر ولم تكن غايته مقصورة على هذا الامر فقط فانه امر جنوده ايضاً ان تكسر شوكة المماليك بعد طرد الفرنسويون وعين قائداً عاماً لهذه الحملة خسرو باشا فسلمه الامر المطلق وسماه والياً لمصر . ولما تقلد خسرو باشا هذه القيادة ارسل رسلاً وسفناً الى انحاء السلطنة يحشد الجنود ويجمع الامداد وفي جملة ذلك سفينة ارسلها الى قواله وسلم ربانها رسالة الى حسان الشوربجي الحاكم يقول فيها — بعد التحية انه لما كانت رغبة جلالة ولي النعم ان يطرد الجنود الفرنسوية من مصر ويقتص من المماليك قد عين للقيام بتنفيذ اوامره كاتب الرسالة خسرو باشا فيقتضي ان كل بلدة وكل مقاطعة تخلص عبوديتها لولي الامر تجهز ما تقدر عليه من الجنود لمرافقة الحملة الى مصر . ثم يقول — وبما اني عرفت المقاطعة التي تحت حكمكم فحال وصول رسالتي هذه ان تجهزوا على الفور ثلاث مئة جندي وترسلوهم اليّ حالاً . قد سمعت بان ولدكم عثمان عاد الى تمام العافية ولم انس الجميل

ولذلك عينته يوز باشياً على الجنود التي ترد من مقاطعتكم واتماماً لمسرته قد عينت محمد علي ملازماً اول له فليحضر ابنك بالجنود ومعه محمد علي اذا كان لا يزال في قيد الحياة ولم يقضى نحبه لشدة طيشه وتحمسه . اما اذا كان لا يزال حياً وقد حنكه الزمان فلا اشك انه يكون من الاقوياء الذين نحن في حاجة اليهم في مثل هذا الحين

ولما قرأ الحاكم الرسالة اطلع عثمان ومحمد علي عليها وطلب من محمد علي ان يساعده في انتقاء الرجال وتمرينهم فاجابه محمد علي الى ذلك وما عتم ان جال في قواله و بروستا يشجع الرجال و يزين لهم لذة التجند والسرور الذي يلقونه في حومة الوغى حتى جمع ٣٠٠ رجل مرنهم على الحركات العسكرية وعلمهم استعمال السلاح

وكان محمد علي قد اكتسب في خلواته بالاكمة الصخرية اموراً عديدة وعاد رجلاً جديداً تولدت فيه قوة جديدة على مقاومة امياله الداخلية واصبح يلازم بيته فيلاطف زوجته ويداعب اولاده على غير المعتاد ولم يكن احد يتمكن من ادراك اعماق قلبه ليقرأ ما فيها وكانت زوجته تشعر بكل ذلك وتعلم ان زوجها يجتهد في اخفاء عواطفه الداخلية و يتظاهر امامها بما يبديه بالرغم عنه ولكنها لشدة محبتها وتعلقها به انقطعت الى مؤانسته وخدمته جهد استطاعتها

ولما جاء كتاب خسرو باشا واكمل محمد علي تجهيز الجنود وقرب موعد السفر استدعاه عثمان اليه وقال له — قد آن موعد السفر ايها العزيز فدع الجنود في استعداد وهيا بنا نرصد معداتنا

فقال محمد علي — ان الجنود على استعداد اما نحن فماذا يهمنا ذلك ؟

قال كيف لا يهمنا وانت تعلم انني سميت يوز باشياً لهذه الحملة . وقد عينك خسرو باشا ملازماً لي واثنى على بسالتك

فقال محمد علي — انه لم يخطر لي قط انك تقبل هذه الوظيفة لضعفك وانت تعلم ان حياة الجندي حياة شقاء وتعب لا يمكنك احتمالها . اما انا فاراني مضطراً الى البقاء هنا فان خسرو باشا مع اطرائه اياي لا يزال يذكر انني اكرهه واني عدوه . لا لا ايها العزيز ليس بامكاني الذهاب البتة وانت لا تجهل الاسباب التي تمنعني عن ذلك

فقال عثمان — بل في امكانك الذهاب معنا ويجب ان تذهب — وهل تظنني قاصرًا عن قراءة ما في صدرك من النوايا التي تحاول اخفاءها حتى عن نفسك ايضاً قد نجحت في القاء حجاب كثيف على شعائرك ولا تريد ان تزيح هذا الحجاب لكن عين صديقك الذي يحبك قد اخترقت ذلك الحجاب وقرأت ما في نفسك . فتروَّ في الامر واذا كنت مع شدة ضعفي قد قبلت الدعوة فهل ترفضها وانت في ربيع الحياة وتمام القوة ووراءها اكاليل المجد والفخار فاذا كنت حقيقة تحبني يا محمد علي فلا تتستر عني واجبني الى طلبي فنسافر معاً ونرى العالم وما فيه فقد سئمت التخنث والاقامة في هذا المكان ولعل ما انا فيه هنا من الرخاء هو الذي يزيدني ضعفاً وسقاماً فاذا نفضت عني غبار الكسل وانصرفت الى ملاقاة الاهوال وتعودت احتمال شظف العيش والمشقات ترجع الي صحتي وينتزع من مخيلتي هذا الوهم المستولي عليَّ لعدم وجود ما يلهيني عنه فتستقيم احوالي . مالي اراك صامتاً لا تجيب ؟ انك تود ان تتروى في الامر فلا باس وان شئت فاذهب الان وافتكر ما شئت واعلم انني بانتظار ما يقر عليه قرارك فبربك لا تسرع بالحكم وتروَّ ملياً

فاستأذن محمد علي صديقه بالخروج وسار ولا تزال كلمات عثمان تدوي في اذنيه وهو يردد لنفسه هذه الكلمات « اكاليل المجد والفخار » فيرقص فواده طرباً ولما بلغ منزله لم يطق الاقامة فيه وتغلب عليه حب الوحدة والانفراد فاستأذن زوجته وخرج يهرول نحو الاكمة وما ابتعد كثيرًا حتى شعر بيد قد وضعت على كتفه وسمع صوتاً يقول له — كيف احوالك يا محمد علي ؟

فنظر واذا به يرى شيخ بروستا الجديد وكان محمد علي يحبه ويحترمه لما يجد في مجالسته من اللذة وما يراه فيه من سداد الرأي وسعة الخبرة في احوال العالم فأستأنس به وحياه وقال — اشكرك لسوالك عني فان اشغالي ناجحة جدًا بحمد الله

فقال الشيخ — لم اقصد بسوالي عن تجارتك فهذه اعرف سيرها وانما عنيت احوالك الشخصية وافكارك فأني احبك كولدي وانت تعلم مقدرتي في درس الناس من النظر الى وجوههم ولم يخف عليَّ ما يزعجك من الافكار النفسانية . وقد سمعت

ان الحاكم طوعاً لامر خسرو باشا قد جند ثلاث مئة جندي وعين ابنه عثمان يوز باشياً لهم وانت ملازماً اول له

فقال محمد علي — ان ذلك حقيقي وقد نسي خسرو باشا او تناسى الماضي من كرم اخلاقه فاسدى اليَّ هذا الجميل

فقال الشيخ مبتسماً — لا لم ينس الماضي ولكنه اراد ان يري الذين عاش بينهم منفياً ذليلاً ما صار اليه من العظمة والسلطة فهو متكبر عاتٍ لا مبدأ له ولا ذمام وكم من عمل يدل ظاهره على طيب عنصر وكرم نفس ولا يكون الباعث اليه سوى الافتخار الباطل

فابرقت اسرة محمد علي وقال — لا فض فوك يا سيدي فقد ترجمت عن فكري

فقال — الشيخ هل انت مستعد لمرافقة صديقك عثمان وقبول هذا المنصب

قال — لا اظن عثمان يتمكن من القيام بهذا المنصب واذا تم امر ذهابه فليس بامكاني مرافقته لان لي زوجة واولاداً لا استطيع تركهم وما دمت ناعم البال في بيتي مع عائلتي وتجارتي في رواج وانا مكرم عند الجميع حتى الحاكم وابنه فملام احمل بنفسي على الاغتراب فاسير الى مصر لمقارعة الاهوال ومعاركة تيار العالم والتعرض للاخطار والمصاعب فقد قيل عز من قنع وانا قانع بما قسمه لي الله من راحة البال

فقال الشيخ — اما عثمان فلا يتمكن من القيام باعباء وظيفته هذه الا اذا رافقته ولا انكر الاهوال والاخطار والمصاعب وطول الشقة كما ذكرت غير ان احجامك عن الذهاب الى ملاقاتها اعده تقصيراً منك لا سيما وقد طالما وعدت نفسك باحراز اكاليل المجد والنصر و . . . . . .

فقاطعه محمد علي وقال — استحلفك بالله ان لا تعيد على سمعي هذه الكلمات بل اتقدم اليك ان تضعف هذه الاصوات التي ملأت اذنيَّ وفؤادي وهي تستحثني على طلب الشهرة . فلا تذكر لي ذلك بعد ولا تشجعني لاقدم على ما ربما اعقبني الندامة

فقال الشيخ — بل ارى من واجباتي ان احثك على ذلك وانك لا تنصف نفسك اذا تجاوزت عما خلقت له من السعي في نيل الشهرة الى الاكتفاء بالعيشة الهادئة

الملة تحت ستار المتاجرة والقنوع فقد خصك الله بقوة وقدر لك ان تنال بجدك اعلى درجات المجد كما يعلم قلبك . فراجع نفسك وردد كلامي واذا رأيت عثمان قد صمم على المسير فاياك ان تتخلف عنه

ولما قال الشيخ ذلك ضرب كتف محمد علي بلطف وانصرف وتركه يفكر في ما دار بينهما من الحديث ويعجب من الصدفة التي ساقت اليه هذا الشيخ ليقنعه ويلح عليه بالذهاب مع صديقه الى مصر ويحقق ذلك الحلم الذي قصته عليه والدته بل تلك الاحلام التي كانت تتردد في مخيلته ايام الصبا . ولكن كيف يترك زوجته وبنيه وما يصير اليه حالهم اذا قضى نحبه في هذا السفر الخطير . فيجب ان ينكر نفسه لاجلهم فيبقى معهم الى ما شاء الله فلم يعد يقوى على البقاء أو التقدم فادار ظهره وصوب خطواته نحو منزله ورجع وهو يحاول ان يميت شوقه الى السفر وقضى لياته لم يذق فيها النوم وقد اقلقته حرب داخلية لم ينتصر فيها رأي فبزغ الفجر ونهض على غير هدى وسار الى راس الاكمة التي قابل فيها جوهرة للمرة الاولى ووقف على تلك البقعة المقدسة حيث تعاهدا على حفظ الميثاق الى الابد وارسل نظره الى الفضاء كانه يستنظر وحياً خفياً او نصحاً يأتيه من السماء فاشرقت الشمس فذكرته بذلك اليوم الذي اشرقت فيه شمس المحبة في فؤاده . فطار في عالم الخيال وتصور جوهرة وتلك السعادة الوقتية بقربها ثم عاد الى ذكرى والدته وهي تكلمه بحديث الحلم وتفسيره ثم تخيل ما صار اليه من الانقلاب فكأنه لم يعد محمد علي المدافع عن جوهرة ولا محمد على ابن الست خضرا الطالب العلى واكاليل المجد بل قد اصبح تاجراً كالتجار او دودة تدب على وجه الارض فتكتفي بما تصيبه من الكسب القليل . وتعاقبت تلك التصورات عليه فجددت في صدره ثورة وقام في خاطره عراك شديد اسفر عن تصميمه على البقاء اكراماً لعائلته

وكانت هذه المرة الاولى التي وطئت فيها قدما محمد علي تلك البقعة بعد ان وقف فيها مع جوهرة فاراد ان يتلذذ بمراجعة تذكار ما يحيط بها من الحوادث لآخر مرة في حياته من قبيل الوداع الابدي فقعد على الارض وغاص في بحار التأملات

حتى استولت عليه غيبوبة واذا به يرى طيف جوهرة كانها صاعدة من اعماق البحر مجللة برداء ارجواني اللون تتقطر من اطرافه المياه وعلى وجهها برقع مطرز بالذهب تنظر اليه بعينيها الساحرتين فبسط ذراعيه لاجتذابها نحوه وصاح قائلاً هلمي اليَّ يا جوهرة ولتطفئ المياه المتقطرة من ثوبك لظى النيران المتقدة في صدري . تعالي يا حبيبتي وكلميني وخلصيني مما انا فيه وانبئيني بما خبأه لي المستقبل . فاقبلت تتهادى في سيرها حتى صارت بالقرب منه فضمته الى صدرها وجعلت تقبله وهو يشعر بانفاسها . ثم هب من غيبوبته مذعورًا ولم يرَ احدا ولا شعر بغير نسيم الصباح العليل يهب على وجهه فلم يعد يقوى بعد تلك الرؤيا على نسيان الماضي فتذكر الاقسام المغلظة التي اقسمها للانتقام من قاتل جوهرة وعدَّ ظهورها له سوءالاً هل برَّ بيمينه أو ترك دمها يذهب هدرًا . ثم قال ها قد لاحت الفرصة لي فلماذا لا اغتنمها فاذا فزت في مسعاي كان فوزي باهرًا واذا مت في ساحة الوغى استرحت من الالام المبرحة التي اعانيها في تذكر الماضي ومحاولة نسيانه فلعل الله ارسل اليَّ ما يدفعني الى تثبيت عزمي والسفر الى مصر . ثم نهض من مكانه ووقف ينظر من وراء البحر الى جهة مصر فخيل له انه يرى سهولها الفسيحة وتلالها الذهبية وانه يرى امامه خسرو باشا فقال له — قد قضيت على نفسك يا هذا باستدعائك من يأتي ليدينك على فعلك الشنيع ولكنه سيكون الان اطوع لك من بنانك الى ان ينال بغيته فكن على حذر

انحدر محمد علي من الاكمة وهو يشعر بخفة روحه وانشراح صدره ودخل قوالة وهو غير ماكان بالامس وقد اعتقد انه الةٌ تديرها التقادير لتتم بها امورًا عظامًا . ومر امام قصر الحاكم فتحول ليرى صديقه عثمان فعرف عثمان من مشيته ما يختلج في صدره فاستقبله بالتبسم وقال — ارى الأزمة قد فرجت وانك قد ملت الى تحقيق رغائبي والسعي لادراك ما خبأه لنا المستقبل

فقال — بل ملت الى طلب حقي من المستقبل فاذا نلته كان خيرًا والا تركت للملاء امثولة يعلمون منها كيف يموت الشرفاء

الفصل الرابع

السفر

ولما اصبح اليوم المعين للسفر وتحقق الحاكم ان ولده عثمان سيبتعدعنه تغلبت عليه عواطف الحنو الابوي فلم يقدر قلبه على فراقه فذهب اليه باكيًا وحاول اقناعه بالبقاء مع والده اذ لا يطيب له عيش بدونه . اما عثمان فتجلد وقال —قد حان الوقت ياابتي ان اظهر نفسي للناس فيعلمون انني رجل واني ابن ابي فهل تظنني لست اهـلاً لان اتقلد المنصب الذي عينت له ؟ كنت مريضاً مقعدًا ياابتاه فتحسنت صحتي كثيرًا كما ترى و يغلب على ظني ان عيشة الرخاء والدلال تزيد ضعفي فاذا نفضت عني غبار الكسل وعودت نفسي شيئاً فشيئاً احتمال تعب الحياة وشظف العيش كان ذلك انفع لي من سائر العلاجات التي تعالجونني بها فضلاً عن تلذذي في تحصيل الشرف والتقدم في الحرب . ثم انت تعلم انني لااطيق فراق حبيبي محمد علي فوجودي بالقرب منـه يزيدني قوة ونشاطاً و يشجعني على اقتحام الاخطار ولا اظنـك تساء اذا رأيتني مرتدياً ثوب الجندية الجميل والجميع يثنون علي فلا تثبط عزمي بذرف الدموع بل شجعني وزودني بنصائحك وادعيتك ومرني ان البس ثوبي واستعد للسفر

فلما سمع حسان كلام ولده عادت اليه عزة النفس وغلبت عواطف الرجولية على الشعور الوالدي فمسح دموعه وتقدم الى ولده فقبله وهو لا ينطق ببنت شفة لئـلا يخونه تجلده و يظهر ضعفه ثم خرج في طلب محمد علي فوجده في ساحة القصر يرتب جنده و يعدهم للسفر فوقف برهة يراقبه ثم استدعاه اليه وسار به نحو الايوان وقال له— يامحمد علي . ياابني . هل تسمح لي ان اطلب منك شيئاً وهل تعدني ان تقوم باتمام ذلك ؟

فقال محمد علي وقد اثرت فيه رقة الحاكم — مر ياسيدي ويشهد الله اني قائم بما تريد ولو كلفتني بسفك دمي

فقال حسان — انت ذاهب مع وحيدي عثمان وتعلم شدة محبتي له . وتعلم ضعفه

فاسألك ان تسهر عليه ولا تدعه يتعب في اتباع واجباته فوق طاقته لان نفسه انشط من جسمه فلا تحمل ماتطلبه منه . ان الدموع تمنعني من المزيد فاقول لك باختصار انك اب ولك اولاد وتفهم ما اريد

فقال محمد علي وقد زاد تأثره حتى دمعت عيناه لا احتاج يامولاي الى برهان يؤكد لك استعدادي لخدمتك بحياتي وتأكد اني ساهتم بصديقي عثمان اكثر مما اهتم بنفسي و يشهد الله عليّ اني اعدك ذلك واقسم لك ان صدري يكون ترساً له عندي اي خطر يصوب اليه . اما انا فلي عندك حاجة ايضاً يامولاي وقد ذكرت شيئاً عن احساس الاب فانت تعرف أولادي الذين ساغادرهم صغاراً وانت اقرب الناس اليهم لاتصال نسب والدتهم بك فاذا خانني الدهر ولم اعد فكن انت مكاني في اعالتهم وبما ان ثروتي الحاضرة هي من المال الذي اعطتنيه زوجتي فانا ارجع اليها مالها بتمامه وكل مازاد عليه فاني اهبه لاولادي يتصرفون به حسب اشارتك اما انا فسألقي بنفسي في بحر هذا العالم رجلاً جديداً ولا احمل معي من سابق حياتي غير محبتي لاولادي وزوجتي ووطني ولك يامولاي في شخص اخي عثمان الذي سيبقى بالقرب مني ولا يكون الا سالماً باذن الله مازلت في قيد الحياة

وكان حسان ومحمد علي قد بلغا غرفة عثمان وكان هذا بعد ان تركه والده قد دخل الى غرفته فاطلق لدموعه العنان لا عن خوف بل تهيباً من ساعة الفراق ثم لبس بدلته العسكرية وأمر عبديه ان يستعدا للسفر معه . ثم ادركه التعب فانطرح على سريره خائر القوى وجعل يبتهل الى الله ان يقويه على احتمال مشقات السفر ولكي يبرهن لصديقه عن شدة محبته له . واذ ذاك فتح باب غرفته ودخل والده مستنداً على ذراع محمد علي فاعلماه بان كل شيء قد اعدّ وان الجنود تنتظر أمره للمسير الى الشاطىء . ثم قال له محمد علي — أرى الاوفق ايها الحبيب ان تسبقنا مع سيدي والدك الى الشاطىء فاتبعك بالجنود . وفهم الحاكم مراد محمد علي فقال أرى ان هذا الصواب ففيه حفظ كرامة القائد و بما انني اشعر بتعب عظيم فلا استطيع المسير وسأركب النقالة فارجو ياوالدي ان لاتدعني اذهب وحدي فتعال معي . وادرك عثمان مايضمران

وشعر انهما اتفقا على الاعتناء به وتقليل التعب عنه بان لا يدعاه يصير على اقدامه مع الجنود فترقرقت الدموع من ماقيه وقال ليكن كما تريدان

ولما وصل الحاكم وابنه الى الشاطي شاهدا جمهورًا غفيرًا من اهالي البلاد جاءوا لتوديع الجنود وليشهدوا سفرها فلما راى الجموع الحاكم وابنه استقبلوهما بالهتاف وصياح الفرح فتجلد عثمان وتكلف اخفاء ما به من الالم ثم وثب من النقالة حتى صار بين الحضور وشكرهم على احتفائهم به . وبعد قليل اقبل الجند وفي مقدمتهم محمد علي فانهمك الجميع في الوداع وكانت العساكر مسرورة واهاليها في سرور اشد لاعتقادهم ان بنيهم سائرون للجهاد بقيادة ابن حاكمهم المحبوب ثم ركب حسان وعثمان القارب الاول وأمر عثمان فتبعته الجنود وبقي محمد علي في الساقة حتى جاء دوره ليركب القارب الاخير فمال الى زوجته واولاده ليودعهم وكانوا واقفين مع صديقه الموسيو ليون فنظر محمد علي الي زوجته وقال — ياعائدة دعيني اودعك وداعاً ربما كان الاخير واشكرك على جميع مافعلته معي حتى الآن . ان دموعك الآن تشجعني على ملاقاة ما يعترض سبيلي في هذا السفر لان ذكره لذيذ لقلبي ويبرهن لي عن شدة محبتك لي وثباتك فيها فسيجعلني احن ابدًا الى البقاء سالما لارجع اليك فاذكريني دائماً واعتني باولادنا وعلميهم ان يكونوا رجالاً شرفاء واذكري ان اباهم جندي ويريد ان يتبع اولاده مثاله ولا تنسي ان تعليمهم القراءة والكتابة ومهما وصلت اليه يدك لانني اذا ادخلتهم يوما بين جنودي فاود ان يكونوا مستعدين لاستلام المهام التي تسلم اليهم لا ان يكونوا جهلاء . الوداع ياعائدة الوداع يا زوجتي لا انسى قط ان اشكرك على كل دقيقة صرفتها معي وهي تحاول ان تسعدني بها . ولم يقل محمد علي في عبارته الاخيرة على كل دقيقة اسعدتني بها لانه لم يشاء ان يكذب على نفسه ويمين في كلامه وهو قد اخفى حاساته كل تلك المدة عن زوجته فكان يتكلف السرور والهناء لا يشكو ولا يتذمر فتظنه سعيدًا ولم تدر بشيء مما كان مستكناً في صدره من آلام محبته الاولى وتعطشه الى الانتقام لحبيبته جوهرة . ولم يدعها تعلم ماهاج في صدره وما دفعه الى قبول هذا السفر الى حيث يلتقي بغريمه فيهبط على رأسه صواعق النقمة عند اول فرصة

و يأخذ منه بثار تلك الشهيدة البريئة

فلما انتهى القى بنظره الى الجهة التي أغرقت فيها جوهرة ثم وثب الى القارب فانساب به على وجه المياه الى السفينة وكان عثمان بانتظاره فاستقبله مرحباً وقال — اهلاً بك ايها الاخ والمرشد والرفيق فاننا منذ الساعة نسير معاً الى احراز الشرف والمجد فتبسم له محمد علي ثم ودعها الحاكم وداعاً مؤثراً للغاية ولما انحنى لتقبيل محمد علي همس في اذنه وقال — اذكر يا ولدي ما اوصيتك بهِ واحرص على صيانة اخيك ثم عاد الى الشاطئ وهو يدعو لهما بالتوفيق

و بعد هنيهة أطلق من الشاطئ مدفع الوداع وكان اشارة السفر فاقلعت السفينة تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطئ فالتفت محمد علي الى عثمان وقال له — انظر ياعثمان ان جوهرة قد دفنت في تلك الجهة من هذا القبر الواسع وقد عبر الماضي وامامنا الآن مستقبل يدعونا بابتسام فسأنتقم فيه لتلك الروح الطاهرة وابني لها ضريحاً لم يبن مثله فوق جثة امرأة نعم سأبنيه لها على الشاطئ المصري من هذا الضريح الكبير فابق معي ياعثمان وتشجع

الفصل الخامس

المعسكر في ابي قير

كانت مصر في ذلك الحين تحت سلطة المماليك وقد استفحل امرهم في البلاد فعصوا الدولة ونبذوا طاعة آل عثمان واستأثروا بالسيادة وصاحب السلطة والامر بينهم أحد كبار المماليك واغناهم مراد بك . وحدث ذات يوم انهُ جلس في قصرهِ بالاسكندرية وحوله الاعوان والمقربون واذا ببعض رجاله قد دخلوا عليه واخبروه ان اسطولاً فرنسوياً دخل المينا وانزل الى البر عدداً وافراً من الجنود . وكان مراد بك قد سمع من جل انكليزي ارسلته دولته الى مصر قنصلاً لها ان فرنسا تطمع في امتلاك مصر وجعلها من المستعمرات التابعة لها فلم يهمه هذا الامر . فلما سمع خبر وصول

الاسطول ونزول الجند الى البر تبسم ونظر الى اعوانه وقال — انما جاء الفرنسويون الينا ليطلبوا احساناً فاعطوهم شيئاً من مال الصدقة لينصرفوا حالاً والا امرت الخدم الموجودين في قصري ان يطردوهم طرداً

على ان استهزاء مراد بك بتلك القوة لم يكونا في محلها ولم تكن الجنود الفرنسوية لتعود او تطرد بسهولة وفي مقدمتها القائد الشهير الذي كان قد ملأ ذكره الخافقين واصبحت تهتز اوربا لذكر اسمه نابوليون بونابرت . وكان بونابرت قد اقنع حكومته وفوضت اليه امر الاستيلاء على الهند فجاء الى مصر اولاً بقصد اخضاعها وجعلها محطة فرنسوية بين فرنسا والهند ولما رأى مراد بك ان بونابرت مصمم على احتلال البلاد جمع جنوده واستعد لمحاربته ثم رأى شدة باس عدوه ولا سيما بعد المواقع المديدة الدموية التي حصلت بينهما ومن جملتها موقعة هائلة انتشبت بين القائد ديزيه و بين المماليك وكانوا نحو اربعة الاف فكسروهم وامره بونابرت ان لا يدع احداً ينجو بنفسه فاحاطت جنود ديزيه بالاعداء وصوبوا اليهم ناراً حامية وقد سدوا عليهم طرق الهرب فقتلوهم عن آخرهم

فلما رأى مراد بك ذلك اخذ يدبر الامر. فكثرت المذابح ودار ملاك الموت يعمل في الفريقين حتى حدث في فرنسا ما بعث بونابرت على السفر اليها فترك الجنرال كليبر مع الجيش وقد عقد النية على حشد الجنود وتجييش العساكر الكافية ليعود بها الى مصر فيضربها مرة واحدة ضربة قاضية غير انه لم يكن قد قدر له الفوز بهذه الامنية فان الجنرال كليبر مع بسالته ونبله اصابه خنجر من قاتل شقي اغتاله فجأة في ساحة الازبكية . ولما علم اهل المدينة ان الجنرال كليبر قتل نهضوا جميعهم نهضة واحدة وجعلوا يصيحون من كل ناحية ايت الفرنسويون فحل الرعب في قلوب العساكر الفرنسوية ولكنهم اظهروا من التجلد والشجاعة في استقبال الموت ما يحير العقول حتى تداخلت الدول الاوروبية وحكمت برجوع العساكر الفرنسوية من مصر فرجع الباقون من ذلك الجيش وسرورهم بالنجاة يفوق سرور المصريين بخروجهم من بلادهم

والدولة الانكليزية هي التي حركت دول اوروبا على عرقلة مساعي بونابرت ومنعه عن ايجاد مايرسخ قدمه عليه في طريقه الى الهند · ونسب المصريون رجوع الفرنسويين عنهم الى سطوة انكلترا فاصبحوا شاكرين لها واغتنمت انكلترا تلك الفرصة فجعلت تمتد بسياستها حتى اصبحت لها اليد الطولى في مصر ثم سعت بواسطة سفيرها اللورد بالان لتوطيد العلائق بين الباب العالي والمماليك وانتهى الخلاف بين الفريقين على ان يغادر المماليك مدينة القاهرة ويبتعدوا الى مصر العليا فيجددوا لهم املاكاً هناك يعيشون فيها بخيلهم ورجلهم مطمئنين لا يعارضهم معارض فقبل المماليك ذلك وكانوا قد ملوا الحروب وسفك الدماء وتاقوا الى السكينة واجابوا اللورد بالان انهم راضون عن ذلك وانهم لايتأخرون عن مقابلة معتمدي الدولة العلية للاتفاق معهم على تحديد الارض التي تفصل بين املاك الدولة وبينهم وعلى امضاء الشروط التي تكفل الامن والسلام بين الفريقين

ولما تقرر ذلك دعاهم الوفد المرسل من الاستانة الى الاجتماع في ابي قير فجاء المماليك ونصبوا خيامهم هناك وجعلوا ينتظرون مقابلة الوفد وانهاء الامر وقضوا وقتهم في اللهو وايلام الولائم يحسبون الازمة قد فرجت او كادت ومضى عليهم في تلك الحالة خمسة عشر يوماً والوفد يماطلهم ويؤجل حل المسألة · وكان مراد بك قد توفي فولى المماليك امرهم اميراً قادراً فيهم يدعى عثمان بك البرديسي فلما انقضت الخمسة عشر يوماً جاءت الى العسكر الست نفيسة ارملة مراد بك وتوجهت تواً الى خيمة عثمان بك فدخلتها وقالت له — لي كلام هام ايها الامير اودان لايسمعه سواك · فاشار عثمان بك الى الجلوس فخرجوا من الخيمة وهبَّ قائماً للقاء الست نفيسه وكان يعتبرها ويكرمها جداً لفضائلها مع كونها ارملة صديقه مراد بك واظهر تعجبه من قدومها اليه في ذلك الحين ولبث ينتظر سماع قولها فجلست وقالت —

قد اتيت اليك لاحذرك من امرانت لاهٍ عنه لما طبعت عليه من سلامة الطوية والامانة · فقد صدقت تملق رجال الوفد ومماطلتهم بوعودهم ولم يخامرك ريب في صداقتهم فهل تظن الوفد يقصد الاتفاق معكم حقيقةً ؟ وهل يخطر لك ان يمنحكم السلطان ماتطلبون من الحرية والحقوق وهو يعدكم الد اعدائه ؟ سمعت من زوجي في ساعة احتضاره يقول ان السلطان لايستريح له بال ما لم يبد المماليك من مصر وعليه فما الوفد المرسل لمقابلتكم والمواعيد التي تتلقونها سوى تمهيد لاتمام اغراضه وهو عامل على هلاككم جميعاً وانا اؤكد لك ذلك فقد تحققته من خبير عالم بالامر لااستطيع ذكر اسمه والعاقل من اتعظ وتلافى الخطر قبل وقوعه فانا اشير عليك ان تطلب مقابلة الوفد اليوم وانهاء الامر لتتحقق صدق كلامي فاذا سمحوا لك بالمقابلة والاَّ فارجع بالقوم قبل الغروب الى القاهرة ولا امان لكم الاَّ فيها · واعلم اني قدمت اليك لان زوجي مراد بك ظهر لي في حلم البارحة وامرني ان اجيء واحذرك وانصحك بوجوب الرجوع العاجل الى القاهرة وقال لي اذا تأخرتم عن ذلك تصبغ مياه البحر بدمائكم لان جهة ابو قير لم ترتوِ بعد من الدماء · فاستحلفك ايها الامير ان لاتثق كثيراً بهؤلاء القوم فهم ختالون مخادعون ولا تغتر بمواعيدهم بل تلاف الخطر قبل ان يتسع الخرق ولات حين مناص

فقال البرديسي — اشكرك ياسيدتي على ماذكرت · وفي كل حال يستحيل ان نرحل اليوم او ان ننهي الاتفاق لانني منذ يومين ارسلت الى الوفد وطلبت اليهم الاسراع ما امكن بالمقابلة المطلوبة فوعدوني ان يفعلوا في بضعة ايام ويجب ان ننتظر .

قالت — بئس مافعلت ياسيدي وانك بالحاحك هذا قد حذرتهم من نفسك لانك اريتهم ما تولد في صدرك من الشك فلا بد ان يسرعوا في انجاز عملهم المنكر

قبل ان يفضي بك الشك الى اليقين من خداعهم فتحذر . فاستحلفك بكل عزيز لديك و بروح صديقك مراد الذي كنت تحبـه ولا تزال تعظم ذكره ان تقوم الآن وترحل بقومك الى القاهرة

قال — حبذا لو امكن ذلك وحبذا لو كان باستطاعتي اجابة سؤالك ولكن لا بد من ذهابنا الى الاسكندرية غداً فان اللورد بالان دعانا الحضور وليمة شائقة سيعدها لقواد جيشه هناك وقد دعا معنا ايضاً النائب التركي المخيم بالقرب منا هنا ولكني اعدكِ ياسيدتي انه بعد رجوعنا من الاسكندرية نرجع الى القاهرة في نفس اليوم

فقالت الست نفيسه وقد ظهرت على وجهها علامات الخوف والقلق — انتم مدعوون الى وليمة سيحضرها معكم هذا النائب خسرو باشا . استحلفك بالله يا سيدي الا ترافق هؤلاء الرجال غداً واعلم ان لي عيوناً بين الذين تظنهم اصدقاء وقد اخبرني احد اولئك العيون ان في ميناء الاسكندرية اسطولاً تركياً ينتظر قدومكم ليفتك بكم

فاجفل عثمان لهذا الخبر ولكنه اظهر عدم المبالاة وقال — ان هذا مستحيل ياسيدتي ولا اعتقد قط انهم يمكرون بنا الى هذا الحد ويغتالوننا على هذه الصورة وهم ابناء ديننا فنبينا نبيهم وكتابنا كتابهم وفيه من الوصايا بالمسلمين والاخاء والتعاضد مافيه وفوق كل ذلك فان خسرو باشا قداقسم اليمين المغلظة انه لا يتأخر عن عقد الوفاق بيننا وان العائق الوحيد هو انهاء الشروط وتحديدها ليس الاَّ . وعلى كل فاني افضل ان يقتلوني بخيانة كهذه وان يذهب دمي هدراً ليصبغ ايدي الاثمة المخادعين من ان أسيء الظن باحد وعلى الخصوص بهؤلاء الرجال الذين اعتبرهم ابطالاً

فقالت الست نفيسه — وانا اؤكد لك ان في ذهابكم الموت المحتم واذا صممت على رفض نصحي وابيت الرجوع الى القاهرة الآن فاقبل على الاقل ان لا ترافق الوفد الى هذه الدعوة بل اغتنم فرصة ذهابهم للاستعداد لمقاومتهم حتى اذا رجعوا من الاسكندرية لا تسمح لهم بالنزول الى البر الا بعد ان ينزعوا سلاحهم

فقال البرديسي — اني اشكرك جداً يا سيدتي لاهتمامك بامرنا ونصحك لنا غير اني ارى انك من شدة غيرتك وفرط لطفك ومحبتك تشعرين بمخاوف ليست في نظري سوى اوهام وقد وعدت بالذهاب الى الاسكندرية ويستحيل ان اخلف بوعدي وسأسافر متكلاً على الله فهو المعتني بنا وما قدره لنا فلا مفرٌّ منه.

قالت — اذا كان لا بد من ذهابكم فاسأل الله ان يحرسكم ولكن اذا لا سمح الله تحقق ما اخاف حدوثه فلا بد ان زوجي اذا شاهد ما صرتم اليه يعلم اني بريئة من تبعة ذهابكم وقد قمت بما اوصاني به · قالت ذلك واستأذنت بالانصراف وخرجت الى معسكر خسرو باشا وكانت تمر بين معسكر الوفد وهي تقول بذاتها تباً لكم من خونةٍ مغتالين فانكم تنوون اهلاك المماليك ولكنني سوف انقذهم من مخاليكم

وقضى عثمان بك معظم ذلك اليوم في اللهو وامر باجراء المسابقة والمبارزة على ظهور الجياد واظهر من المهارة والفروسية والبسالة ما ادهش الاصحاب والاعداء لمقدرته في ركوب الخيل ورشاقته في استعمال السلاح وكان النائب خسرو باشا يعجب به ويقول ما دام هذا الرجل في قيد الحياة فلا سبيل الى الرجاء بتوطيد السلم بيننا وبين المماليك · وكان قد راى قوة تباع عثمان بك وقلة عدد رجال حملته وفكر في ارجاع الاسطول المؤلف من ثلاثة مراكب الى الاستانة وان يبقى في مصر تاركاً الامور على مجراها الا انه في نفس ذلك النهار قدم مركب اخر فانضم الى الاسطول وتعززت به القوة لانه كان يقل ثلاث

مئة من الجنود الاقوياء يقودهم عثمان بن حسان الشوربجي ومعــه محمد علي .

الفصل السادس

المذبحة

كان خسرو باشا تعين نائباً لمصر ورئيساً للوفد القادم للاتفاق مع المماليك فكانت سلطته ملكية لا عسكرية ولذلك صحبه من الاستانة قائد فوض اليه امر الجنود واجراء المواقع واعطي لقب قبطان باشا . ففي اليوم الذي وصلت فيه السفينة المقلة رجال قواله توجه القبطان باشا لمقابلة من فيها وفحص قوتها فقابله عثمان ومحمد علي بمزيد الاحترام وبعد ان تفقد الرجــال اثنى على همة عثمان لاشتغاله مدة السفر في تدريب الرجال على الحركات العسكرية فقال عثمان — اشكرك يا مولاي على مديحك ولكنني لا استطيع قبول شكر يستحقه غيري فان الفضل في ذلك للملازم محمد علي فانه هو الذي تولى تمرينهم اثناء السفر بالنيابة عني وعليه يكون واجب الثناء له فضلا عن المكافأة التي يستحقها

فقال الباشا — اما الثناء فاسديه حالاً اما المكافأة فاني ابقيها الى ان ارى تصرفه في المهمة التي امامه

فقال عثمان — اذا سمحت لي يا مولاي عرضت لديك رايي في مكافاته بما يستحق وما يعود عليكم بالنفع

ولم يكن القبطان باشا ليقبل مثل هذا الكلام او يتنازل لسماع راي عثمان لكنه اراد ملاطفة القادمين كي لا يرتدوا عنه في وقت احتياجه الى مساعدتهم فنظر الى عثمان وقال — حسناً فتكلم واعطني رايك.

فقال عثمان — ارى ان يكافأ محمد علي بجعله قائدًا على رجال قواله فيتولى امرهم مكاني لاني ساطلب السماح لي بالرجوع من حيث اتيت

فتعجب الباشا من ذلك وقال — ولماذا قدمت اذا كان مرادك ان تحتمل مشاق سفر البحر حتى اذا بلغت المكان المقصود تنازلت عن هذا الشرف لسواك

فقال عثمان — انني انما قبلت هذا المنصب يا سيدي عملاً باشارة خسرو باشا الذي شرفني بتعييني فيه ولكنني لا ارى نفسي اهلاً لهذا المنصب لشدة ما بي من الضعف وعدم مقدرتي على استعمال السلاح وخوض معامع القتال ولذلك استرحم ان يوذن لي بالعودة في نفس السفينة التي جئنا بها وان يعطى منصبي هذا الى صديقي محمد علي لانه لا يوجد سواه يستطيع ذلك

وتفرس الباشا في وجه محمد علي فاعجب بقوة بنيته واعتدال قامته وما يبدو عليه من لوائح الشهامة والشجاعة وقال — سانظر في امرهِ على ان ترقيته تتوقف على ما ساراه منه في حادث خطير اود ان يقوم به في الغد فاذا جاء على ما اطلب منه تمامًا اجبت طلبك في تعيينه مكانك ورخصت لك بالعودة كما تشاء وساجعل نظري عليه واراقبه عن كثب لا ستطلع كنهه . ثم نادى محمد علي وانفرد به الى جانب المركب وجعل يكلمه همسًا فكان محمد علي تارة يحمر وجهه وطورًا يصفر ثم تعلوه قشعريرة وتظهر عليه علامات الاضطراب مما يدل على اهمية الحديث الذي كان الباشا يلقيه على مسامعه ولاحظ الباشا فيه هذه التأثرات فقال له — ارى انك لا تزال تلميذًا في امور الحرب

فقال محمد علي — نعم يا مولاي ولكنني ساعتاد حالاً على اهوالها فلا يعود يهلع قلبي لدى مشاهدتي الدماء المسفوكة والاجسام المبعثرة

فقال الباشا وانا اؤكد لك انه لا يلزمك وقت طويل لذلك وانك تنال ما تريد فان هواء مصر مشبع برائحة القتلى ومياهها مصبوغة بالدماء واذا كنت فهمت ما امرتك به الان فانظر اذا كان بامكانك الحكم على الرجال واذا قمت بما عهدت اليك به صرت بكباشياً واقلدك قيادة الرجال الذين برفقتك وهي اول خطوة تخطوها في سبيل الارتقاء ومتى بلغت ذلك فاذكر اني قد فتحت لك هذا الباب وسيرتك في سبيل المجد لاني اتوسم في وجهك مستقبلاً عظيماً

فقال محمد علي ـ اشكرك يا مولاي وارجو ان يبرهن المستقبل على حسن ظنك بي فما انا الا من بعض اتباعك وما الجندي نظيري سوى آلة صماء لا ارادة لها تديرها يد وليامره فاذا تحركت فللقيام بما يريد

وبعد ان اكمل الباشا مهمته عاد الى معسكره في ابي قير اما محمد علي فحمل صديقه عثمان بين ذراعيه كما يحمل الطفل ونزل به الى غرفته فوضعه على سريره وركع بجانبه وقال له بصوت منخفض ـ ايها الاخ الحبيب ارجو ان تلازم غرفتك هذه كل نهار الغد فلا تخرج منها مهما سمعت من الصياح والضجيج على ظهر هذا المركب ولو بلغ اذنيك انين الموتى وحشرجة القتلى ولا تغادر مكانك قط آه يا عثمان ان العالم شرير وعيشه صعب لا يجب ان يختلط فيه من خلق ليعيش في عالم اسمى منه واني مسرور برجوعك الى قواله لانك انت من الجبلة التي لم تخلق لتنغمس في مثل هذه الشرور والاعمال البربرية ولا تقل اني نظيرك . واننا على وشك الافتراق اعترف لك ولا اخفي عنك انني لست كما تراني وتظن بي فانما انت تنظر الي بعين المحبة فلا ترى في الا مايصوره لك فكرك الطاهر وحسن نيتك بل انا قد اعدني الدهر لاكون اشد البشر قساوة واصعبهم مراساً ولا يبدو علي شيء من الانس واللطف الا اذا كنت بقربك ووصل تاثيرك الى نفسي .

وقد سمحت الظروف الآن لايقاظ تلك الشراسة الكامنة في واضطرتني واجباتي الى اشهارها وسيمر عن قريب من هنا قطيع من الذئاب البشرية للافتراس ونهش افئدة اخوانه في البشرية وسيضطر صديقك محمد علي الى مجاراته في عمله الفظيع ولا عجب فقد قدّر لي ان اسبح في بحار الدماء لابلغ ما انا طالب وما تدفعني اليه يد القدر فلم يعد ذلك باختياري فاستودعك الله ايها الحبيب واتمنى لك الخير والراحة والسلام الذي انت اهل له غير اني اكرر عليك وصيتي وارجو ان لا تنساها

ثم عاد محمد علي الى ظهر السفينة فجمع رجاله وايقظ هممهم وبعث الحمية في صدورهم ثم بلغهم اوامره فعكفوا على الاستعداد للغد يحشون بنادقهم ويجلون سيوفهم ويعدون المراكز التي يجب ان يستتروا بها وهم انما يطيعون اشارة محمد علي ولا يعلمون من سيقاتلون او في اي مكان فان حبهم لقائدهم الشاب كان قد تملك افئدتهم · فلما اصبح الصباح نهض محمد على واتى بنظره على اولئك الرجال وتبسم لهم ثم اقترب من جانب السفينة وقد طوى يديـــه على صدره وارسل بصره الى جهة ابي قير

ولم يكن في ابي قير حينئذ سوى السرور والافراح واللهو واصوات الغناء حتى ازفت الساعة المعينة لذهابهم الى الوليمة فنزل المماليك في قوار بهم وجعلوا يشقون عباب البحر طربين فينتظرون الوصول الى حيث يلاقون ما أعد لهم من اسباب الانبساط بين طعام وشراب وكان يسرهم بالاكثر انهم سيبلغون ما انتظروه كثيرًا من توطيد علائق السلم بينهم وبين مندوبي الدولة ويستريحون من عناء الحروب واهوالها · ولشدة مافعل بهم الامل لم ينتبهوا الى تخلف ضباط الوفد عن مرافقتهم الى الوليمة وعدوا ذلك امرًا عاديًا وهم يحسبون انه لا يوجد لاولئك من

الشؤون التي يريدون انجازها في الاسكندرية لا سيما وان قائدهم قبطان باشا ذاهب بصحبتهم وعليه مدار العمل فكفى · وكان الباشا المذكور قد ذهب في مركب خاص · فاصطحب امير المماليك عثمان بك البرديسي واحد اكابر اعوانه واسمه عثمان بك الطمبوجي · ولما سار مركبه جعل يحادثهما ويؤانسهما ولا يترك لهما من الوقت لحظة ليفتكرا بشيء آخر

ولم يخف شيء من كل تلك الحركات عن عين الست نفيسه فانها جلست تراقب ذلك من خيمتها وقد قلقت كثيراً وكاد قلبها ينفطر اشفاقاً على نخبة المماليك وهم ذاهبون لا يرافقهم احد غير القائد فقالت في نفسها سامحك الله يا برديسي · هلا قبلت نصحي ورجعت عمن يسوقونكم سوق الاغنام الى المجزرة وانتم لاهون فآه آه من حكم القضاء · ولما ابتعدت القوارب بمن فيها امر خسرو باشا رجاله بالمسير براً فهب رجال الوفد بسرعة وفي اقل من ساعتين برحوا تلك النقطة وخسرو باشا في مقدمتهم فلم تعد تشك الست نفيسة في اتمام الحيلة وتأكدت مخاوفها وتحققت ان قبطان باشا لم يرافق المماليك الا ليسهل انسحاب خسرو باشا واتباعه وانه هو نفسه لا يرافقهما الى الاسكندرية وسيعود عن قريب ولم تطق الاقامة هناك فطلبت جواداً ركبته وسارت نحو الاسكندرية بمنتهى السرعة وهي تضرع الى الله وتقول اللهم ساعدني لاخلص قومي واسمح لي ان اصل قبل فوات الوقت

وما زالت القوارب تمخر بالمماليك وقد ارتفعت جلبتهم واصوات الموسيقى والغناء والباشا يظهر ارتياحه الى ذلك الطرب والسرور و يزيد في مؤانسة المماليك ويطنب في امتداح خفة روحهم وما زالوا على هذه الحالة الى ان ابصروا سفينة قادمة لمقابلتهم من جهة الاسكندرية ولما اقتربت منهم خرج الى ظهرها

ضابط و بيده راية بيضاء يلوح بها وقد رفع بيده الأُخرى رسالة اشار بها الى الباشا فتأفف الباشا من ذلك وقال — آه من الاشغال والاوامر المستعجلة التي تأتينا فتحرمنا من الانس ولا تترك لنا فرصة للتمتع بالراحة فماذا يكون يا ترى فحوى هذه الرسالة فلا بد انها تكون هامة والاّ لما جاءت سفينة مخصوصة لايصالها اليّ في هذه الساعة التي كنت افضل فيها نسيان الاشغال والعالم كله لا تفرغ للانس والسرور فلا حولا ولا

فقال احد الرجال — اتامرني ان اذهب في قارب واحضر لك الرسول ورسالته فهز الباشا راسه وقال — لا انك لا تعلم قوانين دولتنا والمعاملات الرسمية التي يجب اتباعها في مثل هذه الحال فمن الواجب ان اذهب بنفسي لاقتبال الرسالة وتلاوتها على حدة · ولا يغيظكم ذلك فاني بهذا العمل اوفر عليكم قدوم الرسول الذي حضوره في ساعة سرورنا يكدر صفاءكم · ولما قال الباشا ذلك اشار الى الرسول ان ينتظره واستاذن من رفاقه المماليك واخبرهم انه سيعود اليهم حالاً الا اذا كان في الرسالة ما يضطره للرجوع الى المعسكر في ابي قير لاسباب لا يمكن تاخيرها · ثم نزل الى قارب خاص وتوجه به الى تلك السفينة · وظلت قوارب المماليك سائرة في وجهتها واصحابها لايبالون بشيء الى ان صاروا امام السفينة وكان قد بلغ الباشا ظهرها فنظر عثمان الطوبجي اليها ثم امسك بذراع البرديسي وقال له — أنظر يا عثمان بك كيف ان السفينة مشحونة بالجنود وجميعهم بالسلاح الكامل ؟ فنظر البرديسي وتحقق ماقاله له رفيقه ثم خطر له ما اوصته بهِ الست نفيسه فكاد يفقد صوابه ولكنه تجلد وصاح باتباعه ان يكونوا على اتم الحذر ولا يبيعوا ارواحهم رخيصة وكان مع ذلك يحث النوتية على السرعة في مواصلة السير علهم ينجحون فيصلون الاسكندرية قبل ان يدهمهم العدو الخائن · ولكنه لم

يكد يتم كلامه حتى سمع طلقاً ناريا ومرت رصاصة بالقرب من صدغه كادت ترديه فصاح — آه يا للخيانة واستل خنجره كأنه يريد ان يطعن به مياه البحر لانه لم ير غيرها بقربه ولكنه ساءَ فأله فان الطلق الاول لم يكن سوى علامة للهاجمين وتبعه طلقات متتابعة وكان الرصاص ينهال على المماليك انهيال المطر حتى اصبحوا لا يعلمون ماذا يفعلون وقبل ان يتحققوا خطر مركزهم كانت بقية سفن الاسطول قد احاقت بهم وتساقط الرصاص يشويهم شيا وسقط عثمان بك الطوبجي برصاصة اخترقت صدره فاسرع البرديسي للاخذ بثاره تجاه العساكر وقد بدأت تنزل اليهم من السفينة واذا بضربة قد فاجأته على ام راسه اعدمته الحس فسقط الى الارض لايعي على شيء . ولم تطل مدة هذه المذبحة لعدم توازن القوى بين الفريقين فانجلت عن انتصار السفن وهلاك المماليك ولم يبق منهم الا القتلى و بعض الجرحى . وامر البلك باشي محمد علي رجاله فتركوا القتلى في قواربهم او على وجه المياه ونقلوا الجرحى الى سفينته . وكان بين الجرحى عثمان بك البرديسي فرفعه اثنان من الجنود وهو لا يزال قابضاً على خنجره فلم يستطع احد نزعه منه حتى صار امام محمد علي وكأنه افاق من غيبوبته اذ ذاك فصاح قائلاً — خسئتم ايها الانذال الخائنون فما هذه حرب الكرام . وما هذا من يحاول اخضاع عثمان بك البرديسي فانا العنكم في وجوهكم ايها القتلة الاشقياء ولا استطيع ان انتقم لنفسي الآن لاني وقعت في ايدي انذال جبناء نظيركم فاسأله تعالى ان يقتص منكم

ولما سمع محمد علي صوت الرجل اجفل واقترب منه فتفرس في وجهه والجنود قد هجموا ليجهزوا عليه جزاء كلامه البذيء فزجرهم محمد علي قائلاً — على رسلكم ايها الجنود فاننا انما ننتصر لمولانا بما هو حق وعدل وليس من الحق والعدل ان نكون قتلة لنجهز على جريح لا يستطيع المدافعة عن نفسه . واعلموا ان حياة هذا الاسير مقدسة

عندي . فلما سمع البرديسي ذلك رفع نظره الى المتكلم وقد تعجب لوجود مثل ذلك القلب الشريف هناك ثم اشار الى محمد علي فاقترب منه فسأله قائلاً - ألا تتكرم علي يا هذا بذكر اسمك فاني رأيت من كلامك مادلني على انك غريب عن هذه الديار وانك لست من الطينة التي جبل منها هؤلاء الاقوام

فقال محمد علي - نعم اني غريب واني اعرفك فقد لقيتك مرة على شاطىء خليج مرمرا فهل تذكر انت انك صادفت هناك غلاماً كلمته عما انت ساعٍ لنيله من المستقبل المجيد واغلظت له في الكلام . هل تذكر ذلك وهل تذكر اسم ذلك الغلام

فقال البرديسي - نعم اذكر اني لقيت غلاماً يدعى محمد علي فهل انت هو

فقال محمد علي - نعم انا هو . وهذه اول مقابلة بيننا بعد ذلك الافتراق ويسوءني ان تكون مقابلتنا الآن كأعداء وليس كاصدقاء . فقال البرديسي - اننا اعداء بما توجبه علينا الاحوال ولكنني أؤكد لك انه اذا قدرت لي الله الحياة وبقيت سالماً فسأريك اني صديق مديون لك بحياته ويشكر صنيعك ما دام في قيد الحياة . وزاد تأثر البرديسي فلم يستطع اتمام الحديث واغمي عليه فامر محمد علي بنقله الى غرفته الخصوصية واوصى ان لا يمسه احد بسوء

الفصل السابع

التعويض

وكانت الست نفيسة تجد السير الى الاسكندرية برًّا وهي تراقب سير المماليك بحرًا فلم تغفل عينيها عن متابعة حركاتهم حتى سمعت اطلاق الرصاص ورأت جندلة القتلى فصاحت بالويل والثبور وقطعت طريقها بمنتهى قوة الجواد الذي امتطت صهوته حتى بلغت الاسكندرية فطلبت مقابلة الجنرال هتشنسن وكيل السفير بالان فلما سمح لها بذلك اعلمته بما جرى ثم قالت له - لا اريد اعتقد انك دعوت المماليك الى وليمة ورتبت لهم هذه التهلكة بل انا أكد ان اعداءهم اغتنموا هذه الفرصة للايقاع بهم فيجب عليك الآن وانت شهم شريف ان تدافع عن حقوق اناس خدعوا باسمك وان تسترجع على الاقل اسرى المماليك

ولما سمع الجنرال هتشنسون حـديث الست نفيسة ورأى دموعها اغتاظ جداً لانه لم يطق ان ترتكب مثل هـذه الخيانة باسم دولته فانفذ رسولاً ليستدعي القبطان باشا ليسألهُ عن سبب هذه الفعلة الشنعاء التي القى عليهِ تبعتها . غير ان الباشا لم يكن ينتظر مثل هذه الدعوة فانه كان قد تواري واخفى نفسهُ حيث لا يعلم احد . فلبث رسول الجنرال الى ان عادت السفن التركية ورأى صاحب الامر فيها البلك باشي محمد علي فبلغه الرسالة واخذهُ ليقابل الجنرال بالنيابة عن الباشا . فلما مثـل محمد علي امام الجنرال سأله هـذا عن سبب تلك المذبحة فقال — اذا وجد ملامة في الامر فأنا مسئوول عنها لان القبطان باشا امرني ان اسير فالاقي المماليك والقي القبض عليهم لاحملهم بسفينتي الى الاستانة وقد امرني ان لا استعمل السـلاح الا مضطراً فلما قربت من قوارب المماليك شهروا في وجوهنا سلاحهم فاضطررنا الى المدافعـة عن انفسنا وقدر الله لنا الظفر فاذا كان قد حدث نقص او تغيير في احكام الامر فاكون انا المذنب وليس ذلك عن سوء نية بل عن سوء فهم

فقال الجنرال — أتنسب هـذه الفظاعة الى سوء الفهم . أو لم تدر ان المماليك جاءوا لاستشارتي فرهنت لهم كلامي وامنتهم من جهتكم بناءً على وعدكم بالمحافظة عليهـم وها قد نقضتم عهودكم وارتكبتم خيانة عظمى لا اقبل قط وقوعها بعد ان وعدت بانها لاتحدث

فقال محمد علي — لم اعرف شيئاً من كل ذلك وقد بلغت الاسكندرية مساء امس وما القت سفينتنا وساقها حتى جاءتني الاوامر فاطعتها كما يجب على الجنـدي اذا تلقى اوامر رؤسائه . فاذا رأيت في تصرفي ما يوجب الكدر فانا اطلب منك العفو والمعذرة على انك لو علمت بالاوامر الصادرة من العاصمة للقبطان باشا لما عجبت مما جرى

فقال الجنرال — قرأت تلك الاوامر في هـذه الحادثة وعلمت ان الباب العالي يقصد التنكيل بالمماليك جميعهم غير ان هذا الامر لا يمكن ان يتم ما زلتُ موجوداً هنا ولا اسمح قط ان يُستعمل اسم دولتي لخداع المماليك ولا اطيق ان ينتحل اسم اللورد بالان او اسم الجنرال هتشنسون في دعوة لم تكن الا لمجزرة شنيعة وخيانة دنيئـة فاذهب و بلّغ ذلك الى مولاك وقل له ان شرف انكلترا اهين بهذه الحادثة الفظيعة وسنطالب بدماء من قتل من المماليك اما الاسرى الذين لا يزالون احياء فيجب ان يطلق سراحهم حالاً و يرسلهم اليَّ للاعتناء بهم لاني لا اسمح باسرهم قط مادمت هنا وما زلت افاوض الفريقين بشروط الصلح

فقال محمد علي — ولكن الامر انتهى يا حضرة الجـنرال ورضي المماليك بالخضوع والطاعة لجلالة السلطان وقد اقسموا جميعهم على ذلك امام شهود انا احدهم

فقال الجنرال — انهم لم يقسموا على ذلك الا اضطرارًا وقد خيرتموهم بين الموت والخضوع فليس ليمين المضطر قيمة . فلا بد من اجابة طلبي وتسليمي اسرى المماليك حالاً . وقل لمولاك انهُ اذا رفض هـذا الطلب او ابقى واحداً من الاسرى في قبضته اشهر الحرب ضده ولا يغرب عن بالهِ ان سفني لا تزال راسية في ميناء الاسكندرية تنتظر اشارتي . ولما قال ذلك اشار الى محمد علي بالانصراف فخرج وتوجه توًّا الى السفينة وقص على قبطان باشا ما جرى بينهُ وبين الجنرال فتبسم الباشا وقال — قد احسنت يا محمد علي ولقد اعجبتني سياستك فاننا لا نخسر شيئًا اذا اظهرنا الاسف على حدوث هذا الفعل بعد ان تمَّ وجاءت نتيجته طبق مرغوبنا . اما طلب الجنرال فلا يهمنا كثيرًا لان الموتى لا فائدة له منهم وهم القسم الاكبر اما الاسرى فلا مناص لنا من تسليمهم الى هـذا الانكليزي العاتي لاني لا احمل مسئولية اثارة الحرب مع دولة انكلترا ولا انكر انني صرت اود الرحيل العاجل عن بلادٍ لا ارى فيها سوى الدماء والجثث . وما ذا يضرني اذا سالمت هذا الجنرال الهائج واستغنمت الفرصة فاعود الى العاصمة الجميلة المحبوبة حيث يسود السلام والسرور . فانتقل يا محمد علي جميع الاسرى الى القوارب وارسلهم اليـه . وقد وعدتك بان اكافيك فها انا ارقيك الى رتبـة بكباشي فبشر صديقك البكباشي عثمان بذلك واعتمد على نفسك في نيل مافوق هذه الوظيفة من الرتب العالية وما اظنك الا نائلاً ما تشاء من العظمة لاني اقرأ في عينيك اماني قلبك . على اني انصحك ان تتعود كتم ما بك فلا تدع عينيك تشف عما في صـدرك اذا رمت ان تنجح والا افسدت عليك امرك . فاذهب الآن وتمم مهمتك بتسليم الاسرى ومتى انهيت ذلك عد الى السفينة وسر بالجنود الى القاهرة لتشهدوا دخول النائب الجديد اليها فانه توجه من ابي قير بالامس. وساعطيك كتاب توصية اليه ولا اشك انه يحسن استقبالك لان خسرو باشا يحتاج الى رجال ذوي عزم ومضاء نظيرك

فاجفل محمد علي عند سماعه اسم خسرو باشا ولكنه سكن جأشه وقال — اشكرك يا مولاي على ما اوليتني من النعمة والترقية والاطراء وقد زاد سروري بهذا الخبر الاخير فقد طالما تمنيت ان اكون في رجال خسرو باشا لانني سمعت عنه كثيرًا وانا في بلادي واود ان اخدمه بما يوحيه اليَّ قلبي

واشتم الباشا في كلمات محمـد علي الاخيرة معنىً غير المفهوم واعجب بالقاء محمد علي وكلامه مع حـداثة سنه في الخدمة فألقى عليه بعض النصائح والوصايا وكرر عليه وجوب الاخلاص في خدمة النائب الجديد ثم صرفه فذهب محمد علي لتسليم الاسرى . وكان محمد

علي يسير بجانب البرديسي ويشجعه ويطلب له الشفاء العاجل ولم يكن هذا يصدق بانه سينجو من الموت فأكد له محمد علي ذلك وقال له — قد تقابلنا مرةً فافترقنا اعداء وتقابلنا الآن في حزبين متناقضين ومن يعلم اذا كنا لا نلتقي ثالثة فامداليك يدي مصافحاً كصديق

فقال البرديسي — اما انا فاشعر اني صديقك منذ الآن ولن انسى صنيعك ما حييت واذا بقيت حياً واحتجت يوماً الى صديقٍ مخلصٍ فلا تنسَ ان صدري يكون درعك وذراعي حسامك . ثم ودعهُ وسارت القوارب بمن فيها حتى بلغت الشاطيء وكان الجنرال هتشنسن بالانتظار فاستقبلهم وقد ظهر تأثره الشديد لمصابهم ولما صار البرديسي امامه قصَّ عليه ما جرى لهم واخبره بالخيانة والغدر في الايقاع بهم واقسم انه وقد حله ذلك من قيود الاتفاق سوف لا ينفك عن مقاومة الجنود العثمانية وانهُ سينتقم لاتباعهِ من النائب الجديد الذي ارسلهم الى الدمار وذهب ليستولي على مدينتهم القاهرة . وكان يشير في كلامهِ الى الجنرال ويطلب مساعدته في الامر فقال الجنرال ان الوفد قد استهان بنا ايضاً واستعمل اسمنا لاتمام خيانتهِ فنحن ايضاً في حلٍ من المساعدة التي وعدناه بها واني لا اعارض في ما انت مزمع ان تجريه بل اتمنى لكم النجاح والفوز والانتصار غير اني لا استطيع مساعدتكم بشيء من هذا القبيل وربما استدعتني واجباتي الى مغادرة مصر حالاً . ولما تم نقل الاسرى الى منزل الجنرال امر الاطباء والممرضين ان يعتنوا بهم وكانت الست نفيسة تخدمهم بهمة لا تعرف الكلل

اما محمد علي فبعد ان ابتعدت القوارب امر بتنظيف السفينة من الدماء التي لصقت بها مخافة ان يرى ذلك صديقه عثمان فيؤثر هذا المنظر على صحتهِ ثم نزل اليه فوجده لا يزال كما اوصاه بالامس جالساً في سريره ولما رأى عثمان صديقه اخذه بين ذراعيه وقبله فرحاً بسلامتهِ وقد علم انهُ انما ناب عنه في اتمام عمل تراق فيه الدماء كالمياه . فشرح له محمد علي خبر ما حصل واظهر له شدة استيائهِ من فظاعة الخيانة التي اضطر الى الاشتراك فيها ملتمساً لنفسه عذراً بانه انما اطاع اوامر رئيسه كجندي واعترف له ان هذا العمل قد زاد في قساوة قلبهِ ونفى الحنو من صدرهِ فلم يعد كما كان . وكان عثمان يسمع كلام صديقه بسرور فشجعه على الثبات في مسعاه رغم ما يعترض سبيله من العقبات ثم قال له — ارأيت الآن لماذا قبلت ان اصدع بامر خسرو باشا واقود هذه الحملة مع شعوري بضعفي وعدم مقدرتي وكيف الححت عليك بمرافقتي . انني انما فعلت ذلك لابلغك الطريق الذي قدّر لك ان تسير فيه فهل يكفيك هذا البرهان لتتأكد صدق محبتي وثبوت صداقتي . فشكره محمد علي

لانه بعث فيه روحاً جديدة كادت تموت في صدره وقال له انه سيذكر في كل حياته ومهما بلغ من الارتقاء والعظمة والرفعة ان الفضل في ذلك راجع الى عثمان وانه عند كل نفس يدعو له بالخير ثم جدد قسمه له بالثبات على مودته وانه اذا احتاج الى الرفق واللين في اموره فسيضع نصب عينيه مثال صديقه عثمان فتدمث اخلاقه وتخفض قسوته

فقال عثمان ضاحكاً — هل تتمكن من امتلاك طبعك اذا صرت في حضرة خسرو باشا

قال — بالله عليك لا تذكرني به الآن . ولكن هل تعلم اني ساذهب لانخرط في خدمته ويظهر لي ان قبطان باشا قد لحظ مني الكره لذلك الرجل واظنه يبغضه ايضاً فارسلني اليه وسيعطيني كتاب توصية له فاذا صرت امامه ساحترمه واخدمه كما قلت للباشا حسب وحي قلبي

فقال عثمان — وماذا يوحي اليك قلبك ؟ وهل تبقى لخسرو باشا سلطة وعظمة في مصر بعد دخولك في خدمته ؟

فتبسم محمد علي وقال — اكاد اخاف منك ايها الحبيب عثمان لانك تقرأ بسؤالك هذا اعماق قلبي ولكن سادع المستقبل يجيبك على هذا السوال . انك ستعود الى قواله بلاد الطمأنينة والسكون وسا كتب اليك كلما سمحت لي الاحوال ولكن لي عندك طلبة واحدة وهي ان تبلغ تحيتي للامرأة التي ازوجتني بها وان تقبل اولادي وتجعلهم يذكرون والدهم ويسيرون على مثال سيره . واذا تمكنت من النزول الى الشاطىء ورأيت تلك البقعة المقدسة التى اريتك اياها حيث دفنت حبيبتي جوهرة فخذ حصاةً والقها في تلك النقطة فاذا بلغت المياه واحدثت تلك التموجات المستديرة فانتظر الى ان تصل اليك الدائرة الاخيرة وقل يا جوهرة ان محمد علي يقرئك السلام ويقول لكِ انه لم ينسَ ولن ينسي وها هو قد بدأ بعمله المقدس فنامي براحة لانه سيتمم الانتقام

الفصل التاسع

نائب مصر

مضى على القاهرة سنتان بعد خروج الفرنسو بين منها ونسي المصريون ما قاسوه منهم . وما تحملوه من الاهانة والظلم وهم يخرون سجداً امام ذلك القائد الصغير

الجسم الكبير الفعل واصبحوا في اتم السرور والرفاهية يطربون ويرقصون وينادون بملء اصواتهم اهلاً وسهلاً ومرحباً بالنائب الذي ارسله لنا الخليفة ليتولى امرنا وينقذنا من سطوة المماليك — ليحيي خسرو باشامولانا الجديد. وكانت الجماهير تردد هذا الصراخ ويزيد عددها في تقدمها وهي سائرة الى بولاق حيث عين خسرو تلك النقطة لدخوله المدينة . وكان شاطىء النيل هناك قد تغطى بوفود ارباب الحكومة والعلماء والمشائخ وقواد الجنود العثمانية وبعض ضباط الانكليز الذين تخلفوا في القاهرة لمشاهدة ذلك الاحتفال . وكان خسرو باشا قادماً بحرًا وزوارقه تغطي وجه النيل اما هوفركب سفينة كبيرة ووقف على ظهرها يحيط به عدد من الوجها والقوادوقناصل الدول بالبستهم الرسمية فكانت الشمس تعكس نورها على الاوسمة والجواهر المعلقة على صدورهم فيبان لها تالق عجيب وتزيد المنظر لمعاناً وبهاء . والمصريون صفوا قواربهم عند بولاق صفاً واحد كجسر يوصل بين الضفتين وغطوها بأثمن السجاد والزهور ولبثوا ينتظرون قدوم النائب بفروغ صبرفلما بلغت سفينته ذلك الحاجز وقفت ونزل الباشا فما وطئت قدماه الارض حتى ارتفع صراخ طبق الفضاء لشدته وارتفع من افواه الالوف المحتشدة هناك صوت الترحاب والتحية والفرح. فحنى خسرو باشا رأسه لهم علامة التحية والشكر ثم رفع نظره الى الافق فرأى الاهرام عن بعد تناطح برؤوسها السحاب فعاد وحنى رأسه مرة اخرى وقد تذكر انه اصبح خليفة اولئك الفراعنة الذين بنواتلك الاهرام لذكرى عزهم ومجدهم وقال في نفسه — انني سابني لي مثل هذه الذكرى وابقي لي اثرًا تذكره الناس بعد الوف من السنين فتتحدث باسم نائب او ملك مصر وكانت تتردد هذه التصورات في فكره وهو سائر على الجسر الخشبي حتى بلغ المركبة الملكية التي اعدت لركوبه فصعداليها واصوات الجماهير تحييه من كل ناحية فقابل بين مدة نفيه في قواله اذ لم يكن له ما يلهو به غيرحريمه ومشاحنته مع ذلك الولد المسمى محمد علي وبين الساعة الحاضرة وهو يرى بلادًا واسعة ومملكة صغيرة تتشرف ارضهابوطء قدميهِ. وسارالموكب بين اصوات الهتاف الى القلعة فتوجه خسرو باشا الى القصر المعد لاستقباله وكان العظماء واربـاب الشان ينتظرونه على

الباب فحياهم بلطف وشكر خضوعهم ودخل الى القاعة المخصصة له وانطرح على الوسائد الحريرية وغرق في تأملاته وهو يقابل بين ماضيه وحاضره وماذا عساه أن يأتي به المستقبل . وأذ ذاك انتشر على وجهه تبسم مريع فقال لنفسه قد وضعت لذاتي خطة وصممت على أدراك غايتي فاعترضتني العقبات ولكنني قد نلت ما اتمنى ومن يعلم اذا كنت لا احصل علي اكثر من هذا واستقل في تملك هذه البلاد . لا . ليس الامر صعباً وهو يتوقف على ايجاد اصدقاء امنـاء ومساعدين مخلصين وما ذلك ببعيد المنال ولي الان هذا الجيش تحت امري لان القبطان باشا صنيعتي وقد أخذته حقيراً منسياً فجعلته قائد الجنود فهو لا ينسى فضلي ويتوق الى اظهار شكره لي . ثم نهض فجاة من مجلسه ونادى أحد العبيد الذين ببابه فامره أن يأخذه الى حيث يشاهد سور القلعة ففتح العبد باباً سرياً ينتهي بممر ضيق الى السور الخارجي فاشار خسرو باشا الى العبد ان ينتظر هناك وتقدم في الممر حتى بلغ السور وظهرت أمامه مدينة القاهرة وجوامعها ومآذنها ورأى بقربها قرية صغيرة من القباب عرف أنها قبور الخلفاء كانهم يحيونه تحية المالك الجديد و يذكرونه بقولهم « يا ابن آدم اذا قويت وعظمت فاذكر انك مائت واشكر الله لانك لا تزال حياً » فقـال اللهم لك الحمد والشكر ثم ادار وجهه فرأى النيل على الجانب الآخر ينساب متعرجاً ملتفاً كانه منطقة فضية زينتها الذهبيات والزوارق وهو يفصل بين هذا القسم الحي من المدينة و بين الصحراء الساكنة التى شهدت اعمال الاقدمين واصبحت مدفن الموتى المجهولين ورأى عند الافق اهرام الجيزة التي كان قد شاهدها عند وصوله وراءهـا اهرام دهشور فتبسم ثانية وقال اللهم قد انلتني بغيتي ورزقتني مناي فها أنا ملك في هذه المملكة لا يعارضني فيها أحد فأسالك أن تتم علي نعمك وترزقني حيـاة طويلة لاتمتع بما وهبتني . ولما انهى كلامه عاد من حيث اتى حتى بلغ غرفته وجلس على وسادة عالية يسمع أصوات الهتاف وضجيج الجماهير وتهانيهم

وأنه لكذلك وأذا بالستار الذي على باب غرفته قد رفع ودخل عبد يقول أن بالباب رسولاً و بكباشي أرسلهما قبطان باشا لمقابلة النائب أما الرسول فيدعى حسن

آغا وهو من اكثر المقربين الى قبطان باشا

فقال خسرو باشا دعه يدخل . ولما دخل الرسول أنحنى الى الارض ثم تقدم وناوله الرسالة

فقال الباشا وهو يفض الرسالة — اتعلم يا هذا محتويات هذا الكتاب ؟

قال — نعم يا مولاي أنها رسالة وداع ارسلها قبطان باشا لانه سيسافر غداً الى الاستانة

فتبسم خسرو باشا ثم ما عتم أن أقتمت هيئته وظهرت عليه علائم الحزن فقال — أذاً قد صمم على السفر وتركني وحدي

فقال الرسول قد اراد يا مولاي أن يترك لكم وحدكم الفخر في أخضاع مصر لمولانا وقد انتهى عمله وخلصك من أقوى المماليك الذين تهاب صولتهم فهل تسمح لي أن أقص عليك كيف جرى ذلك ؟ ولما أشار خسرو بالايجاب جعل حسن آغا يقص حادثة مفاجأة المماليك حتى أتى على آخرها فقال خسرو باشا — لقد بنى قبطان باشا لنفسه تذكاراً دموياً ولكن هل يوافقنا قتل المماليك أكثر من مصادقتهم والانتفاع بهم

فقال حسن آغا ان مولاي لم يفعل ما فعل ألاّ بعد أن تحقق عدم امكان مصادقتهم فلا يكن عندك شك في حسن نية مولاي الذي قد أتم عمله باعظم برهان على عبوديته ورغبته في تأييد شوكتك

فقال خسرو باشا وما عساه أن يكون هذا البرهان ؟

قال — أنه بعث اليك ببطل له عزم لا يرد وقدرة لا تقف أمامها العقبات وقد أمتحنه في حادثة ابي قير فقال لي مولاي أنه لا يستطيع أن يهديك ما يؤكد صداقته لك وحبه أياك اكثر من ارساله هذا الفتى البطل المخلص . وقد أحضرت هذه الهدية الثمينة برفقتي هل تسمح لي أن أقدمها ؟

فاشار خسرو باشا بالايجاب فخرج حسن آغا ثم عاد ووراءه البكباشي المذكور فرفع خسرو باشا نظره اليه بدون أكتراث ولكنه ما وقعت عينيه عليه ورأى ذلك النظر الحاد الموجه اليه حتى ذهل وقال له — ما أسمك يا بكباشي ومن أين انت ؟

فتقدم خطوة الى الامام وتفرس في وجه الباشا ثم انحنى امامه وقال — أسمي محمد علي وبلادي قواله. وأثر منظر محمد علي وكلامه على خسرو باشا فاجفل و بان عليه الاضطراب . ولم يندم خسرو على قتله جوهرة ولكنه كثيرًا ما لام نفسه على ظلمه محمد علي بان أجبره على مشاهدة ذلك المنظر المريع . وشعر في تلك الدقيقة أن عيني محمد علي تخترقان صدره فصمت برهة استرجع فيها روعه وقال — تقول أن بلادك قواله وأسمك محمد علي ؟ نعم أتذكر الآن انني مدة اقامتي في قواله عرفت فتى يسمى محمد علي كان صديق عثمان ابن الشوربجي الذي أضافني وأذكر أني عينت عثمان المذكور بكباشياً على الجنود التي يقودها اليّ وسمحت له أن يعين صديقه برتبة بلك باشي ولكن عثمان لم يأتِ ويتراءى لي انك لست محمد علي الذي عرفته حينئذٍ

فتبسم محمد علي وقال — العفو يا مولاي فاني انا هو ومع ذلك فلست اياه فقد كان ذاك وغدًا عاتياً تجاسر على مضادّتك ورفع راسه امامك اما هذا الواقف بين يديك فهو خادمك المخلص وقد جاء يحمل اليك سلام عثمان وشكره على النعمة التي اوليته اياها فانه للحال صدع بامر دولتكم ولكن صحة الانسان ليست طوع اختياره فعثمان لا يزال ضعيفًا واول موقعة حصلت في ابي قير اثرت بهِ جدًا حتى اضطر الى الرجوع لقواله . وقد تفضل قبطان باشا وعينني مكانه فها انذا اضع نفسي بين يدي مولاي لانني اذا نلت رتبةً فانما ابغي نيلها من فضله

وكان خسرو باشا يسمع كلمات محمد علي وقد ثبت نظره فيه و بان السرور على وجهه فقال — لقد صدقت يا محمد علي انى لا ارى فيك شراسة ذلك الفتى وكلامك في غاية الانقان فان خسرو باشا يعلم كيف ينشط الرجال اذا اقلعوا عن اعمالهم الصبيانية ولذلك سالحقك بشخصي فتلازمني دائمًا وقد قلت انك تفضل نيل الترقية من يدي وبما انى اعلم كفاءتك واخلاصك فلا اكتفي بجعلك

بكباشياً بل انت من هذه الدقيقة قائد جميع الجيوش الالبانية لانك من بلادهم وتعلم كيف تتسلط عليهم

فابرقت اسرة محمد علي وانحنى امام الباشا وهو يقول — لقد غمرتني بفضلك يا مولاي فارجو ان ابرهن لك عن شكري بغير الكلام · وكان خسرو باشا يلاحظ محمد علي بدقة وقد صمم على استجلاب رضاه لما راه فيه من الهمة والنشاط وقال ان يكن قبطان باشا قد غادرني وحدي فهذا الشاب امضى عزيمة واقوى نفوذاً فسابتاعه بالرتب والترقي واذا ضمنت خدمته امنت كل شيء· وان تكن مذبحة ابي قير قد اوجدت لي اعداء كثيرين فساعرف كيف اكتسب اصدقاء مخلصين ·

وكان محمد علي لا يفتر عن تقديم شكره واخلاصه بعبارات متناهية في الرقة حتى تأثر الباشا فاشار الى حسن آغا بالانصراف وامره ان يبلغ تحيته الى قبطان باشا متمنياً له سفراً سعيداً · وامر محمد علي ان يبقى وجعل خسرو باشا يسير في الغرفة ذهاباً واياباً وهو يجر قفطانه المطرز والهلال الذهبي المرصع يلمع فوق عمته· ونظر محمد علي اليه نظرة واحدة ارتسمت في مخيلته ثم عاد فاطرق الى الارض مخافة ان يقرأ الباشا في وجهه مايجول في صدره واوقف نفسه برهة ريثما اقسم لذاته قسماً لم يسمعه احد ولم يعلم به غير الله فقال لنفسه — قد اقسمت على الانتقام فلاحققنَّ قسمي وانتقم لجوهرة · انني اخفض رأسي امامك الآن خاضعاً مطيعاً ولكنني سأناقشك الحساب القديم الذي بيننا ليس بقتلك بل بتعذيبك فلو اردت الفتك بك الآن لما منعني احد ولا رقيب علينا والباب مفتوح يساعدني على الهرب ولكن لا · ان الموت لا يقابل العذاب والقهر فعش ياخسرو باشا عش حياة طويلة كلها عذاب وألم عش لترى كيف ينتقم محمد علي · وكان محمد علي يردد هذه الكلمات في اعماق صدره وهو لا يحرك شفتيه ولا يظهر اقل اشارة تدل على

مافي باطنه وبعد ان تمشى الباشا مرارًا وقف امام محمد علي فجأة وقال له — يامحمد علي انظر اليّ · فرفع محمد علي نظره الى وجهه ولبث الاثنان برهة شاخصين

وادرك محمد علي جميع افكار خسرو باشا اما هذا فلم يدرك شيئًا من نوايا محمد علي واخيرًا تكلم خسرو باشا وقال — قد قلت لي ان محمد علي القديم مات فهل هذا صحيح ؟

قال — نعم يا مولاي مات وان شئت فقل قد مات فيه نزق الصبوة وصدقني انه قد قاسى كثيرًا قبل ان اتم هذا التغيير

فقال الباشا — اني اصدق كلامك وطالما تأسفت على اني كنت السبب في شقائك ولكنك تعلم انه لم يمكني ان اتصرف بخلاف ماتقضيه الشريعة

قال — علمت ذلك يا مولاي فان الشريعة تقضي بموت العبد الآبق ومن ساعده على الهرب ايضًا فقد قتلت الامة التي أبقت وكان ذلك عدلاً ولكنك من فرط اشفاقك سمحت لي ان ارى قتلها فقط وعفوت عني

فنظر خسرو باشا الى وجه محمد علي مرة اخرى بدقة ولم يرعليه سوى الاخلاص والخضوع مع ما ظهر في كلامه من السهام فقال — اظن يا محمد علي ان القتل في مثل تلك الحالة ارحم للانسان من مشاهدته قتل حبيبه · نعم انني كثيرًا ما ندمت على تصرفي القاسي معك ولمت نفسي على مافعلت فهل يكفيك هذا الاعتراف وهل تتخذه تعويضاً مني على ما اسات به اليك؟هل تعذرني انك تبلغ كلامي هذا الى محمد علي السابق وهل تظن هذا يكفيه

فقال محمد علي — انك تميتني خجلاً من نفسي يا مولاي بهذه الرقة وهذا التنازل ولم يكفك ذلك حتى اعترفت بالاسف على حادث اوجبه العدل

فحنى خسرو باشا راسه قليلاً وقال — نعم ولكن لي عذر في ما فعلت فاني

كنت مغتاظاً وانت ساعدت في اثارة غضبي

فقال محمد علي ـ لا يامولاي ليس انا الواقف امامك الآن بل الذي اثار غضبك هو ذاك الغلام الجاهل الذي لم يبقَ له اثر . ذاك قد ابتلعه البحر الذي ابتلع جثة جوهرة ولو فرضنا انه لا يزال حياً وسمع كلماتك هذه فانه كان يعجب بالرجل العظيم القوي الذي يتنازل للاعتراف باسفه عن عمل عمله . ومع كل فاذا قابلت محمد علي المذكور فساقص عليه هذه الشهامة التي لا تنسى

فقال خسرو باشا وهو يتهلل فرحاً ـ اني مسرور للغاية الآن ويجب ان يسر الجميع معي وان اهبك ما يذكرك بهذه المقابلة وانك الآن قائد ويجب ان تمتلك ما يليق بمقامك فهل لك جواد ؟

قال ـ كلا يا مولاي فانا فقير كما تعلم ولا املك الاّ ما اقبضه شهرياً من راتبي

فقال الباشا ـ ان جلالة السلطان اهدى اليّ اربعة من جياد الخيل فانا اهديك واحداً منها فاذهب الى الاسطبل وانتخب الجواد الذي تريده . لا . لا . لا اقبل منك الشكر الآن بل يسرني اكثر منه صدق خدمتك . هل لك منزل لاقامتك ؟

قال ـ كلا يا مولاي فانني قدمت الساعة الى القاهرة مع حسن آغا ولم اجد لي وقتاً ابحث فيه عن مسكن

فقال الباشا ـ لاتهتم بذلك لاني ساجد لك محلاً بنفسي فابقَ اليوم في قصري الى ان اعين لك محلاً يليق بك فاذهب الآن وانتخب جوادك لارى اذا كنت تعرف انتقاء الجياد . ولما قال ذلك نادى خصياً كان بالباب وامره ان ياخذه الى فناء القصر ويعرض الجياد عليه . فانحنى محمد علي باحترام عظيم ومشى

الى الوراء تأدباً حتى خرج فلما اقفل الباب تبسم خسرو باشا طرباً وقال لذاته — قد اشتريت هذا الرجل و رأيت انه قد تغير حقيقة فكم انا سعيد بحصولي عليه

وسار الخصي بمحمد علي الى الاسطبل وبلغ اوامر الباشا لمن فيه فعرضت الجياد الاربعة امام محمد علي فانتقى احسنها واقواها ليبرهن للباشا انه ماهر في الاختيار ثم عاد الى الغرفة التي خصصت لنزوله فلما صار وحده فيها انبسطت اسارير وافترقت شفتاه فبانت اسنانه اللؤلوية فتبسم وقال لذاته — قد بدأ عملي فاستدعى النائب عدوه اللدود الى جانبه وهو يحسب تملقاته وهباته تنسيني المرارة والشقاء . لا . لا فسيرى ان محمد علي لا يصفح قط . يا خسرو قد دنت الساعة فلم لأستيقظ اني لا اقتلك ولكنني ساذلل كبرياءك واخفضك الى التراب امامي حتى تتمنى الموت للخلاص من العذاب المر فلا تجد اليه سبيلاً وتكفر بذلك عما اسات به الى جوهرة والي

الفصل التاسع

الست نفيسه

كانت الست نفيسه زوجة مراد بك امير المماليك و رئيسهم الاعظم في غاية من الجمال لم تطا الارض انثى اعدل منها قواماً واصفى لوناً وابدع تكويناً واحسن صورة فضلاً عن حسن الخلق وطيب الخلق وطهارة القلب ورقة الجانب ومحبة الاحسان فاشتهرت في البلاد المصرية وتحدث بها الركبان وجعلها الشعراء موضوع قصائدهم . ولم يكن الاعجاب بها من قومها فقط بل ان الافرنج ايضاً سحروا

بجمالها حتى الجنرال كليبر لما رآها طار لبه وشغف بها وكثيراً ما كان يقضي لياليه ساهراً بالقرب من حديقة قصر مراد بك يرقب فرصة تسعفه بمشاهدتها والدخول اليها يتمتع بنظرة من زهرة القاهرة . وقيل ان الطعنة التي قبضت روح الجنرال كليبر بالقرب من الحديقة المذكورة لم تكن الا من يد قاتل ارسله مراد بك لهذه الغاية غيرةً منه على زوجته . ولم تكن السنوات بكرورها الا لتزيد تلك الامرأة جمالاً ولطفاً حتى تعشقها الجميع ولم يبق في القاهرة من لم يسمع بها ويتمنى ان يراها

جلست الست نفيسه ذات يوم في حديقتها وامرت جواريها فتفرقن بين الورود والرياحين يغنين ويضربن على الاوتار والصنوج وانفردت هي في كشك واتكأت على وسادة من الحرير مطرزة بالفضة وارتدت ثوباً ابيض ارق من النسيم يشف عن ذلك الجسم البديع وقد نزعت البرقع عن وجهها . وكانت جدران الكشك من الخشب المخروط المسيج بالازهار والنبات تنبعث من بين اغصانها الفضية اشعة الشمس فتوصل الى الداخل نوراً ساطعاً يزيد المنظر هيبة وجمالاً وامام الكشك حوض من المرمر تتدفق فيه المياه من فم تمثال فيسمع لها صوت كأنه صوت المرضع وهي تغني طفلها . وشخصت الست نفيسه ببصرها الى الفضاء وهي تسمع غناء الجواري وقد بانت على وجهها علامات التأثر والحزن ثم انتبهت للنغم الذي تسمعه وعرفت النشيد وسبب نظمه فتساقطت من عينيها النرجسيتين دموع كانت تلتقطها حالاً بمنديلها الحريري لئلا يراها احد مع علمها بانه لا يوجد رقيب ولا تستطيع الجواري على الدنو منها الا باذنها . غير انه كان بين بعض الاغصان الكثيفة عينان حادتا النظر لا يبان سواهما قد حدقتا فيها تتأملان في شخصها وتنبعث منهما اشعة الحب والهيام . وكان مشهوراً عن الست نفيسه انها لا قلب لها وان سلطان الحب غادرها بعد وفاة زوجها فكانت الولائم التي تولمها

والمجالس التي تحضرها لا تريد الناس الاَّ حباً بها واعجاباً بلطفها وعفافها وهم يقولون لم يخلق الله اكمل من زهرة القاهرة ولا اطهر من قلبها واعف من نفسها وكانت تسمع هي ذلك فتقول لقد صدقوا فاني احببت زوجي فقط وبعده لا احب احداً ·

وبقيت العينان المذكورتان تراقبانها حتى تحركت على وسادتها كأنها تريد النهوض فاختفت العينان حالا بين النبات وظهر بعد قليل في الجانب الآخر فتيً في مقتبل الشباب طويل القامة جميل الصورة يسير بهدوء كأنه يستجمع قوته ليبتعد عن تلك النقطة المقدسة وبلغ باب الدار وهو يقول لنفسه — آه ما اجمل هذه الملك وما اسعدني واشقاني نعم انا سعيد لانني استطيع ان امتع نظري بهذه الحورية ولكني شقيٌّ لانها لو علمت بي لطردتني · وا اسفاه انها لا تعلم بشدة محبتي لها بل هي لا تعلم ما هو الحب فضلاً عن ان الحبيب بعض خدمها احبني زوجها فجعلني وكيل دائرته فهي لا تشعر بوجودي الا شعور الانسان بكلب رباه والف منزله · الى متى الاحتمال وكيف اطيق البقاء على هذه الحال · وبلغ الفتى المذكور باب الحديقة فرأى عثمان بك البرديسي قادماً على جواد سرجه مطرز ولجامه مذهب فانقبضت هيئة الفتى وقال — آه من هؤلاء الملاعين انهم لا ينفكون عن زيارتها · وكان البرديسي قد بلغ الباب ووراءه خدمه المماليك امسكوا بركابه فوثب الى الارض ونظر الى الوكيل وقال له — هل الست نفيسه هنا يا يوسف

قال — نعم انها في الحديقة فهل تريد ان ارسل من يعلمها بمجيئك ؟

قال — نعم افعل ·· ولكن قل لي الا تريد ان تترك هذه المعيشة المادية المملة وتجيء اليَّ فتصير من اتباعي اذا شئت ذلك فاني اكلم الست نفيسه بشأنك

قال — اشكرك يا سيدي ولكنني لا اريد ان اغير معيشتي هذه فقد كنت من مماليك سيدي مراد بك كما تعلم فاعتقني على ان ابقى عنده ما حييت فجعلني

وكيلاً على دائرتهِ وقد اقسمتُ على الامانة وصدق الخدمة له ولنسلهِ من بعده

فقال البرديسي – ولكنك لا تزال فتىً فلا بد ان تطمع نفسك في امتشاق الحسام وخوض المعامع التي سنجددها قريباً واكتساب الفخر . فان وظيفتك الآن لا تسمح لك بذلك ولا اشك ان الست نفيسة تريد لك التقدم والنجاح . فاعلم يا يوسف اني كنت وكيلاً نظيرك فصرت الآن كما تراني وحولي ثلاثة الاف من الاتباع رهن اشارتي فلا يبعد ان تنال بجدك ما نلته انا

فقال يوسف – أما انا فقانع بما قسمه لي الله وأرجو أن لا تذكر شيئاً من كل ذلك للست نفيسه فربما تكدرت

فقال البرديسي – حسناً اذا كان هذا غرضك من الحياة . فاذهب وانظر اذا كانت مولاتك تسمح بمقابلتي . فذهب يوسف الى أحدى الجواري وأمرها ان تعلم مولاتها بالقادم فدخلت عليها وكانت لا تزال متكئة وهي غائصة في تأملاتها فلما سمعت بان البرديسي قادم قالت – أهلاً به دعيه يدخل وقولي للجواري أن يقتربن من الكشك ويمددن غناءهن فان الزائر يحب الغناء وأن يجدن ما استطعن في تلاوة قصائد جميل ولبنة وبعد هنيهة جاء عثمان بك البرديسي وهو يسير بتمهل ويعجب باصوات الجواري ولا يراهن . وكانت الست نفيسه قد نهضت عن الوسادة لم تضع برقعها لان الارامل ولا سيما ارامل الامراء يسمح لهن بذلك ثم وجهت نظرها الى القادم فشعر بوقوع نبل عينيها قبل أن يراها فارتعش جسمه وتوقف عن المسير واستغربت أن هذا الرجل لا يهاب الموت ويخوض غمار المنون كأنه في وليمة وهو يرتجف الآن . ثم تبسمت وقالت له – ما بالك تتوانى يا عثمان وما الذي جعلك تجيء اليَّ في مثل هذه الساعة يا صديق زوجي ؟ وفهم البرديسي ما قصدته بكلمتها الاخيرة فتجلد وتقدم حتى صار امامها فجثا على ركبتيه وقبل طرف ثوبها بكل احترام وقال – وقفت لدى سماعي هذه الاغنية التي اثارت عواطفي فانا اعرفها ولن انسى أول مرة سمعتها في حياتي . فاشارت اليه أن يجلس وقالت – متى سمعتها وكيف كان ذلك

وانكأت فتقدم خطوة الى الامام وجعل ينظر اليها وعيناه تترجمان عما يختلج في صدره وبقي صامتاً الى أن كملت الجواري دور الغناء فقال أول مرة سمعت فيها هذه الاغنية المؤثرة كانت في اليوم الذي جرت فيه تلك الوقعة الدموية الهائلة وكنت راكباً الى جانب رئيسنا الطيب الذكر مراد بك . يا لها من مذبحة مخيفة كان ملاك الموت يحصد الرؤوس ويلقي الرعب بين صفوف المتحاربين وقد توصل احد رجال العدو فضرب صديقي مراد بك ضربة سقطت على ذراعه فجرحته جرحاً بليغاً حتى لم يعد يقوى على حمل سيفه وكان ذاك الخائن قد رفع يده ليجهز عليه فابتدرته بطعنة من يطقاني القته الى الارض شطرين ثم حملت صديقي الجريح الى خيمته وسلمته الى زوجته فكانت تلك أول مرة رأيتك فيها بدون قناع ثم رجعت الى المعمعة ونبت عن صديقي في رئاسة الجيش ولا اعلم اذا كان كدري لما أصاب صديقي أو سحر تلك العيون الفتانة قد اثر بي وشدد مساعدي فصحت بالماليك اننا يجب ان نموت او ننتصر وكنت لا ازال فتى وأحب الحياة فتركنا اختيار الموت وفضلنا الانتصار فانتصرنا وهزمنا العدو ونصبنا خيامنا مكان معسكره ولما تحققت الفوز وجدت من اهم واجباتي ان اعود صديقي وابشره بانتصارنا ولما بلغت منزله لم اجد خادماً يخبره بقدومي فرفعت الستار ودخلت الغرفة الاولى فرأيت ستار باب الغرفة الثانية مشقوقاً وعلمت ان صديقي نائم هناك والست نفيسه معه نعم علمت انها معه لانني سمعتها تغني له كما تغني المرضعة لرضيعها اوكما تغني الحور في الفردوس وتنقل باصواتها الملائكية ملذات الجنة الى سمع البشر . نعم وقفت عند الباب وكأنني سمرت الى الارض وسمعت اغنيتك يا مولاتي سمعتك تغنين نفس هذه الاغنية وتصفين بها حب جميل للبنة فكانت جوارحي تضطرب وجسمي يرتعش وقد امسكت نبضان قلبي لئلا يحول صوته دون سماع ذلك النغم العذب الى ان انتهيت فعلمت ان صديقي نائم ولا فائدة من ايقاظه فخرجت دون ان يعلم بي احد ونظرت تحت ستار الليل الى ذلك السهل وقد اناره القمر بنور ضئيل فبانت الخيام المنصوبة والبقعة التي حصلت فيها الموقعة وكانها مستترة بدثار فضي . اما انا فلم ارجع الى خيمتي بل صرفت ليلتي بجانب ذلك الفردوس . فلما

سمعت الان هذه الاغنية جددت في فؤادي شعوراً طالما دفنته في اعماق قلبي وسترته بكل قوتي وقد تمكنت من ذلك كل المدة التي بقي فيها صديقي حياً نعم قد اسكت ذلك الشعور ليس فقط مدة حياته بل و بعد وفاته أيضاً الى ان تكمل ايام الحزن عليه وتنقضي العدة اما الان وقد انتهى الوقت المفروض فاني ارى الحزن قد غادر قلبك ووجهك الجميل قد عاد الى اشراقه فبانت عليه علامات الاسف

فقالت الست نفيسه — نعم ان الوقت يشفي الجراح الخطرة وقد بدد حزني ولكن اعلم يا عثمان بك ان مراد بك لا يزال حياً في قلبي وعلى هذا الاعتقاد احاول ان احتمل مرارة فراقه

فقال — اني لا اشك في امانتك له يا مولاتي وان هذا يزيدني احتراماً لشخصك ولكن دعيني اتم حديثي يا مولاتي . دعيني اطلعك على ما يجول في صدري فلم يعد باستطاعتي الكتمان ولا بد من فتح القفل الذي حصر سري في فؤادي كل هذه المدة اسمعي يا مولاتي اني احبك واعبدك اني اموت حباً وهياماً انني ان لم تسمعي كلامي . . . .

فقاطعته الست نفيسة قائلة — اصمت يا عثمان بك واذكر ان زوجي كان معي في نفس هذا المكان فهو مقدس بوجوده والا لما رأيت وجهي مكشوفاً كما تراه الان . ألا تراه الان ألا ترى كيف ينظر اليك نظر التوبيخ و يقول لك — اهكذا تخون الصداقة فاين ما اقسمت به الى مراد ان تصون ز وجته ما حييت

فقال البرديسي — لم اتاخر قط عن صيانتها ولكنني احبها أيضاً بكل قوتي كيف يمكنني ان ابرهن عن احترامي وعبوديتي ان لم يكن بالقاء نفسي امام قدميك واقول لك يا ستي نفيسه كوني لي وتملكيني ومالي

فقالت وقد بانت دلائل الكدر في صوتها — استحلفك بالله يا عثمان ان لا تعيد هذا الكلام على سمعي و يسوؤني ان اجيبك عليه فيا ليتني لم اسمعه . قد اعتبرتك صديقاً فابق كذلك ما حييت لانه لم يعد لي قلب للحب ولا اريد ان تغل يداي فان ارملة مراد بك ستبقى امينة لنفسها وللذي الذي لا يزال في قلبها فلننس الحديث الذي دار بيننا الآن وتأكد انني وان كنت امرأة ووحيدة فانه لاينقصني شيء من احتياجات الحياة وانا اوكد لك انني اذا احتجت الى مساعدة صديق مخلص فتكون انت اول من استدعيه . وأني ارى خادمتي قادمة اليَّ برسالة على ما اظن فاخفِ وجهك عنها لاني لا اريد ان يطلع احد

على ما تشعر به الان وما هو مرسوم بجلاء على وجهك .

فادار عثمان بك وجهه كانه يصغي الى اصوات الطرب وغناء الجواري ووصلت الخادمة فاخبرت مولاتها ان الألفي بك في الباب يستأذن بالدخول . فلما سمع عثمان اسم الألفي ارتعش جسمه ولا سيما عند ما قالت الست نفيسة للخادمة رحبي به وادخليه فانه كان يعرف الألفي وهو مناظره في المركز والجاه فنظر الى الست نفيسة وقال — وهل يسمح للألفي بالدخول الى هنا

فرفعت الست نفيسة رأسها وقالت — وكيف لا ؟ ألم يسمح لعثمان بك البرديسي ان يدخل الي ؟ أو لم يكن الألفي بك من اصدقاء زوجي ايضاً ؟

قال — أصبت يا مولاتي واني ارجو العفو عما نطقت بهِ دون تروٍ واستأذنك بالانصراف فلا اعكر مقابلتكما هذه

قالت — بل ارجو ان تبقى . ولما قالت ذلك اخذت قناعها وكان ملقىً على كتفها فسدلته على وجهها وثبتته بالاربطة الذهبية . فتهلل وجه البرديسي سروراً وقال انها كشفت وجهها امامي ولكنها لا تقابل الألفي الا مقنعة فهي علامة حسنة اشكر الله عليها . ولم تسمع الست نفيسة كلامه لاشتغالها بالنهوض لملاقاة الزائر الجديد

الفصل العاشر

الألفي بك

دخل الألفي بك بعظمة وسؤدد يتبعه اربعة من المماليك يحملون صندوقاً مغطىً بالحرير المزركش بالذهب فوضع يده على صدره وانحنى الى الارض امام الست نفيسة وقال قد جئت يامالكة فؤادي ونور عيني اسألك السماح لي بتقديم هدية صغيرة هي عربون مودتي وخلاصي . ثم اشار المماليك فوضعوا الصندوق امامها وانصرفوا

فقالت الست نفيسة — يسرني جداً ان اراك هنا فان ذلك يؤكد لي شفاءك من الجراح التي اصابتك كما شفي صديقنا عثمان بك . اما مودتك واخلاصك فلا احتاج الى ما يبرهن عند وجودها . قال — نعم يا مولاتي ولكنه لا يمنع الانسان من تجديد عربون المودة في كل حين ولو كنت وثنياً لقلت انني اتيت لاضع على مذبح آلهتي علامة عبادتي وحبي

قالت — ولكنك والحمد لله مسلم وما يفعله الوثني لا يليق ان يفعله المملوك الشريف

الشجاع الألفي بك

قال — انني انسى ماذا اكون في غير هذا المكان اما هنا فلا اعرف الا اني عبدك واني رجل يود او استطاع ان ينزع من السماء نجومها ليطرحها تحت قدميكِ . ولما قال ذلك رفع غطاء الصندوق واخرج منه آنية شتى وهي ملأى بالجواهر والمصاغات والحجارة الثمينة . ثم قال — لايخفى عليكِ ياسيدتي انني كنت مع الجنرال في انكلترا ولم تنسني ذكرك بهجة العالم وما فيهِ فقضيت وقتي في البحث عن هذه الجواهر لاقدمها لك ولم استطع احضارها عند مجيئي فطلبت ان ترسل اليّ وقد وصلت اليوم فارجو قبولها من عبدكِ

فقالت الست نفيسة — لا يحق لاحدٍ قط ان يقدم لارملة مراد بك هدية ثمينة كهذه ولكنني لا اريد ان اغيظ الرجل الذي كان صديق زوجي ورفيقه فاني اقبل منك هذه التحف الثمينة وسأضعها في قاعتي ليرى الجميع كيف يهتم الالفي بك باظهار احترامه لارملة صديقه ورئيسه وارجو ان تقبل شكري الفائق

ثم نظرت الى البرديسي وقالت — تعال يا عثمان بك وانظر ما اجمل الهدايا التي احضرها لي الالفي بك من انكلترا

ولم يكن الالفي بك قد نظر عثمان بك بعد لاشتغالهِ بذاتهِ فلما سمع اسمه اكفهرّ وجهه وتراجع الى الوراء بغيظ وقال — ماذا ؟ عثمان بك هنا ؟

فقالت الست نفيسة — نعم . فقد شفي من الجراح التي اصابته في حادثة أبي قير ولا أرى ما يمنعه عن زيارتي مثالك

فأحنى الالفي رأسه وقال — اعذريني يا مولاتي على تسرعي في الكلام ثم التفت الى عثمان بك وقال له السلام عليك يا برديسي بك عساك بخير وعافية واني ارجو ان تريني الهدايا التي احضرتها عربوناً لاخلاصك للست نفيسة فقد سمحت لك ان ترى ما احضرته انا وصار من حقي ان ارى ما اتيت بهِ انت

فقال عثمان بك بازدراء — سترى ما اتيتها به . ثم تحوّل الى جانب الخيمة فقطع وردة حمراء من اجمل ازهار الحديقة وجاء فجثا امام الست نفيسة ووضع الوردة عند قدميها وقال — هذه يامولاتي تقدمتي اضعها عند قدميك فارجو قبولها وما هي الا اجمل شقائقك وعلى مثالكِ

فتبسمت الست نفيسه وقالت — اشكرك يا عثمان بك واقبل هديتك بسرور فكفي انها صنعة الله . ثم ناولها الوردة فاخذتها وادنتها من وجهها فتنشقت رائحتها وعادت فجلست

على الوسادة وقالت انهض يا عثمان بك والان وقد قبلت منكما ما قدمتما لي فلم يبق الا ان تزيداني سرورًا فتصافحان امامي · قد علمت بنفور بينكما من زمن بعيد و يسؤني الشقاق بين امراء المماليك فاطرحا العداوة جانبًا واعلما أن قوتكما مع عظمتها لا تتأبدان الاّ بالاتحاد فليرى الجميع انكما متحدان على الاقل لمقاومة الاعداء الذين يتكاثرون يوميًا ولا سيما بعد قدوم الجنود التركية التي يرأسها فتي شديد البأس واعلما ان هذا القائد مخيف وخطير فتصافحا ودعاني اراكما اصدقاء لان بلادنا لا يمكن ان تقف ازاء اعدائها اذا كان امراؤها في شقاق

فقال البرديسي — انك يا مولاتي قادرة على كل شي وقد غلبت كل امیالي · ثم نظر الى الألفي بك وقال له — هاك يدي نخذها دليلاً على اتحادنا في لقاء العدو · فتردد الالفي قليلاً ثم مد يده وقال له — انني اقبلها ولكن قبل ان ادعوك صديقي احب ان اعلم اذا كنت مزاحمي · فقال البرديسي مزاحمك ؟ وماذا تعني بذلك ؟ فتوقف الالفي برهة ثم قال — بالست نفيسة التي اعبدها ولكن ارجو ان تخرج الان فان لي كلامًا اقوله لها · فاستشاط البرديسي غيظًا وقال — ومتى كان الالفي يامر عثمان بك البرديسي بالخروج · الا تعلم ان الامر هنا للست نفيسه فقط · ثم نظر اليها وقال — يا مولاتي اترك لك الحكم في من يجب ان يخرج منا

فتنهدت الست نفيسه وقالت — اخرجا سوية اذا كنتما لا تزالان اعداء اخرجا حالاً ولا ترياني وجهيكما الا اذا عدتما الى الصداقة والوداد ولما قالت ذلك ادارت وجهها بعبوسة ولكنها ما كادت تفعل حتى هجم الاثنان فانطرحا امامها الى الارض وجعلا يستغفرانها و يطلبان منها السماح ثم قال الالفي ان عثمان بك كان في خلوة معك يا مولاتي فطلبت ان اخلو بك بضعة دقائق ولي امل ان لا تمنعيني ما منحته

فقالت الست نفيسة بهدوء وعظمة — انه جاء قبلك فكان ذلك سبب اختلائي به ولو حضرت برفقته لسمعت ما قاله لي كما يسمع ما انت مزمع ان تقوله

فنهض الالفي واقفًا — وقال فليسمع اذًا بل ليسمع العالم ما اقول انني اتيت لاضع ثروتي وما املك بين يديك ولا كرس حياتي وشرفي لخدمتك · انت تعلمين يا مولاتي اني لم اتزوج كباقي الامراء ولاجلست في منزلي اراقب رقص الجواري واسرّ بسماع اصواتهن ولا احببت غير سيفي و بندقيتي حتى الان · اما في هذه الساعة فقد تحولت جوارحي الى حب حقيقي وتحول هذا الحب بتياره نحوك فانت املي وغايتي من هذا العالم واضرع اليك

ان تقبلي رجائي وتصبحي ملكتي وولية امري

فتقدم البرديسي بدوره فدفع الالفي جانباً وجثا امامها وقال — كما يضرع اليك الالفي اضرع انا ايضاً فكوني لي يا نفيسه واني وان اكن احببت قبلاً ومتعت نفسي بالجواري والوصائف فلم اعبد قط امرأة قبل الآن · اني اكرس لك ليس ارادتي وجسمي وساعدي فقط بل وشرفي أيضاً فاطرح سلاحي تحت قدميك واكون عبداً لك تحكمين به كما تشائين · انت لا تجهلين مقدار حبي وانه يفوق كل حب فاحكمي بيننا واختاري حب احدنا فاني ارضى باختيارك واقسم لك بشرفي انني اقبل ماتريدين وانك اذا اخترت هذا الرجل فلا يعود بامكاني مصادقته ولكنني اعتبر حياته مقدسة فلا احاول اهلاكه ولا اسعى في قتله · وكفى بذلك برهاناً على حبي وتضحية امالي في سبيل رضاك

فنظرت الست نفيسة الى الالفي وقالت له — اترضى انت بمثل ذلك وهل تقسم بمثل اقسم وترتضي باختياري

قال — نعم اقسم بان افعل كما قال عثمان بك · اقسم انه لا يزال عدوي ولكنني لا اوصل ادنى اذية الى الشخص الذي تختاره حبيبتي فتكلمي يا مولاتي واحكمي بين هذين الاثنين

ثم ساد سكون كان المزاحمان في اثنائه ينتظران نطقها بذاهب الصبر اما هي فرفعت عينيها الى السماء وبان فيهما لمعان غريب وكانت الجواري عن بعد لايزلن يغنين وارتفع من جهتهن صوت احداهن تنغم قصيدة تصف فيها عبداً عشق مولاته ومات لاعراضها عنه وكيف انه اخفى ولعه وهيامه اياماً ولم تكن مولاته لتنعم عليه بنظرة على الاقل حتى عيل صبره وحدث ان اميراً جاء فقابل تلك المحبوبة وراءه العبد يقدم لها الحب والخضوع وهي تنظر اليه بعين ملؤها الحب ثم انحنى الامير فاخذ يدها وقبلها فلم تمنعه ولما رأى العبد ذلك سقط الى الارض صارخاً · اواه اني احبك واسلم الروح

وكان الثلاثة يسمعون تلك الاغنية وكان على رؤوسهم الطير فلما انتهت نظرت الست نفيسة اليهما وقالت لاتهكما هذه الاغنية ولكن يجب ان تعتقدا ان الست نفيسه لاتتزوج قط وانكما كنتما صديقي زوجي فابقيا معاً صديقيّ وتحققا ان ارملة مراد بك لن تتزوج · انني لما جثوت بجانب زوجي وهو على سرير الموت اغسل جراحه بدموعي اقسمت له ان احافظ على حبه وان لا يمتلكني رجل بعده فالآن اسألكما هل تريدان ان تحنث ارملة مراد بك بيمينها جاو باني قبل ان احكم في ما طلبتماه مني

فانحنى الاثنان امامها وكل يجتهد ان يخفي تنهداته ولوعته وبعدقليل قالا — لا ياست نفيسة لا تخشي بقسمٍ اقسمته لزوجك واستشهدت الله ورسوله فوا اسفاه انك لا تستطيعين اعطاء نفسكِ لاحدنا فما لنا سوى الخضوع

فتبسمت الست نفيسه وقالت — يسوئني ان اراكما قد عدتما الى الصواب فتبقيان اصدقاء ارملة مراد بك فاقول لكما . كونا صدقيَّ . كونا اخويَّ وكما تحبانني تحاباً اني اتوسل اليكما للمرة الثانية ان تتصالحا بوداد وتتحدا وان لا يكون لاحدكما عدو سوى عدو البلاد الذي يخشى عليها منه . عدوّ يزيد قوته في كل يوم وقد ظننا انا بعد ذهاب الافرنج ننال الامن والطمانينة غير ان الجنود التركية عادت تكدر حريتنا وتستعبدنا وانا اعلم انهم لا يرجعون عن هلاك المماليك لما اراه من النجدات التي يحضرونها من جهات اخرى بدون انقطاع وقائدهم رجل خطير يخشى منه

ولما سمع الاثنان كلامها تعانقا واقسما على الصداقة والاتحاد ضد عدو البلاد ثم قال — هذه المرة ايضاً تذكرين لنا القائد الخطير المخيف فمن يكون هذا يا ترى

قالت — هو الرجل الذي احضر الرسالة الى قبطان باشا في ابي قير . هو نفس الرجل الذي قام بتلك المذبحة وهو الرجل الذي بشجاعتهِ وجسارتهِ ومضاء عزيمتهِ فتح حصن رشيد فقد رأيت هـذا الضابط وقرأت في عينيه جسارة الاسد ومراوغة الثعلب نعم نظرته ولم يكن يعلم قلبي الخوف قبل تلك النظرة فاحترسوا منه وان امكن فاستميلوه اليكم وابذلوا جهدكم في اخذه لجهتكم لانه اذا تم ذلك واصبح محمد علي من الذين يتحزبون للمماليك فانه يكون قد ضمن لكم الفوز على قوات الدول باسرها

فتبسم عثمان بك وقال — انا اعرف هـذا الرجل جيداً فقد قابلته للمرة الاولى ونحن فتيان وتخاصمنا . ثم قابلته للمرة الثانية من مدة قريبة فحماني من جنوده ولولاه لما ابقوا عليّ . فسأجتهد في استمالتهِ الينا واذا تحققت لنا هذه الامنية قويت شوكة المماليك وصفا لنا الدهر فنهنيء انفسنا ولا ننقطع عن تقديم تشكراتنا للست نفيسة وسيكون اسمك شعارنا في هذه الحرب واذا عاجلتنا المنية فآخر نفَس نردده يكون بذكر اسم الست نفيسة

قالت — انني اشكركما والآن يمكنكما ان تنصرفا فاذهبا يداً بيد ومرّا في الموسكي ليراكما الجميع وليعلم الكل ان اكبر امراء المماليك قد تصادقا ومتى عُرف ذلك فلا نعود نخشى الفشل ونتحدد قوى الجميع فافعلا ذلك واظهرا للشعب بامره انكما اصفياء

فقال عثمان — واذا سالنا احد كيف اتفقنا بعد اختلافنا نجيبه ان مالكتنا ارملة

مولانا مراد بك قد امرت بهذا فاطعنا

فقال الالفي نعم تقول انا عبيد امرتنا مولاتنا ان نفعل ارادتها · فهيا بنا يا عثمان بك ولما قال ذلك انحني الاثنان مودعين وخرجا عثمان بك يتقدم بسرعة والالفي يتبعه يبطء وهو يلتفت الى الوراء حتى بلغ اخر الممر فاشارت له الست نفيسة بيدها علامة الوداع وغابا من نظرها ولما اصبحت وحدها القت بنفسها على الوسادة فتنهدت من قلب جريح وعادت الى وجهها علامات الحزن وشغلتها عواطف قلبها واصوات صدرها الداخلية عن سماع الموسيقى واغاني الجواري ثم بعد هنيهة قالت لذاتها — آه قد خلصت نفسي من هذين الاميرين وكذبت عليهما فانني لم اقسم قط لزوجي ان لا اكون لسواه ولم ارفضهما عملاً بقسم وانما تخلصاً منهما وعملاً بشعور قلبي وانني لست بدون حب فآه اواه ولكن الشخص الذي احبه لا يجب ان يعرفه احد ولا ان يظن به احد · ولما قالت ذلك نهضت ومسحت ببرقعها الدموع التي كادت تحدق عينيها لسخونتها ثم ارتعش جسمها فجأة وصبغ الدم وجهها لانها رات وكيل دائرتها يوسف قادماً في الممر ونظرت قامته الممشوقة ونضارة وجهه فاسرعت وضيقت اللثام على وجهها ولم تبقِ سوى عينين يرسلان اشعة من سحر وعادت فجلست الى الوسادة واخذت الوردة الحمراء فتنشقتها · ثم وصل يوسف فوقف على باب الخيمة وطوى ذراعيه على صدره وقال — قد امرتِ يا مولاتي باحضار العربة وقد جئت لاعلمك انها مستعدة واسالك اذا كنتِ ترغبين ان اسير في خدمتك لاحضر جوادي واركب قرب العربة · فسقطت الوردة من يدها الى الارض وقالت له — اني مسرورة من دقتك في تنفيذ اوامري فساخرج حالاً وترافقني اثنتان من وصيفاتي فيمكنك ان ترافق عربتي ايضاً على ظهر الجواد · ولما قالت ذلك نهضت فخرجت من الخيمة مارة بجانبهِ وهو واقف كالمصعوق لا يستطيع الحركة حتى بلغت القصر وهو يشيعها بنظرهِ ويعجب بجمالها وقوامها ثم قال لذاتهِ — اواه ليتني اكون النسيم الذي يمر بخديها بل ليتني التراب الذي تطاه قدمها بل حبذا موتي بالقرب منها فاراها عند احتجاب نظري وتطير روحي حاملة اتم السرور والسعادة · ثم التفت يميناً وشمالاً ليرى اذا كان يوجد من يراقبه ولما تحقق ذلك انحنى فالتقط الوردة وقبلها واخفاها في صدرهِ

الفصل الحادي عشر

المشورة

وقام محمد علي بوظيفته حق القيام لانه بعد مقابلته الاخيرة لخسرو باشا جمع العساكر التي فوض امرها اليه فدب في صدورهم نار الحمية والغيرة وسار في مقدمتهم الى حيث استدعتهم الظروف وكان مثالاً لهم في الشجاعة وعدم المبالاة بالاخطار والتعب وحصلت بينه وبين المماليك وقائع ومناوشات عديدة خرج منها ظافراً وافتتح حصنين من اهم حصونهم . وكان خسرو يتلقى هذه الاخبار بسرور ويحمد حسن حظه الذي اوجد له هذا القائد و يقول لنفسه حقاً ان السعادة تحالفني فارى نفسي سيد هذه البلاد العظيمة وحولي ابطال واصدقاء يحبونني و يساعدونني على نيل ما ابتغي فمن يعلم ماذا يكون مستقبلي بعد ومن يدري اذا كان التاج الذي انظره الآن في الهواء لا يسقط يوماً فيكلل رأسي وأصبح ملكاً مستقلاً . نعم لا يصعب عليَّ ذلك ومحمد علي بجانبي يعينني ولكن اخشى أن يتركني يوماً وليس له ما يضطره الى البقاء هنا فسأهتم في تزويجه من احدى بناتي و بذلك اضمن بقاءه لنصرة حميه . انني أنظر اليه احياناً فارى في عينيه انعكاس انفعالات داخلية تكاد تخيفني وتجعلني اعتقد ان تلك النيران المكتومة في صدره لا تزال تتأجج ولكنه لا يلبث ان يشعر باني اراقبه فيغير نظره وترتسم عليه امارات الدعة والخضوع ولكن لا بد لي من استدعائه الى الآن فاكلمه . واذ ذاك نادى خسرو باشا احد خصيانه وامره ان يستدعي القائد محمد علي لمقابلته . وما عتم ان جاء محمد علي فدخل وانحنى باحترام واشرق وجهه سروراً عندما دعاه الباشا الى الجلوس بجانبه وأمر له بالقهوة والغليون . و بعد هنيهة قال له ـــ يا محمد علي قل لي كم عمرك

فتبسم محمد علي وقال ـــ لا اعرف تماماً يا مولاي ولكن بامكاني الاكتشاف على ذلك و يغلب على ظني انني كنت في الخامسة عشرة عندما تشرفت بمقابلة مولاي للمرة الاولى في قواله

فقال خسرو باشا ـ حسناً فدعنا نتم الحساب قد بقيت انا هناك ثلاث سنوات فآه كم كانت صعبة ومملة حتى خلتها ثلاثة اجيال — وعليه يكون سنك عندما تركت قواله ثمانية عشر عاماً و بعد ذلك صرفت انا اثني عشر عاماً بين الاستانة وهنا فتكون انت قد بلغت الثلاثين من عمرك

فقال محمد علي — نعم وترى يا مولاي اني قد شخت لاني لما ارجع بفكري الى ماضي حياتي يبان لي اني عشت الابد . نعم قد شخت ومضى زمن الشباب ولم يبق لي شيء من الآمال والاشواق التي كانت تشغل صدري

فقال خسرو باشا ـ وهل لا تزال وحيداً في العالم ؟ اليس لك عائلة

فابرق في عيني محمد علي نور غريب وشد شفتيه لكي لا تخرج منها الكلمات التي كاد يبوح بها وعجب من هذا السؤال ولا بدعرف سائله انه سيثير اشجانه ويذكره بجراح قلبه فالويل له وقد جنى على نفسه . ثم سكن جاشه حالاً وقال نعم يا مولاي لي عائلة فقد تزوجت ولي ثلاثة اولاد في قواله

فقال الباشا — زوجة واحدة ؟ وهل تكتفي بزوجة واحدة !

قال — نعم اكتفي و يظهر لي احياناً انها اكثر مما يكفي وفضلاً عن ذلك ان زوجتي هي ابنة اخ حسان الشوربجي وتحبني كثيراً فلا ارى ما يجبرني على تركها او البحث عن سواها

فقال الباشا — وهل تحبها انت يا محمد علي ؟

قال — قد نزع الحب من قلبي ابان كنت فتى يا مولاي فلم اعد اعرفه

فقهقه الباشا ضاحكاً وقال ـ كل يقول ذلك الى ان يستميله هوى جديد وفي رأيي ان الانسان مهما تقدم في السن فلا ينسى الحب لان الحب لا يشيخ . فقل لي بالله عليك اذا وجدت فتاة كاملة الخلق والخلق ألا تود ان تتخذها زوجة ثانية . انك لا تحب ان تجيبني فانا اعدك انني سأجد لك زوجة واوكد لك انك لا تتأخر دقيقة عن حبها والاقتران بها متى عدت ظافراً من المعركة القادمة

قال — معركة ! بفكر دولتك القيام بمعركة جديدة ؟ فاين ؟ ومع من ؟

فقال الباشا — مع من ؟ ألا تعلم انها مع هؤلاء المماليك الاشقياء .. قد جاء الوقت الذي فيه يجب ان نستأصل شافتهم وان جلالة السلطان لم يعد يحتمل عصيانهم ومخاتلتهم ومتابعة شرورهم فقد صمم على وضع حد فاصل لكل ذلك ليستتب الامن وتسود الراحة في كل بلاد مصر وانت تعلم ولا شك انه لا يمكن الحصول على هذا المرغوب الا بابادة المماليك

قال — نعم يا مولاي اعلم ذلك واعتقد انه ان لم يبق سوى مملوك واحد فانه لا يتأخر عن المناضلة لاسترجاع سطوته على البلاد التي يعتقد انه وليها بامر الله ورسوله

فقال الباشا — سنفهمهم قريباً انه قد قضي عليهم . اننا مديونون للافرنج بمحاربتهم المماليك واضعاف عددهم ولكي يمنع جلالته تكاثرهم ثانية اصدر امره العالي بمنع جلب الشراكسة والكرج الى مصر

قال — ومع ذلك فانهم لا يعدمون وسيلة الازدياد وتكثير جنودهم وقد سمعت انهم استجلبوا اليهم سكان الصحراء والأسر الالبانية وعقدوا اتفاقاً محكماً مع قبيلة احمد علي العربي

فقال الباشا — ذلك حقيقي ولكن شتان بين البدو والعرب . وبين الكرج والشركس فلا يقوم الثعلب مقام الاسد ولا يفعل الهرّ ما يفعله النمر وفضلاً عن كل ذلك فقد تأكدت ان المماليك في نزاع دائم بعد وفاة اميرهم مراد بك وكل منهم يود الاستئثار بالرئاسة . وقد كان مراد بك رجلهم الوحيد فلم يجدوا بعده من يستطيع جمع كلمتهم والتوفيق بينهم . وقد خلفه الطمبوجي بك زمناً يسيراً ولكنه لقي حتفه كما علمت في ابي قير . والان يوجد ثلاثة من امرائهم وبينهم حرب عوان في من يخلفه في الرئاسة وهؤلاء الثلاثة هم عثمان البرديسي حليف فرنسا والالفي بك حليف انكلترا وابراهيم بك . وكل منهم يضمر عداوة شديدة للاخر فهذا مما يؤول الى خيرنا ويخدم مصلحتنا . وقد علمت أيضاً أن ابراهيم بك والبرديسي ارسلا رسلاً الى القائد الفرنسوي بونابرت يطلبان منه المساعدة للتخلص من نير الاتراك وأن الالفي بك

ارسل الى انكلترا يطلب مساعدتها في طرد الاتراك واحباط مساعي مناظريه. فترى انهم يخشون سطوتنـا ولا يستطيعون مقابلتنا بدون نصراء اجنبيين فلذلك يجب ان لا تفوتنا هذه الفرصة التي هم فيها لاهون بانتظار المساعدة والمدد فنسحقهم سحقة لا يستطيعون القيام بعدها

فقال محمد علي — ان في ذلك عين الحكمة يا مولاي . نعم نسحق رأس الحية فتموت ويبقى مولاي الحاكم المطلق في كل البلاد . نعم ان القدر قد عينك يا مولاي لتقوم بهذا الامر الخطير وغاية مناي ان يكون لي شرف مساعدتك في اتمامـه

فاحنى الباشا رأسه شاكرًا وقال — وانا اعتمد في ذلك عليك ولعلمي باخلاصك وغيرتك اردت ان استشيرك فاعلم ان امراء المماليك بعد ان ارسلوا رسائلهم الى فرنسا وانكلترا خابروني أيضاً في عقد هدنة خمسة اشهر وهم يقولون انهم سيخابرون جلالة السلطان بوساطة انكلترا وفرنسا فاما ان يصير اتفاق وسلم او ان تعود الحروب فما رأيك

قال — اظنه من الجهل يا مولاي ان نمنحهم هدنة يتأهبون بها لدفاعنا . وهم دهاة فيهاجموننا وقد ضمنوا الفوز علينا

فصمت خسرو برهة ثم قال — انك قائد باسل وسياسي محنك . ويسرني انك تكلمت بما في نفسي فقد اجبت الامراء على رسالتهم اني لا امنحهم هدنة خمسة اشهر ولا خمسة اسابيع بل ولا خمسة ايام وقد قلت لهم اني اود الامن والراحة اكثر منهم فاذا رغبوا في ذلك فليس لهم سوى الرجوع الى السكن في القاهرة والخضوع لنا كما فعل احد كبارهم المسمى عثمان بك حسن. ووعدتهم اذا رجعوا عن التمرد ان اعطيهم مقاطعة اسنا في الصعيد يتصرفون بها حسب رغائبهم . فلما رأوا ذلك مني وسوس لهم شيطان الطمع فطلبوا مقاطعة جرجا أيضاً فرفضت واظن لم يبق لنا سوى امتشاق الحسام في وجه هولاء العصاة فيوسف بك اركان حربي يقود الجيش الاول ومحمد علي يقود الجيش الثاني

فقال محمد علي — اشكرك يامولاي على ما اوليتني اياه من نعمك المتابعة وسأعود اليك ظافرًا او مقتولاً

فقال الباشا — انك تعود ظافرًا . وقد ارسلت الى طاهر باشا قائد جيش الصعيد ان ينضم اليكما فقل لي هل تظن ان هذه القوة كافية لابادة المماليك ؟

قال — هل تسمح لي ان اعرف قوة الجيش المذكور بعد هذا الانضمام . ولما قال ذلك اطرق بنظره الى الارض كانه خجل من تجاسره على القاء هذا السؤال

فقال الباشا بصوت منخفض — اخبرك بذلك يا محمد علي ولكن اياك ان يعلم به احد سواك . ليس عندنا أكثر من ستة عشر الى سبعة عشر الف مقاتل وهؤلاء يصعب جدًا جمعهم في نقطة واحدة لانهم متفرقون في اواسط البلاد والصعيد وليس اعتمادي الا على الاربعة الالاف الباني الذين ارسلهم لي قبطان باشا فهم اشداء بواسل يقابلون ضعفي عددهم ولا انكر صعوبة مراسهم وانهم ليسوا اتراكاً

فتنهد محمد علي وقال — اذا كانت هذه خلة محمودة فآسف لانني لسوء حظي لست تركيًا

فقال الباشا — ومع ذلك فانا اثق بك لاني ارى اعمالك المجيدة تنوب عن تعاسة ولادتك ولكنني لا اشعر ان لي مثل هذه الثقة بالجنود الالبانية ولذلك قد ألفت فرقة من رجال النوبة واخترت منها عددًا لحرسي الخاص واحضرت بعض الضباط الفرنسويين لتعليمهم وتدريبهم فاصبحوا على غاية ما يرام . نعم ان حرسي الخاص من هؤلاء السود يرفع عني الخوف ويضمن لي السلامة وانا اعتمد عليهم في حمايتي من كل خيانة او اذية

فقال محمد علي — وهل يوجد من يحلم بخيانة او الحاق اذية بالوزير العظيم خسرو باشا الحليم الشريف لا. لا فكن مطمئنًا واعلم ان الخيانة والاذية لاتجدان طريقًا الى شخصك المقدس

فقال الباشا — لا انام مطمئنًا يا محمد علي الا اذا لم يبقَ من المماليك واحد

قال — وعسى ان لاننتظر طويلاً قبل حصولك على هذه البشارة فاني على نار

الانتظار الآن الى ان اسير الى القتال

فقال الباشا — اذاً سر الى القتال واذكر ما قلته لك سابقاً ان خسرو باشا يكافئ محمد علي المنتصر ويقدم له زوجة آية في الجمال مفرطة في الغنى اذهب ودع الجنود على استعداد للمسير . ان طاهر باشا قد بلغه ولا بد امري للالتحاق بكم وبوسف بك على تمام الاستعداد . ومتى انضممتم فابدأوا بالقتال . ثم صرف محمد علي وهو يتبسم له و يلاطفه

فخرج محمد وقد أحنى رأسه بخضوع حتى اذا صار خارجاً قال لنفسه — انك تعتمد علي في حمايتك من الخيانة والاذية على حرسك الخاص من السود . انه ليسرني ذلك جداً شرط ان لا يكون سواد وجوههم دليلاً على سواد حظك

الفصل الثاني عشر

التنازل او الانسحاب

عسكر عثمان بك البرديسي بمماليكه في سهل دمنهور وهو ينتظر وصول الالفي بك باتباعه والقوات التي كانت ترد يومياً لتنضم اليها . وكانت جواسيسه تجوب البلاد وتأتيه بالاخبار والمظاهرات فعلم ان الجيوش التركية قادمة عليه من القاهرة وان طاهر باشا قادم من الصعيد بسبعة الآف مقاتل . وكان للبرديسي جاسوس بدوي واسمه الشيخ عنان جاءه بهذه الاخبار فتبسم واشرق وجهه وقال قد ازفت ساعة العمل فاذا انتصرنا كم يكون سرور الست نفيسة عظيماً وربما لان قلبها الحجري وملكتني نفسها . ولكن لماذا تأخر الالفي يا ترى وهو يعلم اننا لا نستطيع وحدنا مقابلة القوة القادمة علينا . نعم ان الاتراك جبناء وان كل مملوك يقابل اثنين من جنودهم ولكن لا يزال عددهم يفوق عددنا

ولم يطل انتظار البرديسي حتى قدم الألفي بك ومعه بعض المقاتلين وعلى وجهه ملامح الكدر فتألب الجميع حوله وفي مقدمتهم عثمان بك واخبروه عما بلغهم عن قوة

العدو المهاجم وقال عثمان بك — ارى والحالة هذه ان نسير الى مقابلتهم ونقاتل كل جيش على حدة فلا نترك لهم فرصة للانضمام . فهز الالفي بك رأسه وقال — اما انا فارى ان نبقى حيث نحن لانه من الجهالة ان نهجم على عدو يزيد عدده عن ضعفي عددنا وهذا ما جئت لاقوله لكم

فقال البرديسي — لو لم تأت اذًا لاحسنت فهل تريد ان يقول الاتراك عن المماليك انهم هربوا من امامهم ؟

فقال الالفي — فليقولوا ما شاءوا يا عثمان بك فماذا يهمنا قولهم لاننا نتقهقر ولا نهرب . ولا اكتمك أن هذه الخطة هي ما اشار علينا بها اصدقاؤنا الانكليز وانت لاتجهل اخلاصهم لنا وقد اخبروني ان الاتراك قادمون علينا في ثلاثة مواكب ونصحونا ان لانهاجمهم لما في ذلك من الخسارة علينا وانت لاتجهل قوة عدونا ونفاذ ذخائرنا واعلم انه اذا تمَّ لهم الفوز فانهم لا يستبقون منا أحدًا ويتممون هنا ما بدأوا به في ابي قير . فهل هذا ما ترغبونه ايها الامراء ؟ ويلوح لي ان القائد المحنك هو الذي يراعي الاحوال ويراقب الفرص

فقال البرديسي بكبر — انما نريد الانتصار لا الهرب واذا شئت الانتظار فانتظر

فقال الالفي — نعم سانتظر وقد اتيت لانصحكم ان تتبعوا مثالي وتجتنبوا هذه المهاجمة الخطرة وراجع ما قلته انني اتقهقر لا اهرب فالويل لكم ان لم تقتفوا اثري والويل لكم اذا تغلب عليكم الطيش واردتم مقابلة الاتراك الآن . ان يوسف بك في مقدمتهم ويتبعه محمد علي ذلك الرجل الذي طالما حذرتنا منه يا عثمان بك ووراءهما طاهر باشا فكيف ترجون النجاة

فقال البرديسي — بل الويل للذي يرى ويفهم من هوعدوه ومع ذلك لايجسر على مقاومته

فاغضى الالفي واشار الى اتباعه فنهضوا معه فسلم ومضى ومعه فرسانه

وكانت فصيلة من الفرسان الانكليزية تنتظر الالفي على مقربة من هناك فلما انضم اليها واصلوا السير ليلاً ونهارًا حتى بلغوا طنطا وكانت الجياد المستريحة تنتظرهم

هناك فامتطوا صهواتها وداوموا المسير حتى وصلوا الى الاسكندرية وركب الالفي مركباً انكليزياً أقله للمرة الثانية من تلك البلاد وهو يحاول ان يلهو عن ارملة مراد بك بالسفر والسياحة وقد كره الحرب وحب الشهرة بخلاف برديسي بك الذي لم يخطر له قط ان يداوي جراح حبه بالابتعاد بل صمم على الانتقام لذاته من جنود العدو وآلى على نفسه ان يقبض روح واحد منه لقاء كل زفرة صعدت من صدره

اما عثمان بك فبعد ذهاب الألفي جمع رؤساء المماليك وقواد ابرهيم بك وحسن آغا لمشورة حربية وقال لهم — ارجو ابداء ارائكم بصراحة اذا كنتم ترغبون في اتباع رأي الالفي في التقهقر والتربص . او ستشاركوننا في هذه الواقعة الخطرة وتسيل دماءكم مع دمائنا . العدو قوي وهو قريب منا صرحوا بما انتم عازمون عليه حالاً لان كل دقيقة تمر بنا تزيد الخطر جسامة قد علمت من الشيخ عنان ان يوسف بك على يومين من هنا ومحمد علي على ثلاثة ايام . فمن رأيي ان نقابل يوسف بك ونتغلب عليه قبل ان ينضم اليه محمد علي ويتعذر علينا ذلك ومتى شتتنا شمل الاول قابلنا الثاني وهان الامر لانه متى سمع طاهر باشا ان طليعة جيشه قد تبددت لا يعود يجسر على مقابلتنا فيخلو لنا الطريق فنسير توًّا الى القاهرة وهي خالية الآن من الجنود

وكانوا يسمعون كلام البرديسي وقد لعبت في صدورهم نار الحمية فصاحوا لا نتقهقر بل نتبعك ونحن غالبون باذن الله فجيادنا تسابق الرياح وسيوفنا تنصرها القوى العلوية

وقد آن لنا ملاقاة الاتراك وسنفهمهم اننا لسنا جبناء كما يزعمون . ولما سمع البرديسي ذلك اشرق وجهه فتبسم وقال — لنبرهن عن قوتنا فاذهبوا الآن للراحة واريحوا جيادكم في هذا الليل واستعدوا للمسير معي في الفجر فنطير مع نسيم الصباح لمقابلة العدو والله يحرسنا وهو ولي التوفيق . فصاح الجمهور بصوت واحد الله ولي التوفيق وساروا وهم يرددون اصوات الفرح والحماسة فاعتنوا بجيادهم ثم ناموا في أول الليل ليتمتعوا براحة ربما لا يجدونها في بضعة ايام وما اقبل الليل حتى ساد السكون التام على المعسكرين في دمنهور

وبقي عثمان بك البرديسي وحده مستيقظاً فتوجه الى جاسوسه الشيخ عنان فايقظه

وقال له — اعرفك شجاعاً وجسوراً فاذا شئت ان نقوم بمهمة أعهد بها اليك ونجحت اكافئك بما لم يخطر لك في بال اني اسمح لك ان تغتنم لنفسك مااستطعت من ميدان القتال بدون ان يعارضك احد فكل ماتضع يدك عليه من الخيــل والعدد والاسلحة وكل ما يقع من جيش الاتراك في الارض بعد الموقعة يكون لك

فابرقت اسرة الشيخ عنان وقال — مر ياسيدي فانا اطوع لك من بنانك ولا اعجز عن شيء الا اذا طمعت بانزال الشمس من قبة الفلك او جمع النجوم والقمر عند قدميك . والجزاء الذي ذكرته يذلل الصعاب ليس حباً بنفعي الشخصي بل اكراماً لابنتي بطيطه فهي فتاة أشبه برجل لما فيها من الهمة والنشاط ولها ولع بركوب الخيل واستخدام السلاح . فقال البرديسي — اخبرتني بان يوسف بك قادم اولاً وان محمد علي يتبعه ؟ . فقال الشيخ — نعم ياسيدي وبينهما يوم كامل غير انه قد بلغك ولا بد ان محمد علي الشاب جسور لا يعرف الكلل ومن يدري اذا كان لا يسير بفرسانه ليلاً ونهاراً لينضم الى يوسف بك

فقال البرديسي — قد يمكن ذلك ولكنني اريد ان امنع هذا الانضمام لانني اود ان لا نقاتل محمد علي ولهذا السبب ايقظتك لافاوضك بهذا الشأن فتعال معي بعيداً عن المعسكر لئلا يسمعنا احد وانتبه الى ما اقول

وسار الاثنان بين النائمين حتى صارا الى مسافة فوقفا والبرديسي يتكلم بصوت منخفض أشبه بهبوب الريح والشيخ عنان يسمعه وقد بانت اسنانه البيضاء واشرقت هيئته بتبسم الاعجاب والسرور . ثم قال — انها والله لفكرة في غاية الموافقة ولاقومن بها كما تريد حتى ولو لم تعدني المكافأة واني أعدك الآن انني سأنفذ امرك وتأمن شر الرجل فاسمح لي بالذهاب الساعة وعند شروق الشمس تكونون قد التقيتم بيوسف بك فيجب ان اكون هناك مع عربان قبيلتي لجمع الاسلاب . اما الآن فسأذهب الى خيمتي بجانب الاهرام فأرى ابنتي بطيطه وهي تدبر الباقي وعند الصباح اقابلك في خيمتك فاذا فات الموعد ولم ترني فاعلم يا عثمان بك ان الشيخ عنان يكون قد قتل اثناء قيامه بعمله وان محمد علي امهر منه

الكتاب الرابع

النائب

الفصل الاول

بطيطه

عسكر محمد علي في سهول الجيزة الخضراء وتحت قيادته خمسة الاف مقاتل من الجيوش الالبانية نخبة قوات خسرو باشا وكان يوسف بك قد سبقه الى ملاقاة المماليك بقوة لا تقل عن هذه . اما أوامر خسرو باشا فكانت ان يسير يوسف بك وحده الى القتال فاذا انتصر لا يعود يقتضي ان يتبعه محمد علي فيرجع هذا بمعسكره الا اذا ظهرت عدم مقدرة يوسف بك على الانتصار وحده

ولم يخف على محمد علي ما قصده خسرو باشا فان هذا كان يعز يوسف بك كثيرًا حتى جعله امين سره فاراد ان يرسله بدون مساعدة محمد علي لكي يستأثر بالفوز و يتفرد بالحصول على اكاليل الظفر . واذا لم يتمكن من ذلك استقدم محمد علي وهو على مسافة يوم وراءه فلا يصله الرسول ولا يبلغ بجنوده ساحة القتال الا بعد فوات الوقت و يصير من الواجب عليه ان يبدأ بمعركة جديدة لا يضمن الفوز فيها كما لو كان منضماً الى يوسف بك . فكانت هذه الملاحظات تتردد في مخيلة محمد علي وهو جالس في سكون ذلك الليل وقد نامت جنوده متفرقة في تلك السهول كل منهم بجانب فرسه و يده على قبضة سيفه ينتظر اول اشارة تصدر فينهضوا حالاً و يسيروا الى دمنهور وكان الطقس جيداً ومدة الاقامة قصيرة فلم ينصبوا الخيام ولم يكن في كل ذلك

المعسكر سوى خيمة واحدة بيضاء وامامها علم احمر هي للقائد محمد علي حتى اذا جاء رسول عرف مكانه بسهولة وكان على باب الخيمة المذكورة جنديان للحراسة . فلما استولى ملاك النوم على اعين الجنود وساد السكون خرج محمد علي من خيمته وقال للجنديين لا حاجة الى حراسة القائد اذا كان في وسط جنوده الامناء فاذهبا وناما واستريحا للغد فربما لقينا فيه من الاتعاب والمشاق اكثر مما نظن الآن . وكانت اعين الحارسين ثقيلة فشكرا محمد علي على سماحه لهما بالراحة فذهبا الى جانبٍ وتوسدا الارض وبنادقهما ولم تكن الا دقائق قليلة حتى استغرقا في النوم بقربهما كبقية الجند اما محمد علي فعاد الى داخل الخيمة واتكأ على فراشه واسند رأسه علي يديه وجعل يفكر باحواله الحاضرة وما داخله من الريب في اوامر خسرو باشا وهو يتساءل هل يجب عليه ان يعمل بها حرفياً او يعمل ما يراه موافقاً فقال لنفسه — اذا فاز يوسف بك وحده في قهر المماليك اضعت شهرتي وكسب الفخار هو وحده واذا هزمه المماليك وشتتوا شمل جنوده فهجمت عليهم انا لا اضمن الفوز بهذه العساكر فيصيبني ما يصيب يوسف بك وتكون نتيجة اول موقعة كبيرة لي الفشل والانهزام . فماذا افعل يا ترى هل تنبئني الظروف بان اطرح عني نير هذا الظالم وابدأ بالعمل الذي اتيت لاجله ؟ ام انتظر الى ان تنتهي هذه الوقعة ونرى ما يأتي به الغد

وغرق محمد علي في هذه التأملات فكان ينظر الى الفضاء وهو لا يرى شيئاً سوى افكاره ولم ينتبه الى عينين ساهرتين كانهما نور الحاجب تراقبانه من ظلام الليل الذي ينيره ضوء القمر الضعيف ولم ير شبحاً ينساب بين الجنود النائمة الى ان صار بجانب الخيمة . وما زال في تصوراته حتى تسلط عليه سلطان النوم فاغمض عينيه وهو يحلم بالنائب وبالبرديسي ثم استيقظ فجأة كانه سمع حركة غير اعتيادية فنظر حوله فلم ير شيئاً فظن انه يحلم فعاد الى نومه واستولى عليه الرقاد . واذ ذاك اغتنم الشبح المذكور تلك الفرصة فوثب الى داخل الخيمة كالنمر وانسل كالافعى حتى اقترب من النائم فاخذ حبالاً ربط بها يديه ورجليه بدون ان يشعر حتى اذا انتهى جمع قواه ومهارته وباقل من لحظة وضع في فمه كمامةً وغطى رأسه بكيس ادخله فيه وربطه

حول العنق . وكان محمد علي قد استيقظ فسمع قائلاً يقول له — لا تخف يا مولاي فان حياتك في امان . ولم يكن محمد علي لينتظر مثل ذلك الامر فحاول النهوض والمناداة فلم يستطع وتحقق عدم مقدرته على شيء من ذلك فسكت وقال — اهذه اخرتي وهذا ما كنت أؤمل الوصول اليه ؟ وان اصير اضحوكة للعالم . ثم انعكست افكاره فجأة فتذكر ماضيه وقال — ان الذى كان يستحق ما انا فيه الآن لا يزال حراً متمتعاً بالديباج والحرير وانا الذي اسعي وراء الانتقام اصير الى حالة لا استطيع فيها الحركة فلا شك ان هذه النهاية هي من اعمال ذلك اللئيم خسرو باشا ولكن الى اين يحملونني الآن وما المراد من هذا العمل . انهم ولاشك سيلقونني في النيل فآه آه لا بد ان خسرو باشا قد اضطلع على ما في ضميري فرام ان يتخلص مني ويلقيني في النهر كما القى حبيبتي جوهرة في البحر

ولم يكن الرجل الذي فعل ذلك بمحمد علي سوى الشيخ عنان فانه بعد ان قيده وسد فاه حمله بين دواعيه وسار به كما جاء بمنتهى السكون والاحتراس ولم يزل كذلك ومحمد علي يحاول التخلص ولا يستطيعه الى ان وقف الشيخ عنان وقال بصوت مسموع — انك ثقيل الجسم ياحضرة القائد فكم يصير الجيش خفيفاً متى اصبح ورأى ان قائده محمد علي غائباً . ثم قهقه الشيخ ضاحكاً ووضع حمله على الارض وتكلم مع الشخص الآخر وهو ابنته التي تركها تنتظره في تلك البقعة مع الهجين فقال لها — انهضي يا ابنتي بطيطه واركبي مع هذا الاسير وسيري حالاً الى خيمتي وحافظي عليه الى ان يأتي مولانا عثمان بك و يطلبه منك واعلمي اني مع شدة محبتي لك فلا بد من قتلك اذا نجا الاسير احترسي واشتري حياتك . فاجابته بطيطه بصوت رن صداه في أذني محمد علي وقالت — ثق بي يا والدي وتأكد اني احرسه واحتفظ به كانه اثمن كنز لي في العالم فلا يمكنه الخلاص من يدي

فقال الشيخ — اذاً اذهبي به اما انا فسأسير الى جهة اخرى حيث انتشب القتال غداً اولي الامل ان ارجع اليك بالغنائم الثمينة التي وعدني بها عثمان بك جزاء

علي . فاركب ابنته على الهجين ووضع الاسير امامها ثم ودعها واطلق ساقيه للريح

وكان محمد علي يسمع ويشعر وهو لا يرى شيئاً وكأنه في حلم غريب وعرف انه على ظهر هجين يسير في الصحراء من حركة السير ووقع اقدام الهجين على الرمال وشعر بيدين خفيفتا الملمس تمسكنا به لتمنعا سقوطه وبعد ان سار مسافة اوقفت بطيطه سيرها وقالت لمحمد علي — انني حزينة لاجلك ايها الاسير الغريب ولا بد انه يؤذيك الركوب في مثل هذه الحالة وكنت اود ان اكشف عن عينيك وانزع كمامتك ولكني اخشى ان تقتص مني فتعضني . فلم يجب محمد علي الاّ بهز رأسه بحركة شعرت بها فقالت — انك تهز رأسك فهل تعدني انك لا تفعل . انني اعطيك هذا القليل من الحرية بعد أن اوثقك الى السرج لاضمن عدم نجاتك . ولما قالت هذا نزعت شالاً كان على كتفيها فاوثقت به محمد علي الى سرج الهجين ثم فكت الكيس عن رأسه ونزعت الكمامة من فيه وكان الليل رائقاً فنظرت بطيطه الى وجهه وتأملته ملياً . أما هو فكانت الظلمة السابقة والرباط لا يزالان يمنعانه عن النظر والكلام فاكتفى بان تنهد واستنشق الهواء الرطب المنعش

فقالت بطيطيطه — آه ما اجمل هذا الغريب كيف يكون في وظيفة قائد وهو لا يزال في مقتبل الشباب وقد كنت اظن انني سارى رجلاً ابيض الشعر طويل اللحية احزن على كبره اما الآن فاني اراك يا هذا لا تزال غضاً وفي معظم القوة والشجاعة فيشتد حزني عليك وقد اصبحت اسير فتاة مسكينة

وكانت عينا محمد علي قد الفتا الظلمة شيئاً فشيئاً فنظر الى وجهها الجميل تنيره عينان لامعتان كالكواكب وشفتان حمروان يكشفان عند تبسمها عن لؤلؤ ثمين فتنهد وقال لها — لا تشفقي ولا تحزني عليّ يا بطيطه لانه لو اسرني رجل لخجلت واما أن تاسرني حورية من حور الجنة وان تضمني بين ذراعيها فهذا مما احسد عليه

فبانت على وجهها علامات السرور وقالت — انك تتكلم حسناً ايها الغريب فتتساقط كلماتك كاصوات الموسيقى العذبة وانا لم اسمع مثلها قبلاً الاّ من شاعرٍ

سمعته مع ابي في طنطا فبالله عليك تكلم أيضاً ولا تسكت ودعني اترنح بهذه الاغاني الصادرة من بين شفتيك

فقال — ان تكن كلماتي الغناء فنطقك الآلة الموسيقية التي تعطيني النغم فقولي لي يا بطيطه الى اين نحن ذاهبون ومن امر باخذي على هذه الصورة ؟

قالت — ألم تسمع حديثنا ؟ انني اطيع اوامر والدي وهو في خدمة عثمان بك البرديسي ولا اعلم تماماً ماذا يريدون منك ولكنني واثقة انهم يخافونك ويودون ابعادك عن الحضور في موقعة الغد وقد تاكدت ذلك من نظري اليك فلوائح البسالة مرتسمة على وجهك وكل حركة تدل على انك بطل لا يقاوم فعثمان بك يخافك ولذلك قد اجزل الجزاء لوالدي اذا تمكن من ابعادك عن ساحة القتال

فتبسم محمد علي وقال لنفسه — اذاً يريدون ابعادي خوفاً من بأسي . آه قد ظننت انها مكيدة من خسرو باشا ولكن اراها يد القدر تزج بي الى الطريق التي يجب ان اتخذها . نعم هو القضاء ومن يعلم ان لم تكن يد بطيطه هي اليد التي ستبلغني العرش الذي رأته والدتي في الحلم وانها اليد التي تساعدني على الاقتصاص لنفسي والانتقام لحبيبتي جوهرة . وكانت بطيطه تراقب حركات عينيه فرأت فيهما لمعان غريب وعجبت من سروره وهو في الاسر فقالت له يظهر انك مسرور جداً في هذا الاسر

قال — نعم وحبذا لو طـال اسري طول حياتي فابقى محاطـاً بهاتين الذراعين الجميلتين

قالت — اراك قد عدت الى الغناء فآه ما الذ وقع هذه الكلمات على سمعي — ويغلب على ظني انك جائع فخذ هاتين التمرتين واسند بهما قلبك الى ان تحصل على شيء آخر . ولما قالت ذلك مدت يدها الى رحال الهجين واخرجت تمرات قدمتها له وهي تقول — خذ كل واسند قلبك . وكانها نسيت ان يداه مقيدتان فقال لها — لا يجب ان يلمس هذا الثمر المقدس سوى يدك يا بطيطه فاني مقيد كما ترين

وعليك ان تقر بي هذه الثار الى فمي واذ ذاك ينعشني اثم يدك لا القوت

فتبسمت سروراً ثم جعلت تقطع وتطعمه اياها وهو في كل مرة يرفع شفته العلياء فيلمس بها اناملها وقد نسي ما هو فيه ولم يهمه من ساعته الحاضرة سوى تلك الفتاة الجميلة ابنة الصحراء وعنوان الطهارة والجمال الطبيعي وهي تنظر اليه بعينين سوداوين تنسكب منها انوار الحب الطاهر الذي لا غاية له . ولما انتهى من الاكل تذكرت بطيطه ان خيمة والدها لا تزال بعيدة وان عليها بلوغها قبل بزوغ الفجر ويقتضي ايصال الاسير اليها قبل ان يصادفها احد من العربان او سواهم فيأخذ اسيرها منها أو ينقذه من يدها فتكون قد سببت لنفسها الموت كما توعدها والدها فانحنت فوق جسم محمد علي الملقى امامها على ظهر الهجين وتناولت الزمام بيدها وقالت اسرع ايها الهجين . أسرع اسرع يا مركب الصحراء ثم سكت الاثنان وكان الحيوان ادرك غاية صاحبته فجعل يزيد في السرعة فوق تلك الرمال

الفصل الثاني

في الصحراء

ولم يزل مركب الصحراء يواصل الخبب فبزغ الفجر ولاح الصباح وظهرت الغزالة قبل ان تبلغ بطيطه خيمة والدها لانها اضطرت الى الاستراحة مراراً في طريقها شفقة على ذلك الغريب المقيد وكانت لا تفتر عن النظر اليه بحنو وشفقة ثم قهقهت ضاحكة وقالت له أتنظر كيف ظهرخيالينا على الارض بعد شروق الشمس فهما يسرعان معاً ويقبل احدهما الآخر . فقال محمد علي — فبالاولى ان نتبادل نحن تلك القبلات فدعيني انال واحدة منك . فرفعت بطيطه رأسها وقد بانت عليها علامات الحياء وقالت — لا تطلب ذلك لاني وعدت والدي ان لا يقبلني انسان سوى الرجل الذي يقودني الى خيمته كزوجته وعلى هذا الوعد سمح لي ابي بالجولان وعدم التحجب في داخل الخيمة فانا لا اسدل على وجهي نقاباً قط الا اذا ذهبنا الى طنطا لحضور موسمها فيضطرني الى ذلك كثرة الزحام وليس ذلك فقط بل انني

اصبغ حينئذ شفتيَّ واحني يديَّ

فقال محمد علي — اذاً تغيرين اذ ذاك شكل حورية الجنة وتبدلينها بامرأة من عامة الناس . اني لا اود ان اراك على تلك الحالة بل كما انت الآن يابطيطه عنوان الجمال وملكة الصحراء

قالت — من اين عرفت اسمي هذا . ان جميع رجال قبيلتنا يدعونني ملكة الصحراء وجميعهم يطيعون والدي شيخهم ويحبونه كثيراً وطالما اطنبوا في مدحي ايضاً فكنت انفر من تملقهم لئلا يغتاظ أبي و يغار علي فيمنعني حريتي ولكن مالنا ولكل ذلك والآن هل تنظر ذلك المرتفع الاسود امامنا انه مثال ملكة الصحراء الحقيقية فسأقترب منها لتراها كما هي

ونظر محمد علي فرأى مثال شخص هائل الكبر له رأس ضخم جداً وفيه عينان كأنهما تحيطان بالعالم بأسره وتنطقان بعظمة وفم كانه أطبق على اسرار الكون وعلى وجه التمثال لوائح تدل انه قاسى واختبر كثيراً وعلم ماهو العز والشقاء والشك واليقين والسرور والحزن فرأى ان كل ذلك باطل يزول فتبسم على اغترار البشر واكتفى بالسلام والطمانينة فنظر الى ماهو اسمى وارقى من صفات الآلهة ولم يزل تبسمه مع كرور السنين وهو يراقب من جيل الى جيل تغير احوال البشر واطوارهم فرأى الملوك تموت كالفقراء والدول تزول والمعتقدات تتغير والزوال لا يقف عند حد وهو باق كما هو يسمع ولا يُسمع ويخاف منه ولا يخاف احداً حتى لقبوه بابي الهول

وكأن بطيطه قرأت ما يجول في صدر محمد علي فقالت — هذا هو ملكة الصحراء الحقيقية فان الملوك والعظماء والرجال والنساء سقطوا الى التراب امامها ولم تزل حتى الآن اذا اقترب منها البشر وقفوا امام عظمتها وعبدوا الله ومجدوه . ولما قالت ذلك انتهرت الهجين وأمرته بالركوع بصوت خاص فهمه فجثم الى الارض ووثبت عن ظهره بسرعة فوقفت بخشوع امام ذلك التمثال وقدمت صلاة حارة طلبت فيها حفظ والدها وخيمتها وهجينها وما تملك ولم تنس ايضاً اسيرها الغريب فقالت — هبني اللهم ان استعمل اللين مع هذا الاسير فلا يشعر بثقل قيوده وامنحني قلباً طاهراً وابعدعني كل مايؤول

الى اخلاف الوعد الذي وعدت أبي بهِ

ولما اتمت ذلك عادت الى الهجين فملت ظهره فنهض بحمله وسار ولم ينطق احدهما بكلمة فان بطيطه كانت لاتزال في خشوعها ومحمد علي في تصوراته وافكاره ولكنها ما عتمت ان افاقت من سكوتها فاشارت بيدها الى الجهة الاخرى وقالت لاسيرها — انظر نهذه هي الاهرام قبور الفراعنة وفي الجهة المقابلة اهرام أخرى تدعى اهرام سقاره وهي مدافن أيسس المقدسة والى جانبها بلدة البدرشين . وهل ترى تلك النقطة البيضاء في آخر هذا السهل انها خيمة والدي واليها نحن سائرون . ثم عادت الى سكوتها واطلقت لهجينها العنان فسار ينهب الارض نهباً وتلك النقطة التي اشارت اليها تكبر امامهم الى ان بلغاها فوقف الهجين من نفسه فامرته بالركوع ثانية وقالت لمحمد علي — قد بلغنا نهاية سفرنا أيها الغريب وهذه خيمتنا فاني استقبلك فيها على الرحب والسعة فادخلها باسم الله . ولما قالت ذلك نزعت شالها الذي كانت قد ربطت محمد علي بهِ وقبل ان يعلم ماذا يفعل رفعته بين ذراعيها كانه طفل صغير ودخلت به الى الخيمة فوضعته على وسادة كانت هناك وقالت له — استريح الآن من عناء الركوب ريثما احضر لك طعاماً . ثم خرجت وتركته يتبعها بنظره وقد نسي جميع افكاره السابقة وآماله الماضية والمستقبلة وغاص في افكاره وجعل يكلم نفسه بصوت عال — آه يسوءني أمر واحد فقط وهو ان ابيت في معسكري واصبح اسيراً في خيمة شيخ اعرابي فكم يسخر بي جنودي اذا هبوا من رقادهم وعلموا بفقد قائدهم

وسمعت بطيطه هذه الكلمات فاسرعت اليه وعلامات الحزن على وجهها فقالت له — قد احزنتني بكلامك واني اشعر معك بما قلت ولكني أؤكد لك انه لاعار عليك في هذا الاسر فان أبي من اعظم مشايخ العربان سطوة وجميع القبايل تحبه وتحترمه . وعلى كل فارجو ان تعذر بطيطه على عملها هذا فاني اضطررت الى القيام بأمر والدي

قال — انني لا الومك يا بطيطه ولكن ألا تعتقدين انه عار على رجل ولاسيما على جندي ان يكون ملقىً هنا مقيد اليدين والرجلين

قالت — لاانكر ان ذاك صعب ايها الغريب ويسوءني جداً ان اراك في هذه الحالة

وصدقني اني اود جداً ان اخفف عنك هذا المصاب

قال — اذا كان كذلك فاجلسي بجانبي واسمعيني حديثك وقصي عليّ اخبارك الى ان يأتي والدك فاذا سمعت صوتك الملائكي تصورت نفسي في عالم آخر ونسيت ما انا فيه

قالت — لافائدة من جلوسي بقربك وليس فيّ ما يشغلك عن الاهتمام بنفسك فضلاً عن انه يجب تجهيز الطعام ولكني أرى طريقة توافقك وتسليك ولا تمنعني عن اتمام عملي فاذا اقسمت لي انك لا تنجو بنفسك وان تنتظر عودة والدي فانا احل وثاقك واسمح لك بمرافقتي الى الخباء حيث أعد الطعام

فنظر اليها بتعجب وقال — وهل تعتقدين انت بامانة البشر ؟ وهل تتأكدين اني أحافظ على قسمي اذا اقسمت ؟

قالت — ومانفع العالم والحياة به اذا كان الانسان لا يقوم باتمام قسمه . وطالما سمعت من أبي ان الرجل من حافظ على كلامه حتى الى موته . نعم أيها الغريب ان الرجل الشجاع يبر بقسمه ولا يحنث بوعده غير الجبان

قال — وكيف تعلمين اني شجاع ولست جباناً

قالت — ان من نظر الى وجهك مرة واحدة يتأكد ذلك وانا اكرر عليك ما قلته الآن انني احل وثاقك اذا أقسمت لي بانك لا تذهب بل تنتظر قدوم والدي

فرفع محمد علي عينيه الى وجهها بحب وحنو وقال — اني اتعهد لك كرجل شجاع وأقسم بالله العظيم و بالنبي الكريم اني لا اترك هذه الخيمة قبل عودة والدك وقبل ان يطلق هو سراحي فابقى بالقرب منك اتمتع بالنظر اليك كما ينظر العبد الى مولاته فهل تقبليني عبداً لك

وتظاهرت بطيطه بعدم سماع كلامه فانحنت لتخفي ماظهر على وجهها من دلائل الحياء وأخذت تحل وثاق يديه ورجليه حتى اذا انتهت قالت له — قم الآن فانت حر . وما صدق محمد علي ان رأى ذاته مطلق القيد حتى مد ذراعيه يريد ان يضم الفتاة و يقبلها قبلات الشكر . أما هي فنفرت منه نفور الغزال ووثبت الى باب الخيمة قائلة — اذا استهنت بي لعملي هذا فاكون قد اخطأت في ظني بك . فاثرت فيه

كلماتها واحنى رأسه وقال — صدقت يا بطيطـه فسامحيني والآن انا لا ازال اسيرك فري لكي اطيعك

قالت — اريد ان تكون مطلق الحرية ولكن يجب ان تدخل هذا الخباء ولا تفارقه ولا تظهر نفسك اذا مر احد وكلمني واعلم انه لا يجسر احد سوانا على دخول الخباء فهو مقدس وان لم يكن فيه نساء . واعلم ان والدي يكره النساء وقد تزوج اثنتي عشرة منهن ولكنه لم يلبث ان اعادهن الى بيوتهن وهو يقول انهن لا يفدن شيئاً ولا يعملن سوى الكلام الفارغ والنميمة ولا يجلبن سوى الهموم والاتعاب . اما انا فابنته من زوجته الاولى ولم يرزقه الله سواي فحول كل محبته اليَّ ولا سيما الآن وقد صرت اخدمه بكل ما يريد فانا اصلح له الطعام واخيط له اللباس واعتني بمواشيه واسد جميع احتياجاته فاصبحنا لا غنى للواحد منا عن الآخر فهو يحبني بشدة كما احبه انا ولذلك عزمت ان لا افكر بالزواج وان ابقى معه ما حييت .

فقال محمد علي — انك تقولين ذلك لان سهم الحب لم يخترق قلبك بعد يا بطيطه ولكن قولي لي ألا تقبلين بي زوجاً لك ؟

فلم تجبه وقد ظهرت عليها علامات الارتباك ولكنها رفعت ستار الخباء وقالت له انتظرني الآن ريثما اعد الطعام . فدخل محمد علي الخباء كما امرته وجلس ينتظرها وعاد الى تصوراته وقد نسي انه القائد وانه اسير لانه رجع بافكاره الى قوالهفرأى جوهرة تنظر اليه وهو يحادث بطيطه فتبتسم له . ثم رأى وجهاً اخر وهو وجه عائدة زوجته ولم ينسها فقد عاش معها عشر سنوات وهي ام بنيه الذين لم ينسهم قط وشعر اذ ذاك بانقباض في صدره وشوق عظيم لان يرى زوجته واولاده . نعم لم ينس تلك السنوات العشر وعائدة بجانبـه تسليه وتواسيه ومع ذلك فان القلب لا يشيخ مع الانسان بل يبقى في شبيبته فكل يوم له هوى جديد . وكل هوى جديد يحسبه باكورة حبـه . وشعر محمد علي في تلك الدقيقة انه يهوى هذه الفتاة وانها لو كانت جركيه او شركسية بدلاً من ان تكون ابنة شيخ اعرابي لكان وضع امامها جميع ما يملك شرط ان تتخذه زوجاً لها ثم تبسم وقال ان نبينا صلى الله عليه وسلم قد درس قلب الانسان فاجاز له

ان يتخذ اربع نساء فما اعدل ذلك وما اسعدني اذا اتخذت بطيطه زوجة ثانية .

ودخلت اذ ذاك بطيطه تحمل طبقاً من الخشب عليه شيء من التمر والموز والخبز الاسود والزبدة فوضعته امامه وقالت له — خذ ايها الغريب العزيز هذا الخبز واكسره ولنأ كل سويةً علامة الصداقة والاخاء فيكون شخصك مقدساً عندي . فاخذ محمد علي رغيفاً قطعه نصفين ناولها احدهما وجلس الاثنان يأكلان وهي تسليه بحديثها وتخبره عما تعمله في خيمتها وعن طريقة جزاز الماعز وحياكة صوفها . وكان محمد علي يسمع وقد تصور نفسه غلاماً على اكمة صخور قواله وان بطيطه تشخص له الطبيعة التي كانت تحيط به حينئذٍ واسكرته تلك البساطة والطهارة بعيدًا عن حركة العالم وضوضائه ولكنه ما عتم ان عاد الى التفكر بحاضره وخطر له ان الحرب قائمة الآن بين يوسف بك والمماليك وان الاول قد انتصر عليهم فماذا يكون نصيب محمد علي اذا وقع في يد البرديسي سوى ان ينتقم هذا منه بقساوة وفظاعة . واذا كان المماليك الغالبون وهزم يوسف بك فماذا يكون نصيب محمد علي أيضاً اذا عاد يوسف بك الى خسرو باشا وشكاه اليه واتهمه بالخيانة . نعم بالخيانة لانه لا يمكن ان يعتقد باسره دون حرب وكانت هذه الافكار تتنازعه فلم يطيق الجلوس فنهض وجعل يتمشى في الخباء ثم نظر الى بطيطه وقال لها — اشكرك جدًا من صميم فؤادي على هذا الطعام وانما ارجو ان لا تؤخري اشغالك المنزلية لاجلي ولا يهمك امري اذا بقيت وحدي

فنظرت اليه وقد جرحتها كلماته وقالت — انك ترغب الوحدة وقد اسأتك بحديثي الذي لا يهمك فسأذهب عنك . نعم كان يجب عليّ ان انتبه الى ذلك قبلاً واعلم ان من كان في مركزك لا يسر بمحادثة ابنة بدوية فقيرة فاعذرني على ما فرط مني وها انا ذاهبة الى اتمام عملي كما قلت ولا ازال معتقدة بوعدك انك لا تخرج من هذا الخباء

فقال — يمكنك ان تثقي بوعدي الذي لا أنكث به فانا اسيرك وعبدك . نعم اني اسيرك اكثر مما تظنين

فتبسمت كان كلامه هذا كان ترضية فاحنت له رأسها علامة الشكر وخرجت

الفصل الثالث

الاتفاق

صرف محمد علي كل ذلك النهار في الخباء منفردًا بأفكاره وتأملاته وقد ضايقه الانفراد واشتقاق الاخبار البرديسي ومعسكره واستغرب تأخر الشيخ عنان وقد كان فهم انه سيعود في الصباح · ولم يرَ بطيطه فانها بقيت كل النهار خارج الخباء مهتمة باعمالها وهي لا تريد ان تدخل الخباء لئلا تزعجهُ فلما غربت الشمس احضرت الطعام ودخلت اليه ودعته فجلسا يأ كلان · وحاول محمد علي ان يطرد همومه و يغازل الفتاة غير انها رأتهُ يحاول اخفاء كدره فنظرت اليـه بطرف كسير وقالت له — ألا تزال كئيبًا فقل لي هو بوسعي ان اعمل لك شيئًا يجلب لك السلوى والسرور · انني عالمة بانزعاجك وان هـذا الخباء ضيق على نفسك الكبيرة التي كان يجب ان تمد اجنحتها فوق العالم الواسع الجميـل · فتبسم محمد علي بحرارة وقال — وماذا تعلمين من العالم الواسع وكيف تعرفين انه جميل ؟

قالت — كيف لا اعرفه وقد ذهبت مرارًا الى طنطا مع والدي وسمعت القصاصين يتلون السير والاحاديث وقد سمعت الغوازي ايضًا ينشدن الاغاني المطربة فآه كم كان يسرني ذلك حتى انني اقتنيت لنفسي زمارةً فكان اذا ذهب والدي وتركني وحدي انفخ فيها واعيد تلك الاغاني فتنفي عني الكدر الذي تسببه الوحدة · فهل تريد ان تسمع ذلك علك تجد بعض التسلية · وقبل ان يجيبها محمد علي نهضت فأخذت الزمارة ونفختها ثم جعلت تحرك اصابعها برشاقة واندفعت تغني بصوت شجي حتى اذا انتهت نظرت الى محمد علي فرأته وقد سرّي عنه فابرقت اسرتها وقالت ألم اقل لك انني استطيع نزع غيوم الاحزان المتلبدة فوق جبينك فها انت تبتسم وبما ان العلاج ناجع فساعيـده · ثم اصاحت الزمارة ثانيةً و بدأت بأغنية أخرى تصف فيها فتىً احب فتاة و بعدت عنه فهو يخاطبها ويقول « يا غزالي الذي سرقت قلبي عد اليّ وارحم محبك » · فمد محمد علي ذراعيه وقال لها — يا غزالي الذي سرقت

قلبي عد اليّ وارحم محبك قد فرجت كربي وازلت كدري يا بطيطه ولكنك قد اسرت قلبي فبالله ارحميني ولا تذهبي بقلبي وعديني ان تكوني لي

فلم تجبه ولكنها نهضت الى باب الخيمة ونظرت الى الظلمة ثم قالت له اترى هذين الشبحين ان احدهما والدي فقد عاد و برفقته آخر . فنظر محمد علي ولكنه لم يرى شيئاً فقال لها — ان قدوم ابيك لا يسرني الآن بل يزيد حزني واذا زعمت اني سئمت الاقامة هنا فانت مخطئة لان قلبي قد تعلق بك يا بطيطه فكلميني

قالت وهي تحاول تغيير الموضوع — انظر يا حضرة القائد قد رآني ابي فانه يلوح بيده . تعال دعنا ندخل الخباء فان لي شيئاً اقوله لك . ثم دفعته الى داخل وقالت — قد نسيت ما اردت ان اقوله ولكنني اظن اني كنت اريد ان اشكرك على قولك انك لم تتكدر ببقاءك هنا . يخال لي اننا لم نجتمع الا منذ دقيقة فقط ومع ذلك فان هذه الدقيقة هي بمثابة الابدية عندي فقد غيرتني جداً وجعلتني غير ما كنت بالامس

فقال محمد علي وقد لمعت نار الحب في عينيه — وعلام ترتعشين ايتها العزيزة وعلام ارى الدموع في عينيك ؟

قالت — لاني عديمة العقل واشعر بحاسة غريبة تسلطت علي . آه انك ذاهب الان لان الرجل القادم مع ابي سيأخذك فلا اعود اراك

قال — اذا كان كذلك فزوديني تذكاراً منك واسمحي لي باحدى هذه الورود التي على شفتيك

فمدت يدها بتعجب ومسحت شفتيها وقالت — ماذا تعني فانه لا يوجد ورود هنا

قال بلى فان شفتيك حمراوان كالورد فدعيني آخذ منها قبلة . ولما قال ذلك انحنى حتى لامس رأسه رأسها وشعرت بنفسه الحار على وجنتها وقد صبغها الاحمرار فمدت شفتاها بالرغم عنها ولكنها رجعت فجأة كأنها تغالب نفسها وقالت — الم اقل لك اني وعدت والدي بان لا يقبلني سوى الرجل الذي اصير زوجته فبالله عليك ارحمني . وهوذا والدي قادم فاستودعك الله اذا لم اعد اراك بعد . دعني اذكرك

بالخير واقول انك لم تجبرني على الاخلال بوعدي واطلب لك الخير والتوفيق . ولما قالت ذلك دفعته واسرعت الى باب الخيمة لملاقاة والدها وكان قد صار قريباً فناداها وحياها ثم قال — قولي لي يا بطيطه هل حفظت وعدك وهل لا يزال الاسير في امان ؟

قالت — نعم يا ابتاه تعال وانظر ثم أخذت بيده وادخلته الى الخباء دون ان تهتم بالشخص الثاني الذي جاء برفقته او تنظر اليه . وشعر محمد علي بقدوم الشيخ عنان فجاء لمقابلته وقد نصب قامته واعاد الى وجهه هيئة العظمة حتى ان بطيطه نفسها استغربت منظره فقال — قل لي ايها الشيخ باية جراءة وباي قوة تجرأت على انتشالي من وسط معسكري ولم تخف غضبي وقصاصي

فانحنى الشيخ عنان امامه وقال — ارجوك ان تعذرني يا سيدي لانني انما قمت بما أمرني سيدي عثمان بك البرديسي وها هو قادم برفقتي مكلل بالانتصار فسله وهو يجيبك . ثم نظر الى ابنته وقال — تعالي يا بطيطه فان لهما حديث ليس من شأننا سماعه فقد اتممنا واجباتنا وبر عثمان بك بوعده ورجالي لا يزالون في ساحة القتال يجمعون الاسلاب ولا بد من عودتي اليهم . واعلمي اننا جمعنا الاثواب الحريرية والآنية الذهبية والخناجر المرصعة والاسلحة الثمينة ما يسرك جدا الحصول عليه . وكان يكلمها وهو يسير بها الى الخيمة وكان عثمان بك البرديسي قد صار امام محمد علي فوقف الاثنان ينظران الواحد الى الآخر وكل ينتظر ان يبدأ الثاني بالكلام . وبعد هنيهة بدأ البرديسي فقال — هذه ثالث مرة نتقابل بها يا محمد علي . فان اول مرة جمعتنا الظروف في قواله وكنا غلامين نكلم بعضنا كما يتحدث الغلمان ولكنني لم انس تلك المقابلة في السنوات التالية فطالما تذكرت ذلك الفتى ذا النظر الحاد والتبسم المريع . ثم اجتمعنا للمرة الثانية منذ مدة قريبة بعد مذبحة ابي قير وكنت عدوي اللدود ولكنك عاملتني كصديق وانقذت حياتي من ايدي جنودك فقلت لك انني اذكر صنيعك هذا يا محمد علي وسا كون صديقك ما حييت

فقال محمد علي — نعم قد قلت ذلك وها أنت الآن تبرهن عن تلك الصداقة

باخذك أيـاي من وسط معسكري فصدتني كما تصاد وحوش البرية وجعلتني اضحوكة للعالم

فقال البرديسي ـ لا تقل ذلك ايها الصديق فلم يعلم احد من اتباعك ولا من رجالي بما جرى وانا أقسم لك بالله أنه لن يعلم أحد سوانا بما كان سوى الشيخ عنان وأبنته وهذان اكتم من القبر وأأمن من الامانة فكن براحة من هذا القبيل . ولنعد الى تتمة الكلام فهذا ثالث اجتماع بيننا وهل تدري سببه يا محمد علي ؟ انني بذلت وسعي في اختطافك من المعسكر لاني وعدت أن اكون صديقك ولم ارد أن أقابلك في الحرب كعدو فربما أصابتك رصاصة طائشة اردتك صريعاً فكيف اكون اذ ذاك صديقك. انني أشعر بميل غريب اليك اجهل سببه . اني أود ان احارب الى جانبك وليس ضدك اننا اذا اتحدنا يا محمد علي فلا يعارضنا معارض ونتمكن من جعل بلادنا هذه بلاد الراحة والامان والاستقلال وقد قرأت في عينيك هذه الامنية في مقابلتنا الثانية وسمعت صوتاً يقول لي يجب ان يكون محمد علي صديقك نعم رأيت في عينيك نورًا غريباً جعلني احبك محبة شديدة لاني لم ار مثل هذا النور الا في عين رجل آخر كان عدوًا لنا ولا ازال اتأسف على تركه ايانا

فقال محمد علي ومن هو هذا الرجل يا ترى

قال— هو قائد فرنسوي يسمى بونابرت كان رجلاً عظيماً وانت تشبهه تماماً وتنظر مثله الى العالم. وهو مثلك شعر بقوته وبدم الابطال الذي يسير في عروقه فاراد اخضاع العالم ولكنه لم يستطع لانه ارتكب غلطاً فاضحاً بمعاداته للماليك . فأصلح انت ما افسده هو وكن صديقاً لنا واترك هذا النائب ورجاله الخونة فان نفسك كبيرة واعمالك كبيرة وآمالك عظيمة فلا يليق بك ان تختلط بهؤلاء الاقوام

وكان محمد علي يسمع كلام البرديسي كأنه في حلم فصاح قائلاً — اواه انهُ لا يليق بي نعم لا يليق بي .....

فقاطعه البرديسي قائلاً — اسمح لي ايها الصديق ان اتمم كلامي فهل تعلم

من اين اتيت الآن ؟ انظر هل ترى هذه البقع الحمراء على ثوبي انها اثار الدماء التي سفكت في هذا النهار وان كنت في شك مما اقول فاذهب الى سهل دمنهور وانظر جثث القتلى التي لا تزال تغطي ذلك السهل · جثث رجال يوسف بك · وقد احصينا القتلى فوجدنا ثلاثة الاف قتيل من ذلك الجيش اما المماليك ففقد منهم ستون قتيلاً · وقد لا تصدق ذلك ولكنه الحقيقة بعينها وقد فزنا في هذه الموقعة فوزًا باهرًا والذين لم يسقطوا قتلى او جرحى من جيش يوسف بك لاذوا بالفرار قاصدين القاهرة ليخبروا ولي امرهم ان ثمانماية من المماليك كسروا جيش يوسف بك اركان حرب النائب العظيم · نعم ان يوسف بك نفسه فرّ عائدًا الى القاهرة حاملاً عاره · اما هيئة القتال فكانت هكذا : صف يوسف بك جيشه لمقابلتنا ووراءه رجال مدفعيته فلما قابلناهم امر فاطلقت المدافع وكان فعلها في صفوفنا مريعًا · وخشيت ان يعمل الخوف في قلوب رجالي فصحت فيهم وشجعتهم ورايت انه يستحيل علينا مقابلة العدو من الامام فسرت في مقدمة رجالي وامرتهم ان يتبعوني وقبل ان يتمكن العدو من تحويل مدافعه الى الجهة الثانية كنا قد بلغنا ميسرتهم فهجمنا هجمة قاضية · ولم يكن العدو مستعدًا لذلك فما عتم ان ظهر الاختلال في فرقته الاولى وهلعت قلوب رجاله فوصلنا اليهم واعملنا فيهم سيوفنا فاستولى عليهم الرعب واركنوا الى الفرار فادركناهم ولم نزل نجد في اثرهم مسافة بعيدة وقد تركت الشيخ عنان ورجاله لجمع الاسلاب ونهب القتلى فان رجالنا تأنف من ذلك وتكتفي بما حصلنا عليه من المدافع والذخيرة واصبحت رجال المماليك تقول يا له من يوم سعيد كما سيقول النائب متى بلغه الخبر يا له من يوم بؤس وشقاء · فهل فهمت الآن يا محمد علي السبب الذي من اجله امرت الشيخ عنان ان يختطفك من معسكرك ؟ فعلت ذلك لسببين الاول عملاً بواجب الصداقة والثاني لنفي

الخاص . وساوضح لك ذلك . بلغني انهُ اذا هُزم يوسف بك فسيرسل يستدعيك لمساعدته وقد رايت بعيني رسوله اليك فلو اتيت لما وصلت الا بعد فوات الوقت ولا يكون امامك الا الفشل لان جنودك تصل منهوكة القوى من المسير فلا تستطيع مقابلة المماليك وهم سكارى بخمرة الانتصار فقد فعلت ذلك حباً بك وعملاً بالصداقة . ولا اخفي عنك ايضاً انني فعلته رغبة في مصلحتي فقد علمت مقدرتك وعرفت مايجول في صدرك منذ وقعت عيني عليك في ابي قير وقلت انك بطل عظيم فالويل للمماليك اذا كنت خصمهم في القتال ويا لسرورهم اذا تمكنوا من استمالتك اليهم فها انا اتوسل اليك يا محمد علي ان تنضم الينا وتترك الذين رايت بنفسك خيانتهم في ابي قير . ولا اشك ان نفسك العالية تستاء من تلك المذبحة التي قتل فيها جمع من المماليك غدراً . ربما لا تعترف بذلك الآن مادمت في خدمتهم ولكنك تعتقد مثلي انهم ليسوا اهلاً للتسلط على بلاد تسود فيها الامانة ويعمها السلام وان من حقوقنا البقاء هنا وطرد هؤلاء الدخلاء ولكي نطردهم نحتاج الى ايدٍ قوية مثل يدك فتعال الينا نجعلك رئيساً وقائداً كما كان مراد بك ونجعلك اميراً علينا ضمن جدران القلعة فنصدع بامرك ونقدم لك الخضوع ونعترف بك اخاً لنا وسيداً . والآن قد فرغت من كلامي فما هو جوابك

وكان عثمان بك البرديسي ينظر الى محمد علي ويتوقع جوابه بشوق عظيم اما هذا فسكت برهة ثم قال — وهل تنتظر مني جواباً الآن وانا مرتدٍ بثوب الجندية التركي ووظيفتي قائد في جيش الخليفة وبالاحرى في جيش نائبه خسرو باشا ؟ انني لا ازال في الثوب الذي قبل ارتدائه اقسمت على الامانة والاخلاص . وفضلاً عن ذلك فانا اسيرك الآن فهل يليق بالاسير ان يعقد اتفاقاً مع آسره ضد ولي امره ؟ فاذا اجبتك الى طلبك الآن فكأَني اشتري حريتي بخيانة . دع المجاملة

جانباً واجبني بصراحة ياعثمان بك

فقال البرديسي — لست اسيري يامحمد علي بل انت حر الآن كما اراك مطلق التصرف . ولا انكر انني نصبت لك شركاً اردت بهِ احضارك لمقابلتي لاكلمك كما افعل الآن وها انا اعيد كلامي انك حرٌ لا يعارضك احد فقل لي ماذا ترى

فقال محمد علي — انك احكم من ان تتجاهل عما يجول في صدري الآن ولكنك ترى اني لا ازال في هذه البدلة وان الجنود بانتظاري فما زلت معروفاً باسم ضابط تركي لا يليق بشرفي ان امرق من تحت طاعة رئيسي واحرض الجند ايضاً على العصيان . فانتظر ياعثمان بك . ان من رام شيئاً لايستطيع الحصول عليه حالاً فانتظر واعطني يدك قبل ان نفترق فاني اود ان اصافح بطلاً شجاعاً نظيرك . انتظر جوابي ثمانية ايام فابلغك ما اصمم عليه سراً وان شئت فعين لي الرسول الذي تود ان اعطيه جوابي

فمد البرديسي يده الضخمة وصافح محمد علي ولكنه لم يفه بكلمة فقال محمد علي — يظهر انك لم تثق بي تماماً وقد رايت من الخيانة والغدر في زمانك ماجعلك ترتاب بصدق محمد علي ولكن دع المستقبل يبرهن لك عن معدن هذا الصديق وانتظر جوابي فاني سابعث به اليك مع الست نفيسه

فقال البرديسي — انها ارملة رئيسنا السابق ومولاتنا وجميعنا نحترمها ونطيعها

فقال محمد علي وهو يتبسم — انا اعلم ذلك فانتظر جوابي بواسطتها . والآن هل تسمح لي بالذهاب ؟

قال — انت حر ايها الصديق وساحرم نفسي من لذة مرافقتك لئلا يرانا احد ويشتهر امر اتفاقنا فساسير قبلك الى حيث ينتظرني بعض اتباعي اما انت فستركب الهجين وتصحبك الفتاة التي جاءت بك فهي ادرى منك بالطريق .

فهات يدك للمرة الثانية ودعني ارافقك الى الخيمة وترتاح قليلاً ريثما يستعد الهجين للسير . ثم سار الاثنان فدخلا الخيمة وامر البرديسي الشيخ عنان ان يرجع محمد علي حسب الاتفاق . اما محمد علي فدخل الخباء فوجد بطيطه جالسة وقد اسندت رأسها الى يديها وهي شاخصة الى البقعة التي تناولت فيها الطعام مع ضيفها فلم تشعر بدخوله حتى ناداها فارتعشت والتفتت اليه فرأى على وجهها علامات الحزن وقد فارق شفتيها التبسم فقال لها — مالك حزينة يا بطيطه ؟

قالت وقد اطرقت الى الارض — انك ذاهبٌ الآن . ان ابي يعد الهجين لركوبك فستتركنا حالاً

قال — نعم يجب ان اذهب الى حيث تستدعيني واجباتي ولكنهم اخبروني انك ستذهبين معي لتريني الطريق

فهزت رأسها وقالت — ارجو ان لا تقبل ذلك واطلب ان يرافقك والدي عوضاً عني

فقال — ولماذا ؟ هل تكرهين مرافقتي ساعة اخرى . هل ظهر لك مني ما يسوءك ويجعلك تنفرين من الذهاب بصحبتي . هل تخافين مني ؟

قالت — لا ليس الامر كذلك ولكنه يؤلمني جداً ان اراك تتركنا . انني لا اخافك ولكنني اخاف من نفسي . اخاف ان احبك وانت قائد عظيم ذو مقام سامٍ وما انا سوى بدوية فقيرة تنازلت فقبلت ضيافتها . لا . لا خيرٌ لي ان لا اذهب برفقتك وقد اخبرت والدي باني لا اذهب وبحجة اني تعبت جداً في الصباح . ولشدة محبته لي فضل ان يؤخر رجوعه الى ساحة القتال وان يتأخر عن جمع الاسلاب والغنائم فيرافقك اذا شئت

قال — اذا شئت ؟ وهل اشاء أن احرم نفسي من سعادة عظمى يا بطيطه .

ولكن لا بأس عليك فان هذا الشعور يزيد حبي لك فقد احسنت والان قولي لي هل تذكرينني دائماً كما اذكرك وهل تعديني أن لا تنسين محمد علي ؟ . قالت — نعم اعدك . قال — وهل تحافظين على وعدك لابيك فلا تدعين أحداً ينال منك قبلة سوى زوجك ؟ قالت — نعم نعم . قال أذاً يحق لي أنا أن أقبلك . ثم أخذها بين يديه وضمها الى صدره وقبلها وخرج من الخباء . أما هي فارتعشت اعضاءها وأنطرحت الى الارض وقد تخيل لها أنها في جنة نعيم الحب . ولما خرج محمد علي رأى الشيخ عنان فقال له — أرجو أن تذهب انت بصحبتي فان ابنتك لا تستطيع الركوب الان . فقال الشيخ نعم وقد قالت لي ذلك . ثم أشار الى الهجين فجثا ووثب محمد علي الى ظهره ثم تبعه الشيخ ولما نهض الهجين صاح محمد علي قائلاً — أستودعك الله يا بطيطه . ولكنها لم تجبه ولم تشاء أن تخرج من الخباء لئلا يرى والدها دموعها فبقيت صامتة وهي تسكب دموع الفرح والحزن وتقول لنفسها أواه لقد ذهب ولكنه لا يزال معي

ولم يزل الراكبان يجدان السير والهجين يطوي بهما فيافي الصحراء حتى بلغا حدودها وكان الشيخ قد ترك هناك جوادين فترجلا عن الهجين وصاح به الشيخ عنان بصوت مألوف فعاد ادراجه وقال الشيخ أن هجيني يعرف طريق الخيمة ويذهب اليها من نفسه فهو لا يقف الان الا أمام ابنتي . ثم أشار الى محمد علي فامتطى صهوة أحد الجوادين وركب الشيخ عنان الاخر وأطلقا لهما الاعنة في وسط تلك السهول المخصبة الخضراء . وبعد أن أجتازا مسافة اوقف الشيخ جواده وقال — أترى ذلك الخط الاسود أنه معسكرك فهل تريد أن أرافقك بعد

فقال محمد علي — لا فاستودعك الله وأرجو قبول هذا مني دليل شكري لحسن ضيافتك ودفع للشيخ كيساً ملاناً من النقود الذهبية فرفضه الشيخ بعظمة وقال — أن كلامك يناقض نفسه يا سيدي فقد قلت انك كنت في ضيافتي وتريد أن تدفع لي نقوداً . أن الضيف لا يدفع ثمن الضيافة بل يقدم هدية حب وصداقة فلو فعلت ذلك لقبلته منك وقبلته بطيطه أيضاً

قال — انني أشكرك وأباها على ما لقيته عندكما وسأذكركما ما حييت . قال ذلك وهمز الجواد بفخذيه فانطلق يعدو به كالسهم حتى بلغ طرف المعسكر فترجل وترك الجواد يرجع لنفسه وتقدم بسكون يستره الظلام حتى بلغ خيمته فرفع جانبها ودخل ولم يكن فيها أحد غير أنه سمع كلاماً في خارجها فانصت واذا ببعض ضباط الجيش يتكلمون عنه و يعجبون من اختفائه . وهم يتساءلون عما اذا كانوا يداومون البحث عنه أو يعودون الى القاهرة . فكان يسمعهم وهو يتبسم ثم رفع ستار الخيمة ووثب الى الخارج فصار بينهم فرفعوا اصواتهم بالترحيب والسرور وتألبوا حوله يسألونه عن سبب غيابه وأين كان وماذا حصل له . أما هو فقطب حاجبيه وقال — وهل من واجبات الجنود أن يطلعوا على أعمال قائدهم ويسألونه عن تصرفاته . فلما سكت الجميع وقد أطرقوا حياء خفف من حدته وقال — أنكم انما تسألوني ذلك من محبتكم لي فلذلك أقص عليكم خبري فاعلموا أنني ذهبت في ليل الامس وحدي الى دمنهور الى معسكر يوسف بك و رجاله لاستطلع أحوالهم فبلغت المكان عند أبتدأ القتال ولم أجد فرصة للذهاب الى مساعدة يوسف بك . ولم أستطع تركه بعد أن رأيت ما رأيت وأن لم يكن يعلم أحد بوجودي هناك فشهرت سيفي وانضممت الى الجنود أقاتل معهم كجندي بسيط ولكن لسوء الحظ لم يكن النصر حليف جيوشنا فانهزمنا ورجعت كما ذهبت . فالان يجب أن ننتظر في هذا المكان فاذا قدم المماليك ليهاجمونا هنا نريهم ما نستطيع واذا أكتفوا بانتصارهم في الامس و بقوا في مكانهم الى الغد نعود الى القاهرة . والان قد علمتم كل ذلك فاذهبوا وأخبروا جنودكم بما كان

فلما سمع الضباط ذلك خرجوا معجبين بقوة قائدهم وشجاعته وكان محمد علي قد أمتلك أفئدتهم بما كان يريهم من بسالته الفائقة فانصرفوا ولما أنتصف الليل ونام الجميع دخل محمد علي الى خيمته وأنطرح على وسادته وهو يحاول أن يجد في النوم ما يعوض عليه تعب الامس

واستولى عليه الأرق فنهض وجعل يتمشى في خيمته ذهاباً واياباً تتنازعه الافكار وتنتقل به من حب بطيطه الى كلام عثمان بك ويقابل حالته الحاضرة

مع ماسبقها من الحوادث التي غيرت عزمه مرارًا ونظر الى مصر وحالتها في ايدي الاتراك والماليك وحاول ان يقنع نفسه في مَنْ من الطرفين يسعى في صالح البلاد وخيرها فوجدها العوبةً تحركها مطامع الجميع وهي فريسة تتناوبها الايدي فلا تتحرك ساكنًا ولا ترى في ارجائها عدلاً ولا شريعة · نعم وجدها آيلة الى الخراب مالم يرسل الله لها منقذاً يضمد جراحها وما ادراه ان لم يكن قدساقه القدر وعينه منقذًا يرفع الشعب المدوس من التراب وينصب له عرشاً على الارض التى لا تزال تتصاعد منها ابخرة الدماء وانفاس القتلى

ثم صمت برهة كأنه يبحث عن الطريق التي تؤدي بهِ الى نيل امنيته ثم قال لنفسهِ — نعم سأتبع الطريق التي عرضت علي · ولا اهتم الا بما يعود علي بالنفع الشخصي ويبلغني غايتي وساجعل شعاري الحكمة والتروي والحذر · لا يوافقني ان اتغلب على اعدائي باثارة الفتن فان هذا العمل يعد اغتصابًا ويستحق القصاص فيجب ان ابذل جهدي ليحبني الشعب وينهضني بيديهِ فيجلسني على العرش فاكون الحاكم الشرعي · فاجمع قواك يا محمد علي وكن اسدًا ونمرًا وحيةً وبطلاً لتنال امنيتك

ولما أصبح الصباح جاء الرقباء وأخبروا محمد علي انهم لم يرو اثرًا للعدو فقال اذًا نرجع الى القاهرة وما سمع الجنود ذلك حتى ارتفع هتافهم فتبسم محمد علي وقال وأنا يسرني هذا الرجوع لئلا أضطر الى مقاتلة الماليك ومن يعلم أذا كنا لا نحارب معهم بعد قليل · وكانت اخبار الموقعة قد بلغت القاهرة فكان الاهالي يستقبلونها اما بالاستياء او بالسرور حسب ما يشعرون به نحو النائب من المحبة أو الكره ومع ذلك لما دخل محمد علي العاصمة مع جنوده استقبله الجميع بالترحاب وأصوات التهليل فامر أن يذهب الجنود الى اماكنهم وتوجه الى منزله ليريح نفسه وينتظر ما يكون · وعادت بقية الجيش المنهزم فدخلت القاهرة وتوجه يوسف بك الى القلعة وطلب الدخول على

خسرو باشا في نفس الوقت الذي كان يدخل محمد علي ورجاله الى البلدة وقص عليه خبر المعركة وكيف نجا من القتل بأعجوبة وكانه خشي أن يلام على هربه مع الالوف من رجاله أمام ثمانماية من المماليك فحاول أن يضع اللوم على غيره فانهى حديثه قائلاً – أن في الامر خيانة يا مولاي واللوم كله على محمد علي وطاهر باشا اللذان لم يسرعا لنجدتي وتركاني اقاتل وحدي . نعم أني أشكوهما اليك واكرر قولي أن محمد علي وطاهر باشا قد أرتكبا أعظم خيانة وكانا سبب هلاك الجيش وعدم النجاح فقد علما الخطر الذي كنت فيه ولم ينضما اليَّ لانهما يريدان سقوطي ليرتفعا عليَّ ويستوليا على النعمة التي خصصتني بها . فانا أطلب استحضارهما ليبرهنا انهما غير خائنين

فتأثر خسرو باشا من كلام أركان حربه وربما زاد تأثره لانه كان هو نفسه يعتقد مثل ذلك الاعتقاد وكان يظن دائماً أن محمد علي لا يزال عدوه ويطلب الانتقام منه على هدمه سعادته فقال – كلامك حق يا يوسف بك فانا أعدك بشرفي أن اهتم في هذا الامر وسأوالي البحث والتدقيق فالويل لهما أذا ثبت عليهما ذلك وفي تلك الدقيقة دخل الردهة رسول ينبيء خسرو باشا بعودة محمد علي وجنوده فامر الباشا الرسول أن يعود للحال ويدعو محمد علي للحضور أمامه ليعطيه تقريراً عما فعله .

فلما جاء الرسول الى محمد علي وبلغه أمر الباشا قال له بكل عظمة وهدوء – أذهب وقل للباشا أنني سأتشرف بمقابلته غداً في القلعة مع جنودي فانهم تعابى الآن ومحتاجون الى الراحة وأنا لاأذهب وحدي فلينتظرنا في صباح الغد

واقام محمد علي على كلامه فلما كان الصباح جمع جنوده وسار بهم الى القلعة حتى وقفوا امام قصر خسرو باشا واندفعوا يصيحون قائلين – اننا آتون لقبض اجورنا . أننا في حاجة الى الطعام والنقود » فتركهم محمد علي في هذه الحالة وقد ملاء صياحهم الجو ودخل القصر تحيط به ضباطه فرأى خسرو باشا في انتظاره ولم ينتظر ريثما يكلمه الباشا ويأمره بالكلام حسب المألوف بل وقف فحيا التحية العسكرية وقال –

أن دولتك تسمع صياح الجند فهم آتون لطلب الاجرة التي استحقت لهم منذ زمان طويل

فنظر خسرو باشا الى محمد علي نظرة كلها غضب واحتقار وقال له — ارى أنك قد عدت الى وقاحة ذلك الفتى الفظ الذي رأيته في قواله

فقال محمد علي — نحن الاثنان باقيان على ما كنا عليه ولم نتغير وسابرهن لك عن ذلك ·

ولم يسمع احد ما دار بين الباشا ومحمد علي من هذا الحديث ولكن نظر الجميع الى خسرو باشا فرأوه وقد أمتقع لون وجهه وأشتعلت نيران الغضب في عينيه وبعد أن صمت برهة قال — أذهب الان الى منزلك ودع الجنود تعود الى امكنتها وسيصلك جوابي مع الدفتردار بعد أسبوع

فدار محمد علي ظهره وترك الغرفة ومعه رجاله ولما صار أمام الجنود صاح بهم قائلاً — قد أخذنا وعداً جديداً فلننتظر هذا الوعد · ورأى الجنود في هيئة قائدهم ما دلهم على شجاعته وأنه لم يعد ينتظر اللين ففرحوا جداً وكانوا يكرهون النائب وعجرفته ويودون لو أمرهم محمد علي أن يهدموا جدران القصر على رأس ذلك الرجل المتكبر فرفعوا اصواتهم وصاحوا قائلين — ننتظر حسب أمرك ومهما امرتنا نفعل · ثم فرقهم فذهب كلٌّ الى مكانه ورجع محمد علي الى قصره وعلى شفتيه تبسم وهو يقول لنفسه — قد اقترب الوقت وأزفت ساعة العمل وسيرى خسرو باشا انني لا أزال كما قال نفس محمد علي الذي رآه في قواله · نعم نفس ذلك الشخص الذي أقسم على الانتقام

الفصل الرابع

تدبير العصيان

وعد خسرو باشا محمد علي أن يجيبه بعد أسبوع ولم يجهل أن هذا الوقت يكفيه

لجمع المال اللازم ولكن القدر أبي الا معاندة خسرو باشا لانه ما عتم أن جاءه رسول يخبره أن طاهر باشا قابل فرقة من المماليك وأنتشب بينهما القتال وانجلى عن تشتيت شمل الجنود وقتل العدد الاكبر منها وأن طاهر باشا قادم بمن بقي الى القاهرة . فجحظت عينا خسرو واستولى عليه الكدر فصاح قـائلاً — لا لا يجب أن يدخل العاصمة ففيها الان ما يكفيها من الجنود الثائرة التي تطالب باجورها فاذا أنضمت اليها جنود طاهر وقعنا في خراب محتم وخزائن المـال لا يوجد فيها درهم فارسلوا الساعة رسولاً ليقابل طاهر باشا و يأمره أن يتوجه الى طنطا رأساً و ينتظر أوامري هناك وأني أحظر عليه دخول العاصمة الان . يظنون القاهرة تحولت الى معسكر عام أما كفانا وجود محمد علي ورجاله حتى يأتينا هذا أيضاً .لا .لاوالله لن أذن له بالمجي الى هنا فارسلوا رسولاً يحمل له امري هذا بدون تأخير .

سار الرسول بسرعة فائقة ليبلغ أمر مولاه ولكنه لم يجتمع بطاهر باشا لان هذا كان قد وصل اليه رسول آخر لم يبح باسم مرسله وقال له—اسرع الى القاهرة برجالك فان خسرو باشا سيرسل يأمرك بعدم دخولها ليمنع الرواتب عنكم . ولم يعلم طاهر باشا من ارسل اليه بهذه النصيحة ولكنه صدقها وشكر الرسول وعزم ان يدخل العاصمـة من طريق أخرى لا يقابله فيها رسول الباشا وهكذا حدث فانه في اليوم الثالث بلغ القاهرة بجنوده وارتفع صراخ العساكر في ازقة القاهرة وشوارعها حتى بلغ أذني خسرو باشا فلما علم بقدومهم بلغ منه الغيظ ولا سيما عند ماجاءه الدفتردار واعلمه ان العساكر لم تنصرف الى اماكنها بل جاءت رأساً الى القلعة تطالب طعامها ولباسها ورواتبها . فقال خسرو باشا — اواه ما العمل وليس عندنا شيء من المال فاني ا كاد افقد عقلي . وبعد ان صمت برهة قال للدفتردار وقد ابرقت اسرته — بقي لدينا وسيلة واحدة . ان محمد علي رجل واسع الاطلاع بعيد النظر فيجب ان نستشيره في أمرنا وان اظهر لنا العداء فلا بد من مصالحته ومنعه عن الانضمام الى طاهر باشا والا كسرا شوكتنا

ثم قال للدفتردار — اذهب اليه بنفسك واطلب اليه ان يأتي لمقابلتي حالاً لاننا اذا عجزنا عن دفع رواتب العساكر فلا اقل من دفع راتب قائدهم . ولما خرج

الدفتردار توجه خسرو باشا الى خزينته الخاصة فاخذ منها عشرة اكيـاس من القطع الذهبية وحملها بنفسه الى الغرفة التي سيقابل فيها محمد علي · اماالدفتردارفلما بلغ ساحة قصر محمد علي رأى فيها فرقة من الجنود الالبانيةالذين يدعون بانهم حرس محمد علي الخاص فذاب قلبه داخلهلمجرد مشاهدته اجسامهم القوية واوجههم المقطبة وقال اذا كان هذا حرسه فالويل لخسرو باشا اذا كان هذا عدوه· ثم جمع قواه وسار في الرواق حتى بلغ الردهة التي فيها محمد علي فحياه وقال له — ان مولاي الباشا يريد ان يعتذر اليك و يدفع لك بنفسه ما تأخر من المستحق لك وقد ارسلني لادعوك اليه فارجو ان تأتي بنفسك ولا تصحب رجالك فربما آل ذلك الى مالاتحمد عقباه فصدقني ياسيدي اني أريد لك خيراً فلا تخيب رجاي

فقال محمد علي ضاحكاً — يجب ان تفهمني كما افهمك ياحضرةالدفتردار· انك تخاف علي ولكنني لا اخاف على نفسي فان من يحسن الخدمة و يتبع الامانةلايخاف فسأذهب وحدي كما قلت وابرهن لك عن ثبات جناني ولكن لابد من اخبار رجالي ليعرفوا الى اين اذهب · ولما قال ذلك نهض وسار بعظمة ومعه الدفتردار حتى بلغ ساحة القصر فقابله رجاله بالترحاب والهتاف فقال لهم—اصبروا ايها الشجعان وانتظروا رجوعي فاني ذاهب الى خسرو باشا ولا اغيب اكثر من ساعة واحدة فاذا تأخرت عن هذا الوعد فانكم تعلمون اين تجدوني ·ولما سمع الدفتردار ذلك الكلام اصطكت اسنانه وقال في نفسه لابد من ابلاغ الباشا ذلك وتحذيره من اعاقة الرجل لئلا يعود ذلك عليه بالوبال · ثم طلب من محمد علي ان يسمح له بالمسير امامه ليسبقه و يعلم الباشا بقدومه فادرك محمد علي غايته وقال له — يغلب على ظني انك فهمتني كما فهمتك ياحضرة الدفتردار · فاذهب امامي و بلغ الباشا ذلك

ووقف محمد علي برهة مع جنوده يسايرهم و يطيب خاطرهم ثم قال لهم — انني ذاهب لمقابلة الباشا بشأنكم وعسى ان انال من لدنه مايسركم فانتظروني هذه الساعة فقط · ولما قال ذلك ركب جواده وتوجه الى القلعة فبلغها بعد الدفتردار بقليل وكان هذا قد اسرع الى خسرو فاخبره بما كان وقال له — اياك ان تعوقه عندك يامولاي

فانه اذا تأخر بعد الساعة تهجم جنوده على القلعة فتهدمها ولا يخفى عليك ان جنود طاهر باشا متربصة في قشلاقاتها وهي تنتظر اقل اشارة لتتحد مع العصاة

فهز خسرو باشا رأسه وقال — آه ماشقاني فلماذا لم اسحق رأس هذا الصل بنعلي حينما كنت في قواله وهو يحتال الآن في اذيتي. نعم اراه يسعى في نهش لحمي ولكنني سامنعه عن ذلك واخلع انيابه

واذ ذاك دخل عليه خصي واخبره ان محمد علي بالباب فغير الحال هيئته وتظاهر بالتبسم وأمر الدفتردار والخصي ان ينسحبا الى الغرفة الثانية فدخل محمد علي وحيا بالطريقة العسكرية فوقف الباشا له ولم يستند الى وسادته كالعادة بل سار خطوتين الى الامام مادًّا يده للمصافحة فتصافحا ثم قال له — يسوءني جدًّا ان تكون مقابلتنا الاخيرة قد سببت شيئاً من الكدر فانت لا تعرف ما اضمر لك

فقال محمد علي بتهكم — لا تغلط يادولة الباشا فاني اعرف تماماً ما تضمره لي

ورأى الباشا مايجول في عينيه ولكنه ملك حواسه وقال — انني اضمر لك الخير وانتظر منك اشياء كثيرة لاني واثق بانك اصدق واخلص عبيدي

فنظر اليه محمد على بتعجب وقال — اصدق واخلص عبيدك؟ لم اعرف قبل اني من جملتهم يادولة الباشا بل كنت اعهد اني قائد جيوشك واننا جميعاً عبيد مولانا السلطان

قال الحق معك اننا عبيد جلالته ولكنني انوب عنه هنا فلذلك لا يجب ان يخجل القائد محمد على اذا مثلت امامه جلالة مولانا السلطان ولا سيما لانك تعترف لي بذلك وقد اقسمت يمين الطاعة والاخلاص

فقال محمد علي — وانا لا ازال على طاعتي واخلاصي لجلالته وعلى امانتي لك ويسوءني ايضاً ان تسبب لي ما يجلب نفوري وانت تعرف اخلاصي ولكن مالنا ولذلك فقد دعوتني للمخابرة بشأن الجنود ولم يقبضوا أجورهم من زمن طويل فهم بدون قوت وقد اصبحت ملابسهم اطمارًا بالية فيطلبون حقهم وانا كوني قائدهم والموكل بالاعتناء بهم أراني مضطرًا ان اساعدهم على نيل هذا الطلب العادل

قال — حسناً. وقد وعدتك ان اجيب طلبك في مدة اسبوع لم يمض منه سوى

ثلثة ايام فدع الجنود ينتظرون اما انت فلا ادعك تنتظر فخذ هذه العشرة اكياس انها مما يحق لك وقد اخذتها من مالي الخاص

فقال محمد علي — وانا اقبلها منك لانها حق لي . اقبلها واشكرك عليها وان تكن لي

قال — اذا رضيت علي الآن وزال الحقد من صدرك ؟

فقال — وكيف يمكن ان يصل الحقد الى صدري ونعمك تتوالى علي . فانت تعلم اخلاصي لدولة الباشا

فتبسم خسرو باشا وقال — برهن لي عن اخلاصك الآن ومدني برايك فانت تعلم البلاد وحالتها والمدينة وشوارعها وترى ما لا يراه غيرك وتسمع مالا يسمعه سواك فدلني على طريقة اتمكن بها من جمع المال اللازم لخزائني فقد ضاقت بي الحيل ولا اعلم ماذا افعل

قال — اشكرك ايضاً لثقتك هذه بي ولكن كيف تنتظر مني ان اشير على القابض بيده على زمام السياسة والامير العظيم فانا بالحقيقة لا ادري كيف اجيب . ولكنك يا مولاي قد جمعت اموالاً كثيرة ووضعت الضرائب على العلماء والمشايخ والتجار وقد نسيت امراً واحداً عظيم الاهمية فهلاّ وضعت ضريبة على النساء

فرجع خسرو باشا خطوة الى الوراء وقال — النساء؟وما هي الضريبة التي تريد وضعها على النساء . وأي نساء ؟

قال — نساء أمراء المماليك فقد تكرمت وسمحت لهن بالاقامة في القاهرة بدون ممانعة فهن يعشن في قصورهن كما تعيش الملوك

فقال خسرو باشا — ولكنني سمحت لنساء أمراء المماليك بالاقامة هنا والتمتع بحريتهن . نعم فعلت ذلك ورهنت لهن كلامي لاني اعلم ان جمهوراً غفيراً من الخدم والحشم والاماء يعيش في دورهن وان الشعب يترك القاهرة اذا غادرتها اولئك الاميرات

قال — وانا لم اطلب نفيهن او تقييد حريتهن ولا ايصال الاذى اليهن وانما أقول انهن يستطعن التخلي عن بعض الاموال التي يكتنزنها فخذ مثلاً ارملة مراد بك فانها تستطيع ان تجند جيشاً بتمامه من مالها الخاص ولا انكر ان الشعب باسره يجلها ويكرمها لفرط غناها نعم ان الناس يسبدون الغني حتى يفتقر فيتركونه ويحتقرونه . اما الست نفيسة ارملة مراد بك فقد قيل لي ان قصرها مغطى بالذهب والفضة وملآن بالجواهر والآنية الثمينة فضلاً

عن صناديق الاموال والحجارة الكريمة والغنائم التي اتى بها مراد بك من حروبه وغزواته

فبانت نار الطمع والجشع في عيني خسرو باشا وقال — حقاً اننا لو استولينا على بعض هذا الكنز لكفانا شر الحاجة ولكن لا يليق ان نحصل عليه بالسرقة فهل يمكنك ان تجد لي طريقة قانونية للحصول عليه

قال — لا . لا اعلم الطريقة ولكنني سمعت ان الست نفيسة تخابر سرًّا امراء المماليك فاذا كنت قد سمحت لنساء المماليك بالاقامة هنا فلا اظنك سمحت لهن ان يخابرن المماليك الثائرين ومع ذلك فقد تحققت ان عثمان بك البرديسي والالفي بك كانا من مدة قريبة في القاهرة وقد زارا الست نفيسة وكلاهما يحبانها الى درجة العبادة ولا يثنيهما شيء عن زيارتها والتقرب منها . نعم رأيتهما مرة خارجان من منزلها ومَن يعلم اذا كانت لا تساعدهما بالمال وتحرضهما على متابعة القتال

فقال خسرو باشا — اذا صح ذلك فاني اتمكن من الحصول على بعض مالها بهذه الحجة . نعم ساقابلها اليوم واسألها ان تعطيني حساباً عن هذا التصرف

قال — اذا ارسلت لها في ذلك مع القاضي او احد المشائخ فانك لا تنجح لان الجميع يحبونها ولا يريدون ضررها وليس لديك براهين تثبت جريمتها وهي ذكية تعرف كيف تدافع عن نفسها

فتبسم خسرو باشا وقال — سأقابلها بنفسي . اما البراهين فسأدبرها لانه اذا قصدنا اتمام امر فلا تنقصنا البراهين والدلائل . لا . لا . ان المأمورين ورجال الشحنة لا يعجزون عن تلفيق الف برهان والآن فاذهب يا حضرة القائد وتأكد اني اشكرك جداً على نصيحتك وسأعمل بها حالاً قبل ان تدري الست نفيسة بشيء من الامر . اني اشكرك ولا ازال اعتقد انك اصدق وأمهر رجال معيتي . هل رأيت اني لم أعد أقل انك من عبيدي وقد ساويتك بي فهل يسرك هذا وهل تسمح لي ان ادعوك من اصدقائي ؟

ولم يكن جواب محمد علي سوى الانحناء الى الارض ثم خرج . ولم تكن ساعة غيابه قد انتهت فوجد اتباعه ينتظرونه بصبر وسكون . وكان الخصي يسير وراء جواد محمد علي حاملاً اكياس الذهب فلما بلغ القصر دخل محمد علي وطلب ان يدخل اليه عشرين من رؤساء جنوده . فلما دخلوا وجدوه قائماً الى جانب مائدة عليها اكياس المال فاستقبلهم ببشاشة وقال . قد ذهبت الى الباشا وكلمته بشأنكم فاجابني ان الاسبوع الذي عينه لم ينته

بعد وان عليكم الانتظار ولكنه دفع الي بعض ما يستحق من راتبي الذي لم أقبض منه شيئاً منذ دخولي مصر . قد اعطاني هذه العشرة اكياس الذهبية ولا انكر انني في غاية الاحتياج اليها ولكنني لا أطيق ان أرى جنودي في ضيق وحاجة ومن يعلم متى تصلكم رواتبكم فعليه سأقاسمكم مالي فآخذ خمسة اكياس فقط وأعطي خمسة أكياس لجنودي الامناء وسأرسل وكيلي ليوزع عليكم المال فلا تظنوا انه يحسب عليكم من اصل رواتبكم بل اقبلوه هدية مني ودليلاً على صداقتي ورضاي

فصاح الرجال . ليحيي قائدنا المحبوب ليحيي قائدنا الكريم ثم هجموا عليه يقبلون هدب ثوبه فنعهم وامرهم بالانصراف فخرجوا يتمايلون طرباً وفي اثرهم الوكيل يحمل المال ليوزعه عليهم . وكان محمد علي ينظر اليهم بتبسمه المعتاد ويقول لنفسه — الآن قد صاروا ملكي وقد اشتريتهم نعم ان زرعي ينمو بسرعة وانت يا خسرو باشا اتبع نصيحتي ومسّ كرامة الست نفيسة التي يكرمها ويعبدها ويفتخر بطهارتها اهل البلاد . مسّ كرامتها باقل اهانة فترى ان يوم الحصاد قد جاء . والآن فما بقي عليك يا محمد علي الا ان تخبر الست نفيسة لتكون على حذر . ولما قال ذلك انسلّ من باب صغير الى الحديقة واجتازها بدون ان يراه احد ثم فتح باباً سرياً ودخل منه فصار في الشارع وجعل يجد السير في ازقة ضيقة ملتحفاً بعباءته وكانت الازقة مقفرة فساعده ذلك على الاختفاء حتى بلغ قصر الست نفيسة ودخل باباً ضيقاً الى جانب القصر فرأى امرأة جالسة تحيك بعض الاقمشة الصوفية فقال لها — هل انتِ والدة يوسف وكيل الدائرة

فاجابت وقد هالها دخوله عليها — نعم انا هي فقل لي بربك ماذا تريد من ابني فهل وشى به احد . صدقني انه لم يذهب الى الحرب ولم يترك القاهرة وهو من اصدق عبيد مولاته

قال — اعلم ذلك ولم اجيء الا لاكلمه بامر خاص يهمه جداً فاين هو

قالت — بخدمة مولاته فاذا شئت فاني استدعيه حالاً . ولما قالت ذلك دخلت من باب آخر وما عتمت ان عادت يتقدمها ابنها يوسف فقابله محمد علي وقال له — اتعرفني يا يوسف ؟

قال — اعرفك يا مولاي ومن يجهل القائد محمد علي

فقال محمد علي — وهل تحب مولاتك يا يوسف ؟ ولما رأى في وجه يوسف ما يدل على التلبك في الجواب قال — انني اسألك هل تحب مولاتك كما يحبها العبد الامين الذي

يغار على صالحها . هل تريد ان تخدمها خدمة عظيمه ؟

قال — نعم يا سيدي اني أعتبرها وأود ان اخدمها بدمي

فقال محمد علي — اذاً اصغِ لما اقول واعلم ان حديثي سرٌ عظيم اطلعك عليه حباً بسيدتك ولا اطلب منك مكافأة الاّ ان تبقته سراً ولا يعلم احد قط انك سمعته مني . اذهب الى مولاتك وقل لها ان تجمع كنوزها واموالها وجواهرها وكل ثمين لديها وتخفي كل ذلك في مكان امين بغاية السرعة فلا بد ان يكون في هذا القصر سراديب وابنية لا يعلمها احد . قل لها ان تفعل ذلك حالاً واياك ان تعلمها باني انا أخبرتك . بل قل لها انه وحيٌ هبط عليك في الحلم . ولما اتم كلامه التف بعباءته وعاد كما أتى وكانت جنوده قد وصلها المال فتفرقت لتبذيره في الشراب والطعام ولم يراه احد حتى بلغ غرفتة فجعل يسير فيها وهو يقول لذاته — لو تمكن الباشا من الحصول على مال الست نفيسة لكان الامر شؤماً علي وقضى حاجته اما الآن فلا . قد صرت على وشك السقوط يا خسرو ويزيد الخطر امامك في كل دقيقة اذا تجرأت على اهانة الست نفيسة وسترى كيف تنهض مصر باسرها شاهرة السلاح في وجهك . ان هذا آخر اعمالك ومتى سقطت الى الحضيض تعلم من كان سبب سقوطك — ثم ارسل بنظره الى جهة الافق وقال — وانتِ يا جوهرة اطمئني في ضريحك البارد فقد بدأت بالانتقام

الفصل الخامس

شهامة وشجاعة

— ولم يستهن وكيل دائرة الست نفيسة بالنصيحة التي قدمها له محمد علي عفواً فذهب الى مولاته وبعد وقت قصير كانت جميع اموالها وجواهرها والاشياء الثمينة التي لها قد نقلت الى حُجرٍ خفية في اساسات القصر كان مراد بك قد اطلع زوجته على وجودها قبل وفاته ولم يعلم احد بهذا المخبأ سوى الست نفيسه ووكيلها يوسف ولما اكملا عملها ودخلت الست نفيسه الى غرفتها تبعها يوسف فجثا امامها وقدم لها مفاتيح الحجر المذكورة فنظرت اليه بتعجب وقالت ما ذا تعني بهذا العمل ولماذا تدفع الي المفاتيح ؟ ابقها معك واحفظها لي . فنظر اليها وعيناه تكادان تعترفان بما يجول في صدره وقال — وهل تثقين بي يا مولاتي الى حد انك تسلمين عبدك مفاتيح هذه الثروة الطائلة ؟

فقالت بلطف — ولم لا ؟ اني اسلم الوكيل الذي احبه زوجي وسلم اليه اموره كل ما املك والآن اسمع يا يوسف وع ما اقول · اذا مت ....

فقاطعها بصراخ اندفع بالرغم عنه وقال — تموتين ؟ انت الست نفيسة تموتين ؟

قالت وهي تحاول تلطيف صوتها — وهل تظنني خالدة اذاً ؟ ألست من لحم ودم كما كان زوجي مراد بك ؟ اسمع اذا مت فسلم هذه المفاتيح الى عثمان بك البرديسي وقل له ان هذه رغبتي وان الحجر تحتوي على تذكارات اقدمها لاصدقائي · واني اعينك يا يوسف منفذاً لوصيتي فتوزع تلك التذكارات بموجب قائمة اسلمك اياها · ثم نهضت الى خزانتها واخرجت منها كتاباً صغيراً غطاؤه من الذهب الخالص ومرصع بالحجارة الثمينة فقالت — ان هذا الكتاب يحتوي على اسماء الاصدقاء الذين ارغب ان تصل اليهم تلك الهدايا بعد موتي فسر بموجب التعليمات المكتوبة فيه اما الكتاب نفسه فتبقيه لك وعليه اسمي مكتوباً بالحجارة الكريمة وقد اهداه لي بونابرت العظيم قائد جيوش الافرنج فاحتفظ عليه وكلما قرأت اسمي عليه اذكرني

ولم يستطع يوسف ان يكتم ما الم به فتساقطت دموعه بغزارة وقال — اصفحي عن ضعفي يا مولاتي فان مجرد ذكرك الموت يفقدني رشدي فارحميني يا مولاتي ولا تذكرين الموت بعد

فتبسمت وقالت — انتهينا من هذا الذكر فلا نعود اليه اما انت فتشدد وتشجع ولا تبك كالنساء فكفكف دموعك لاني لا اطيق ان اراها · فنهض المسكين ومسح دموعه قائلاً — قد عادت اليَّ قواي يا مولاتي وها انا اصدع بما تامرين

وتوقفت الست نفيسه لحظة كانها تحاول اخفاء تأثرها وكان يوسف ينظر اليها بنظر مملوء من الحب والحنو فشعرت بوقع تلك السهام في قلبها دون ان تراها ثم قالت له — والآن لي طلبة اخيرة اريد ان تتمها لي ·

قال — مري بما شئت يا مولاتي · انت تعلمين ان اقل رغائبك هي شريعة منزلة عندي وامر محتم اقوم به ولو بسفك دمي · مريني ان اموت ....

فقاطعته وقد اجفلت لدى سماعها كلمته الاخيرة — تموت — ها قد رجعت تتكلم عن الموت فلا لا لن تموت يا يوسف ولا يداخلك مثل هذا الفكر وانت في مقتبل الشباب · فاسمع · اريد ان تمتطي صهوة احسن جيادي وتتوجه الى معسكر عثمان بك البرديسي و..

قال وقد اكفهر وجهه — لا يا مولاتي لا تامريني بذلك الآن فقد قلت لك ان

صديقاً مجهولاً حذرنا من خطرٍ مفاجيء فكيف تامرين وكيلك بالابتعاد عنك ذاك الذي اقسم لمولاه مراد بك ان يكرس حياته لصيانة هذا القصر وساكنيه . لا لاتامريني بالذهاب الى ان يزول هذا الخطر واذ ذاك فاني اطيع امرك حتى ولو بعثتِ بي الى اقصى المعمور اني لا اتركك وحيدة وقد علمت ان خطراً يحدق بكِ

قالت — ولكني اريد ذلك فان الرسالة التي ابعث بها الى عثمان بك هامة وسرية جداً فلا يمكنني ان اثق بسؤاك ولذلك اسمح لك بساعة فقط تجهز فيها نفسك وتركب جوادك وتترك القاهرة ولا تستريح في طريقك قط الى ان تصل الى المعسكر

قال — لا يمكنني ذلك يا مولاتي فبربك اشفقي علي وأبقيني ريثما يزول الخطر الذي اخشاه واذ ذاك اذهب

فقطبت حاجبيها وقالت بعبوسة — يا يوسف ظننتك مخلصاً طائعاً وقد اقسمت ان تبقى عبداً الى الابد مع ان زوجي وهبك الحرية ولكني آسفة ان ارى عكس ماظننت وسمعت فان هذه اول مرة امتحن فيها طاعتك فاجدك ترفض ماامرك بهِ فأين وعدك وأين قسمك ؟ والآن للمرة الاخيرة اقول لك يجب ان تتوجه الساعة الى معسكر البرديسي

فقال والحزن يقطع قلبه — اذاً تطردينني طرداً يا مولاتي فهل تريدين ان تقول الناس عني اني جبان خائن ؟

فابرقت عيناها بنور غريب وقالت — ومن يتجاسر على التفوه بمثل ذلك ؟

قال — ألا تظنين انني متى رجعت يشير اليَّ الجميع باصابعهم ويقولون قد عاد الجبان الخائن الذي رأى مولاته في خطر ففرَّ لينجو بنفسهِ وتركها تقابل المخاطر وحدها .

قالت — اذا تجاسر بشر عليَّ مثل هذا الظن بك فانا ابرهن له فساد زعمهِ واخبره اني ارسلتك بالرغم عنك . اما الآن فقد اضعنا وقتنا بالكلام ويجب ان لا نتاخر دقيقة واحدة عن انفاذ ما امرت .

قال — لا بأس . انك تأمرينني بالذهاب فسأذهب فانك تقطعين قلب عبدك بطعنات الخناجر وماذا يهمك ذلك بل ماذا يهمك من حياتي اذا صرفتها بالشقاء والحزن فانت كملاكٍ طائر في السماء لا يشعر بالم وعذاب الغير . ان قلبك يا مولاتي طاهر ونقي كالماس ولكنه كالماس ايضاً بارد وصلب

فصاحت به صوتاً أرعبه وقالت انت تتهمني يا يوسف بان قلبي بارد وصلب ثم صمتت برهة أضاءت في عينيها أنوار غريبة مندفعة من النيران الكامنة في صدرها

وتراجعت الى الوراء مبتعدة عنه وقد شخص اليها كانه في غير عالم الوجود وكان تنفسها يسرع كثيرًا فيرفع صدرها ويخفضه وهي تحاول ابتلاع زفرة كادت تتملص من بين شفتيها ولكنها تحولت فجأة وتقدمت نحوه وقالت بكبر وعظمة — قد هيجت غيظي يا يوسف بلومك الذي لا أستحقه فانه لم يولد بعد الانسان الذي يستطيع أن يحكم على ارملة مراد بك بان قلبها بارد وصلب فقد عرفني مولاك وعرف محبتي واذا ظهر بعد وفاته أني لا قلب لي فليس ذلك الا لاني لا ازال احبه وأعتبر ذكره فاعلم ذلك وأياك أن تتجاسر بعد على التفوه بمثل هذا الكلام أما الآن فاسرع بما أمرتك

قال — حسناً يا مولاتي ساذهب . ومتى أوصلت الرسالة فأني ارجع بالسرعة الممكنة .

فترددت برهة بالجواب ونزلت أهدابها السوداء الطويلة حتى غطت عينيها المبعث منهما شرر العواطف وتنهدت تنهدًا خفيفاً يكاد لا يدرك وقالت له — لا . لا ترجع .

فاندفع من صدره صراخ اشبه بصيحة المحتضر وقال — لا . لا ارجع ؟

قالت — اسمعني يايوسف . فطالما افتكرت بك ورأيت من الظلم اسر فتىً مثلك هنا واخوانه واصدقاؤه يقابلون الاعداء في معترك النزال . قلت لي انه يكون عار عليك اذا ذهبت وتركت مولاتك وحدها تحدق بها المخاطر اما انا فاقول ان العار في ابقاء فتى مثلك بعيدًا عن نيل الترقي والفخار وان يصرف حياته في عيشة خاملة ملقى على وسائد الحرير . اذكر مولاك مراد بك ان حسامه لم يفارق يده يومًا واحدًا . اذكر انه لم ينفخ بوق المعارك الا وكان الاول في الاسراع الى ساحة الموقعة وما ذا كان يكون جوابه لو قيل له اترك الحرب وعد الى قصرك ودع غيرك يدافع عنك . فيجب عليك يايوسف ان تقتفي مثاله . نعم انني اطلعك على رسالتي الى عثمان بك فقد كتبت له انني مرسلة اليه باعز واخلص واصدق شخص في خدمتي وهو وكيل دائرتي وارجوه ان يصحبه معه الى القتال . قد ذكرت له اني ارسل اليه والى الوطن العزيز اعز صديق عندي ورجوته ان يسلمك اول خطوة في السلم التي عليك ان ترقاها لتبلغ

العز والفخار وتبرهن عن دم الابطال الذي فيك

فبكى يوسف وقال — أواه واأسفاه انها تبعدني عنهـا بقساوة كانني كلب لا تسمح له بان يموت على عتبة بابها

فقالت بحزن — كلا يا يوسف انني لا اطردك وأنما اريك الطريق التي اريدك أن تتبعها لتصير سيد المماليك و رئيسهم . يوجد لذة أعظم من السعادة البيتية وهي لذة الحصول على العظمة والمجد فاسعى في الحصول على هذا الغرض وأجعله نصب عينيك فتصير عظيماً تتغنى بمدحه الشعراء . واعلم ان هذا الامل فقط يعزيني على ابتعادك عني . وكانها رأت في عبارتها الاخيرة ولهجة صوتها ما يكاد يفضح سرهـا فتممت عبارتها قائلة انت الذي احبك كصديق مخلص لزوجي . أذهب اذهب الساعة يـا يوسف واجعل كلماتي الوداع الاخير واذكرني كلما خضت غمار الحرب واذكر ان انتصارك يسبب لي الفخر

فقال والزفرات تقطع صدره — سأذهب يا مولاتي ساذهب الي حيث اموت يا ست نفيسه

قالت — لتموت ؟ لا . لا . لا تفتكر بالموت فانك لن تموت

قال — ولكن لا بد من الموت وانتِ تبعثين بي الى ملاقـاة رصاص البنادق لا . لا يا مولاتي لا تظني اني اقول ذلك عن خوف فقد اخبرك مولاي مرارًا عن ازدرائي بالموت واقتحامي المخاطر بقلب لا يهاب وطربي متى سرت بين القنابل ودست الجرحى والقتلى . اما الان فاناذاهب لاموت وسابحث عن رصاص العدو واعرض له صدري عله يريحني من عذاب وجودي

فتمالكت الست نفيسه عواطفها وقالت له — يـا يوسف كنت اظن حتى الساعة انني مولاتك

فقال بحزن — نعم كنت مولاتي حتى الساعة ولكنك إلآن تطردينني

قالت — فسواء كنت بالقرب مني او بعيدًا عني فانت لي ويجب ان تطيعني انت حر ومع ذلك فقد قيدتك و بحق هذه القيود استحلفك ان لا تطلب الموت بل

اطلب التقدم والترقي . اريدك ان تعود امير ولقبك يوسف بك . هكذا اريد ان تعود واذ ذاك . . . . . . ثم توقفت هنيهة وغيرت حديثها فقالت — والان هل سمعت رغبتي فاقسم لي انك لا تطلب الموت اقسم لي انك تناضل نضال الابطال لخير بلادك وشعبك ولاحراز الرفعة . لا يطلب الموت سوى اليائس الجبان فحل عليه لعنة الله و يكون نصيبه النار . اقسم لي أن تفعل ما اريد وتحافظ على حياتك فانها مقدسة . واذكر أن مولاتك الست نفيسه هي التي تأمرك بذلك

قال — وانا اعدك الطاعة يا مولاتي واقسم لك ان اجاهد ضد يأسي وان اعيش وافعل حسب رغبتك لكي اسمع من فيك كلمة استحسان عند رجوعي . نعم ستسمعين باخبار عبدك يامولاتي وعساه يتمكن من ارضاء خاطرك . والان قد فهمت قصدك وانك تريدين خيري تريدين ان يذهب يوسف الخامل و يرجع يوسف بك فاسأل الله ان يحقق الآمال وان يكافيك عني خيراً وقد افتكرت بي اكثر مما افتكرت بنفسي . انني ارى كل ذلك الان فأسألك العفو عن ترددي وعن الدموع التي سكبتها عن ضعف

ولما قال ذلك اخفى وجهه بيديه واحنى راسه على صدره وكانت الست نفيسه تراقبه بدقة غير انه لم يرَ ما ارتسم على وجهها من علامات الحزن والاشفاق وما ظهر وجهه ثانية حولت وجهها عنه وهدأت نفسها فقال — سامحيني أيضاً فقد عاودني الضعف لاني تذكرت الماضي فبكيت عليه اما الان فقد انتهى كل ذلك وعاد اليّ رشدي وسافعل كما امرتني ولا اطلب الموت ولكنني اسرّ اذا جاءني فالوداع يا مولاتي .

ثم سقط على ركبتيه امامها فقبل طرف ثوبها ثم نهض وخرج من الغرفة بدون ان ينظر اليها ثانية . أما الست نفيسه فبقيت تنظر اليه وقد مدت ذراعيها كانها تحاول ايقافه وتساقطت من مآقيها الدموع الغزيرة التي كانت تحبسها وقالت — آه انني احبه و يعلم الله انني احبه واهواه فيا ربي أرجعه اليّ مكللاً بالظفر والمجد وامنحني ان اكافيه على محبته لي واعوض له عن الالم الذي سببته له . اسمح اللهمّ ان يعود سالماً ويرقى الى رتبة امير فاجعله زوجي لانني احبه . و بعد هنيهة سمعت وقع اقدام

جوادهِ خارجاً من ساحة قصرها فخرج من صدرها تنهد اشبه بالصياح وهي تردد هذه الكلمات — احرسه يا الهي وارجعه اليَّ سالماً فانت تعلم اني احبه من كل قلبي ثم سقطت على سريرها وأخذت منديلاً اخفت به وجهها و بكت بكاء مرًّا

الفصل السادس

الاضطهاد

ولم تمضِ ساعة على ذهاب يوسف حتى دخل اثنان من جواري الست نفيسه الى غرفتها وعلى وجهيهما علامات القلق والخوف فوجداها لا تزال ملقاة على السرير وهي تحاول اخفاء دموعها فانتظراها الى ان تمالكت

فقالت احداهن — ان بالباب اناساً يطلبون مقابلتك يا مولاتي . فنهضت وقالت — وعلامَ اراكنَّ بهذه الحالة . فمن الذي يريد مقابلتي ؟ فقالت الجارية — القاضي يا مولاتي ووراءه اربعة من رجال الشحنة

فقالت الست نفيسه وقد بلغ منها الغيظ — ماذا تقولين ؟ وهل تجاسر رجال الشحنة على دخول منزلي بدون اذني فماذا يريدون ؟ الم تسأليهم عن حاجتهم ؟

فقالت الجارية — قد قال لي القاضي انه آت ليبلغك كلاماً من دولة الباشا

قالت — اذا كان كذلك فلا بأس دعيه يدخل . ففتحت الجارية الباب ودخل القاضي تتبعه الشحنة بسلاحها

فانحنى القاضي امامها وقال — قد ارسلني مولاي يا سيدتي لاخبرك أنه يطلب مقابلة ارملة مراد بك حالاً في القلعة فيجب ان ترافقيني الان

قالت — و باي حق يأمرني النائب وماذا يريد مني ؟

قال — لا اعلم ولا يهمني ذلك وهذا الامر الذي سلمته . وناولها رقعة مكتوبة ومختومة فنظرت اليها بسكينة وهدو ثم قالت — ان هذا ختم النائب حقيقةً فلا باس اني اذهب الان فمر ان تأتي مركبتي الى الباب . وكان في كلامها منتهى العظمة

والامر حتى ان القاضي لم يستطع الا الامتثال فخرج وأرسل احد رجاله ليحضر المركبة ثم عاد اليها وقال — ان اوامري يا مولاتي تقضي ايضاً بان أقيم جنوداً يحرسون منزلك فلا يدخله ولا يخرج منه احد مدة غيابك

قالت افعل ما بدالك فان النائب مطلق التصرف على ما يظهر ولم يعد في البلاد شريعة وقوانين سوى ارادته اما قولك انكم تمنعون دخول احد الى القصر او خروج احد منه فقل ذلك لسواي واعلم ان ضميري في راحة فلا يخيفني مثل هذا التهديد ولكنني لا اظن دولته يمنعني من استصحاب نسائي معي لانه لا يليق بارملة مراد بك ان تخرج بدون وصيفاتها

قال — لم يامرني ان امنع ذلك فلك ما تشائين

قالت — ستذهب معي هاتان الجاريتان . ثم مشت برزانة فخرجت الى الرواق وأمرت الجاريتين ان يسيرا برفقتها ونظرت الى باقي الخدم وقالت لهم بهدوء — لا تخافوا شيئاً فان القاضي سيترك جنوده لحراستكم . ثم اشارت برأسها مودعة وضيقت لثامها ودخلت المركبة . ورأى القاضي من عظمتها وهيبتها ما جعله يخجل من نفسه لقيامه بهذه المهمة فوقف امامها باحترام حتى دخلت المركبة مع وصيفتيها فأوصد الباب ثم سار وراءها . ولما بدأت المركبة بالسير اتكات الست نفيسه على وسادتها وغاصت في افكارها ولم تكن تلك الافكار تتعلق بشخصها بل بالوكيل الذي ارسلته منذ هنيهة فقالت لنفسها — اشكر الله انني تمكنت من ابعاده وانقاذه فلو بقي هنا ورأى ماجرى لما امكنه احتمال ذلك بسكون بل كان فعل مالا تحمد عقباه والقي القبض عليه كماص اما الآن فقد انقذته ولم اعد اخش شرا . ولم تزل العربة سائرة فاجتازت حي الموسكي المكتظ بالناس واصحاب السلع والباعة والمشترين فساء هؤلاء ان تمر بينهم مركبة تعوق حركتهم ورفعوا اصواتهم يعترضون و يتأففون فسمعت الست نفيسه كلامهم وازاحت الستار عن نافذة المركبة ثم رفعت برقعها ومارآها الجموع حتى اندفعوا يصيحون بملء اصواتهم — الست نفيسه . الست نفيسه . ارملة مراد بك سيدتنا الفاضلة . وتناقل الجميع هذا الصياح فبطل البيع والشراء ولم يعد يهتم احد بشيء سوى الاقتراب من

المركبة وهم يتساءلون عما اوجب مرور وولاتهم من ذلك الطريق ولما علموا انها متوجهة الى القلعة بأمر النائب تركوا أعمالهم وساروا في اثر مركبتها وكلما تقدموا ينضم اليهم الناس حتى بلغوا القلعة جمعاً غفيرًا جدا ففتح الباب لمرور المركبة ولما دخلت اقفله البوابون حالاً لكي لا تدخل الناس ولما رأى هؤلاء ما كان ايقنوا ان في الامر مالا يسر وجعلوا يصيحون بمنتهى قوتهم قائلين — قد سجنوا الست نفيسه فهيا بنا نخلصها من ايديهم

وبعد ان تقدمت العربة قليلاً ترجلت الست نفيسه وجاريتاها فسرن يتقدمهن القاضي حتى بلغن القصر الذي يقيم فيه النائب فادخلهن القاضي الى الردهة وطلب منهن ان ينتظرن ريثما يعلمن قدومهن لمولاه

وكانت الست نفيسه قد اسدلت نقابها ووقفت في منتصف الردهة لا يهمها شيء مما يجري حولها وعلى وجهها علائم الانفة والعظمة الملكية اما الجاريتان فتقدمتا باكيات وسألتها اذا كان في استدعاءها الى القلعة ما يوجب الخوف وعما اذا كان يسمح لهن بملازمتها فقالت لهن — لا تذرفا الدموع ولا تريا هؤلاء القوم خوفكما فاني لا أريد ان يتمتع الباشا بهذه اللذة . وما زالت تكلمهن وتشجعهن حتى تماسكتا ودخل القاضي ثانية يسأل الست نفيسه ان تدخل الى مقابلة النائب

فقالت — وهل ادخل عليه وحدي . قال — نعم فهو لا يريد ان يدخل سواك فاظهرت عدم الاهتمام ودخلت من الباب الذي أشار اليه القاضي وانزل وراءها الستار . وكان خسرو متكئاً في صدر الغرفة يدخن وغليونه ينظر الى الباب فلما دخلت ورأته على تلك الحالة وقفت حيث كانت ونظرت اليه بعظمة فائقة الوصف حتى تغيرت هيئته ولم يستطع اظهار وقاحته فنهض وتقدم لاستقبالها قائلاً — السلام عليك ياست نفيسه

قالت — اما انا فلا استطيع ان أرد لك السلام وقد أمرت باحضاري بطريقة مهينة ومما يزيد تعجبي الآن انك استدعيتني بهذه الصفة لتطارحني السلام

قال — لم يكن هذا الامر وحده السبب في استدعائك فتكرمي بالجلوس على هذا

المقعد بجانبي لنتكلم سويةً

قالت لا يجاس سوية الكلام سوى الاصدقاء والاخصاء وما نحن لسوء الحظ من هذين ولكن لا باس ... ثم تقدمت وجلست على كرسي وبقي خسرو باشا واقفاً فاشارت اليه بيدها ان يجلس على الديوان وقالت — ان مقام الشرف يختص بدولة النائب فقط فتكرم بالجلوس فيه . فاحنى الباشا رأسه قليلاً وجلس كما اشارت وقال لها — كنت أود ان استأذنك بالجلوس بقربك لا كلمك كصديق ولكنك لا تريدين ان اكون كذلك وتفضلين ان أبقى في عينيك النائب العظيم ومالك البلاد فلا باس . اني دعوتك للحضور الي ... فقاطعته قائلة — لا تقـل دعوتني بل قل انك أمرت باحضاري بطريقة غير شريفة

قال — لا يكدرنك ذلك ياست نفيسه واعلمي اني سأكلمك بأمر عظيم الاهمية يسوءني ان يكون قد بلغني عنك وانت تعلمين ولا بد ان الموالي مسئولون عن تصرفات خدمهم فلذلك قد استدعيتك لاسألك عما فعله وكيلك يوسف

فقالت — ان المولى اذا كان له عبد وفعل شرًا ولم يطرده يكون مسئولاً عنه فارجو ان تقول لي أي شر فعل وكيلي ؟

وكانت الست نفيسه قد استولى عليها خوف شديد لدى ذكر وكيلها ولحسن حظها كان نقابها يستر ما بان على وجهها من علامات القلق والاصفرار فلم ير الباشا ذلك وقال لها — ان وكيلك يوسف حاول اغراء جنودي على شق عصا الطاعة وحرضهم على العصيان

فصاحت قائلة — كذب وبهتان ان وكيلي لم يفعل شيئاً من ذلك فهو اصدق قولاً واعظم امانة من كثيرين سواه فلا تصدق هذه الوشاية الكاذبة

قال — ومع ذلك فلا بد من تصديق هذا الخبر وقد تحققت محاولته اغراء احد جنودي وهو ارمني الجنس فحسن له ان يتركني ويذهب فينضم الى جنود البرديسي ولحسن الحظ رفض الجندي ذلك رغماً عن المبلغ الذي قدمه له وكيلك وجاء فاعلمني بذلك وان شئت زيادة برهان فها كه . ثم اخذ من جيبه بطاقة فتحها واراها الكتابة

عن بعد وقال — هاك الرسالة التي بعث بها وكيلك الى صادق آغا يعده بان يدفع اليه راتبه مضاعفاً اذا ذهب الى معسكر البرديسي . هل يكفيك هذا البرهان فانه بخطه وختمه

قالت — لا اشك ان في الامر دسيسة ولا ازال انكر هذه التهمة الدنيئة فاسمح لي يا مولاي ان اطلع على هذه الرسالة لاتحقق ذلك فاني اعرف خط وكيلي وختمه

فأبعد خسرو باشا البطاقة عنها وارجعها الى جيبه وقال — ليس ذلك من الضروري فاني متأكد جرمه وهذا مايسمونه خيانة وقد استحق من اجله العقاب وكما قلنا ان الموالي مسئولون عن أعمال خدمهم فانت ياست نفيسه مسئولة عن جرم خادمك

قالت — ولكن لا يتفق ذلك فان يوسف لم يعد خادمي وقد استغنيت عنه ليس لذنب فعله او لسوء تصرف بل لاني اعتبره وأريد خيره فقد علمت انه لم يولد ليصرف حياته في خدمة سيدة نظيري وان امامه مستقبلاً سعيداً فاستغنيت عنه ليتمكن من اظهار شجاعته ونيل مقاصده فيشهر حسامه و يبرهن عن دم البطل الذي فيه فقد ذهب لينضم الى معسكر البرديسي

فقال خسرو باشا بكدر — اذاً تعترفين ان الست نفيسه ارملة مراد بك تؤلف الجنود في منزلها لتبعث بها الى جيش عدونا

قالت — وهل تنتظر اذاً ان ارملة رئيس المماليك واميرهم تؤلف جنوداً لتبعث بها الى اعداء زوجها ؟ اظنك لم تفهم كلامي فاعلم اني لا اشغل نفسي بتأليف الجنود وان يوسف المذكور احضره زوجي صغيراً فرباه كابنه ولما توفي زوجي بقي هذا في منزلي ولكنه ضجر اخيراً من هذه المعيشة الخاملة فطلب ان اعفيه من خدمتي ففعلت وانا أؤكد لك انه بريء من التهمة التي وجهتها اليه وانه لم يكتب قط هذه الرسالة الكاذبة لان يوسف لم يتعلم الكتابة فلا يمكن ان تكون هذه كتابته نعم انه لا يعرف كيف يحرك القلم على الورق ولكنه يعرف ان يرسم بسيفه علامات لاتمحى على وجوه اعدائه

فقال الباشا — انك تتكلمين بجسارة و وقاحة

قالت — ومع ذلك فلم ابلغ ما بلغته انت فقد نسيت انك تتكلم مع سيدة واميرة طاهرة الذيل وتوصمها بالخيانة والعار

قال — انني لم اهنك بشيء وقد اعترفت انت بان السادة مسئولون عن تصرفات العبيد و بذلك قد حكمتِ على نفسك فني اعيد الآن ما قلته ان خادمك يوسف قد حرض جنودي على العصيان . ولم اتهمك بغير ذلك

قالت وقد كشفت القناع عن وجهها — بلى فعلت افظع من ذلك فانظر الي فانك قد الحقت العار بي انا ارملة مراد بك . قد امرت فساقوني من قصري محاطة برجال الشحنة . نعم انك قد اهنت فضائل النساء وشرفهن . هل تجهل عوائد البلاد ؟ ألا تعلم انك اذا سقت امرأة امام رجال الشحنة تكون كانك وصمتها بعلامة نارية لاتمحى انها عديمة الشرف يلعنها الشعب وتتبرأ منها الانسانية

فقال — لا يحق لك ان تتكدري من ذلك فاني لم افعل ماذكرت وقد ارسلت في طلبك فضيلة القاضي بنفسه فكان يجب ان يسرك هذا الاعتبار . ولكن مالنا ولكل ذلك فغرضنا غير هذا البحث الآن . اني احملك تبعة خادمك واتهمك بالخيانة التي خانها فيجب ان تحتملي العقاب

قالت ـ اذاً مر بقتلي . اقتلني لتعلم مصر باسرها و يناديك العالم كله يا قاتل

قال ـ انك تثيرين غيظي بسوء تصرفك فكان يجب عليك ان تطلبين لخادمك العفو وان تتوسلين اليّ ان امزق هذه الشهادة التي تثبت جريمته وان تدفعي مبلغاً من المال لارضاء الجنود

قالت ـ ومن اين المال لامرأة مراد بك . قد ابقيت من جنودك عدداً في منزلي فدعهم يبحثون فيه ومها وجدوه فليأخذوه . قد كنت غنية في ما مضى غير ان الحروب ونفقات الجنود ذهبت باموالي وهب ان لدي من المال ما تؤمل فتأكد انني افضل ان القي كل ذلك في النيل على ان يناله اعداء زوجي . والآن لم يعد لي ما اقول سوى ان وكيلي يوسف بريء وكل من يتهمه بخيانة فهو كاذب واذا كنت بعد كل ذلك تصر على معاقبتي وما عقاب الخيانة غير الموت فأسرع بما انت فاعل ولكن دعني احذرك انك اذا فعلت لا تغيب عليك شمس النهار الا وتكون قد صرت فقيراً حقيراً مطروداً تنظر عن بعد الى هذا النعيم الذي انت راتع به الآن

وتندب حظك المفقود

قال سنرى في ذلك وسنرى اذا كان بامكاني معاقبة الجانين . ثم نهض وتوجه الى الباب فدعى خصياً وقال له ـ خذ هذه الامرأة الى منزل الشيخ الحسيني في القلعة القديمة وقل له ان يحرسها باعتناء وان يمنع عنها كل مقابلة .

فقالت الست نفيسة مخاطبة الخصي ـ و بعبارة اخرى قل له ان يكون سجاني وان يحتفظ على هذا السجين المخيف . الوداع يا خسرو اني ذاهبة الى سجني وسأدعو لك براحة الضمير اذا كان لك ما يسمونه ضميراً

ثم سدلت على وجهها النقاب وخرجت من الغرفة فرأت الجاريتين بانتظارها فأمرتهن باتباعها وسارت امامهن كأنها اميرة تتنزه في عرصات قصرها حتى بلغت المركبة وارادت الصعود اليها فاوقفها القاضي وكان قد تبعها قائلاً ـ لا لزوم للمركبة يا مولاتي فان منزل الشيخ الحسيني وراء هذا الباب الصغير

قالت ـ قد فهمت مرادك فانكم تخافون ان يراني الشعب الواقف خارجاً وتخشون غضبهم

قال ـ اني لا اعلم شيئاً من ذلك يا ست نفيسة وما عليَّ سوى اطاعة الاوامر التي أعطيتها

قالت ـ وانا لا اجهل سياستكم واضحك من تصرفكم فما الفائز الا من ضحك اخيراً . وكان القاضي قد فتح باباً في جانب الطريق فدخلته الست نفيسه وتبعتها الجاريتان وهما مسرورتان لانه سمح لهن بمرافقتها

وكانت جموع الاهالي لا تزال خارج ابواب القلعة تنتظر عودة الست نفيسه فلما طال الوقت ولم تعد جعلوا يصيحون ويرمون الابواب بالحجارة وهم يطلبون مولاتهم ولكنهم ما عتموا ان راوا فرقة من الجنود قد وقفت فوقهم على سور القلعة ووجهت اليهم بنادقها فتراجعوا الى الوراء وتألبو وراء الشارع الثاني وجعلوا يصيحون بملء اصواتهم قائلين ـ قد سجنوا الست نفيسه واهانوها فنحن نطلب مولاتنا نطلب افضل واطهر سيدة في بلادنا نطلب رد كرامتها . وما زالوا يرفعون الصراخ و يتزايد

عددهم حتى خشي الشيخ الحسبني سوء المغبة وصمم ان يسلمهم الست نفيسه عند اقل اشارة تظهر منهم انهم ينوون الهجوم عليه والايقاع به ولما امسى المساء واشتدهيجان الشعب اجتمع المشائخ والعلماء وجعلوا يلاطفونهم ويعدونهم انهم يذهبون بانفسهم الى النائب ويسألونه الافراج عن الست نفيسه فسكت الجمع ولكنهم ابوا الانصراف فبقوا كل الليل امام ابواب القلعة ولما كان الصباح توجه المشائخ وطلبوا مقابلة النائب فسمح لهم بذلك ودخلوا حتى صاروا امامه فقابلهم بالترحاب وسألهم عن حاجتهم وانه مستعد لارضاءهم في ما يريدون فوقف كبيرهم وقال — اننا نطلب بالنيابة عن الشعب المجتمع امام القلعة وبالاصالة عن انفسنا الافراج عن الست نفيسه وارجاعها الى المنزل الذي اخرجت منه باهانة وان ترد اليها كرامتها لان الجند الذي ترك في قصرها قد عاث به كأنهُ منزل عدو فازاحوا المتاع الذي فيه ولم يتركوا شيئاً في مكانه وهم يظنون انهم سيجدون كنوزاً ثمينة ولكنهم لم يجدوا شيئاً قط والظاهر انهم اعتقدوا ان الست نفيسه غنية جدا وحسبوا ذلك ذنباً لا يغتفر ففعلوا ما فعلوا

فقال الباشا — لا ليس الامر كذلك بل ان الست نفيسه قد اتهمت بانها شاركت وكيلها يوسف في خيانته وان هذا اغرى واحداً من جنودي على تركي والانضمام الى المماليك العصاة وتأكدت ذلك برسالة مكتوبة منه يمكنني اطلاعكم عليها اما انا فلم استدع الست نفيسه الا لاحميها من شر جنودي الذين لو وجدوها لاساؤا اليها وقد فهمت ان الست نفيسه صادقت على عمل وكيلها وشاركته في الخيانة وهي الان في قبضة يدي فلا بد من معاقبتها ومع ذلك فاني اعاملها بالرحمة واعفو عنها اكراماً لكم بشرط ان تدفع راتب الجنود واذ ذاك اتناسى خيانتها واكون قد عاملتها بالرحمة واللين

فقال الشيخ — ولكن شريعتنا الغراء لا تميز هذا القصاص واذا كانت الست نفيسه مجرمة كما تقول فالمال لا يكفر عن تلك الجريمة وعليه فلا بد لنا من تحقق ذلك بانفسنا لنحكم اذا كانت مولاتنا مجرمة ام لا .

فقال خسرو باشا بغيظ — الا يكفيكم كلامي . اني اوكد لكم انها مجرمة وان

لديّ براهين دامغة على ذلك فكفى بحكمي برهاناً ولا بد ان تشتري حياتها بالمال

فقال الشيخ — اننا نتكلم بلسان عموم سكان القطر فاننا لا نكتفي بحكم دولتكم بل يجب ان نسمع اقرار الست نفيسه من فيها فنرجو أن تأذن لنا بموجب نص شريعتنا ان نقابل الست نفيسه ونسألها عما اذا كانت تعترف بالجريمة أو تدافع عنها بما لديها

فقال — اني لا امانع في ذلك فاذهبوا اليها ولكني اعلمكم منذ الان ان مجرد نكرانها لا يكفيني بل يجب ان تبرهن على براءتها كما ابرهن على ارتكابها الجريمة فاذهبوا اليها انها في منزل الشيخ الحسيني . وخرج الوفد المذكور فتوجه الى منزل الحسيني وقابلتهم الست نفيسه رابطة الجأش فاخبروها بما فعلوا وسألوها عن التهمة التي وجهها اليها الباشا فتبسمت وقالت لهم — تعلمون انني بريئة من كل ذلك ومع هذا فاني اقسم لكم بروح زوجي مراد بك اني اجهل هذا الامر المنسوب اليّ تمام الجهل . ولكنني فهمت ان الباشا يود الافراج عني اذا دفعت له من مالي رواتب الجنود المتأخرة فهذا الطلب نفسه ينبئكم عن قصد الباشا من اتهامي . بلغه اني غنية فظن انه يخيف قلب الامرأة فيستولي على مالها فارجعوا اليه واخبروه أن لا مال عندي ولا كنوز فاذا شاء حياتي بدل ذلك فليأخذها ومتى أمر بقتلي فان روحي تصعد الى عرش الحق سبحانه وتعالى لتشكو ظلم هذا الحاكم الفظ والمستبد .

فقال الشيخ — اننا نصدق كلامك يامولاتي ومع ذلك فلو كانت اموال مصر جميعها تحت تصرفك فلا نلومك اذا أخفيتها أو القيت بها البحر على ان لا يستولي عليها هذا الظالم العتل وسنرجع الان اليه لنرى ما يكون من امره فثقي اننا ندافع عنك الى الممات . ثم خرج الوفد من لدنها وهي تشيعهم بالشكر والثناء . ولما عاد العلماء الى الباشا اخبروه قائلين — قد ثبتت لدينا براءة الست نفيسه ومع ذلك فانها ليست كما تظن على جانب من الثروة بل هي لا تملك شيئاً وقد علمنا أيضاً ان جنودك فتشوا جميع قصرها فلم يجدوا شيئاً

فقال الباشا بحزن — نعم بلغني الان ان الجنود لم يجدوا شيئاً ذا قيمة . ثم جعل

يتمشي ذهاباً واياباً وهو يخاطب نفسه قائلاً ان قلبي يوحي الي شرًا فربما اشار علي محمد علي بهذا العمل لغاية خصوصية يريد بها هلاكي انا اعلم انه يكرهني فآه ما اظلم فكري وعلامَ مددت يدي لاسيء الى هذه المرأة . أما الان وقد بدأت فلا يمكني العدول فجأة ولا بد من التخلص بسياسة . اما ذاك اللعين محمد علي فسيجيء يومه . ثم عاد الى المشايخ وقال لهم بعظمة — لم اقتنع بعد ببراءة المتهمة ولابد من معاقبتها .

فنظر اليه الشيخ وقال اننا جئنا نطلب العدل لا الاستبداد فرفضك اجرآء العدل نعده اهانة لنا نحن خدمة الدين والملة فلم يبق لنا الان سوى الانصراف. ثم نظر الى رفاقه وقال لهم . لا فائدة لنا من البقـاء هنا فهيا بنا نذهب بالشعب الى الازهر الشريف وهناك نتفاوض في ما يجب اتباعه

فقال خسرو باشا بتهكم — افعلوا ما تشاؤون ولكن لا يغرب عن افكاركم أنه اذا حدث شغب أو اقل ما يشير الى اقلاق الراحة فلدي من رصاص البنادق وكرات المدافع ما يضمن تسكيت العداء وتأديب الفاتنين

ولم يجب الشيخ بل اودع الباشا نظرة تنبعث منها نيران الغيظ وعدم المبالاة وخرج يتبعه المشايخ

الفصل السابع

المال . الزواتب

ولما خرج العلماء من قصر خسرو باشا صادفوا في طريقهم مدير الاوقاف واسمه مصطفى وبعض الوجهاء والاعيان وكانوا قد بلغهم خبر ماجرى فاسرعوا ليتلافوا ماربما يحصل من النزاع بين الباشا والعلماء فلما التقوا بهؤلاء طلبوا اليهم ان يتـدبروا أمرهم بالحكمة وان يجتنبوا ماامكنهم اثارة غيظ الباشا قائلين انه رجل شديد الباس وجنوده عديدة واحب شيء لديها المذابح وسفك الدماء . فقال كبير العلماء — اننا لا نرهب القوة مازال الحق في جانبنا فنحن لا نريد ان تداس شرائعنا ولا ان تهان اعظم واشرف

سيدة في بلادنا لمجرد ارادة ظالم مستبد وانّنا نحن وكلاء الشعب فلا بد من قيامنا بواجباتنا ·
فقال مصطفى — تمهل قليلاً ياسيدي ولا تجر الخراب والقتل على المدينة وسكانها ودعني ادخل في الامر لعلي احمل الباشا على اطلاق اسيرتكم فبالله انتظروني ريثما اعود
ولما وعده الشيخ بالانتظار دخل مصطفى لمقابلة الباشا وما عتم ان عاد ووجهه يتلألأ بشرًا وقال — قد نجحت باذن الله وسمح النائب باطلاق سراح الست نفيسه فيمكنكم اخذها الآن ولكن علام أراك لا تزال مقطب الوجه فكان هذه البشارة لا تسرك ؟
فقال الشيخ — بل يسوءني الافراج عنها فان ذلك يؤيد زعمي الاول ان النائب لم يكن له أدنى حق في توقيفها وانه رجل يفعل ما يشاء وما يخطر له بدون موافقة الشعب ولا اتباع القانون · ولكن لا باس فهيا بنا نحضر سيدتنا
فاوقفه مصطفى وقال — ولكن النائب قد اشترط علينا ان لا ترجع الست نفيسه الى قصرها فقد بلغه ان أمراء المماليك العصاة يزورونها فيه وبما ان منزلها بعيد عن المدينة فلا تمكن مراقبته كما يجب بل ان انفراده في تلك النقطة يسهل للمماليك الوصول اليه فهو يطلب ان تترك الاسيرة قصرها مدة وان تقيم الآن في منزل شيخ السادات ولا اظنها ترفض ذلك
فقال شيخ السادات — قد علمت ان الباشا لا يسمح بخروجها بدون شروط ولكن دعونا ننتظر النهاية ولا اظن ان الست نفيسه ترفض ان تشرف منزل صديقها القديم بوجودها فهيا بنا · ثم سار الجميع الى منزل الحسيني وكان قد بلغه ما جرى فخرج لاستقبالهم ومعه الست نفيسه فلما قابلت الجموع تبسمت واحنت رأسها محيية وشاكرة مودتهم ثم قالت لشيخ السادات — هل تقبلني في منزلك ياسيدي وهل تسمح لمن طردت من قصرها ان تقيم عندك ؟
قال — اهلاً وسهلاً ومرحباً يامولاتي وسأشعر بوجودك عندي ان صديقي العزيز مراد بك لا يزال حياً يزورني · ثم أخذ بيدها وسارا تتبعهما بقية المشايخ حتى بلغت عربتها فدخلتها مع جاريتها وتقدموا جميعاً الى باب القلعة وما رأت الالوف المجتمعة هناك ان الست نفيسه قد عادت اليهم حتى اندفعوا يصرخون باعلى اصواتهم قائلين

لتحي الست نفيسه لتحي السيدة الشريفـة وكانوا يسيرون وهم يجرون العربة بايديهم ويهتفون وازداد صراخهم حتى ملا الفضاء وسمعه خسرو في غرفته المقفلة فقال ان هؤلاء العصاة سينالون جزاء هذا العمل

وسمع هذا الصراخ والهتاف شخص آخر هو محمد علي فانه بقي كل تلك المدة في غرفته وأمر جنوده ان يلازموا اماكنهم فلما سمع الهتاف تبسم وقال ــ قد نجحت في ما دبرت وما هذا الصراخ سوى نتيجة نصيحتي فمهما كنت سياسياً ياخسرو فقد سخرت بك وكان الناس يعتقدون بانك ملك عادل على عرشك ضمن جدران القاهرة وينتظرون ان يتمتعوا بالعدل والامن والحرية على يدك فقد فتحت اعينهم الآن وعرفوا انك ظالم مستبد فهم يبغضونك رجالاً ونساء . ثم جعل يتمشى في غرفته وهو يتهلل طرباً كلما اشتد الصراخ ويقول ــ لابد ان يكون دولة النائب في منتهى مغيظ الآن يستمطر على رأسي النقمات وقد اكتشف ان صديقه العزيز محمد علي يشبه في بعض فعاله ذاك « الفتى الوقح » الذي عرفه في قواله . نعم ياخسرو قد غيرتني بتصرفاتك وقد جعلت ذاك الفتى الوقح أسداً بثياب ثعلب وقد اظهرت الملاطفة لهـذا الثعلب وسميته من اصدق عبيدك ولم تدر انه سينزع جلده فيظهر الاسد المستعد لافتراسك فانتظر يا هذا وسينتهي الاسبوع الذي عينته ولا بد ان يحصل البرديسي على جوابي حسب الوعد وتسمع به فيرتعش جسمك ضمن الحصن الذي انت فيه

ثم استوقف انتباهه صراخ أشد من الاول لم تشترك فيه النساء والاولاد وبنغمة مخيفة فاقفل نافذته واحتجب لئلا يراه احد ويدعوه الى الخروج قبل ان يتم الموعد الذي يريده هو ولكنه وقف صامتاً واعار أذناً صاغية وبعد قليل تحقق من الصراخ انه اصوات العساكر ففتح الباب ونادى بعض عبيده وأمره ان ينزل الى الشارع فيختلط بالقوم ويسأل عن سبب هذا الهياج ويعود اليه بالخبر سريعاً . فذهب العبد وبقي محمد علي ينتظره فكان الصوت يقترب شيئاً فشيئاً وسمع هذه الكلمات ترددها الافواه « اعطونا المال . اعطونا القوت . اننا نموت جوعاً فاعطونا رواتبنا »

فقال محمد علي لنفسه ــ انهم عساكر طاهر باشا فقد جاء بهم الى القلعة وهواطمع

من اشعب ويؤمل ان ينهض الثورة فيخلع النائب ويستلم مكانه ولكنه سيبدأ بهذا العمل وتكون نتيجته لي وان لم ادخل في الامر فآه يا ست نفيسه قد سهلت لي الخطوة الاولى وهو ذا طاهر باشا يدفعني خطوة ثانية فاصبر يامحمد علي . اصبر

وعاد العبد فاخبره ان جنود طاهر باشا قد جاهرت بالعصيان وانهم جاءوا الى القلعة في طلب رواتبهم فامرهم النائب ان يطلبوها من الدفتردار فذهبوا الى منزل الدفتردار وامتنع هذا عن مقابلتهم فدخلوا منزله عنوة ولما رأى الشر في وجوههم امرهم ان يذهبوا الى القائد محمد علي فانه أخذ من بيت المال عشرة اكياس لدفع رواتب الجنود . فلما سمعوا ذلك جاءوا الى منزل محمد علي وهم يطلبون المال ويتوعدون ويتهددون ويقسمون انهم لا يرجعون عن ادراك مطاليبهم ويتذمرون من ارسالهم من جهة الى اخرى . ولم يكد العبد ينهي كلامه حتى سمع محمد علي الصياح اقترب منه وطرقت اذنيه هذه العبارات — « اننا لا نريد ان نستعطي فانما نطلب حقوقنا فليعطنا محمد علي رواتبنا وقد اخبرنا الدفتردار ان المال في يده فتقدم محمد علي للحال من النافذة ففتحها ونظر الى الجنود وقال لهم بصوت دوي كالرعد القاصف — قد سخر بكم الدفتردار يا اصحابي ولا يوجد عندي مال فانتظروني ريثما اجيء اليكم . قال ذلك ونزع سيفه وخنجره وغدارته فوضعها في غرفته ونزل اليهم وهو يقول سأريهم باني لا أخافهم وأقابلهم أعزل . وما زال يتقدم مسرعاً حتى صار بينهم وتألبوا حوله فأشار اليهم بيده وقال — ابتعدوا عني قليلاً ولا تنسوا اني محمد علي واني وان لم اكن قائدكم فانني نظيركم في خدمة النائب

فقال واحد من الجمع — وهل يفيك راتبك كما يفينا نحن وهل تقبض المواعيد الفارغة كما تقبضها نحن

فقال محمد علي — مهلاً يا صاح واذكر انك نفر لا يحق لك سؤال الضابط عن شيء ومع ذلك فانا لا اتأخر عن مجاوبتك فاعلم انهم اعطوني عشرة اكياس بعد انتظار عدة شهور وما ذلك الا بعض المستحق لي فاسألوا جندي ماذا فعلت بها . قد اقتسمتها معهم كما يجب على القائد ان يفعل في مثل هذه الظروف فابقيت لنفسي

خمسة اكياس لحاجتي ووفاء ديوني وأعطيت الخمسة اكياس الاخرى لجنودي ليس من الرواتب المستحقة لهم على التائب بل هدية مني وتذكار أخاء . اما غير ذلك فلم آخذ شيئاً ويشهد عليّ بذلك واسألوا جنودي لتتأكدوا صدق كلامي

فقال واحد من الجنود — لا تسأل احداً فاننا لا نصدق سوى بطلنا محمد علي فليحيء هذا البطل فليحي محمد علي . وتناول هذا الصراخ بقية الجند فلبثوا نحو ساعتين يصيحون ذلك الصياح الى ان وقف احدهم وقال هيا بنا الآن نرجع الى الدفتردار ونجبره على اعطائنا المال . ثم انصرفوا مسرعين وعاد محمد علي الى منزله وهو أشد سروراً من ذي قبل يردد لنفسه هذه الكلمات — قد احسنت فيما فعلت وسيغضب طاهر باشا متى عرف اني اهدي جنودي مالاً . ان الامواج تشتد تدريجاً وقد رأيت القارب الذي يبلغني الشاطيء الذي أقصده ولم يبق علي سوى اجبار المجاذيف الذهبية فهذه سأجدها قريباً . ولما صار امام غرفته امر العبد ان يستدعي له ضباطه ففعل ولما قدم هؤلاء حادثهم برهةً وأوصاهم ان يلازموا امكنتهم في الوقت الحاضر ان ولا يسمحوا للجنود بالخروج ولا الانضمام الى العصاة وان ينظروا ثلاث ساعات فاذا لم يصلهم امر آخر منه خرجوا وفعلوا ما يشاءون

وعاد الثائرون الى منزل الدفتردار في ساحة الازبكية واحاطوا به وهم يهددونه بالقتل ان لم يعطهم المال المطلوب فخرج الدفتردار الى الي شرفة منزله وجعل يتوسل اليهم ان يسمعوه ثم قال لهم ان ينظروا بضعة ايام فقط ريثما يتمكن من ايجاد المال اللازم . وكان الخوف قد ارتسم على وجهه وارتعش جسمه فلما سمعت الجنود كلمة الانتظار اشتد بهم الهياج وعادوا الى الصياح والشتائم فبعضهم يقول اننا لا ننتظر ولا دقيقة واحدة ونحن نكاد نموت جوعاً وبعضهم يقول ان لم يعطنا الدفتردار طعاماً فاننا نقتله ونقتات بلحمه . وغيرهم يقول دعونا نحرق منزله فيجد لنا اذ ذاك ما نطلب

وكان الدفتردار لما علم برجوعهم اليه ثانية قد ارسل رسولاً الى القلعة وطلب من خسرو ان يشير عليه ماذا يفعل ويتوسل اليه ان يتدبر في انقاذه من الهلاك المحتم فلما

وصلت الرسالة الى الباشا قال — انه ليوم بؤس لم اكد انتهي من امر تلك الامراة حتي قامت الجنود تجاهر بالعصيان ولكنني سأريهم بأسي وأهلك كل من يتجاسر على الاقتراب مني بسوء ثم امر الجنود ان تتسلح ببنادقها وتقف على السور وان تكون المدافع على تمام الاستعداد . ثم قال للرسول عد سريعاً الى الدفتردار وقل له ان يبعث اليّ بالعصاة حالاً فسأقابلهم كما يستحقون . وما صدق الدفتردار ان جاءه هذا الامر حين كان قد فرغ صبر الجنود و بدأوا يتسلقون جدار الحديقة فاحضر الرسول الى الشرفة وأخبرهم انه قد تلقى في الحال رسالة من دولة النائب يطلب منه ارسال الجنود اليه لينيلهم مطلوبهم . فلما سمعوا ذلك صدقوه وصاروا قائلين الحمد لله فقد اعارنا النائب أذناً صاغية ولا بد ان يتم وعده ثم أسرعوا للحال قاصدين القلعة فلما بلغوها وجدوا ابوابها مقفلة فتقدموا وقالوا للخفراء ان الباشا امرنا بالحضور وقد جئنا اتباعاً لامره . فلم يفتح الخفراء ولم يكن الجواب سوى دوي المدافع واطلاق البنادق عليهم . فصاح الجنود قائلين في الامر خيانة يا أخوان فالويل للظالمين . ثم شهر كل حسامه وغدارته وهجموا على ابواب القلعة يقاتلون عساكر النائب وكانت قد انقضت الساعات الثلاث التي عينها محمد علي لرجاله فاندفع هؤلاء ايضاً كالاسود الضارية ليساعدون رفاقهم ويفتكون بحامية القلعة وكل يصرخ طالباً المال والطعام فدارت رحى الموت وكان الفتك ذريعاً . فكان طاهر باشا ومحمد علي يسمعان بما يحدث و بقي هذا في منزله واما طاهر باشا فكان اقل دراية فخرج على نية اخماد الثورة او زيادة نارها اذا رأى في انتقادها فائدة له ولما بلغ القلعة ارسل يخبر النائب انه يود مقابلته وانه يرغب ان يعيد الامن و يسكن الهياج . وما عتم الرسول ان عاد فقال — ان دولته لا يرغب السلم ولا يود الدخول في مسالمة مع العصاة وقد قال لي انك تستطيع الرجوع الى منزلك وانه قادر على التخلص من هؤلاء المتمردين بدون مساعدة احد

فاحنى طاهر باشا رأسه وقال — اذا كان هذا فكر دولته فلا شك انه يستطيع تحقيق كلامه اما انا فساعود الى منزلي حسب امره . ثم اسرع فخرج وتوجه الى حيث كانت عساكره

فنادى ضباطه وقال لهم — قد كنت الساعة مع دولة النائب وبذلت جهدي في تسوية الخلاف ومنع اراقة الدماء ولكنه ابى ذلك وقال انهُ لا يخابركم الا بافواه المدافع والبنادق ولا يفيكم رواتبكم الا من دمائكم . ثم رأى انه اهاج غضب الجنود بهذا الكلام الى حد نهائي فاتم كلامه قائلاً — وقد قال لي النائب ان الدفتردار وحده يستطيع ان يدفع لكم المال فهيا بنا نذهب اليه ونجبره على الدفع فساروا الى منزل الدفتردار وما بلغوه حتى اعملوا فؤوسهم في ابوابه ونوافذه ودخل جمهورهم الى داخل المنزل وفي مقدمتهم الارمن من رجال طاهر باشا والالبان من رجال محمد علي . اما الدفتردار فقابلهم وهو لا يكاد يقف على رجليه من شدة الخوف وقال — بالله ارحموني فليس لديَّ مال وها كم دفاتري تؤكد لكم ذلك

فقالوا — اذًا نأخذك ودفاترك الى قائدنا ليتحقق قولك . ثم هجموا عليه فحملوه وحمل بعضهم ما وجدوه عنده من الدفاتر والاوراق وساروا به الى طاهر باشا وكان مرورهم امام منزل محمد علي فنظر هذا اليهم من وراء نافذته وهو يبتسم ويقول — قد اشتعلت نار الثورة وصار من الصعب اخمادها وقد تولى رئاستها طاهر باشا فلنرى ماذا تكون النتيجة الآن

الفصل الثامن

الحصار

عادت الجنود الثائرة الى القلعة وقد افقدهم الغيظ عقولهم فقضوا الليل يناضلون ويقاتلون وقد صمموا على دخول القلعة عنوةً والمدافع والبنادق لا تزال تصب عليهم فتحصد منهم الصف الاول ويملأ فراغه الصف الثاني بسرعة وبسالة . وبقي محمد علي في منزلهِ وهو يقول اني غير مسئول عن هذا العمل فليس ما يضطرني الى الخروج وفضلاً عن ذلك فانه لا يفيد خروجي لانه مع شدة تعلق جنودي بي يستحيل عليَّ ردعهم الآن وقد أشعلت النار في رؤوسهم . اما طاهر باشا فقضى ليله في مراجعة دفاتر الدفتردار فلما أصبح الصباح خرج الى الجنود وأكد لهم ان الدفتردار بريءٌ من التهمة فلا نقود عنده البتة وان النائب وحده هو الذي ابتلع جميع الاموال المرسلة من العاصمة لنفقة الجنود والاموال المأخوذة من البلاد أيضًا فاذا طلبتم مالاً فاعلموا انه مخزون في صناديق النائب . فتعالوا نطالبه بهِ وانا اسير في مقدمتكم اليه فالويل له . انه بدأ بهذه المذابح فليتحمل عواقبها . وتناقل الجنود كلمات طاهر باشا فدبت فيهم حماسة جديدة ولا سيما عند ما علموا ان طاهر باشا في مقدمتهم

فاسرع بعضهم وتسلق جدار السور بمساعدة رفاقه ثم تبعة الثاني والثالث حتى صار منهم عدد فوق السور والخفراء قليلون في تلك الجهة فتمكنوا من قتلهم قبل ان يتمكن هؤلاء من طلب نجدة رفاقهم واندفع الثائرون الى الابواب ففتحوها وهجمت الجنود فدخلتها كأنها البحر الزاخر وهي تصيح قائلة النصر . النصر . المال . المال . وما تقدموا قليلاً حتى قابلهم خزندار النائب بفرقة من الجنود فصاح به طاهر باشا ان يسلم سلاحه حالاً فخاف الرجل والقى بسلاحهِ الى الارض وفعلت الجنود فعله . اما خسرو باشا فكان لايزال في غرفته لا يعلم بما كان ويعلل نفسه بقولهِ لا بد ان يكلّ العصاة حالاً وتفتك بهم جنودي فيعودون الى الخضوع ومتى جاءوا وطلبوا مني الرحمة فأقطع رؤوسهم وازين بها سور القلعة لتكون مثالاً وعبرة لسواهم .... ثم توقف فجأة واقشعر بدنه لانه سمع الصياح وطلقات البنادق تحت نافذتهِ ودخل عليه عبده قائلاً — خيانة يامولاي فقد سلم الخزندار وفرقته للاعداء والجنود تحاصر القصر

وبأقل من دقيقة وثب خسرو باشا فأخذ سيفه وسار الى جهة الباب قائلا— ولكننا سنعيدهم على اعقابهم حالاً فدع القائد محمد علي يجيء حالاً بجنوده فهو يعلم كيف يقتص من طاهر باشا الخائن . نعم ان محمد علي لا يعرف الخيانة بل يعلم اني اكافيه واهبه الهبات الثمينة اما انت ايها الخصي فادعُ حرسي الخاص وقل لهم ان يوجهوا كرات مدافعهم على الثائرين . واسرع الخصي فنفذ الامر وجعلت كرات المدافع تنصب على الثائرين

اما محمد علي فلم يتمكن من الحضور وقد امر عبيده ان لا يأذنوا لاحد بالدخول عليه فكان اذا قدم اليه رسول وطلب مقابلته يجيبونه انهُ مريض لا يستطيع مقابلة احد . وكأن محمد علي تنبأ عما سيصيبه او ان تهيجه العظيم اثَّر في اعصابه فاصابته حمى محرقة اضاعت رشده ولازم سريره مدة يومين افاق بعدها وسأل طبيبة بصوت منخفض عما اذا كان يعلم شيئاً عن طاهر باشا وما ذا جرى بالنائب فقال الطبيب ان الجنود الثائرة قد فتحت ابواب القلعة وحاصرت قصر خسرو باشا حتى اضطر هذا الى الهرب . فلما سمع محمد علي ذلك ارتعش جسمه وعاد فسقط على السرير . واكمل الطبيب حديثه فقال — نعم قد اضطر النائب الى الهرب لانه كان ينتظر قدومك لنصرته فلما اعياه الانتظار لم يرَ بدّاً من ترك القصر فخرج من باب سري مع حرسهِ الخاص وحريمه واتبع طريق الصحراء

فقال محمد علي — وطاهر باشا ماذا فعل ؟

قال — قد سمى نفسه قائمقاماً وقد رأيت فضيلة القاضي والمشايخ يحملون خلعة ليقدموها

اليه علامة اعترافهم به

فقهقه محمد علي ضاحكاً حتى ارتعب الطبيب وظن ان الحمى قد اثرت بدماغه فكتب له بعض المبردات وذهب بنفسه ليراقب كيفية تحضيرها ولكنه لم يكد يخرج من الباب حتى وثب محمد علي من سريره وقال — لم اعد مريضاً الآن فقد جاء وقت العمل. ثم استدعى واحداً من عبيده وقال له — اسرع يا صاحبي الى معسكر المماليك فقد علمت انهم على شاطيء النيل قرب البدرشين ومتى بلغت المعسكر فاسأل عن عثمان بك البرديسي فاذا صرت في حضرته فقل له ان الوقت قد أزف وان الشخص الذي قابله منذ اسبوعين تقريباً بجانب الهرم الكبير في الجيزه بود مقابلته ثانيةً هناك فلينتظره لانه قادم اليه بجنوده . هل فهمت ؟ أعد عليَّ نفس الكلمات لاتأكد انك فهمت

ولما اعاد العبد كلمات محمد علي قال له هذا — اسرع ايها الصديق ولا تتوانى قط فالامر حرج والمسألة خطيرة جداً وما بلغ العبد باب المنزل حتى دخل على محمد علي رسول يدعوه الى مقابلة طاهر باشا حالاً في القلعة فاحنى محمد علي رأسه وقال للرسول اذهب وسأتبعك بدون تأخير. ولما خرج الرسول استدعى محمد علي خدمه فاعانوه في ارتداء ثوبه الرسمي ثم ركب جواده الفاخر وسار يتبعه ثمانية من رجاله متوجهين الى القلعة . ولما دخل محمد علي القصر وجد طاهر باشا متكئاً على اوسدة خسرو باشا في غرفته يدخن غليونه فلما وقع نظره على محمد علي اشار اليه برأسه علامة الاعجاب وقال — ارأيت يا محمد علي ماذا يستطيع الانسان ان يفعل وكيف يدور دولاب الاحوال فها انا ادخن بنفس غليون خسرو باشا وانا جالس على نفس وسادته الحريرية

فقال محمد علي — اني اهنيك من صميم قلبي واتمنى لك دوام هذا العز

فقال طاهر باشا — انه دائم وان السعادة تلازم الجسور فلو كان لك ما لي من الاقدام لكنت الآن مكاني هنا ولكنت استوليت على صولجان الملك بدلاً عني فقد كان اقرب اليك مني ولم يكن يُطلب منك الا ان تمد يدك لتقبض عليه

فقال محمد علي — ولكنك قد قبضت عليه انت وشاء القدر ان ينيلك هذا الفخر اما انا فلم اجسر على الافتكار بما هو بعيد عني وليس من شأني ولا انكر ان ساعدي اضعف من ان يقوى على حمل هذا الصولجان

فتبسم طاهر باشا وقال — اما انا فاستطيع ان احمله واضمنه لنفسي فقد اعترفت القاهرة وسكانها بي ولم يبقَ لي الا اعترافك انت بسلطتي ايها العزيز

فقال محمد علي وقد انحنى امامه — اني اول من يطيع امرك ويعترف بك قائمقاماً الى ان اعترف بك نائباً حال ورود الامر من الاستانة

فضحك طاهر باشا حتى بانت نواجذه وقال — اشكرك ايها الصديق واسمح لي ان ابدأ باعطائك اوامري يا حضرة القائد . أرسل الآن رسولاً الى امير المماليك وقل له اني راغب في تاييد السلم بيننا وان اتفق معهم على ما يضمن لنا الكف عن سفك الدماء . ولا اخفي عنك اننا اذا اتفقنا مع المماليك نضمن لانفسنا الاستقلال والسعادة ونتمكن من خلع نير اعدائنا الاتراك

فقال محمد علي بخضوع — اني اوافق على ارائك يا حضرة القائمقام

فقال طاهر باشا — اذاً بادر بارسال امري حالاً . فخرج محمد علي وهو يقول — امرك مطاعٌ يا مولاي . ولكنه ما بلغ الباب الخارجي حتى تبسم وقال لذاته — ان طاهر باشا لا يعلم ما ذا يفعل ولا يدري ان ارساله مثل هذه الرسالة يعرقل مساعيّ . انهُ فوّض اليّ القيام بالامر الذي ادبره منذ حين فلا تغتر بنفسك ياطاهر وان تكن ظننت ان تسلقك جدران القلعة يؤهلك الى تسنم ذروة العرش فاعلم انك في ضلال مبين .

وبعد ثلاثة ايام وصل رسول محمد علي الى معسكر البرديسي وبلغه رسالة مولاه فاشرق وجهِ عثمان بك البرديسي وقال — قد اقام محمد علي بوعده وسينضم الينا نهيا بنا نسير الى الجيزه لنقابل هذا الحليف العزيز . وبعد ثلاثة ايام اخرى بلغ المماليك الجيزه وعسكروا على ضفة النيل فلما كان صباح اليوم الرابع رأى عثمان بك فارساً بثيابهِ المذهبة قادماً الى المعسكر تتبعه شرذمة من الحرس فعرفه البرديسي حالاً وخف لاستقباله يصحبه الشيخ عنان . ولما تقابل الفريقان حيًّا عثمان بك محمد علي واجابه هذا على تحيتهِ بالوداد والمحبة ثم وقف الاثنان وهما قابضان الواحد على يد الآخر وبعد هنيهة تبسم محمد علي وقال — ان كلانا يتذكر الماضي الآن يا عثمان بك وترى اني لم انسَ الاسم الذي اوصيتني ان اذكره عند ما تقابلنا في قواله

فقال البرديسي — ولا انا نسيت اسمك يا محمد علي . ويسرني ان الفتيابين اللذين تكلما بنفور في تلك البقعة يجتمعان الآن كاعز الاصدقاء . أليس كذلك ؟

فقال محمد علي — نعم اصدقاء وهذه يدي عربوناً على تاكيد الصداقة

فقال البرديسي — وها يدي ايضاً تصافحك ايها الصديق وترحب بدخولك معسكرنا . ولكن اين بقية جيشك فقد بلغنا انك ستحضرها برفقتك ونحن بانتظار

جنودك البواسل

قال — انهم ينتظرون اوامري وسيتبعونني حالاً . اما انا فقد اسرعت لاعلمكم بقدومنا وانضمامنا اليكم ولا أخفي عنكم انه قد حدث في هذين اليومين في القاهرة حوادث فظيعة جداً وربما تمكنت ان استجلب اليكم جنود القائمقام الجديد طاهر باشا ايضاً فارجوكم الانتظار

فقال البرديسي — اننا نشكرك ونفتخر بك ايها الصديق العزيز والحليف المحبوب وسنتبع اشارتك في ما تريد

ثم جعل الاثنان يتبادلان عبارات المودة والصداقة وتالبت المماليك حول حليفهم الجديد يهنونه و يرحبون به

ولم تخمد نيران الثورة في القاهرة فان طاهر باشا كان قد اشعل نارها واطلق سراح أولئك الوحوش الكاسرة ولم يعد بوسعه تقييدهم وكانت الجنود تتوافد على منزل القائمقام الجديد تطالبه برواتبها باكثر لجاجة مما كانت تفعل سابقاً ورأى طاهر باشا ان خزائنه فارغة وقد اخذ خسرو باشا كل ما كان فيها فجعل يهدئ روع الجنود بالتعليل والتسويف ولما رأى ان ذلك لا يفيد استدعى اليه عدداً من كبار التجار والمتمولين وطلب منهم ان يقرضوه المال اللازم لدفع رواتب الجنود ولما أبي هؤلاء بحجة ان لا مال لديهم قتل بعضهم شنقاً والبعض الآخر رمياً بالرصاص . ولما اعيا الجنود الانتظار ارسلوا اليه موسى آغا واسماعيل آغا من كبار ضباطهم ليطلبون للمرة الاخيرة رواتبهم المتأخرة فسمح لهما طاهر باشا بالدخول وقابلهما بهيئة الكدر وسألهما بفظاظة عن سبب مجيئهما اليه فقالا انهما جاءا يسترحمانه في دفع الرواتب حالاً ليتخلص من المشاكل الصعبة ومن شر الفتنة لان الجنود لم يعد بوسعهم الانتظار .

فقال طاهر باشا — وهل تجاسرتما على اسماعي مثل هذا الكلام وهل يظن الجنود اني ارهب الوعيد والتهديد فاذهبا وقولا لهم اني لا اقدر ولا أريد ان ادفع واخبرا العصاة ان من جاء الي في مثل هذا الطلب اقطع رأسه وادفعه اليه

فقال اسماعيل آغا — اذا كان هذا مالك الذي تريد ان تنقدنا اياه فانت في حاجة

الى النقود ونحن مستعدان لدفع طلبك من نفس المال . ثم هجما عليه وبأسرع من لمح البصر قطعا رأسه وخرجا به الى الجنود فاستقبله هؤلاء بالسرور وصياح الفرح وهجموا الى القصر وحاول حرس طاهر ان يمنعوا العصاة فقطعهم هؤلاء بسيوفهم ودخلوا القصر فنهبوا كل ما فيه وخربوه فامحى القائمقام ولم يتم العشرين يوماً في وظيفته

وبلغت هذه الاخبار اذن محمد علي فتبسم مستحسناً وقال لعثمان بك -قد طلبت منكم الانتظار وقد رأيتم ماذا حصل اما الآن فلنسرع الى القاهرة. ولما سمع الجيش الامر بدخول القاهرة نهض بأسره طرباً مسروراً وكان صياح الفرح يملأ الفضاء ثم ساروا وفي مقدمتهم عثمان بك ومحمد علي . ونظر محمد علي فرأى الشيخ عنان وهجينه فقال له - اني أرى الهجين ولكني لا أرى الفتاة الجميلة التي اعتادت ركوبه

قال - هي في خيمة والدها يا سيدي تنتظر عودتي

فقال محمد علي - في خيمة والدها ؟ اولم تتبع بعد الرجل الذي يمكنه ان يقبلها ويدعوها زوجته

قال - كلا يا سيدي فقد جاءها الخاطبون واكثرهم من اجمل الفتيان الاغنياء وقد طمعوا بما احضرته لها من الغنائم والاسلاب من موقعة دمنهور غير انها رفضتهم بتاتاً . وهي تقول انها لم تحبهم ولم تحب سوى واحد لا تسمح بنفسها الا له ولكنها لا تذكر اسمه

فقال محمد علي - لقد احسنت يا شيخ عنان فمتى رجعت اليها بلغها تحيتي وقل لها ان الشخص الذي تنتظره سيعود اليها فيقبلها ويجعلها زوجته . قل لها ان لا تيأس من رحمة الله فسيعود الغائب . ولا تنس ان تبلغها اذكى تحية مني

ثم ودعه وتقدم فرافق الامراء وسار الجميع حتى بلغوا القاهرة فخرجت الجموع لاستقبالهم ولما نظروا محمد علي في مقدمتهم استبشروا خيراً واحاطوا بركابه يرحبون به ويرجونه ان يؤيد السلم في القاهرة ويعيد اليها السكون والراحة . وكأن محمد علي يقابلهم بالبشاشة والايناس ويعدهم بالخير والامن والطمأنينة . ثم فاوض قواد الجنود الارمنية وادخل المماليك الى القلعة فسلمهم اياها وعينها لاقامتهم فدخلها المماليك وهم

في منتهى السرور لا يعرفون كيف يكافئون ذلك البطل الصديق

اما محمد علي فعاد الى منزله ولما صار في غرفته الخصوصية بحيث لا يراه احد رفع يده الى جهة القلعة مهددًا وقال — انكم في ضيافتي ايها المماليك تعدون نفوسكم اسياد مصر ولكنني ساطردكم من ملكي كما طردت قبلكم النائب خسرو. لم يحن الوقت بعد ولكنه سيجيء وكل آتٍ قريب

الفصل التاسع

الانتقام

عاد المماليك الى القاهرة واستولوا عليها بعد ان اضطروا الى اخلائها مرارًا وساد الامن فيها فعادت الناس الى اعمالها وراجت التجارة ودار دولاب العمل وعرف العموم ان الفضل في ذلك لمحمد علي وكان يجول بنفسه يمنع الجنود غير المنظمة من تكدير الصفو العام . واقام المماليك رئيسًا عليهم يدعى اسماعيل بك فولوه امرهم واسكنوه القصر وكان عثمان بك البرديسي ومحمد علي مشيريه ومساعديه . وكانت الجنود الالبانية والارمنية تحب اميرها محمدعلي وتصدع باوامره بمنتهى الخضوع والحب

أما خسرو باشا فانه توغل في داخلية البلاد واجتهد في جمع الجنود ممن يجدهم في طريقه وفيهم كثيرون يكرهون المماليك ويودون هلاكهم فاغتنم خسرو باشا تلك الفرصة واستدعاهم اليه واجزل لهم العطاء حتى اكتسب محبتهم وسار بهم متنقلاً من مكان الى آخر لا يألو جهدًا عن اغراء الناس وضمهم الى رجاله حتى جمع قوة كبيرة ونزل بها الى دمياط فحصنها ولما بلغه قتل طاهر باشا ظن الاحوال تساعده على الرجوع الى سلطته فقام بجيشه قاصداً القاهرة . ولما بلغ محمد علي ذلك اجتمع بالبرديسي واسماعيل بك فعقدوا مشورة وقرروا الذهاب لملاقاة خسرو باشا قبل أن يصل اليهم وارسلوا في مقدمتهم الفرقة العربية بقيادة حسن بك للإستطلاع ثم تبعتها الجيوش العديدة من الالبان والاتراك والارمن فالمماليك والبدو . والتقى خسرو باشا بحسن

بك وفرقته ولم يكن هذا ينتظر القتال فهجم عليه خسرو باشا في فرسكور ودحره ثم دخل البلدة ظافرًا وتفرقت جنوده للنهب والقتل ولما استراحوا امر خسرو باشا ان يداوموا المسير ثم بلغه قدوم ذلك الجيش فرأى الاوفق ان يعود الى دمياط فرجع اليها واهتم بتحصينها فاقام على سورها بعض مـا عنده من المدافع ووجه مدفعين ضخمين الى جهة الجسر الذي لا بد من عبوره للوصول الى المدينة . ثم جمع كل ما يستطيع جمعه من المؤنة والذخيرة واقام ينتظر العدو وكان يجتهد كثيرًا في تنشيط الجنود واثارة همتهم ولكنه كان كالضارب في حديد بارد لان جنوده بلغها خبر الجيوش العظيمة القادمة عليهم فاوجسوا شرًا وذابت قلوبهم خوفًا . ولم يزل الجيش يتقدم مسرعاً حتى صار بازاء دمياط ورأى محمد علي والبرديسي المدافع الموجهة الى الجسر فايقنا أنه يتعذر عليهما عبوره وجعلا يفكران في طريقة تمكنهما من بلوغ الشاطئ الثاني فقال محمد علي — لا بد لنا من اجتياز النيل ولا بد من وجود مخاضة نستطيع عبورها بدون جسر فاذا تمكن احد من تحمل الخطر وذهب الى المدينة فانه يستطيع ولا بد ان يعلم من سكانها عن ذلك المحل ويهدينا اليه . وكان يسمع كلام محمد علي فتىً في مقتبل العمر فوثب الى الامام وقال — أنني أتطوع يا مولاي وأقدم على هذا الخطر نعم أني أذهب الى دمياط وارجع اليكم بالافادة اللازمة . فنظر البرديسي الى المتكلم وعرفه أنه يوسف وكيل دائرة الست نفيسه فقال له — عافاك الله يا يوسف ولكن هل قدّرت الخطر الذي ستقدم عليه ؟

قال — نعم يا مولاي فاذا كانت قسمتي أن أقوم بهذه الخدمة فمن فضله تعالى وأن قدّر لي أن أموت في أتمامها فاني أموت سعيدًا في قضاء واجباتي

وغير يوسف ثوبه فارتدى جبة كما يلبس الفلاحون ونزع اسلحته وحمل على رأسه سلة فيها شيء من البطيخ وتقدم الى جهة دمياط عند بزوغ الفجر وهو ينادي على بضاعته فلم يعترضه أحد وبلغ المدينة فجلس في جهة من شوارعها وكان يساير السكان ويبيعهم وهو يظهر عدم الاهتمام بشيء آخر وذكر له بعضهم أمر الجيش القادم من القاهرة فجعل ينطق بكلام يدل على أخلاصه لخسرو باشا وأنه يتمنى له

الفوز والنصر . فلما سمع القوم ذلك أيقنوا بامانته وأجتمع منهم عدد حوله فجعلوا يتباحثون عن أمور الحرب وهم يظهرون ميلهم الى انتهائها فقال واحد منهم أني أخاف من عبورهم الينا فانه وان يكن من المستحيل أجتياز الجسر فلا خفي أن المحل الفلاني والمحل الفلاني سهل عبورها على الاقدام ولا سيما في مثل هذا الوقت

وكان يوسف يسمع بمنتهى الاهتمام الداخلي وهو لا يبان على وجهه شيء من ذلك فقضى بقية يومه على تلك الحالة ولما أمسى المساء ذهب الى جهة من الجهتين التين ذكرتا أمامه فالقى بسلته و بطيخه الى النهر ونزل يخوضه فما صدق ان عبر الى الضفة الثانية حتى أسرع الى المعسكر واخبر محمد علي والبرديسي بما كان

فقال البرديسي — عافاك الله يا يوسف . فقد قمت بما يستحق المكافأة فانك منذ الساعة يوسف بك وافوض اليك امر مائة من مماليكي فتكون سيدهم ورئيس حرسي الخاص

فشكره يوسف بك منحنياً أمامه وقد أشرق وجهه وهو يقول في نفسه آه ما أسعدني فان الست نفيسه لا بد أن تسر كثيرًا متى بلغها ذلك وكم يكون سروري متى رجعت اليها وجثوت أمامها وقلت لها قد أمرت يا مولاتى أن أذهب الى الحرب فقد ذهبت وأمرت أن انال الفخر فقد نلته وأمرت أن أنال رتبة فقد نلتها وصرت يوسف بك وهانذا الان أعود اليك راجياً أن تعيدي يوسف بك الى خدمتك وأن تسمحي له ان لا يفارقك

ولما كان مساء اليوم الثاني نهض الجيش بكامله يتبع يوسف بك الى المكان المعهود فخاض المياه امامهم يتبعه البرديسي ومحمد علي في المقدمة ووراءهم بقية الجيش فلما انتهوا من العبور أمسك محمد علي بيد يوسف بك وقال له اني أشكرك وان أنسى لك هذا العمل الجيد فان ايام خسرو باشا اصبحت معدودة . ثم أمر محمد علي بعض رجاله الالبان فانسلوا الى جهة السور التي وضعت فيها المدافع الموجهة الى الجسر وقبل ان يشعر هؤلاء بقدومهم كانوا قد أعدموهم الحياة بضربات سيوفهم وخناجرهم ثم أداروا فوهات المدافع الى داخل البلدة واطلقوا نارها وهي علامة متفق عليها فهجم الجيش

كله ودخل المدينة فكانت معركة هائلة انتصر فيها محمد علي انتصاراً باهراً وكان هو والبرديسي لا يغفلان عن ملاحظة العساكر يلقيان بنفسيهما الى أشد الاماكن خطراً ويسرعان الى نجدة من يريانه محتاجاً اليها . وقابل البرديسي فرقة من جنود الاعداء في مقدمتها خسرو باشا وهو يناضل بمنتهى القوة والبسالة وقد آلى على نفسه ان يموت او يخترق له طريقاً للنجاة واذا برصاصة أصابت جواده فسقط الى الارض وما عتم ان نهض على قدميه صارخاً برجاله ان لا ييأسوا بل يجتهدوا في اتباعه الى الحصن . وكان البرديسي قد صار امامه فقال له لن تبلغ امنيتك يا خسرو ثم رفع يده بالسيف لينزل على خصمه بالضربة القاضية واذا بيد حديدية قد أمسكت بذراعه ومحمد علي يقول له — استحلفك بالله يا برديسي ان تهبني هذا الاسير . فنظر البرديسي الى محمد علي متعجباً من هذا الطلب ولكنه قرأ الحال ماتنطق به عينا صديقه فتبسم وقال له هو لك . فتقدم محمد علي وأخذ حسام خسرو باشا فألقى به الى بعيد ثم امسك بكتفه ونظر اليه قائلاً يا خسرو انك أسيري

فلم يجب خسرو باشا بكلمة ولكنه نظر الى محمد علي نظرة ترجمت عن شعوره ثم عاد فاطرق الى الارض وقد علم انه لم يعد بامكانه المقاومة وانه اصبح اسيراً . اسير اكره رجل لديه في العالم

وانتهت المعركة اذ ذاك فتفرق الجنود طالبين امكنة للراحة والمبيت . وذهب محمد علي بأسيره فوضعه في منزل حقير واقام على بابه الحراس . وعاد الى جنوده ينظر في حاجاتهم حتى اذا انتهى عاد الى ذلك المنزل فوجد عبدي خسرو امام الباب وقد بقيا أمينين لمولاهما ثم دخل فلما رآه خسرو اندفع من صدره تنهد عميق ووضع يده على وسطه كأنه ينتظر ان يجد غدارته ليطلقها عليه . فوقف محمد علي امامه صامتاً وهو يتبسم الازدراء والشماتة وكأنه ارسل سهاماً سامة الى صدر الاسير وبغتة قال محمد علي — انظر اليّ يا خسرو قد كنت مبرقعاً قبلاً بلثام ألبستنيه قبلته الى هذه الساعة . أما الآن فقد نزعته عن وجهي وهاك منظري الحقيقي

فقال خسرو باشا — انا أرى محمد علي الذي تفضلت عليه وجعلته رئيس فرقة .

أراه وقد رفع الحجـاب عن وجهه وظهر لي انه ليس من البشر بل هو البغضة والحسد مجسمين

فقال محمد علي — لا لا تقل البغض والحسد بل قل انني الانتقام المجسد . يا خسرو انني منذ ثلثة عشر عاماً انتظر هذه الدقيقة فهل تظن اني ابيعها بمال العالم ؟

قال — لا . انا اعلم انك لا تبيعها بمال العالم وأعلم ايضاً انك تبيع انتظار تلك السنوات وتبيع كل مافعلته من المكر والدهاء والرياء ثم تبيع انتصارك هذا وسرورك العظيم لتحصل على نظرة واحدة من تلك الامة التي قتلتها امام عينيك ولكنك لا تنال ذلك . فما انت المنتصر يا محمد علي بل انا وانه يسرني جداً كلامك هذا وقد علمت ان الجرح الذي فتحته في صدرك لم يندمل بعد ولا تزال ديدانه تنهش لحمك . أنا كد ذلك من مجرد النظر اليك فانك لم تعد شخص البغض والانتقام بل انت شخص الشقاء والتعاسة . ولكي أزيد لوعتك اخبرك ان حبيبتك جوهرة قد ماتت غرقاً وانا أمرت باغراقها فاقتلني الآن جزاء عملي لانني سأموت في منتهى الحبور واللذة لعلمي ان جراحك لاتزال ولن تزال دامية

وكان محمد علي يسمع ذلك الكلام وقد اصفر لون وجهه واصطكت اسنانه وارتعش جسمه فاستل خنجره ورفعه فوق رأسه والشرر يتطاير من عينيه ولكنه عاد فانزل يده بتمهل وأعاد خنجره الى غمده ونظر الى خسرو باشا فقال — قد علمت لماذا حاولت اثارة غضبي . انك تتمنى الموت لتخفي عارك وتسر بانك مت مرتضياً لعلمك بان جراحي لم تندمل بعد . فقد ساء فالك وقد برئت جراحي الآن نعم برئت وحق حبك يا جوهرة . اعلم يا خسرو انك قاتل وما جزاء القاتل الا الموت ولكنني درست طباعك وعلمت ان الموت قصاص خفيف لديك على تلك الجريمة فانا لا اقتلك بل أميتك بحراب الخجل وسيوف الذل وستشرب من يدي كاس الاهانة المر حتى ثمالته سأبقيك حياً واحافظ على حياتك وارجعك معي الى القاهرة لاتمم فيها انتقامي منك

فقال خسرو بسكون — تتهددني بما لا يهمني قط فأي شر تنتظر ان تحملني اكثر مما احمل الآن ولا تظن ان نقلي الى القاهرة يحط من كرامتي بل يذكرني بالقضاء

وانني كنت فيها مولاك واني اقتك في هذه الرتبة التي تفتخر بها الآن وانك كثيرًا ماجثوت فقبلت التراب امام قدمي . انه مامن عار على أسير يؤخذ في معارك النزال ومهما كانت حالتي فانا لا ازال اميرك ومولاك

فقال محمد علي بسخرية — متى بلغت القاهرة برهن لاهاليها عن ذلك وانظر اذا كان يعترف واحد منهم بسيادتك او يحرك ساكناً لانقاذك فمتى اقتنعت بعكس امالك فاذكر يا خسرو ان ذلك ايضاً من انتقامات محمد علي فلو قتلتك الآن كما حاولت ان تدفعني لان افعل لما تمكنت من اذاقتك ذلك فاحيَ يا خسرو واحتمل العذابات التي تستحقها . قد عذبتني سنوات عديدة اما الساعة فقد انتهى عذابي انا وبدأ دورك انت فعيش . عش مازلت قادرًا ان تحتمل الاهانة والعار وعد الى القاهرة مغطى بالخزي يا اسير محمد علي

الفصل العاشر

الرجوع الى القاهرة

عادت الجيوش الى القاهرة واستتب فيها الامن فساد الفرح واقيمت الولائم والملاهي ورجعت الجنود الالبانيــة والارمن والماليك بعد ان استولوا على حصون دمياط ورشيد وقهروا الاتراك فبددوهم في كل مكان ولم يبقَ منهم الا نفر توجهوا الى الاسكندرية لينضموا الى خورشيد باشا حاكم الاسكندرية في ذلك الحين . وكان دخول الجيش على غاية الابهة والاجلال يسير عثمان بك البرديسي في طليعة اربعة آلاف من المماليك محمد علي في مقدمة الجنود الالبانية والارمنية والى جانبه رجل بلباسه المذهب راكب على حمار وقد ضم شفتيه وقطب وجهه وارتسمت على سحنته الصفراء دلائل الغيظ والكدر هو خسرو باشا النائب السابق وكانت جماهير المتفرجين تسد الطرق وهي تهتف مرحبة بالجنود العائدة الى العاصمة حتى اذا رأت محمد علي واسيره ازداد هتافها مع الثناء على محمد علي والدعاء بطول بقائه . وكان خسرو باشا يسمع ذلك فيحرق الارم غيظاً وهو يقول لنفسه انني في ابان حكمي لم يقابلني احد بمثل هذا . ورأى محمد علي ذلك فقال له —

يسرني يا دولة الباشا ان تكون برفقتي الآن فقد هربتَ في جنح الظلام ولم يرَك احدٌ اما انا فاعيدك الى قصرك في رابعة النهار ليراك الجميع واتاسف لانك تستطيع السكن في ذلك القصر وقد اصبح محل سكن اسماعيل بك فيجب ان تقنع بغرفة صغيرة اخصصها لك . فقال خسرو باشا . لا تهتم بأمري يا محمد علي وثق انني افضل سكن القبور على مشاهدتك .

فقهقه محمد علي ضاحكاً وقال — تود ان لا تراني ؟ ألم تعلم اني صنيعتك ولا بد من ان اخدمك بنفسي فانت مولاي يا خسرو ولذلك لن ترى سواي ولا يخاطبك احد غيري اما الآن وقد بلغنا باب القلعة فتكرم بالمسير امامنا كما يليق بالرئيس العظيم . ولما قال ذلك امسك بعنان جواده وترك الحمار يسير امامه وقد وخزهُ بسيفهِ فتألم الحمار ووثب الى داخل الباب فراق الجنود ذلك وارتفع ضحكها فاحمرت وجنتا خسرو باشا وتساقطت دموعه . ثم تقدم بعض المماليك فانزلوه عن الحمار فقال لهم محمد علي — خذوه واحفظوه بامان فانه لي واياكم ان تغفلوا عن حراستهِ او ان تصيبه اذية . فاخذه المماليك ووضعوه في احدى غرف القلعة واقاموا خفراء لحراسته فدخل خسرو غرفته وتوسد الارض واخذ يفتكر بماضيه وقد تصورت امامه جريمته في قتل تلك الفتاة .

وكانت القاهرة قد برزت بحلة الزينة والسرور وانشرحت صدور الاهالي فلم يكن بينهم من لم يسره خبر عودة الجيش المنتصر وكلهم يريد ان يظهر فرحه وحبوره . وكان بين اولئك الست نفيسة ارملة مراد بك وقد تركت منزل شيخ السادات وعادت الى قصرها فزينته بالاعلام والازهار وجلست وراء نافذتها المذهبة تنظر الى الجنود وهي تمرّ من امام قصرها وشعرت بخفقان قلبها كانها تنتظر ما يهيج عواطفها . وجعلت الجنود تمر امام منزلها بفرقها الى ان رأت وكيلها يوسف وورآءه فرقته فاندفع من صدرها انين عميق وانطرحت الى الوراء على مقعد كان بجانبها وقالت — اواه كم احبه وكم تشتاق اليه نفسي ولكن وا اسفاه لا استطيع ان اعترف له بذلك لئلا يميته البرديسي حالاً او يقتله الالفي فآه يا زوجي العزيز شدد محبتي لك وانت يا قلبي تشجع ولا تظهر ضعفك . ولم تنتبه الست نفيسه الى ماجرى فان يوسف بك اوقف فرقته امام قصرها وترجل فطلب من احد العبيد ان يستأذن مولاتهِ في دخوله عليها فلم ترجع الى نفسها حتى جاء العبد يستأذنها في ذلك فقالت للعبد دعهُ يدخل ثم امرت جواريها ان ينتظرنها في الغرفة المجاورة ويبقين الباب مفتوحاً خوفاً ان يتغلب عليها الضعف فتبوح بما يكنه قلبها . ثم دخل يوسف بك فنظرت اليه وكانها تراه اكمل قامة واجمل خلقاً مما عهدته فتقدم حتى صار امامها فجثا وقبل هدب ثوبها وقال

— قد ذهبت الى الحرب حسب امركِ يا مولاتي واول واجب علي بعد رجوعي هو ان اجيء اليكِ فهل لي ان اسمع من فمك العزيز كلمة ترحاب

قالت — اهلاً بك يايوسف بك . آه ما اعذب هذا اللقب ولكن لم تجثو امامي فانهض لا يليق بالابطال ان يجثوا امام النساء

قال — كنت عبدك يا مولاتي قبل حصولي على ما حصلت عليه فانا لا ازال كذلك وما من طريقة أخرى يحيي بها العبيد سادتهم . ولما قال ذلك اقترب ليقبل قدميها فتراجعت الى الوراء ومدت يدها لتقيمه وهي تقول انهض يا يوسف بك فقد امرتك ان لاتفعل . فنهض المسكين وهو يقول — أمرتيني وحاشا ان اعضي لك امرًا وانما اطلب منكِ ان تسمحي لي بالرجوع الى خدمتكِ

قالت — ترجع الى خدمتي ؟ لا لا يمكن ذلك ومن هي ارملة مراد بك لتكون عبيدها من اصحاب الرتب العالية والمراكز السنية . لا بل يجب ان تتم الشوط الذي ضربتَ فيه يجب ان لانقف عند هذا الحد بل ان تبلغ ما بلغه مولاك

فقال والحزن يقطع كلامه — اتطردينني مرة ثانية يا مولاتي . قد اشرطتِ علي ان ارافق الجنود في حروبهم ففعلت وخضت غمار المنون واقتحمت اشد الاخطار وانا مع ذلك ادافع عن حياتي عملاً بارادتكِ وكنت اذا تساقطت عليّ الرصاص اتخذ اسمكِ درعًا يقيني اذاها فما صدقت ان نلت النصر والرتب لاعود اليك واطرح نفسي امام قدميك واكون لك عبدًا ولكن وا اسفاه على آمالي فاني ما كدتُ اصل الى حضرتك حتى سمعت من فيكِ وانكِ تطردينني ثانية وتريدين التخلص مني

قالت — كن عاقلاً يا يوسف واعلم انه لا يليق بقاءك عندي وستعرف السبب قريبًا فعد الآن الى جنودك فانهم بانتظارك واعلم ان الحرب لم تنته بعد ولا يزال في طريقك صعوبات ستتغلب عليها باذن الله وتضيف اكاليل غار الانتصار الى ما احرزت الآن فتكلل بها رأسك

قال — اما انا فلم يعد يهمني العالم باسره ولا غرض لي في جمع الاكاليل واحراز النصر فلا اريد سوى البقاء بالقرب منكِ يا مولاتي فاراكِ و . . . . .

فقاطعته قائلة — اصمت فان جواري في الغرفة المجاورة ولا اريد ان يسمعن كلامك . والآن فقد انتهت مقابلتنا فاذهب واتبع فرقتك

قال — اصفحي عن جرأتي يا مولاتي وبالله عليكِ لا تعامليني بهذه القساوة ألا يوجد

في قلبك جنان ألا تعرفين ما هي الرحمة ألا تفهمين ما هو الحب . . . . اني استحلفك باسم اعز عزيز لديك ان تسمحين لي بالبقاء عندك فاخدمك لبقية حياتي واعدكِ اني لا اكلمك كلمة واحدة بل اكتفي بالنظر الى وجهك الملائكي

قالت — لا تحاول تغيير عزمي فلا بد من ذهابك الآن

قال — تأمرينني بالذهاب وتسمحين لسواي ان يقترب منــكِ ؟ انك لا تطردين البرديسي ولا الالفي فهما يزورانك ويكلمانك أفتمنعينني الحصول على مثل تلك النعمة ؟

قالت — يا يوسف بك اني سامنعهما عن زيارتي ايضاً فلا يريانى بعد اليوم اني اقسم لك بالله و . . . . (وكادت تقول و بحبتي ولكنها تمالكت فقالت) و بشرفي انهما لا يدخلان منزلي ولا اقابلهما بعد هذه الساعة .

فقــال يوسف بك — لا لا تمنعيهما عن زيارتك يا مولاتي اذا كان ذلك يحرمني من مشاهدتك ايضاً فاني بالعكس ارجوك ان تفتحي لهما باب منزلك وان اتمكن انا ايضاً من دخوله نظيرهما . وكان في حديث يوسف بك من الحزن والانكسار ودلائل الحب مالا يخفى على الست نفيسة فلم تتمالك ان مدت اليه يدها وقالت — قد اقسمت ان لايدخلا منزلي بعد الآن اما انت فتعال اليَّ كلما مكنتك الظروف . وما سمع يوسف بك كلماتها هذه حتى شعر انه في غير عالم الوجود فقبض على يدها ونظر الى وجهها كانه يكلمها صامتاً. فادركت للحال انها قد اقرت باكثر مما كانت تنوي الاقرار به فجذبت يدها برقة وقالت له — اذهب الآن يا يوسف بك قد سمحت لك بزيارتي متى شئت اما الآن فاذهب . ثم ادارت ظهرها وخرجت من الغرفة بدون ان تنظر اليه ولما صارت بين جواريها انزلت الستار الفاصل بينها و بين الغرفة الاولى وقد علمت ان حبيبها سوف يجثو ليقبل الارض التي وقفت عليها قبـل ذهابه فلم تشأ ان تعلم جواريها ذلك . وكان فكرها في محله فانه ما انزل الستار حتى انطرح يوسف بك على الارض يقبل المكان الذي كانت واقفة فيه ثم مد ذراعيه وحاول ان ينطق ببعض كلمات ولكنه توقف خيفة ان يسمعها النسيم المار بالقرب من وجهه فنهض وخرج الى فرقته فتعجب جنوده لانهم لم يروه قط في اشراق الوجه وانبساط الهيئة كما كان حينئذٍ . فامتطى جواده وسار في مقدمتهم ليلحقوا ببقية الجيش

ولما علمت الست نفيسة انه قد خرج وسمعت وقع حوافر جواده عادت الى الغرفة التي قابلته فيها فجثت بدورها الى الارض ومدت ذراعيها قائلة — يا يوسف بك اني اهواك ولا لذة لي في الحياة بدونك فالشكر لله وقد اراني اياك سلماً

الفصل الحادى عشر

محمد علي والبرديسي

لم تخطئ الست نفيسه في قولها ليوسف بك ان الحرب لم تنته وقد برهن المستقبل على بعد نظرها وسعة اطلاعها : وكان اسماعيل بك امير المماليك حاكماً مطلقاً في القاهرة وان يكن اصحاب النفوذ في امرته محمد علي والبرديسي • فكان الاسم للاول فقط والعمل للاخيرين وقد اتفقا على تقوية البلاد واجتناب كل خطر او نزاع يؤول الى اعارة الثورة والحروب • وكانت الجنود التركية المجتمعة في الاسكندرية بقيادة خورشيد باشا تحاول التقدم جنوباً نحو القاهرة عساها تعيد البلاد الى سلطانها وولي امرها فكان من حين الى آخر يقابلها البرديسي ومحمد علي بجنودهما فلا يغيبان مرةً الّا ليرجعا الى القاهرة مكللين بالفوز • وتمكنت المحبة بين محمد علي والبرديسي وكان البرديسي يبان انه الحاكم والحقيقة ان محمد علي كان صاحب القول والرأي والتدبير فاشتهر ذلك في انحاء البلدة فكان اذا اضطر احد التجار او اعيان البلدة الى مخابرة الحكام بامر لا يرى امامه سوى محمد علي ليسمع شكواه وينصفه • واتصل هذا الاعتقاد ايضاً بالاجانب وقناصل الدول ولا سيا قناصل انكلترا وفرنسا فكان الجميع لا يعرفون سواه ولا يحادثون غيره وكثيراً ما اجتمع به هؤلاء في مخابرات سرية لم يعلمها غيره ولم يطلع البرديسي الا على ما يريد ان يطلعه عليه هو ومن يعلم اذا كان يطلعه على الحقيقة • وكان البرديسي يثق تمام الثقة بمحمد علي اما اسماعيل بك فكان بعكس ذلك ورأى بعينه النقادة ان محمد علي لا يخلص النية للمماليك فحذر البرديسي مراراً منه وكان لا يراه مرة الا ويقول له — اصغ لنصحي يا عثمان ولا تسلم منتهى ثقتك لهذا الرجل الخطير وعامله باحتراس

اما البرديسي فكان يهز رأسه مستغرباً ويقول — لا تحاول ان تزرع مثل هذه الشكوك في صدري يا اسماعيل ولا تحرمني من اعز صديق لي في العالم فانا احبه كنفسي ولا تفصلني عنه قوة أرضية

فيقول اسماعيل بك — ستندم عند ما تراه يبعث بالمماليك الى الهلاك والدمار أؤكد لك انه ليس بالصديق الامين الذي تزعمه ولا بد ان يريك المستقبل صدق كلامي وتحكم لنفسك اذ ذاك ولكنني اخشى ان لا تعلم الحقيقة الا بعد فوات الوقت

الفصل الثاني عشر

ضد المماليك

وعاد الالفي بك من سياحته في انكلترا فدخل البلاد سرًّا ولم شعث مماليكه الذين كانوا بانتظاره وأقام معهم في نصيبين فامتلكوا تلك الناحية وكانو يعيشون من الغزو والنهب وظلم السكان لاستدرار اموالهم والاستيلاء على مزروعاتهم ومحاصيلهم

وكان خورشيد باشا لا يزال في الاسكندرية يقوي حاميته ويزيد عساكره وهو يعد نفسه بالزحف على القاهرة للاقتصاص من الخوارج ولا سيما من محمد علي وكان قد بعث برسالة الى الاستانة يطلب فيها الاذن السامي بالمسير الى القاهرة فيطرد المماليك ويرجع خسرو الى مركزه في النيابة عن جلالة السلطان. وكانت احوال مصر نفسها على غير ما يرام فان اسماعيل بك وعثمان بك احتاجا الى المال فجعلا يضمان المكوس ويستدران اموال التجار وانبثت المماليك في انحاء البلدة يستولون على ما تصل اليه ايديهم حتى اثقل كاهل الاهالي وقاموا جميعهم يتظلمون من استبداد المماليك. وشعر البرديسي باستفحال الامر فقصد صديقه محمد علي واستشاره في طريقة لتحصيل المال المطلوب لوفاء رواتب الجنود والتخفيف عن الاهالي الذين لم يعد بامكانهم احتمال الضرائب والمكوس وربما عمدوا الى العصيان. فوعده محمد علي ان يفتكر بالطريقة الموافقة وان يخبره بها متى وجدها. وكانت الجنود تتقاطر من كل جهة تطلب رواتبها ولشدة تملقها بمحمد علي كانت تأتي إليه فتشكو أمرها وتطلب منه المساعدة. وهو يظهر الاسف الشديد ويقول — يسوءني جدًّا ان تكونوا في مثل هذه الحالة ولكنني لسوء الحظ لا املك شيئاً سوى راتبي الذي لا يكاد يكفيني وهذا ايضاً لا احصل عليه في الميعاد فما لكم الا الذهاب الى اسماعيل بك وعثمان بك فهما وحدهما قادران على دفع مطاليبكم. ولما سمع الجنود ذلك احنوا رؤوسهم وكانهم فهموا قصد محمد علي فتوجهوا بجمهورهم الى منزل البرديسي وجعلوا يصيحون امام بابه يطلبون المال. فاطل البرديسي من نافذته ورأى الجنود قد ملات الساحة والشوارع المحيطة بمنزله فسألهم عن سبب

مجيئهم فاجابوه بصراخهم الشديد انهم جياع يطلبون رواتبهم . فقال لهم ارجعوا الآن الى اماكنكم و بعد يومين تصلكم الرواتب بتمامها . فاجابه واحد من الضبط قائلاً — اننا لا ننتظر دقيقة واحدة ولا نخرج من هنا قبل الحصول على حاجتنا . فردد بقية العسكر هذا الصياح وهم يزدحمون و يقتربون للدخول الى المنزل واذا بصوت دوى كالرعد في اذانهم وقائل يقول — ماهذا ايها الجنود وماغرضكم هنا وعلام تتجاسرون على دخول بيت رئيسكم فنظر الجنود فرأوا محمد علي امامهم وعلى وجهه علامات الانتهار والغيظ تشف عن امارات أخرى لم تخف عليهم فصمتوا للحال وتراجعوا عن الباب . ورأى البرديسي ذلك فاشرق وجهه وقال لاعدمتك ايها الصديق الامين وكان قد دخل محمد علي تجاه وقال — أرجو المعذرة يا عثمان بك فانه لم يخطر لي قط ان تجيء الجنود لازعاجك بطلب المال فقد جاءوا الي اولاً ولم يكن لي ما اعطيهم فصرفتهم ولم يخطر لي انهم يجرؤون على القدوم اليك

فنظر اليه البرديسي بطرف منعكس وقال — اشكرك يا محمد علي فلا عدمتك من صديق مخلص

فقال محمد علي بصوت عال لتسمعه الجنود — انها واجباتي يا عثمان بك ان واجبات القائد ان يكون مع جنوده وقد اضطرتهم الحاجة الى ما فعلوا فانا أسألك العفو عن جسارتهم ولكنني أرجو في الوقت نفسه ان تهتم بطلبهم العادل فقد منعناهم عن مضايقة الاهالي وحرمنا عليهم النهب والغزو ومع ذلك فاننا لا ندفع لهم رواتبهم وليس هذا بمعقول فارجوك ان تدفع لهم ما تستطيعه الآن

وسمع الجنود كل كلمة مما قاله محمد علي فهتفوا قائلين ليعش قائدنا محمد علي

فقال البرديسي — صدقني ايها العزيز انه لا مال عندي الآن . ثم نظر الى الجنود وقال — اذهبوا ايها العسكر الى امكنتكم وانا اعدكم ان ادفع لكم مطلوبكم غداً اما الجنود فلم يهمهم هذا الوعد وظلوا واقفين معاً يتحادثون

فنظر اليهم محمد علي وقال — هل بلغ منكم ان تقفوا هنا بعد سماعكم هذا الوعد الا تصدقون وعد البرديسي وقائدكم فاذهبوا للحال وانتظروا الى الغد . وللحال تراجع

الجنود وانصرفوا عائدين الى امكنتهم فامسك عثمان بك يد محمد علي وقال له — قد انقذتني من شر عظيم ايها العزيز ولكن قد وعدتهم الى الغد فساعدني برأيك واهدني الى الطريقة التي اتمكن بها من القيام بوعدي

فقال محمد علي — اذا جاء الغد فجدد وعدك الى يوم آخر واني أساعدك في التسويف والوعود الى ان تتمكن من جمع المال . ومع ذلك فقد خطر لي الآن فكر ربما كان فيه الفرج ولكنه لا يخلو من الخطر

فقال البرديسي — قل يا محمد علي قل ولا تخف فاني لا أبالي بالمخاطر اذا تحققت ايجاد المال

فقال محمد علي — قد اكثرت من وضع الضرائب والمكوس على الاهالي فلماذا لا تجعل ضريبة على الافرنج والاجانب

فقال البرديسي وقد هاله الامر — على الافرنج والاجانب ؟ ولكن لم يسبق لنا مثل هذا الامر

قال — اذا ابدأ به للمرة الاولى والزمهم ان يدفعوا فانهم يأتون الى هذه البلاد ويجمعون منها ثروة طائلة وهم مع ذلك لا يفيدون الحكومة بشيء قط

فقال البرديسي — لقد أصبت يا محمد علي وسأقابل الدفتردار الآن وأوصيه أن يجري اللازم لتحصيل المال من هؤلاء . ولما قال ذلك ذهب لينادي الدفتردار فخرج محمد علي عائداً الى منزله وهو يقول — حسناً يا عثمان . اتبع هذه الطريق فانها توصلك الى الحفرة التي حفرتها لك ولجماعتك واعلم ان هذه الضريبة الجديدة سيكون لها شأن

وأصاب محمد علي مرماه في تدبيره تلك المكيدة وارسل البرديسي جباته الى بيوت الاجانب والافرنج يطلبون من كل منهم خمساية درهم . فقابل الجميع هذه الضريبة بالاستياء والنفور والرفض وأسرعت قناصل الدول الى القلمة لتقابل البرديسي وتحتج عليه لاصدار هذا الامر فلم يسمح لهم البرديسي بمقابلته وقد اعماه عن سماعهم حب المال ورغبته في اتمام وعده للجنود ودفع رواتبهم فلم يعد يهمه سوى تنفيذ الامر

وجمع الضريبة . فلما رأى القناصل ذلك اتفقوا على ترك القاهرة ونزلوا جميعهم مع من تمكن من تابعيهم الى الاسكندرية وجعل الجباة يحصلون المال بالقوة ممن تبقى . اما قنصل فرنسا فانه اختلى بمحمد علي مدة قبل مغادرته القاهرة ولم يعلم احد موضوع مفاوضتهم سوى ان محمد علي شيع القنصل الى باب منزله فودعه قائلاً بصوت خفيف انتظر قليلاً فقط فقد نضجت الاثمار وقرب سقوطها فقل لخورشيد باشا اني أمهد له السبيل واني لا ازال خادماً أميناً لجلالة المتبوع الاعظم وان اظهرت الظروف عكس ذلك واكد له اني لا أتأخر عن العمل متى حان الوقت

وفي صباح اليوم الثاني جاءت الجنود تطالب البرديسي بوعده فاخذ ما جمعته الجباة ووزع على الجنود نصف رواتبهم فتذمر هؤلاء طالبين الكل فاعلمهم انه لم يتمكن من جمع غير ما تقدم اياه وانه سيفيهم المتأخر في وقت قريب . فانصرفوا غير مرتضين وما عتموا ان عادوا يطالبون بالباقي بشدة والحاح وقد دبت في صدور جميع افراد الجيش نار العصيان والثورة . ولما رأى عثمان بك انه لا بد من ارضاء الجنود فوض جباته ان يجمعوا من الاهالي ما يجدونه عندهم بالرغم عنهم فخرج هؤلاء بالقوة الكافية وكانوا يدخلون المنازل والمخازن فيجبرون اصحابها على الدفع غير مبالين بالمقاومة والنحيب والتوسل الذي كان يصدر من أولئك المساكين وهم يرون بيوتهم واموالهم تنهب . ولما ضاق أمر الاهالي اقفلوا منازلهم ومحلات أشغالهم وتوجهوا الى الجامع الازهر فدخلوه ليتدبروا في الامر وقد آلوا على نفوسهم ان يفضلوا الموت على احتمال تلك المعاملة . وقامت المدينة شاهرة راية العصيان . وأسرع العلماء الى الجامع المذكور يحاولون تسكيت الناس وتهدئة خواطرهم فأبى أولئك السماع وصاحوا قائلين انه لم يعد بامكاننا ولا نريد ان ندفع الضرائب المتعددة . وانهم لكذلك واذا بمحمد علي وبعض جنوده داخلين عليهم فاشار بيده يريد الكلام وللحال كف الجميع عن الصراخ وصار سكوت عظيم فقال محمد علي — قد ذهبت الى عثمان بك ورجوته ان يخفف عنكم هذه المظالم فوعدني بالقبول وانه سيصدر امره الى الجباة بالرجوع عن جمع هذه الضريبة الاخيرة فارجعوا الى بيوتكم وأشغالكم آمنين وثقوا بوعد البرديسي

فانه يفعل كما قال . ولما سمع الناس ذلك صرخوا بصوت واحد ايعش محمد علي ليعش البطل المحامي عن الشعب . ثم جعلوا يتراكضون اليه والفائز بينهم من يتمكن من تقبيل يده او هدب ثوبه حباً وتبركاً . وعلم محمد علي انه قد اكتسب محبة الشعب وثقتهم بقدر ما أوجد في قلوبهم من الكره للماليك واستهجان تصرفهم فكان اذا مرَّ في مكان نهض الجميع ليحيوه داعين له بالخير وطول البقاء بعكس المماليك الذين كانوا يرون في أعين القوم علامات العداء والغيظ

وبعد بضعة ايام عاد من الاسكندرية القنصل الفرنسوي يصحبه وكيل خورشيد باشا فدخلا القاهرة ليلاً متنكرين وانسابا في الازقة الضيقة ينتقلان بحرس وانتباه حتى بلغا منزل محمد علي فدخلاه وصرفا الليل بطوله يتحدثان معه . وقبل ان يبزغ الفجر خرج القنصل وحده وبقي الوكيل فدفع الى محمد علي أوراقاً كان هذا يقرأها والسرور يلوح على محياه حتى انتهى منها فنظر الى الوكيل وقال له — لي حاجة واحدة اطلبها منك . فقال الوكيل — سل ما بدالك فقد أمرت ان لا امنعك شيئاً . فقال — أريد ان اقرأ بنفسي لخسرو باشا الفرمان المتعلق به . فقال — ليكن ما تشاء وقد طلبت شيئاً قليلاً جدا لقاء ماتستحق ولكنني واثق ان خورشيد باشا حال دخوله القاهرة سيعطيك لقب باشا وينهي لك بالنياشين التي تستحقها . فحول محمد علي وجهه لكي لا يرى الوكيل سروره

وفي صباح اليوم الثاني ذهبت فرقة من الجنود فاحاطت بالقسم الذي يسكنه أمراء المماليك

وكان اسماعيل بك وعثمان بك البرديسي قد تركا سكنى القلعة واقاما في قصريهما في البلدة ليتمتعا بالملذات ويراهما الناس وكان البرديسي ساعتئذ في دار الحريم يشغل نفسه عن صدود الست نفيسه ونفورها بالجواري الشركسيات والكرجيات يرقصن امامه ويغنين له اطيب الالحان . واذا به يسمع طلقات نارية وشعر بان رصاص البنادق موجه الى منزله فأسرع الى الدار الخارجية ليرى ما الخبر فرأى العساكر محيطة بمنزله وافواه بنادقها موجهة اليه فصاح بتعجب ودهشة قائلاً ماهذا؟ اليست هذه العساكر

البانية وأرمنية ؟ اليست جنود محمد علي ؟ ورأى محمد علي بين العساكر فقال أواه انني أراه بين الجنود ايضاً فهو الذي عمل على هلاكنا فآه اواه ولكن لا . لابد ان اريهم شجاعتي فيعلموا اني لا أبيع روحي رخيصة ثم عاد الى رجاله وخدمه فحرضهم على المقاومة وأمرهم ان يقفلوا الابواب ويتحصنوا داخلها . وكانت شرذمة من الجند تقيم في منزله فاستدعاها وأمرها باطلاق الرصاص على المهاجمين فأبت وادرك اذ ذاك انها مرسلة من قبل محمد علي لهذه الغاية وانه لم يعد له امل بالخلاص فعض شفتيه حزناً وعاد الى مماليكه الباقين فأمرهم ان يسرعوا في حمل كل مايحتاج اليه مع الحريم والاشياء الثمينة في المركبات وعلى الجمال ويستعدوا للفرار . وكان في مقدمتهم يوسف بك فقال له — لا تخف يا مولاي وثق اني اقف بجانبك وادافع عنك بحياتي . ثم عاد الى رفاقه المماليك يحضهم ويعجلهم فحملوا جمالهم ما وجد في المنزل من الجواهر وصناديق المال والفرش الثمين والاثواب الحريرية ووضعوا الحريم والاولاد في المركبات وركب عثمان بك جواده والى جانبه يوسف بك وبقية مماليكه فخرجوا من باب خلفي وساروا بسكون . ولما ابتعدوا عن القصر رآهم الجنود وأدركوا انهم هاربون بامتعتهم فتبعوهم فرجع عثمان بك ويوسف بك وبقية المماليك الى المؤخرة للقاء العساكر ونشبت بين الفريقين معركة دموية اظهر فيها عثمان بك غاية البسالة والفروسية فكان حسامه يحصد الرؤوس كمنجل الحصاد ولم يقصر يوسف بك عن القيام بمثل ذلك فكان يجول ذهاباً واياباً كالاسد الرئبال ليمنع العساكر عن ادراك الهاربين الى ان اصابته رصاصة جعلته ينتفض في سرجه ثم سقط الى الارض واندفع من صدره تنهد محزن وجعل الدم يتدفق من فيه . وكان العبيد قد بعدوا بجمالهم ومركباتهم فاغار البرديسي وراءهم ووقفت العساكر عن اتباعهم وما زال عثمان بك وجماعته يجدون السير حتى بلغوا الجيزة فوقفوا يطلبون الراحة وقد أمنوا شر العصاة . وأصيب البرديسي بجراح عديدة فكانت تسيل الدماء من ذراعه الايمن ووجنتيه

ولم يهم محمد علي خلاص البرديسي وكنوزه وامواله فقال لجنوده لا بأس من هربهم وأخذهم كل شيء وانه ليسرني خروجهم بهذه الحالة على شرط ان لا يعودوا الى هنا .

اما البرديسي فانه قبل ان يترجل عن جواده نظر الى المدينـة وقد صارت وراءه فشخص ببصره اليها وترقرقت الدموع من مآقيه فنزلت على خديه وامتزجت بدمه ثم هز رأسه بأسف وقال — أواه يا محمد علي ان تخونني فتلك أمر كاس سقاني اياها الدهر فآه آه

وعادت العساكر من اتباع الهاربين الى منزل البرديسي فدخلوه علهم يجدون فيه شيئاً متروكاً ينهبونه لانفسهم وكان لهذا الامير غير منزل واحد فتفرقوا فيها وسلبوها وخربوها وعاثوا بها بفظاعة اشد من فظاعة المماليك في مثل تلك الحالة ولما انتهوا عادوا الى منزل اسماعيل بك وكان هذا قد بلغه ماحل بعثمان بك فاستعد للهرب وما وصل العساكر الى منزله الا بعد ان ابعد عنه فدخلت الجنود قصره وفعلوا به ما فعلوا بالمنازل الآنفة الذكر

ولما كان الصباح الثاني اجتمع المماليك في صحراء الجيزة وتألب جمعهم حول بطلهم المغوار عثمان بك البرديسي وجعلوا يتشاورون وعلى وجوههم سيماء الحزن والغضب لانهم ادركوا انه لم يعد لهم من امل بالرجوع الى تلك المدينة المحبوبة مدينة القاهرة.

وفي تلك الليلة نفسها وقف محمد علي في منزله وقال — قد انتهى حكم المماليك ودولتهم بانتهاء هذا النهار. ثم ارسل فاستدعى القاضي والعلماء والفقهاء ليبلغهم امراً سامياً ارسله اليهم جلالة السلطان. فخف الجميع لاجابة الدعوة ولما دخلوا وجدوا محمد علي بانتظارهم وفي منزله وكيل خورشيد باشا فحياهم هذا باحترام ثم نهض فقرأ لهم الاوامر السلطانيـة. وكان مآل تلك الاوامر ان جلالته قد أمر بتعيين خورشيد باشا نائباً وحاكماً عاماً على القطر المصري وان على الجميع قبوله واتباع اوامره والخضوع له. وان هذا النائب الجديد سيصل القاهرة في الغد فيستلم القلعة والحصون و ينتظر قدوم الجميع اليه ليقسموا يمين الطاعة والاخلاص

فلما سمع الحضور ذلك اظهروا سرورهم واستعدادهم لتقـديم الطاعة والخضوع وانهم يؤملون بدء حياة جديدة بقدوم هذا النائب الجديد وان يكون بلوغه القاهرة عنوان السلم والسعادة واراحة البلاد مما احتملته وتحتمله من الشقاء والظلم وسفك الدماء.

ثم انصرف الحضور على ان يذهبوا الى الجوامع والمساجد لتبليغ الشعب ما كل تلك الاوامر وتحريضهم على الطاعة والخضوع

اما محمد علي فتوجه الى القلمة يصحبه قائد حرسه الخاص وجنديان يقودان حمارين كانهما يتأهبان لسفر بعيد . ولما بلغوا القلمة ترك محمد علي تابعيه وتقدم وحده الى الغرفة المسجون فيها خسرو وكان نائماً فوقف محمد علي ينظر الى أسيره ثم ناداه قائلاً — انهض يا خسرو وانهض يا نائب مصر . فافاق خسرو باشا من نومه وهو يقول من هذا ؟ من يناديني ؟

فقال له محمد علي — يناديك عبدك المطيع الذي أوليته هذا الشرف . محمد علي يناديك

فنهض خسرو باشا مرتعداً وقال — نعم عرفتك من صوتك وعلمت من هيئتك انك آت لتجهز عليّ

فهز محمد علي رأسه وقال — لا . لو شئت قتلك لكنت أرسلتك من وقت طويل الى امام عرش الحق سبحانه وتعالى لتعترف امامه بجرائمك . لا يا خسرو لم آت لاقتلك بل لاقرأ لك ما ورد علي من الاستانة بشأنك فهي رسالة بعث بها مولانا السلطان

فاحنى خسرو باشا رأسه وقال — هي الحكم باعدامي لانها لو كانت تأمر بارجاع حقوقي اليّ واعادتي الى مجدي الاول لما جاء محمد علي لابلاغي اياها . فاقرأ يا هذا

فنشر محمد علي الفرمان السلطاني بين يديه وقرأ ما محصله — انه لما كان خسرو باشا لم يحسن القيام بواجبات وظيفته و برهن عن عدم اهليته بهربه من امام الاعداء بدلاً من ان يلاقي الموت في سبيل القيام بواجباته وانه جيء به أسيراً مهاناً مخذولاً الى المدينة التي كان متسلطاً فيها فقد اظهر عدم اهليته للحصول على الشرف العظيم الذي اسبغناه عليه فقد صدر أمرنا العالي ان يخفي نفسه ولا يظهر فيما بعد في عاصمة مملكتنا ولا في أي بلدة تلوذ بحكمنا وقد حكمنا عليه بالابعاد والنفي فلا يذكر اسمه امامنا وقد عينا لسكناه جزيرة ابيرو حيث يجب ان يبقى فيها الى ان يوافيه أجله

ولما انهى محمد علي قراءة ذلك نظر الى خسرو باشا فرآه واقفاً امامه كالموتى لا ينطق ببنت شفة فقال له — الى ايبرو يا صاح . فهل تعرف ايبرو ؟ — ايبرو جزيرة صخرية صغيرة تجاه قواله . فاشكرني يا خسرو لاني انا الذي انتقيتها لسكناك . وهل تعلم لماذا انتقيتها دون سواها ؟ انني اخترتها لانك متى سجنت فيها تستطيع ان تنظر من نافذة سجنك فترى قواله وبحرها واكمة صخور بوسيفالوس . نعم ترى البحر والشاطئ . ترى المكان الذي قضى فيه ذلك الفتى ليلةً على احر من الجمر . ترى المكان الذي غرقت فيه جوهرة . ترى كل ذلك فتذكرني وتكون بقية حياتك مكرسة لتعذيب الضمير فتذكر انك قاتل وانك جعلت فتىً طيب القلب اسداً شرساً ووحشاً ضارياً . لا تخف من سكنى ايبرو ولا تيأس من حياة الوحدة فانني سأوصل اليك اخباري من حين الى آخر فتعلم ما اصير اليه وتتعجب عند سماعك ما بلغ اليه ذلك الفتى الوقح او الولد الصغير كما كنت تدعوه . ستسمع ان صنيعتك اخذ مكانك واستبقاه فلا تنسَ ان تبلغ تحيتي الى قواله والى ذلك الشاطئ العزيز والى ضريح جوهرة العميق الازرق . والآن لم يعد لي ما اقوله لك سوى ان ضابطاً من قبلي سيوصلك الى الاسكندرية ويرافقك على مركب يوصلك الى مكانك الابدي في ايبرو . فالوداع يا خسرو . ثم أدار ظهره وخرج من الغرفة ولم ينظر الى ذلك السجين الذي كان لا يزال واقفاً كانه صنم حجري وقد صبغ وجهه اصفرار الموت .

ولما خرج محمد علي سقط خسرو الى الارض فاقد الشعور فان ما سمعه من خصمه كان قد اثر بهِ الى درجة الموت . ودخل الضابط فوجده على تلك الحالة فعالجه حتى افاق ثم قاده الى الخارج فاركبه الحمار المعد له وذهب به الى الاسكندرية وكانت السفينة بانتظارهم فركباها وأخذ خسرو باشا الى منزل بني له في ايبرو وكان لغرفته نافذة واحدة تطل الى البحر ويرى منها قواله والمكان الذي دفن فيه جوهرة تحت اليم العميق البارد

الفصل الثالث عشر

المحبة للموت

جرت حوادث الفصل السابق في صباح ذلك اليوم وانتهت بانتصافه فعادت القاهرة الى سكونها بعد الظهر وخرجت الناس من منازلها تقابل بعضها وتتحدث باعمال ذلك الصباح . وبعد قليل جاء القاضي على جوادة وامامه المنادي يصيح باعلى صوته قائلاً — قد انتهى كل خلاف ايها القوم فثقوا بانتهاء الويل والخراب واعلموا ان النائب الجديد سيصل الى المدينة في صباح الغد فاستعدوا لملاقاته فانزعوا من منازلكم وشوارعكم اثار المعركة والدماء وانتم يا نساء المماليك ادفنوا قتلاكم وانقلوا جرحاكم الى منازلكم واستعدوا لزمن جديد يسود فيه الامن والصفاء . ولما سمع النساء تلك المناداة وكانت لا تزال قلوبهم واجفة اطمأنوا فخرجوا يبحثون عن القتلى والجرحى واكثرهم حول عثمان بك وجميعهم من رجاله الامناء الذين جادوا بانفسهم فداء عنه . وكان بين النساء المجتمعات في ذلك المكان سيدة محجبة مثل رفيقاتها ولكن عظم قامتها ورشاقة سيرها وخضوع الجميع لها عند مرورها امامهم اظهر انها الست نفيسة ارملة مراد بك وانها تبحث مع اخواتها لتواسي الجرحى وتهتم بالاعتناء بهم . وكانت كلما عثرت على جثة امامها تنحني فتبتنيها الى ان بلغت جثة عرفتها فوثبت فجأة.وقد افلتت من فيها صيحة واحدة ثم نادت جواريها وهن يحملن نقالة لحمل الجرحى وامرتهن ان يرفعن الجثة الى النقالة . وكان الشخص المشار اليه مثخناً بالجراح مضرجاً بالدماء حتى لم تعرف هيئته اما الست نفيسة فعرفت للحال انه وكيلها يوسف الذي تحبه وللحب عيون خفية ترى مالا يراه النظر العادي واكبت الست نفيسة تمسح الدماء بيديها وتربط الجراح بالاغطية التي جاءت بها الجواري ثم امرت عبدين من عبيدها ان يحملا النقالة و يسيرا معها الى منزلها اما الجواري فامرتهن ان يداومن البحث علهن يجدن جريحاً يحتاج الى المساعدة والعناية . وسارت بجانب العبيد و يدها على النقالة وهي لا تعلم اذا كان ما تنقله جريحاً او ميتاً ولكنها لم تنطق ببنت شفة حتى بلغت منزلها وامرت فأُتي بالنقالة الى الطبقة العلياء من المنزل وهي مخصصة لها فقط فوضع العبدان حملها على سرير هناك وخرجا بالنقالة عائدين الى مساعدة اخوانهما . واسرعت الست نفيسة فاحضرت الوسائد اللازمة لتسند بها ذاك المسكين ثم غابت برهة وعادت تحمل طشتاً من الفضة و بعض ادوية

مزجتها بيدها وانحنت فوق حبيبها تغسل جراحه وتدهنها بالمزيج المذكور وتعود فتربطها كامهر الجراحين وكانت قد تعودت مثل تلك الاعمال حينما كان زوجها مراد بك لا يقضي يوماً واحداً بدون حرب ولا كفاح · وكانت تقوم بعملها لا تنطق بكلمة ولا تسكب دمعة واحدة وقد علمت انه ليس الوقت وقت حزن ونواح بل وقت عمل واهتمام واذا كان لا بد لها من البكاء فلديها ايام طوال تنتحب فيها ما شاءت · ووضعت الست نفيسة يدها على صدر حبيبها فشعرت بنبضان ضعيف جداً فابرقت اسرتها وتحققت انه لا يزال حياً ولكنها علمت ايضاً ان جراحه خطرة لا يرجى لها شفاء فقالت لنفسها ما على الله مستحيل والله على كل شيء قدير فاذا شاء احيا العظام وهي رميم وربما نشاط الجريح وكونه ربيع صباه واعتناءها الفائق وحبها العظيم تتشارك في صنع اعجوبة تضمن للجريح الشفاء والحياة

وتبع الست نفيسة بعد هنيهة جواريها يحملن من وجدن من الجرحى فامرتهن ان يضعنهم في الغرف المجاورة و يعتنين بهم وان لا يزعجنها في غرفتها قائلة — ان الجريح الذي اتيت به هو يوسف هوسف بك الذي كان وكيلي وحالته خطرة فهو في حاجة الى الراحة التامة فاياكن ان تزعجنه او تاتين بحركة تنبهه · و بعد ان اصدرت اوامرها عادت الى غرفتها فاقفلت بابها وجثت بجانب الجريح فضمت يديها وهي شاخصة اليه وشفتاها ترددان صلاة حارة ثم انحنت فوقه واقتربت منـه وجعلت توصل انفاسها الحارة الى شفتيه كانها تريد ان تضع فيه من روحها وتدفىء جبهته الباردة بدموعها الحارة · وكان صلواتها اجيبت للحال فتحرك النائم وفتح عينيه كانه بعث من الموت او كأن شدة الحب اعادت الى الجسم روحه فشخص اليها ورأى عينيها تنظران اليه بغاية الحنو والانعطاف فقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع — هذا انت حقيقة يا مولاتي نفيسة او انا ميت نقلت الى الجنة وبجانبي حورية لها مثل عينيك

قالت — لا يا حبيبي يوسف بل انت حي ولا تزال معي في العالم الذي تعهده

قال — يستحيل علي تصديق ذلك فآه لماذا هذه الاحلام التي تزيد حرقتي وعذابي · ثم أطبق عينيه ثانية فأكبت عليه تمسح جبهته ووجنتيه بيـدها وتدعوه باحب الاسماء وتقول — انت حي يا حبيبي فصدقني انها ليست أضغاث أحلام ألا تشعر بوجودي ألا تشعر بهذه القبلة · ثم أدنت شفتيها منه وقبلته في فيه قبلة حارة ارتعش لها كل جسمـه وعاد ففتح عينيه فابرقت أسرتها وقالت — نعم انت حي ولم تمت وقد تغلبت نفيسة على الموت وأعادت قبلتها الروح الى جسم حبيبها

فقال — احقيقي اذاً يا نفيسة انك بقربي وان احلام حبي وهيامي قد تحققت فماذا جرى يا ترى وما الذي أوجب هذا التغيير العجيب. ثم رفع يده الى راسه فشعر بالجرح وكانه تذكر ما اصابه

فقال بحزن — آه قضي الامر وفقدنا كل شيء فقولي لي يا نفيسة هل اموت ؟

قالت — كلا ايها الحبيب بل ستحيا يا يوسف نعم ستحيا لي

فقال بشوق — لك . احيا لك . قولي يا نفيسة اتحبينني حقيقة ؟

فانحنت فوقه وأحاطت جسمه بزراعيها ووضعت وجهها على وجهه وقالت — اتسألني يا يوسف ؟ اتجهل حبي ؟ الا تعلم اني احببتك من زمان بعيد وربما منذ كان مولاك حياً نعم احببتك ولكني تجاهلت محبتي واسكت تلك الاصوات التي كانت في قلبي وصراخها يصم اذني . وكم سررت بل كم كانت سعادتي تفوق كل سعادة حينما كنت انظر اليك يا يوسف واقرأ في عينيك سر الحب . فقد جاهدت كثيراً ومنعت شفتيَّ عن الاباحة بما يكن ضميري وكزوجة مراد بك اردت ان ابقى طاهرة الذيل . نعم عرفت انك تحبني فاردت ان ابقى معومة لك

وكانت تتكلم ودموعها تتساقط على وجهه كندىً سموي يعيره قوة وسعادة فقال تكلمي يا نفيسة بالله لا تصتي اني اسمع الحان موسيقى الجنة واشعر بالسعادة فلا تحرميني من ذلك ورددي لي هذه النغمات

فقالت — وماذا تريدني ان اقول يا يوسف وكل ما عندي قد قلته اني احببتك من عهد طويل واني احبك . ولما مات زوجي مراد بك وضعت يدي على راسه ونذرت ان ابقى امينة له الى الممات فلا اكون لسواه. وهل علمت حينئذ غرضي من هذا القسم ؟ اني اقسمت بذلك رغماً عن شدة محبتي وثبت ذلك الحاجز بيننا لاني لم اشاه ان يضحي ذلك الشاب حياته من اجلي وهو في زهرة صباه . وظننت لشقاوتي انه يوجد بين نفيسة ارملة مراد بك ووكيلها يوسف هوة كبيرة يستحيل اجتيازها فقد كنت احبك ولم أشاه ان يقال عنك انك تزوجت بي طمعاً بالحصول على مال مولاك وغناه لانه لم يكن يعقل ان يقول الناس انك تزوجت بي عن حب وهيام وانا اكبر منك سناً فلم اشاه ان يهان من اجلي اسم حبيبي يوسف اسم البطل الذي قضيت اياماً وليالي ساجدة على مذبح هواه والذي لا ازال اضحي نفسي وحياتي حباً بصحته ورضاه

فقال . ولم هذه القساوة يا نفيسة ؟ لم هذا العذاب المر الذي حملتني اياه ؟ فقد كان

املي وسعادتي البقاء بالقرب منك • قد عبدتك فلم تنظري الي • ولكن لماذا انكلم انا الآ ن فبحياتك عودي الى حديثك وقولي لي انك تحبينني يا نفيسة • آه • لا استطيع تصديق ذلك فانه فوق تصوري

قالت — انه يفوق التصور ومع ذلك فهو الحقيقة بعينها • قدصرفت الايام والليالي يا يوسف ساهرة اضرع الي الله ان يشدد عزمي وكثيراً ما كنت امد يدي الى الجهة التي انت نائم فيها وانتظر ان تحملك الي الاولياء فاذا اصبح الصباح كنت اعود الى الهدوء والسكينة وكنت وا اسفاه اتمكن من امتلاك نفسي وانت لا تعلم شيئاً عن النار المضطرمة في صدري • ثم بدأ دور جديد يا يوسف وجاءني البرديسي والالفي يطلبان يدي وغرضهما الاستيلاء على ثروتي ايضاً فعلمت من ذلك الحين ان الخطر يهدد حياتك لان امراء المماليك قساة القلوب لا يعرفون الرحمة ولو شعر هذان باني اميل اليك لما ابقياك دقيقة واحدة في قيد الحياة • وقد ساعدني هذا الفكر على اخفاء ما بي عنك • ولما ارسلتك لتنضم الى جيش البرديسي دعوتني عديمة الاحساس وقاسية القلب مع اني لم اقصد اذ ذاك سوى رفع الشبهة فلا يقولون اني ابقيتك في منزلي في مثل ذلك الوقت •وكان غرضي ايضاً ان تحصل لنفسك شهرة ومقاماً ففعلت كذلك وعدت الي واعترفت بحبك ولكنه كان قبل دخولك علي ببضعة دقائق قد زارني البرديسي وكرر طلبه للاقتران بي فرفضته بتاتاً فماذا يكون اصابك منه لو قبلتك اذ ذاك • والآ ن قد اصابتنا هذه المصيبة العظيمة وغسلت الخيانة منازلنا واوقتنا بالدماء وترك أمراء المماليك المدينة هاربين مشتتين وبقيت انت يا يوسف وحدك هنا فلم يعد يخطر على ان اعترف لك بجميع ما اشعر به وما احتملته وقاسيته سراً • اني اعترف لك الآ ن بما اقسمت على كتمانه وربك رحوم يستر السيئات وقد اتحدنا بالحب وختمت هذا الاتحاد بالقبلة التي رسمتها شفتاي على فيك فآه يا يوسف ان المستقبل يبسم لك فستعود الى الصحة والسرور

فقال يوسف — قد عدت الى تمام الصحة ايتها الحبيبة وقد نلت اسمى السعادة يا نفيسة لانك تحبينني وها انا أشعر •••• ثم توقفت شفتاه عن الحركة وارتعش بدنه فجأة فكادت تفقد الست نفيسة صوابها وصاحت به قائلة — يوسف يا حبيبي يوسف لا تتركني بربك ابقى معي

ففتح عينيه بصعوبة كلية ونظر اليها نظر الحب والحنو وقال — امرك يا حياتي اني سابقى معك الى نهاية الحياة والى الابد لان الحب ابدي

وعادت شفتاه فتوقفتا عن الحركة ولم تزل عيناه شاخصتان الى وجهها يتدفق منها نور الحياة ثم اخذتا تظلمان شيئاً فشيئاً وتندى جبينه بالعرق البارد وكانه حجاب الموت الاصفر ينزل ببطء على وجهه فارتعشت شفتاه للمرة الاخيرة ولم يكن ذلك ارتعاش بل كلمة جمع بقية قواه المتناهية للنطق بها

فقال — « اني احبك » ثم طارت روحه الى خالقها واستولى الجمود الابدي على تلك الجثة

وانحنت الست نفيسة فوقه فشخصت ببصرها الى ذلك الوجه المحبوب الذي كانت تفارقه آثار الحياة ورأت ان تبسمه الاخير يزول و يضمحل وان ملاك الموت قد ختم على انفاسه بقبلته الاخيرة . فلم تبك ولم تنتحب بل نزعت بعنف الحجاب الملتف على راسها وغطت به وجه حبيبها وقالت بمنتهى السكون والاحترام — نم يا يوسف المحبوب نم تحت حجابي فقد مت ايها الحبيب وماتت سعادتي فلا أعيش بعد الآن الا في المسكنة والوحدة والفقر . ان كنوزي وثروتي الطائلة ستبقى حيث دفنتها يداك فتكون تمثالاً تحت الارض لعظم محبتك كما أعيش تمثالاً فوق الارض لذكراك . قد دفنت يدك كنوزي وسأدفن بيدي اثمنها واعزها واقدسها . اني ادفن معك يا يوسف صباي وحبي وعظمتي فلا يرى الناس بي سوى ارملة تعيسة الحظ منفردة عن العالم عرضة للارق والحزن والشقاء . نم يا يوسف نم يا اعز من روحي فستستيقظ يوماً في العلاء لتجدني بالقرب منك ويكون اجتماعنا ابدياً وحبنا خالداً . فالى الملتقى القريب ايها الحبيب

ورفعت الحجاب مرة ثانية عن وجه الميت ريثما رسمت على جبهته الباردة قبلة حمارة ثم اعادته وخرجت من الغرفة بسكون

الفصل الرابع عشر

خورشيد باشا

بلغ القاهرة نائبها الجديد خورشيد باشا وتوجه الى القلعة حيث استقبله الجموع واجلسوه على منصة الحكم في القصر الذي تقلبت عليه الحكام وتعدد فيه المتسلطون . وكان اول اول عمل قام به خورشيد باشا انه استدعى محمد علي واقامه ثانيه في الحكم والمقام

وانعم عليه بلقب باشا كان قد استاذن له به من الاستانة ورتعت القاهرة في بحبوحة من الامن والراحة . غير ان هذه المدة لم تطل لان خورشيد باشا ما عتم ان احتاج الى المال كمن سبقه من الحكام ليكفي حاجة الجيش وكانت الضرائب والمكوس العادية لاتسد ذلك الاحتياج فعمد كسابقيه الى وضع الضرائب الجديدة الباهظة . فنهض السكان يتافقون ويتذمرون وكانوا في جميع احوالهم يقصدون محمد علي باشا فيرى في امورهم ويحسن مقابلتهم ويطيب خواطرهم وكثيراً ما عارض خورشيد باشا في اعماله ليرفع عنهم الاثقال التي كان يحملهم اياها فاستجلب بعمله هذا محبة الكبير والصغير واصبح الاهالي على اختلاف السن والمقام يكرمون ويحترمون محمد علي باشا بقدر ما كانوا يكرهون ويحتقرون النائب خورشيد باشا فاوغر صدر الاخير حقداً على محمد علي باشا واضمر له الشر وعرف هذا ما كان يكنه له النائب فتولدت بينهما الضغائن والخصومات

وكان المماليك قد لموا شعثهم وجمعوا تابعيهم ومريديهم فعسكروا في صحراء الجيزه وكلهم عامل على اخذ الثار واسترجاع عزه المفقود فكانوا يترقبون الفرص للهجوم على القاهره والاستيلاء عليها ولم يكن يهمهم ذلك بقدر ما كان يهمهم الانتقام من محمد علي باشا فلما بلغهم ما بينه وبين النائب من النفور جعلوا يتذللون الى خورشيد باشا ويظهرون له المصادقة والخضوع واخيراً علموا ان اسطولاً عثمانياً جاء الى الاسكندرية ليساعد على اخضاع البلاد تماماً واعادة الامن والراحة اليها فخابروا اميراله وخورشيد باشا وارسلوا اليهما بالرسالة الآتية : — : اننا نحن امراء المماليك وجميع الجنود العربية والنوبية التي انضمت الينا قد علمنا ان غرض دولتكم نزع الشقاق والحروب وسفك الدماء في البلاد واعادة الامن والراحة اليها فلذلك جئنا نقدم ذواتنا لمساعدتكم في تاييد هذه الرغبة والتخلص من محمد علي باشا وجماعته الالبان الذين هم انفسهم سبب هذه الحروب والانشقاقات

فاستحسن خورشيد باشا هذا الامر جداً وسره فيه ان يجد له معيناً يساعده في التخلص من محمد علي باشا وجنوده وكان قد بعث قبل ذلك الحين الى الاستانة يشكو من تصرفات محمد علي باشا ويطلب صدور الامر العالي بعزله من قيادة الجيش او نقله مع جنوده الالبانية الى جهة اخرى من املاك الدولة . ولما رأى ان جميع الجنود تميل الى محمد علي باشا وتكرمه وتفضل خدمته وسماع امره زاد في صدره الحقد فجمع له جيشاً من الدالاتية وخصصهم لخدمته وحراسته وهم من الجنود غير المنظمة التي تعيش من الغزو والنهب والسرقة فكان ذلك العهد اول ظهور الدالاتية في مصر واول مرة اجتمعوا فيها معاً وحلوا في بلاد يلقون

الرعب والغيظ في قلوب اهاليها · وكان خورشيد باشا ينشطهم في عملهم ولا يبخل عليهم بالمال فينقدهم رواتبهم دون بقية الجنود واذا اعوزه المال كان يامرهم بالاستيلاء على بلدة او قرية مجاورة فيـذهبون اليها و يستحصلون على مطاليبهم من نهبها وسرقتها وقتل اهاليها والتشنيع فيهـم · وجاء هذا الامر الأخير على الشعب ضغطاً على بالة ولم يعد يمكنهم احتمال الاضطهاد ونير العبودية فنهضوا جميعهم بصوت واحد يعترضون على تلك التصرفات ويجاهرون بانهم لن يحتملوا ذلك الظلم والاستبداد بعد · وارسلوا قاضي المدينة وكبار العلماء ليبلغوا خورشيد باشا ما عزموا عليه · فذهب هؤلاء الى خورشيد باشا متظلمين واخبروه ان لا الشعب ولا هم يقبلون تلك المعاملة · فقابلهم خورشيد باشا بغيظ شديد وقال لهم انني ولي امركم وحاكمكم وحدي وما اريده فاياه يجب ان يكون وما عليكم الا الامتثال والخضوع فاذا لم يكفكم كلامي هذا ارسلت قنابل المدافع تعلمكم بذلك بصوتٍ اقوى واشد تاثيراً

فقال القاضي — اننا اعترفنا بك حاكماً حينما كنت عادلاً اما الآن فلا نريد ان يكون حاكمنا رجلاً مستبداً ظالماً · ولما قال ذلك خرج تتبعــه سائر العلماء والفقهاء ولما وصلوا الى شوارع البلدة وجـدوا الشعب في انتظارهم فقال لهم القاضي — قد تاكدنا ان خورشيد باشا لا يريد العدل ولا يذعن للحق فوجب علينا ان ننكر مثل هذا الحاكم ونكف يده عن العمل فدعونا نتوجه الى وسيطنا المحبوب محمـد علي باشا ونستشيره في الامر · فصاح الجميع قائلين — نعم اننا لا نخضع للظالم فهيا بنا الى محمد علي باشا · وللحال اسرع الشعب كالبحر تتدفق امواجه حتى بلغوا منزل محمد علي واحاطت الجموع به اما القاضي والعلماء فدخلوا المنزل وقابلهم محمد علي باللطف والبشاشة فقالوا له — قد اتينا بالاصالة عن انفسنا وباسم الشعب جميعه نعلمك اننا منذ اليوم لم نعد نعترف بخورشيد باشا حاكماً ولا نطيعه فان قساوة هذا الرجل وظلمه اصبحا اكثر مما يمكننا احتماله وقد قررنا ايقافه وخلعه

وكانت الجماهير خارج المنزل تصيح قائلة — لا بد من خلع هذا الظالم فانه لا يليق بان يكون حاكماً علينا ولا نقبل حكمه · وكان محمد علي يسمع ذلك وقد بانت على وجهه ملامح مبهمة فقال للقاضي — اذا كنتم قد قررتم خلعه فهل خطر لكم انه لابد من تعيين خلفه؟

وألقى محمد علي هذا السؤال برزانة وهدوء فلم يتمكن احد من سماع ضربات قلبه وهو ينتظر جوابهم وقد رأى الساعة ازفت لتحقيق ما حلم به وتوقعه منذ صباه وما صرف حياته وهمته في سبيل الوصول اليه · فكاد يمسك تنفسه ريثما يجيبه القاضي وما صدق ان فتح هذا فاه وقال — نعم قد علمنا ذلك وقد اخترنا محمد علي باشا حاكماً علينا · نعم اننا نطلب

خلع خورشيد باشا وتعيينك حاكماً علينا بدلاً منه فاننا لا نجهل ولا يجهل احد حبك الشعب والبلاد وتفانيك في راحتهم واسعادهم

فقال محمد علي — أنا ؟ ؟ وتراجع خطوة الى الوراء كانه استعظم ذلك التصريح وصبغ الاصفرار وجهه · اصفرارٌ يصبغ وجه الانسان في وقت الفرح الشديد كما يصبغه ابان الخوف ثم قال — انا ؟ لا لا ان اختياركم لا يمكن قبوله فاني لست اهلاً للحصول على هذا الشرف

فقال القاضي — بل اهل لا كثر من ذلك وهي ارادة الشعب فلا بد من انفاذها واني باسم الشعب ولخير البلاد انادي بك يا محمد علي باشا والياً على البلاد المصرية واميراً وحاكماً فيها · ثم اسرع ففتح نافذة خرج منها الى شرفة تطل على الجمهور الواقف في الخارج وصاح بملء صوته قائلاً — ايها القوم قد حكمنا بخلع خورشيد باشا و بتعيين محمد علي باشا خلفاً له والياً وحاكماً علينا فهل تصادقون على ذلك

فاندفع من افواه الجميع صراخ يصم الآذان و يبلغ عنان السماء فهم السامعون منه هذه الكلمات ان هذه هي ارادتنا · اننا نريد خلع خورشيد باشا · لا نريد ان يحكم بلادنا غير محمد علي باشا فليعش حاكمنا محمد علي باشا · فليعش محمد علي باشا الحاكم العادل

ثم عاد القاضي فدخل الغرفة وقال — قد سمعت باذنك صوت الشعب وتحققت ارادته · فقد اختاروك اميراً عليهم وهم لا يريدون سواك فاتبعني الى الشرفة ليراك الجميع ويحيوا اميرهم الجديد المحبوب

فتوقف محمد علي ثم قال — اذا كان لا بد من ذلك فمن انا لامنع القضاء · وهو ذا الشعب يدعوني فما عليَّ سوى تلبية الدعوة وليساعدني الله و يلهمني الحكمة والاقتدار لما به خيرهم وسعادتهم · واخذ القاضي محمد علي واخرجه الى الشرفة وما بلغها حتى ارتفع صراخ الالوف المؤلفة قائلين ليعش حاكمنا الجديد · ليعش قائمقامنا المحبوب · ليعش نائب السلطان العادل · ليعش محمد علي باشا

وسمع خورشيد باشا ذلك الهتاف فقطب حاجبيه واشتعلت نيران الحقد والحسد بين اضلعه فارسل بعض رجاله الى القوم يقول لهم — انه لا يوجد حاكم غيري هنا وقد تكرم جلالة المتبوع الاعظم فعينني نائباً عن جلالته في حكم هذه البلاد · اما المغتصب العاصي محمد علي فسترد الاوامر بشانه قريباً ولذلك لا اتنازل عن سلطتي الا بامر جلالة مولاي واني انصحكم ان لا تغتروا بهذا العاصي الثائر وتستمطروا على رؤسكم نقمة جلالته فمن قبل نصيحتي فليتخلف عن موافقة الثائرين و يأتي اليَّ

واستولى الرعب على قلوب العدد القليل من الرجال فلزموا الحياد الى ان ترد اوامر الاستانة على ما سيكون . اما محمد علي فلم يهمه شيء من ذلك ورأى الشعب باجماله يدفعه الى استلام منصبه ليكفيهم شر ذلك الظالم فاستدعى جنوده الالبانيين وسار بجيشه الى القلعة . وكان خورشيد باشا قد اوصد ابوابها وأقام الجنود في الحصون والمتاريس فبدأ الحصار وانتشب القتال بين الفريقين في مناوشات دامت اربعة ايام جاءت في نهايتها الرسالة المنتظرة من الاستانة جواباً على الشكوى التي قدمها خورشيد باشا سابقاً . وكان هذا ينتظرها على مقالي الجمر و يستغرب من طول المدة التي مضت عليه قبل ان يصله الجواب . اما سبب هـذا التأخير فكان انه لما بلغت شكوى خورشيد الاستانة . ارسل الصدر الاعظم القبودجي باشي سرًّا الى مصر وأوصاه ان يتحقق بنفســه و بدون ان يعلم احد فيعرف مجرى الاحوال ويمحص الحقائق و يرجع اليه بتقرير وافٍ عن صاحب الحق واهلية الحاكم . فجاء القبودجي باشي وقام بمهمته كما يجب وعاد الى الاستانة يحمل الى الصدر الاعظم حقيقة الاخبار واذ ذاك قدم الصدر الاعظم تقريراً عن الحالة المصرية للاعتاب الشاهانية فصدرت ارادة سنية بالرسالة التي استغرقت كل ذلك الوقت لوصولها

ولما وصل المندوب توقف المحاصرون والمحاصرين عن القتال واستدعى المندوب قاضي القضاة ومشايخ الطرق واصحاب الوجاهة وقرأ عليهم الفرمان العالي ممهوراً باسم جلالة المليك الاعظم وفيه صدور الامر العالي بتثبيت محمد علي باشا والياً على القاهرة ونائباً عن جلالته في الديار المصرية وعزل النائب السابق خورشيد باشا وارساله الى الاسكندرية يتلقى الاوامر السامية التي تنتظره هناك

وارسل المندوب صورة الفرمان المذكور الى خورشيد باشا وامره ان يسلم القلعة و يسرع في ترك القاهرة والذهاب الى الاسكندرية . فحاول خورشـيد باشا ان يماطل في التسليم وطلب مقابلة المندوب مقابلة خصوصية فلما لم يجبــه المندوب الى ذلك وكرر عليه وجوب اطاعة الاوامر السامية اضطر الى الخضوع فامر بفتح ابواب القلعة والكف عن المقاومــة . اما هو فخرج من باب آخر مع بعض الاتباع الامناء له وكان قارب ينتظره عند الشاطىء فاقله الى بولاق ريثما اعدت له ذهبية ركبها الى الاسكندرية ومنها الى الاستانة عمـلاً بالاوامر التي تلقاها عند وصوله

وبينما كان خورشيد باشا يخرج من باب القلعة الخلفي مع اتباعه كان محمد علي باشا يدخلها من ابوابها الكبيرة بجنوده والجماهير لم يبطلوا صراخ الهتاف والدعاء فكان يسمع تلك

الاصوات وهو داخل الى القصر حتى بلغ الغرفة التي كان يستقبله خسرو باشا فيها وفتح نافذتها فوقع نظره على مدينة القاهرة والسهول المحيطة بها يتعرج في خمائلها النيل والى جانب الصحراء تلك الاهرام الشامخة العظيمة كانها ترفع رؤوسها من ذلك البعد العظيم لتحيي مليكها الجديد . وكان لا يزال الصياح يرن في اذنيه ويسمع في كل دقيقة اصواتاً جديدة تضاف الى الاولى قائلة . ليعش مليك مصر محمد علي باشا فاشرق وجهه بنور غير اعتيادي وتغيرت ملامحه فكأن نفساً جديدة حلت في جسمه فقال

قد بلغت غايتي واصبحت مليك مصر وهوذا الشعوب تحييني بصياح الفرح والسرور وتدعو لي بطول البقاء والهناء . فأين انتِ يا اماه وهل ترين من علو مكانكِ ما صار اليه ولدك محمد علي فتبتسمين وقد تحقق حلمكِ ؟ وانت يا محمد علي قد تقلبت في اطوار شتى وألبست وجهك براقع عديدة مختلفة الالوان والهيئات ووضعت في صدرك نفساً غير نفسك كما اقتضت الاحوال . فعد الآن الى وجهك الاصلي ومباديك الحقيقية وكن كما وُلدت لتكون وكما يشاء ربك . وأنتِ يا مصر يا من تحملت من الشقاء والخطوب ماتدل عليه جراحك التي لاتزال دامية . انني ساعصب تلك الجراح وساعيد اليكِ العز والسرور والتقدم والخير فارفعكِ من التراب الى القمة العالية ومن الحضيض حتى تصيري زهرة العالم وعنوان المجد . نعم سافعل باذن الله واقسم بهِ ان اقيم على قسمي هذا فساعدني يا رباه

الفصل الخامس عشر

الخيمة

استتب الامن في الديار المصرية وابتسم ثغر الدهر لمحمد علي باشا . وحافظ على وعوده فنالت مصر وسكانها ما لم تنله في زمانها الغابر من العدل والراحة وراجت فيها الاعمال فكان الناس في سرور دايم يحسبون أن الارض قد تحولت الى نعيم وجمع محمد علي الدالاتية الذين بقوا بعد خسرو باشا وعلم أنه ليس بالامكان تغيير طباعهم ومنعهم عن التعدي والنهب فنفاهم الى داخلية افريقيا . ولم شعث بعض الجنود الذين كانوا قد فروا اثناء المعامع فكانوا يعيثون ويفسدون فاعادهم الى

الجندية واحسن تدريبهم ووضع ضريبة واحدة عادلة تقوم بالنفقات اللازمة للحكومة والجند ونظم هيئة حاكمة ووزراء ومشيرين واوجد في تلك البلاد هيئة التمدن والنظام بعد أن كانت بلاد الفوضى . وكان محمد علي باشا ينظر بنفسه في امور حكومته ويراقب عماله فلا يبخل بمكافاة النشيط النزيه كما انه لم يكن يتأخر عن معاقبة من يستحق العقاب بمنتهى الصرامة وكثيرً ما امر بالقتل في بداءة حكمه فقطع رؤوس عدد ليس بقليل من اصحاب الشر والفساد ومن الجنود الذين دأبهم التمرد وعلق تلك الرؤوس على اسوار القلعة اياماً فكانت عظة للباقين حتى هابه الجميع وجاءت البلاد قاطبة تخضع له أما عن حب وأما عن خوف . ورأى المماليك ان امالهم قد اوشكت أن تضمحل فابتعدوا عن القاهرة وسكنوا جهات المنيا وما فتئوا يزيدون قواتهم ويعدون انفسهم راجين ان يسعدهم الزمان يوماً فيعودوا الى الاستيلاء على القاهرة ويسترجعوا سطوتهم وفاتهم أن القضاء قد اوجد محمد علي باشا ليستأصل شافتهم

وأمر محمد علي باشا فجدد ما تهدم من بنيان القلعة ولا سيما القصر الذي كان يقيم فيه فبنى طبقة ثانية في اعلاه جعل نوافذه من الخشب المخروط واتقن بناءه بالحجارة المنقوشة المزخرفة وفرشه باثمن الرياش واوجد الحدائق حوله فزرع فيها الاشجار والازهار . فكان متى مر الناس من تلك الجهة ينظر احدهم الى رفيقه ويقول الا تعلم الغاية من هذا البناء . فيقول الآخر كيف لا وهذه النوافذ لا توجد الا في دور الحريم فلا بد ان اميرنا يهتم بالامور العائلية أيضاً كما يهتم باحوال البلاد . وكانت الناس تتناقل هذا الكلام بسرور لاعتقادها ان ذلك دليلٌ لزيادة الامن والراحة لان المالك الفاتح اذا بدأ يبني لسكن حريمه فيكون قد قدم اعظم برهان على اعتقاده بزوال المحن وانتهاء الحروب وتأييد العدل والسلام

وبنى محمد علي قصراً فخيماً في جهة الازبكية كان آية في حسن البناء وجمال النقوش وبداعة الصناعة وزين جدرانه بالحرائر والسجاد الثمين وكان الناس يتفرجون على تلك البناية الفخيمة ويتحدثون عن مليكهم فقال واحد منهم قد ارسل اميرنا ليستدعي زوجته الاولى واولاده وسيأتون بحراً الاني رأيتهم يبنون ذهبية جديدة في

بولاق كانها قاعة استقبال في قصر الملوك

فقال آخر — تقول زوجته الاولى فهل له غير زوجة واحدة ؟

فاجابه الاول — أنه لا يعلم احد الحقيقة ولكنني لا اظن زوجة واحدة تحتاج الى دارين احداهما في القلعة والاخرى في الازبكية . وماذا يمنع ان يكون لاميرنا غير زوجة وقد سمح بذلك نبينا (صلعم) في الشريعة الغراء

أما الحقيقة فلم يكن يعلمها احد لان محمد علي لم يكن يكلم احداً بشؤونه الداخلية وكان قليل الكلام الا مع وزرائه وارباب حكومته فيما يتعلق باعمالهم وعلى الخصوص مع وزير ماليته واسمه حسن فانه كان يحبه كثيراً ويسمح له بمرافقته في اكثر الاحيان وكان يوماً يتفقد البناء في القلعة ومعه حسن المذكور فقال له — اتعلم يا حسن من سيسكن هذه الدار

قال — سمعت ان مولاي ارسل بطلب انجاله واظن هذا البناء سيخصص لسكنهم

فقال محمد علي — اصبت يا صاح ان اولادي الثلاثة سيكونون هنا ولا بد ان يكونوا قد صاروا شباناً الان فقد مضى على خمس سنوات منذ رايتهم للمرة الاخيرة آه يا حسن ان قلبي يتقطع شوقاً لمرآهم فهل تظن انهم يعرفوني اذا راوني

قال — انك لم تتغير قط يا مولاي واني اراك لا تزال كما رايتك اول مرة في ابي قير

فقال محمد علي — نعم ان أول مرة رايتك وعرفتك ياحسن كانت في ذلك المكان وانك الصديق الوحيد الذي لم يفارقني قط من ذلك اليوم . انت يا حسن الشخص الوحيد الذي اثق به تمام الثقة فاسأل الله ان تبقى كذلك ماحييت

قال — وانا اسأل الله ان لايبلغ اعدائي مراماً فيغيرون قلبك علي فانا أقسم لك يامولاي ان ابقى اميناً للممات ولا اخشى الا امراً واحداً وهو ان يتمكن الغادرون والمبغضون من تحويل ثقتك بي

فنظر اليه محمد علي بثبات وقال — ياحسن اني لا توثر بي الوشاية ولا اصغي للطعن بل لا اصدق الا ما اتحققه بنفسي فلا انكر انه سيبلغني عنك وشايات وشكايات ولكنني

اعدك ان اطلعك على جميع مايبلغني من هذا القبيل ومتى تحققت ان الوشاية غير حقيقية فالويل للواشي

سمح محمد علي لوزير ماليته حسن فقط ان يرافقه للتفرج على داره في القلعة ولكنه لم يكن يسمح لاحد قط حتى ولا لصديقه هذا ان يتفرج على دار الحريم الذي بناه في ساحة الازبكية بل كان يدخله وحده فيلاحظ العمل ويرى اذا كانت الرياش والاواني موضوعة في اماكنها بحسب تعليماته . ودخل مرة الى القاعة الكبرى وهي فسيحة جداً عند طرف البناء فقفل الباب وراءه وتقدم الى الداخل باحترام كانه داخل الى مكان مقدس . ولما بلغ باب القاعة وقف فتغيرت هيئته وزاد تبسمه واشرق وجهه اكثر من اشراقه حين كان يكلم حسن عن اولاده . أما اثاث تلك القاعة فكان غريباً في بابه وليس فيه شيء من الزخرف والابهة . وكانت ارضها مكسوة بالحصر العادية التي يحوكها الفلاحون من قش الارز ويفرشها الفقراء في منازلهم . ولم يكن في القاعة سوى بعض الوسائد مغطاة بقماش صوفي مما يحوكه العرب ولم تكن الحيطان مغطاة بالستائر الحريرية بل مكسوة بقماش من الكتان الذي تصنع منه الخيم وكان في منتصف القاعة خيمة حقيقية خارجها من القماش المذكور وداخلها مبطن بقطع من القماش المختلف الالوان فكانها خيمة شيخ اعرابي جاء بها من منتصف الصحراء . وكانت الخيمة المذكورة مقسومة الى قسمين يفصلها ستار ثقيل من نفس القماش . اما القسم الاول فكان في وسطه طاولة خشبية صغيرة تحمل صينية عليها ادوات الطعام من كؤوس وصحون واباريق وحولها الوسائد وبها غطاء صوفي تلتحف به الاعراب وقت النوم . وكانت الهيئة الخارجية تدل بالاجمال على المسكنة والفقر غير انه لو تمعن الناقد بما يبدو له لرأى ان الغطاء الصوفي مبطن من الجهة الاخرى بانعم الحرير والصينية الخشبية اللون ليست الا من الفضة النقية والاواني التي عليها من الذهب الخالص يستره الدهان فيبان للناظر كانه من الفخار الحقير

دخل محمد علي باشا الى هذا القسم من الخيمة فسره مارآه وزاد تبسمه فهز رأسه علامة الرضا ثم تقدم الى القسم الداخلي ورفع الستار فتوقف برهة بالرغم عنه وكانه سمع

صوتاً يقول له — « ان هذا هو الخباء ولا يجوز للرجال دخوله ومع ذلك فانا ادخلك اليه وارجو ان لاتخرج منه » . فوقف محمد علي عند الباب وجعل ينظر الى ذلك الخباء وكانه نفس الخباء الذي ادخلته اليه بطيطه . رأى الفراش الذي كانت تنام عليه وفوقه الغطاء الصوفي المقلم باللونين الابيض والاسود والى جانبه الحذاء من الجلد الاحمر . أما الحذاء فكان من المخمل ومرصع بالحجارة الثمينة كما كان الغطاء والفراش من الاطلس والحرير . وكان الى جانب الخيمة صندوق صغير كالذي في خباء بطيطه وقد اودعته أدوات الزينة التي اشتراها لها والدها من طنطا وربما كانت من الخرز او الحلي التي اخذها العربان عن اجسام المومياءات التي عثروا عليها في مدافن الصحراء . اما هذا الصندوق فكان يحتوي على عقد من اللؤلؤ وحزام من الذهب المرصع باليواقيت وتاج يتألق نوره كأن واضعه قد قبض على النجوم ونظمها فيه ليبرهن عن شدة محبته

ولما رأى محمد علي كل ذلك شعر بلذة فائقة الوصف لم يشعر بها منذ صرف آخر ليلة بالقرب من حبيبته جوهرة

فلبث برهة صامتاً ثم عاد ادراجه وهو يقول — قد تم ذلك على ما أريد ولم يبق علي سوى احضار صاحبة هذا المكان . ولما بلغ الباب الخارجي فطن ان هيئته ربما كانت هيئة فتى جاءته هدية ثمينة لا هيئة رجل يحكم البلاد فقطب حاجبيه وعاد الى عبوسته والى اشغال حكومته وأعماله العادية

وفي مساء ذلك اليوم اظهر محمد علي باشا رغبته في الاستراحة قليلاً من عناء الاشغال فترك القلعة وذهب ليصرف بضعة ايام في بيت بناه ايام كان ضابط تحت رئاسة خسرو باشا ودعاه السلاملك وكان مركزه على شاطىء النيل المقابل بولاق ولم يصحبه في هذه الخلوة سوى واحد من عبيده واسمه احمد فلما بلغا السلاملك اختلى محمد علي بعبده احمد وكلمه برهة ثم دخل لينام أما احمد فانه ركب هجيناً وسار به يخترق حجاب الظلماء . ولما بزغ نور النهار نهض محمد علي فوقف في نافذة غرفته ينظر الى الصحراء الرملية وينتظر بفروغ صبر عودة عبده وهو تارة يقطب وجهه وطوراً يسخر بنفسه كانه طفلة صغيرة تنتظر عودة حبيبها فلما انتصف النهار رأى عبده عائداً

فنزل لملاقاته الى الحديقة وابتدره بالكلام قائلاً — هل عرفت الخيمة يا احمد

قال — نعم يامولاي وقد وصل اليها الهجين من تلقاء نفسه

فقال — ومن رأيت هناك ؟

قال — رأيت الشيخ عنان فقط . فادار محمد علي وجهه لكي لا يرى عبده انقلاب سحنته وارتعاش شفتيه . ثم تمالك وقال — هل كان الشيخ وحده ؟

قال — نعم يامولاي كان وحده في الخيمة فجلست وحادثته مدة من الزمن

فقال — قل لي ماذا قال . وهل ذكر لك شيئاً عن ابنته انها تزوجت

قال — كلا يامولاي . قد كلمني الشيخ عن ابنته اجابة لسؤالي وقد القيتها باحتراس و بطريق العرض كما أمرتني فاخبرني ان ابنته قد تغيرت جدا فهزل جسمها واصفر لونها وانه قد ارسلها لتغيير الهواء عند بعض صديقاتها في البدرشين أملاً ان تجد مع صاحباتها ما يسليها و يعيد اليها سرورها ولكنها قد ارسلت بالامس الى والدها تخبره انها لم تطق البقاء هناك وانها عائدة اليه في هذا النهار . ولما بلغت الخيمة وجدته بالحقيقة عند بابها ينتظر عودة ابنته وهو لا يجسر على الذهاب الى ملاقاتها خوفًا ان يدخل احد الخيمة في غيابه و ينهب مافيها من كنوزه

فقال محمد علي — اذًا ينتظر رجوع بطيطه اليوم الى خيمة والدها

قال — بقيت احادثه إلى ان رأيتها قادمة يا مولاي ورأيت الشيخ قد عرفها وقال لي هاهي ابنتي عائدة اليَّ فلما تحققت ذلك استأذنته بالانصراف وسرت عائداً الا بلغك ما كان يا مولاي

فقال محمد علي — وكم تظن يا احمد انه يلزم من الوقت لبلوغ خيمة الشيخ عنان من هنا

قال — أخذت الهجين الذي أمرتني ان اركبه والذي اشتريته مؤخرًا من الشيخ عنان فكان يعرف الطريق وسار بسرعة الريح من تلقاء نفسه فبلغ الخيمة في وقت لا يزيد عن ساعتين

فقال محمد علي — ساعتين ؟ اذًا بعد غروب شمس اليوم بساعة واحدة انتظرني

لنسير معاً وليكن الهجين المذكور مستعداً لركوبي . أما انت فاختر احسن جيادي وأشدها عدواً .

الفصل السادس عشر

التعويض

امسى المساء ودخل الشيخ عنان ليبيت في خيمته وقد عزم ان ينهض باكراً جداً ليذهب مع بعض رجال قبيلتهِ الى طنطا فيبيعون جزاز المعزي والجبن الذي صنعوهُ . وكانت بطيطه تنوي ان ترافق والدها لتشتري من سوق طنطا بعض الحاجات الضرورية فسرحت شعرها الجميل وضفرته جدائل عديدة متماسكة بدبابيس من الذهب المرصع بالحجارة الثمينة واعدت لباسها الحريري و برقعها وحذاءها ثم صبغت يديها بالحناء وقلمت اظفارها وباتت على امل السفر باكراً .

ولم تهتم بطيطه في تحسين وجهها وصبغ شفتيها كعادتها لانها كانت في المدة الاخيرة قد ابطلت كشف وجهها فكان قناعها يستر هيئتها فلا يراها احد . واستغرب الشيخ عنان هـذا الانقلاب في اطوار ابنته وسألها عن سبب هذا التغير الذي لاحظه فيها بعد قبضهم على الاسير محمد علي فكأنها رأت في وجهه ما اضرَّ بها وجعلها تخاف من مقابلة نظر البشر . فلم تجب بطيطه والدها الا بابتسام لطيف اجتهدت ان تخفي تحته ما كانت تشعر به وآلت على نفسها ان تحتجب عن كل بشر بعد تلك النظرة التي جعلتها تكرس نفسها لناظرها الغريب

نامت بطيطـه في الخباء كعادتها ونام الشيخ عنان في القسم الاول من الخيمة وكلاهما غارق في سبات النوم لا يبالي بهبوب الرياح العاصفة التي كانت تهز اوتاد الخيمة وتكاد تنزعها من الارض وهي تصفر بشدة حتى ان الشيخ عنان لم ينتبه قط الى ارتفاع طرف الخيمة ولم يعلم شيئاً عن رجل طويل القامة دخل اليه بسكون حتى صار بالقرب منه ولا عن رجل آخر قصير القامة كان بنتظر رفيقه قريباً منه . اما

الطويل القامة فانه أخذ قيوداً متينة وربط بها يدي الشيخ عنان ورجليه قبل ان يشعر ولما استيقظ ورأى نفسه على تلك الحالة اراد ان يتكلم فمنعته كمامة وضعها الرجل في فيه وتركه ملقى على الارض كقطعة خشبية لا يستطيع الحركة ولا الكلام . وكان على وجه الرجل لثام كثيف يخفي هيئته فاعتقد الشيخ عنان انه سارق قاده طمعه الى الاستيلاء على كنوز الشيخ عنان واموله . وما عتم ان راى طرف الخيمة قد رفع ثانية ودخل منه الرجل الثاني القصير القامة فتحقق انها عصابة اشقياء لا غرض لهم سوى النهب والسرقة فكاد يفقد عقله ولا سيما لانه لم يستطع المدافعة عن ماله وخصوصاً عند ما اقترب الرجل الثاني الى الخباء فدخله وكان الخباء هو المكان الذي اودع فيه الشيخ امواله ومقتناه . ولما دخل الرجل الثاني الى الخباء وجد بطيطه لا تزال نائمة فوقف امامها برهة يتامل في حسنها وجمالها على نور القمر المنبعث من شق الخيمة ثم انحنى فوقها فقيدها باربطة حريرية ولما افاقت وحاولت الكلام اسرع فغطى وجهها بكوفية حريرية ايضاً مطرزة بالذهب وربطها حول عنقها ثم حملها بين ذراعيه وهمس في اذنها قائلا — لا تخافي شرًا يا بطيطه فان حياتك في امان

وشعر الرجل اذ ذاك بارتعاش جسمها بين يديه فكانها تذكرت الصوت ولكن من يوكد لها ذلك وكيف تعتقد ان صاحب الصوت الذي تعهده يجيء اليها كلص فصمتت وهي لا تدري ماذا تقول او تفعل . ولم تر هجينها ينتظرها امام الخيمة وهو نفس الهجين الذي حملت عليه اسيرها محمد علي كما يحملها هو الان وركب الرجل القصير القامة وهو محمد علي باشا الهجين واضعاً حبيبته امامه ثم انهض الهجين وناداه بالمسير وكان الرجل الثاني وهو خادمه احمد قد امتطى جواده وسار بجانب مولاه شاهراً غدارته ليدرأ عنه ما ربما يعترضها في سبيلها من العقبات . وكان الليل صافياً رائقاً ساكتاً ينيره نور القمر الجميل فجعل الراكبان يجدان السير حتى بلغا مثال ابي الهول فقال محمد علي لاسيرته — اننا امام ملكة الصحراء فهل تودين مشاهدتها يا بطيطه؟ اني حزين لاجلك وكنت اود ان ارفع عن راسك هذا الغطاء ولكني اخاف ان تعضي ساعدي انتقاماً فهل تعدين ان لا تفعلي

فارتعشت للمرة الثانية وهزت رأسها وقداستولى عليها سرور داخلي لانها تأكدت حينئذ ان هذه الكلمات هي نفس ما قالته لاسيرها محمد علي حين كانت تحمله على هجينها وهو موثق اليدين والرجلين ومغطى الوجه . وشعر محمد علي بذلك فقال لها انك تهزين راسك فانا اثق بك واحل قيودك . ولما قال ذلك اسرع فحل الكوفية عن راسها فرفعت عينيها اليه وكان القمر منيرًا فنظر كل منهما الى وجه صاحبه واكتفت بطيطه بتلك النظرة فنست للحال آلام الفراق وما قاسته في غياب الشخص الوحيد الذي احبته بل نسيت ما هي فيه من الاسر الحلو ونسيت والدها وما يكون قد أصابه ثم رأت وجه محمد علي يقترب من وجهها فادارت رأسها وتبسم محمد علي فقال لها ألا ترين كيف أن خيالات راسينا على الارض يقبلان بعضها فلماذا نترك القبلات للظل فقط ولمَ لا نقبل بعضنا

فكادت بطيطه تجن من شدة سرورها وهي تتذكر نفس كلماتها التي يرددها محمد علي ولكنها هزت رأسها وقالت — لا تنس ما قلته لك اني أقسمت لوالدي ان لا يقبلني غير الرجل الذي يقودني الى خيمته ليجعلني زوجته

فقال محمد علي — وهل لا تزالين مصرةً على ذلك القسم

قالت — نعم يا محمد علي . ولذلك فانت لن تقبلني لانه لا يمكن أن تأخذني الى خيمتك ولا أن تجعلني زوجتك ولكن اواه قد علمت غايتك الان فقد احتلت علي وسرقتني من خيمة أبي لتجعلني امةً لك

قال — اصبتِ يا بطيطه فانا اود أن اجعلك أمة وانما امة الحب فقط فقد علمت انك تحبينني

فصاحت بغضب — اذًا ساء فألك يا هذا فانا لا احبك ولا اريد أن اكون امة . أني بدوية حرة وملكة الحرية كما يسميني جميع افراد قبيلتنا . وانا اكرر لك أن العرب لا يباعون بيع العبيد فانا لا اكون امة لمخلوق

قال — ولكنك ستصيرين امة الحب

فقالت ودموع الغيظ تتساقط على وجنتيها — انني لا أحبك اذًا وانني

اكرهك . نعم يا محمد علي اني اكرهك ولا اسمح لك بتقبيلي قط فاني اكره اللص الذي يسرقني من خيمة والذي ليصلني امة له

فقال محمد علي بلطف — يا بطيطه قد نزعت الغطاء عن وجهك بعد أن وعدت أن لا تنهشي ذراعي باسنانك وها أنا اراك تنهشين قلبي بكلماتك فاعلمي انني أعيد الغطاء اذا عدت الى التكلم بهذه الخشونة

فقالت — افعل يا هذا واسكت فمي . أمسك شفتيّ عن هذا الكلام وأغمض عيني عن النظر اليك

فقال — حسناً قلت فها انا فاعل . ثم اعاد الغطاء الحريري على رأسها ووجهها وقال — اني افعل ذلك يا بطيطه لاني لا اريد أن يزاحمني النسيم المليل في حبي ويسبقني الى تقبيل وجنتي حبيبتي . أفعل ذلك لاني لا اريد أن تشاركني النجوم في النظر الى وجهك . افعل ذلك لاني لا اريد أن يرى القمر ما في وجهك من الجمال . آه يا بطيطه لا اريد أن يرى سواي هذا الجمال ولا أن يعبده غيري . نعم انك لي وامتي كما أني انا عبدك وان اكن مولاك . انك لا تزالين تهزين رأسك فافعلي ما شئت فانت لي وأنا لك

وما زال الهجين يسير بحمله يتبعه الجواد حاملاً العبد احمد الى ان اصفر نور القمر واختفت النجوم ولاح نور الفجر ثم بدأت الغزالة بالظهور من وراء الافق . في نفس الدقيقة التي وصل بها محمد علي الى قصره في ساحة الازبكية فوقف الهجين عند باب القصر وترجل احمد ليفتح الباب فرفع محمد علي بطيطه بين يديه ولما ركع الهجين نزل عنه وسار بها في الحديقة

وكان العبيد في القصر لا يزالون نياماً فدخل محمد علي بحمله يتبعه احمد من باب الحريم السري فصعدا سلماً أوصلهما الى غرفة الحاكم . ولما تيقن احمد وصول مولاه بامان عاد للاعتناء بالهجين والجواد . أما بطيطه فلم تكن ترى شيئاً من البذخ والعظمة التي تزين ذلك المكان وماذا يهمها لو رأت الستائر الحريرية المطرزة بالذهب والاواني الفضية المرصعة باثمن الجواهر فانها لا تميل الا الى منظر الصحراء

القاحلة ولا يروق لها سوى منظر الطبيعة كما تعودت من صغرها . ولم يخف على محمد علي ذلك وقد فهم ما يشعر به قلب تلك الفتاة الطاهرة التي يحملها بين ذراعيه . وما زال داخلاً بها حتى بلغ الغرفة فوضعها على السرير واقفل الباب وكانت الشمس قد اشرقت بتمام بهائها وبعثت باشعتها من خلال الوفد الخشبية فنزع محمد علي الغطاء عن وجه بطيطه وحل وثاق رجليها وذراعيها وقال لها — انهضي يا بطيطه فان حياة جديدة تنتظرك . ولما رأت بطيطه نفسها محلولة الوثاق حرة التصرف نهضت واقفت على قدميها واجالت نظرها في ما حولها فرأت خيمة لا تفرق شيئاً البتة عن خيمة والدها فنظرت الى محمد علي نظرت عبرت عن كل ما في فؤادها فضمها الى صدره وقال — ألا تزالين محافظة على قسمك يا بطيطه فلا تسمحين لاحد أن يقبلك الا الرجل الذي يأخذك الى خيمته لتكونين له زوجةً ؟

فقالت والحب يكسر اجفان عينيها والسعادة تنير وجهها بنور يفوق التصور — نعم لا ازال على قسمي وحاشا لله أن أحنث به

فرفعها محمد علي بين يديه ودخل بها الى تلك الخيمة التي وصفناها سابقاً وقال — يا بطيطه . هاك خيمتي وهاأنذا أدخلك اليها كزوجتي فهل تسمحين لي الان بتقبيلك

فلم تجب الفتاة بكلمة وقد اغلق عليها بل القت بنفسها على صدره وقبلته بحرارة فدخل بها الى الخباء

الفصل السابع عشر

الخاتمة

اصبحت مصر يوماً حافلة بالمسرات تلوح في اعالي بناياتها الاعلام والازهار وقد غصت شوارعها بالناس على اختلاف طبقاتهم واجناسهم يحملون الورد والرياحين وكان اكثر المحلات زينة وجمالاً القلعة ولا سيما القصر الذي فيهــا فانه كان كجنة

بنيت من الحرير والدمقس وزينت بجميع اصناف الازهار فان ذلك اليوم كان موعد وصول انجال مليك البلاد . وكانت الجموع تسير الى جهة بولاق وتقف عند ضفة النيل منتظرة القادمين وهم يقولون لبعضهم بعض . قد ثبت لنا الآن ان لمليكنا زوجتين فان تلك التي تقيم الآن في قصر الازبكية ليست سوى زوجته الثانية لان الاولى لها اولاد وهي قادمة برفقتهم في ذهبية خاصة

واقبل محمد علي باشا بموكبه فرأى الجموع وعلى وجوههم علامات الابتهاج والسرور فكان يضع يده في جيبه وينثر على فقرائهم النقود فكانه اراد ان يسر الجميع لسروره وكان راكباً على جواد مطهم تحف به رجال حكومته حتى بلغ الضفة وقد أعد فيها مكانين الاول لاستقبال انجاله والثاني لاستقبال زوجته ووقف الامير والجميع ينظرون الى النهر ونظر الوالد اشد من نظر المتفرجين فرأى محمد علي اعلام الذهبية الحمراء قبل ان يراها احد سواه فقال لوزيره حسن الذي كان بجانبه — قد أتوا يا حسن وعن قريب اشاهد اولادي . وسمع الذين بالقرب منهما هذه الكلمات فجعلوا يرددونها ثم ارتفع من الحضور صوت ملأ الفضاء وجعلوا يصرخون — ليعش مليكنا المحبوب وليحي الامراء انجاله الفخام

وبلغت الذهبية الشاطيء فنزل منها اولاد محمد علي الثلاثة وكانوا قد صاروا فتياناً وتلوح على وجوههم سيماء الذكاء والاقدام فتقدموا نحو الحاجز الخشبي المغطى بالسجاد الفاخر والرياحين . ونسي محمد علي ما عليه من الابهة بل نسي مركزه ولم يعد سوى الاب المحب المشتاق فوثب عن جواده وقابل اولاده فضمهم معاً الى صدره وجعل يقبلهم بشوق والدموع تترقرق من مآقيه فأثر ذلك المنظر في المتفرجين وجعلوا يزيدون في الصياح والتهليل يهنون القادمين ويدعون لهم بطول البقاء والسعادة والسرور وقد تمكن اعتقادهم بتأييد السلام في بلادهم

وركب اولاد محمد علي الجياد المعدة لهم وساروا الى جانب والدهم تحييهم مدافع القلعة بطلقاتها ووراءهم فرقة من الجيش وامامها الموسيقى تصدح بانغامها الشجية ووراء هؤلاء الجماهير الغفيرة فتوجهوا قاصدين القلعة . اما الذهبية فبعد ان انزلت الامراء

تقدمت الى المكان الثاني وكان مزيناً كالاول ولكنه لم يكن فيه من الرجال سوى بعض الخصيان فقط وكانت الضفة مكتظة بالنساء فانه لم تبق سيدة في القاهرة الا وذهبت لملاقاة حرم الامير . ووقفت زوجة محمد علي على ظهر مركبها وأجالت نظرها في ذلك الاستقبال الباهر ولم يكن يهمها شيء من تلك العظمة وانما كانت تبحث بنظرها عن شخص واحد عجبت لعدم وجوده بين أولئك المستقبلين ولكنها عادت فقالت لنفسها . اواه قد نسيت ان المليك مقيد بواجبات الملك فهي تمنعه عن اظهار شعوره الخاص والقيام بواجباته العائلية فلا بأس . ثم نزلت الى الحاجز فاستقبلها النساء باصوات الطرب وهن يقلن اهلاً بالست عائدة اهلاً بزوجة اميرنا اهلاً باميرتنا المحبوبة . فكانت تحني راسها الى كل جهة علامة الشكر وما صدقت ان بلغت المركبة المعدة لركوبها حتى دخلتها وأسدلت الستائر لتخفيها عن النظر فافلت من صدرها تنهد عميق وانفجرت من عينيها الدموع التي كانت تحاول اخفاءها وقالت لنفسها — اواه ليتني بقيت في قواله فان مقابلة محمد علي الحقير هناك وضمه اياي بين ذراعيه وقوله لي أهلاً بك يا عائدة أحب اليّ من كل هذه الابهة والعظمة . وأطلقت المدافع لاستقبال الاميرة كما اطلقت لاستقبال الامراء فكانت عائدة ترتعش لدى سماعها واقترابها الى القلعة وهي في كل خطوة تقول الوداع يا قواله الوداع يا زمن سروري وسعادتي فكأن صوتاً خفياً كان يرن صداه في صدرها قائلاً — ان سعادتك العائلية وهناءك المنزلي قد مضيا

ودخلت عائدة القصر من باب الحريم بين صفوف الوصائف والاماء يقودها خصي خاص حتى بلغت عرشاً اعد لها ثم جاءت النساء اللواتي استقبلنها فجثون امامها ليرحبن بها ويقدمن لها هداياهن من الاواني الذهبية والفضية والحجارة الثمينة والامتعة الحريرية المطرزة فكانت تقبل ذلك بالشكر وتحييهم بعبارات الرقة واللطف فلم تخرج احداهن من لدنها الا وقلبها مفعم بحب تلك الاميرة العظيمة اللطيفة . ولما انتهى ذلك تقدم العبد يستأذنها ان تنهض وتتبعه ليوصلها الى الدار المعدة لنزولها فنهضت تتبعه سائرة بين صفوف الخادمات والجواري وهنّ جاثيات الى الارض امامها . وكانت

تود عائدة ان تبقى وحدها فساء فألها ورأت عدداً من الوصيفات يحطن بها ليساعدنها على تغيير ملابسها

فقالت لنفسها — اواه ان نساء الحكام على ما يظهر يحرمن لذة الخلوة فما أشقاني اذا كنت قد حكم علي بأن أكون بين هؤلاء فلا يفارقنني لحظة . وبعد ان غير الجواري ملابسها وألبسنها ثوباً من الدمقس مطرزاً بالذهب ومرصعاً بالحجارة الكريمة اشرن الى باب في صدر الغرفة علامة الدخول الى الغرفة الخاصة التي يقابلها بها الامير

فخفق قلب عائدة سروراً وأسرعت الى الباب فدخلته وأغلقته وراءها وهي تؤمل أن ترى زوجها بانتظارها فلم تره واعتراها جمود وكادت تقع الى الارض لولا ان فتح الباب المقابل ودخل منه محمد علي . فنظرت اليه ولم تكد تعرفه لما طرأ عليه من التغيير فان وجهه الذي تعهده كئيباً مقطباً اصبح مشرقاً يفيض منه نور السعادة وسيماء السرور ولباسه الذي تعهده زرياً بسيطاً كان الآن من اثمن القماش تلمع فوقه الشرائط الذهبيه والاوسمة المرصعة . فتقدم حتى صار امامها . وأخذ بيدها فأجفلت وكأنها رأت انه قابلها مقابلة الصديق لا مقابلة الزوج . اما محمد علي فقال لها — اهلاً بك يا حبيبتي عائدة ان قلبي يبتهج بمشاهدتك بعد هذا الفراق الطويل

فأخذت يده وشدت عليها وقالت — نعم فراق طويل فهل تعرف مدته وهل شعرت بصعوبته

قال — نعم . هي خمس سنوات وكم غيرت من الاحوال

فجذبت يدها منه وقالت — نعم . قد غيرت اشياء كثيرة وقد رأيت ذلك يا محمد علي

فقال — نعم ولكنها لم تغير قلبي ومحبتي لك يا حبيبتي عائدة فانا لا أزال أحبك ولن ازال أحبك يا عائدة كزوجتي الاولى وأم أولادي

فأحنت عائدة رأسها وقد أثرت بها النغمة التي نطق بها محمد علي بتلك الكلمات المخيفة . ادركت معنى قوله زوجتي الاولى ولكن ماذا تستطيع ان تفعل والشريعة

تسمح بتعدد الزوجات . ادركت ان الزواج يقتل المحبة فيتحول العشق الى صداقة والغرام الى مطارحة سلام . فتنهدت ولم تجب

فقال محمد علي — نعم يا عائدة انك تبقين ابداً زوجتي الاولى المحبوبة أم اولادي وصديقتي

واغمضت عينيها وحاولت ان تخفي ارتعاشها وقالت — حسناً يا محمد علي اني اطيعك ولكنني لا اكتفي بالحصول على كوني صديقتك . لا لا احبك كصديق بل احبك واعتبرك كولي وكرجل احببته وحده فكان ولم يزل حبيبي الوحيد في العالم

فطوق محمد علي عنقها بذراعيه وقبلها . والقبلة تجعل قلب المرأة المحبة يتململ ألماً

ورأى محمد علي انه لا بد من تغيير مجرى الحديث فجعل يلاطفها ويكلمها عن اولاده وقال لها انهم ينتظرون الدخول ليهنوها بسلامة الوصول . ثم ذهب الى الباب ففتحه ودخل الفتيان وبيد كل منهم رزمة صغيرة فقال لهم — ماهذا ايها الاعزاء وماذا تحملون . ثم جلس الى مقعد واجلسهم بجانبه

فقال بكره ابرهيم — أتسألنا يا والدي عما نحن اتون به ؟ اننا احضرنا لك بعض الهدايا كتذكار من قواله وقصدنا ان نريك بهذه التذكارات اننا اجتهدنا ان نتمثل بك في المهارة والاقدام فكثيراً ما كان يحدثنا الموسيو ليون عنك ويخبرنا عن مهارتك في فن السباحة والتجذيف فصممت ان أصير مثلك بحرياً ماهراً اهزأ بالامواج واتسلط على البحر

فنظر الوالد الى بكره بتبسم لذيذ وقد قرأ في عينيه مابشره بآمال كثيرة ومستقبل سعيد فقال له — يسرني ذلك يا ابرهيم فكمل حديثك . انك صممت ان تهزأ بالامواج و . . . .

فقال ابرهيم — نعم يا ابتاه وقد اتقنت ذلك فصرت اهر نوتي في بروستا وقد تعلمت الغوص حتى لم يعد يفوقني احد فيه ولكي ابرهن لك عن ذلك قد اتيت اليك بهذا الدليل والتذكار الذي انتشلته من اعماق اللجة وقد كان مربوطاً بكيس فاصعدته الى البر وفتحته . فتصور استغرابي عند ما رأيت انه يحتوي على هيكل عظام . وبما

ان هذا العمل كان اعظم عمل فعلته في ممارستي الغوص احببت ان أجيء به اليك دليلاً على مهارتي وتفنني

فاصفر وجه محمد علي وقال بلهفة — تقول من اعماق اللجة . قل لي يا ابرهيم فهل كنت تغوص اذ ذاك بالقرب من شاطىء بروستا

قال — نعم يا ابي فانت تعلم ان الشاطىء مرتفع هناك واللجة عميقة جداً بقرب الشاطي فهناك غصت الى القعر ووجدت كيساً انتشلته وسبحت به الى الشاطي فلما فتحته وجدته محتوياً على هيكل بشري وهذا التذكار

فقال محمد علي وقد ارتعشت شفتاه وبان عليه الانقباض — كيس يحتوي على هيكل بشري ؟ وما هو التذكار الذي اتيت به

قال — هو ضفيرة من الشعر الطويل الاسود فلا بد ان الجثة كانت جثة امرأة

ولم يستطع محمد علي ان يمد يده ليأخذ تلك الرزمة من ابنه فوضعها هذا على الارض امامه وقد تعجب من التغيير الذي طرأ على والده . ورأت عائشة ايضاً هذا الانقلاب فنادت ابرهيم الى جانبها وكأن صوتها افاق محمد علي من غيبوبته فنظر الى ولده الآخرين وقال — وانت ماذا اتيت به يا اسماعيل وانت ياطوسون

فقال اسماعيل — نحن ايضاً وددنا ان نأتيك بما يذكرك بقواله . وقد سمعنا عن مهارتك في تسلق الصخور الوعرة وأردنا ان نقتفي اثرك وعلمنا انه لم يتمكن احد سوانا من تسلق الاكمة الصخرية التي بقرب بروستا بسهولة فتمرنا على ذلك حتى تمكنا من النجاح ووجدنا يوماً كهفاً غريباً في اعالي تلك الصخور ودخلناه من منفذ طويل ضيق جداً . ولا بد انك تستغرب متى اخبرتك عما وجدناه فيه . فقد ظهر لنا ان قوماً سكنوا ذلك الكهف في الازمنة الغابرة لاننا وجدنا رياش واوان مبعثرة في ذلك الكهف المتسع وقد سررنا باكتشافنا هذا وكثيراً ما كنا نختلف الى الكهف ونصرف فيه اوقاتاً لذيذة . ولما دخلناه للمرة الاخيرة رأينا ان نحضر لك عمنا تذكاراً منه فقد اتينا اليك بهذا الكاس الجميل الذي وجدته هناك

فقال طوسون — وانا أتيت بهذا الشال الحريري المطرز بالذهب ولم أرَ ابدع

من صنعه وأجود من قماشه. ولكنه وا أسفاه فيه بعض نقط سوداء كأنها دم لطخ به
ووضع اسماعيل وطوسون هدايا م عند قدمي والدهم . أما محمد علي فبقي صامتاً
عديم الحركة أصفر اللون كأنه مثال من الرخام البارد و بعد قليل حاول الكلام فلم
يستطع فاشار الى بنيه ان ينصرفوا وخاف الاولاد عند ما رأوا والدهم على تلك الحالة
فاسرعوا الى والدتهم . فنهضت عائدة واخذت بايديهم وخرجت معهم من الغرفة

ولما رأى محمد علي نفسه وحده مع تلك الهدايا جعل ينظر اليها وهو في ذهول
ثم أخذ ما اتاه به ابرهيم ففتحه و رأى شعر جوهرة الاسود الطويل الجميل فاندفع من
صدره صراخ موئلم هو نداء الحزن على موت حبه الاول . فضم تلك الضفيرة الى شفتيه
وقبلها مراراً وهو يتذكر تلك الاوقات التي قبل فيها نفس ذلك الشعر حين كان لا يزال
نامياً على رأس صاحبته . ثم اخذ الكاس وعلم انها الكاس التي شربت جوهرة منها
مراراً فوضع حافتها على لسانه كأنه يمتص منها مابقي عليها من اثار ذلك الفم المحبوب
ثم أخذ الشال الحريري وهو الذي اشتراه لها من صديقه الموسيو ليون فكانت تلبسه
دائماً على كتفيها وقد كانت مرتدية به تلك الليلة الاخيرة الهائلة . فنظر اليه ورأى
عليه آثار الدم وعلم انها جاهدت كثيراً قبل ان تمكن عبدا خسرو باشا من القاء
القبض عليها وأدرك ان الدماء نضحت من كتفها من وخزة خنجر قطعت قماش الشال
المذكور . علم ان تلك النقط السوداء هي دم جوهرة وقد سفكته من اجله فقبل تلك
الآثار ثم أخذ هذه التذكارات المحزنة وجعل ينظر اليها وقد سارت به افكاره الى
حيث لا يعلم أحد . بل عاد في تخيلاته الى زمن الصبا والى وحدته على تلك الصخور
فتذكر ماضيه وتذكر صديقه عثمان وكان اولاده قد اخبروه بوفاته فقال — هنيئاً
لعثمان بموته فقد استراح من آلامه نعم وانا ايضاً قد تألمت كثيراً ومع ذلك فقد
ذقت شيئاً من السعادة والسرور بل انتظر المزيد من ذلك في المستقبل الذي يبسم
لي . فالوداع ياماضي ودعني استعد للمستقبل تشدد يا محمد علي وكن رجلاً فقد انتهى
الماضي . وانت يا جوهرة قد ارسلت لي اليوم تحيتك الاخيرة مع اولادي فالوداع ايتها
الحبيبة الوداع للمرة الاخيرة لانني سأصير منذ الآن ملكاً لحاضري ومستقبل حياتي

وتمالك محمد علي نفسه فمسح دموعه ودخل الى الغرفة الثانية حيث كانت زوجته عائدة واولاده فتبسم وقال — تعالوا يا بنيّ اريكم عاصمة بلادي القاهرة اجمل مدن العالم · تعالوا

فأخذ بايدي بنيه ناسياً تلك الزوجة المسكينة وهي تنظر اليه بحنو وقد ترقرقت دمعتان محرقتان على خديها عند ما خرجوا وغابوا عن نظرها · وسار محمد علي باولاده بين تلك الغرف التي كانوا يعجبون بترتيبها والبذخ والترف الذي فيها الى ان أوصلهم الى شرفة القصر وتمثلت امام عيونهم مدينة القاهرة المتسمة يخترقها النيل متعرجاً كانه بحر من الفضة النقية والى جانبه الآخر صحراء ذهبية في منتهاها اهرام الجيزة العظيمة فصاح الاولاد بصوت واحد قائلين — آه ما اجمل هذا المنظر وما أعظمه يا أبتاه

فقال محمد علي نعم ان مصر جميلة وعظيمة يا بنيّ وكل ما تراه عيونكم الان فهو ملكي وتحت تصرفي وحكمي وعسى ان تكونوا حكامه بعدي وتصبح اسرتي عظيمة ومجيدة تتوارث ذلك بعدي · ثم واقسم بالله ان لا اتخلى عن عرشي هذا كما تخلى عنه سلفائي ولا اتنازل عن هذه الاكمة المبنية عليها قلعة القاهرة المنيعة · اقسم ان اجعلنّ اسرتي تحكم مصر الى آخر الزمان فيخلد التاريخ ذكري قائلاً ان محمد علي هو أول امير حكم مصر وسلم ولايتها لاولاده ونسلهم من بعده فعدوني يا اولادي انكم تعدلون وتتبعون مثالي متى صرتم حكاماً

فقال الاولاد — اننا نقسم لك ونعدك بذلك يا ابتاه

فنظر محمد علي الى أولاده بسرور ثم رفع نظره الى السماء وقال — رباه قد سمعت هذا القسم رباه قويتني من فضلك العظيم لاوطد سعادة أسرتي · رباه قوي بنيّ على القيام بوعدهم وكن انت لي ولهم مرشداً ومعيناً بجاه نبيك الكريم وهبني ان لا اكون صنيعة ملك او سلطان بل ان ابقى حراً مستقلاً ويستقل اولادي بعدي فشدد اللهم يميني والهمني الحكمة يا ارحم الراحمين

« تمت »


Bibliotheca Alexandrina
0381292